مقالات كبار العلماء
في
الصحف السعودية القديمة

١٣٤٣هـ - ١٣٨٣هـ

المجموعة الأولى
الجزء الثالث

جمع وترتيب

أحمد بن عبد العزيز الجماز   عبد العزيز بن صالح الطويل

دار أطلس الخضراء
للنشر والتوزيع



ح دار أطلس الخضراء ، ١٤٣٠ هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الطويل ، عبد العزيز صالح

مقالات كبار العلماء في الصحف السعودية القديمة. / عبد العزيز صالح الطويل ؛ أحمد عبدالعزيز الجماز.ـ الرياض ، ١٤٣٠ هـ

... ص ؛ ... سم

ردمك : ٦ -٨ - ٩٠٠٤٤ - ٦٠٣-٩٧٨

١ - الإسلام ـ مقالات ومحاضرات أ ـ الجماز ، أحمد عبد العزيز (مؤلف مشارك) ب ـ العنوان

ديوي ٢١٠,٨ ١٤٣٠ / ٦٩٥٣

رقم الإيداع : ٦٩٥٣ / ١٤٣٠

ردمك : ٦ -٨ - ٩٠٠٤٤ - ٦٠٣-٩٧٨

الطبعة الأولى

١٤٣١ هـ - ٢٠١٠ م



المملكة العربية السعودية -الرياض ص . ب٢٩٠١٦٢ الرمز البريدي١١٣٦٢

هاتف ٤٢٦٦٩٦٣ — ٤٢٦٦١٠٤ فاكس ٤٢٥٧٩٠٦

الموقع الالكتروني : www.dar-atlas.com

البريد الالكتروني : info@dar-atlas.com

مقالات كبار العلماء

في

الصحف السعودية القديمة

١٣٤٣هـ - ١٣٨٣هـ

المجموعة الأولى

الجزء الثالث

جمع وترتيب

أحمد بن عبد العزيز الجماز
عبد العزيز بن صالح الطويل

دار أطلس الخضراء
للنشر والتوزيع



ح دار أطلس الخضراء ، ١٤٣٠ هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الطويل ، عبد العزيز صالح

مقالات كبار العلماء في الصحف السعودية القديمة. / عبد العزيز صالح الطويل ؛ أحمد عبدالعزيز الجماز.ـ الرياض ، ١٤٣٠ هـ

... ص ؛ ... سم

ردمك : ٦-٨-٩٠٠٤٤-٦٠٣-٩٧٨

١ - الإسلام ـ مقالات ومحاضرات أ ـ الجماز ، أحمد عبد العزيز (مؤلف مشارك) ب ـ العنوان

ديوي ٢١٠,٨ ١٤٣٠ / ٦٩٥٣

رقم الإيداع : ١٤٣٠ / ٦٩٥٣

ردمك : ٦-٨-٩٠٠٤٤-٦٠٣-٩٧٨

الطبعة الأولى

١٤٣١هـ - ٢٠١٠م



المملكة العربية السعودية -الرياض ص . ب٢٩٠١٦٢ الرمز البريدي١١٣٦٢

هاتف ٤٢٦٦٩٦٣ — ٤٢٦٦١٠٤ فاكس ٤٢٥٧٩٠٦

الموقع الالكتروني : www.dar-atlas.com

البريد الالكتروني : info@dar-atlas.com

الشيخ

محب الدين الخطيب رحمه الله



مقالات الشيخ محب الدين الخطيب[1]

(١) هو محب الدين بن أبي الفتح محمد بن عبدالقادر بن صالح الخطيب ، أصل أسرته من بغداد . هاجرت أسرته إلى (حماة) في بلاد الشام ،.
ولد في دمشق في الشهر السابع من (سنة ١٣٠٣هـ) نشأ وتعلم بها ، ولازم العلماء ، خصوصا الشيخ طاهر الجزائري الذي احتواه ، وعطف عليه ، ووجهه نحو العلم لينهل منه ، وسعى شيخه الجزائري ليكون محب الدين أمينا لدار الكتب الظاهريّة فاستفاد من ذلك ، وقد كان ينتقي له مخطوطات من تأليف شيخ الإسلام ابن تيمية وأضرابه فيكلّفه بنسخها . كما أنه أوصاه بالأخذ عن علماء الشام في ذلك الوقت ومنهم الشيخ أحمد النويلاتي ، والشيخ جمال الدين القاسمي ، والشيخ محمد علي مسلم ، حتى تحصل على علم غزير وانتفع بمطالعاته المتواصلة.
بعد أن أنهى الخطيب دراسته الثانويّة ، انتقل إلى « الأستانة » ، والتحق بكليتي الآداب والحقوق . شارك وهو في الأستانة في تأسيس « جمعية النهضة العربيّة » بدمشق ، غادر (الأستانة) بعد الانتهاء من السنة الثالثة إلى دمشق . ثم اختير للعمل في اليمن وانتقل إليها ، وبعد فترة وجيزة قضاها في اليمن رجع إلى القاهرة وهناك شارك في جريدة « المؤيد » . وفي سنة (١٩١٣م) أسس الشيخ محمد رشيد رضا مدرسة الدعوة والإرشاد فدرس فيها الشيخ محب الدين .
وعندما قامت الحرب العالمية الأولى طلبه الشريف الحسين بن علي فسافر إلى مكة فأسس المطبعة الأميريّة ، وأصدر جريدة « القبلة » الناطقة باسم حكومة الحجاز ، وكان الشريف حسين يستشيره في كثير من الأمور الخارجيّة . ثم رجع مرة أخرى لمصر واستقرّ في القاهرة حيث عمل في تحرير جريدة « الأهرام » خمس سنوات ، وهناك أسس المكتبة السلفيّة ومطبعتها ، حيث قام بطباعة الكتب السلفيّة ، ونشر كثيرًا منها ، وأصدر « مجلة الزهراء » ، وهي مجلة أدبيّة اجتماعيّة دامت خمس سنين ، ثمّ أسس جريدة « الفتح » ، ثمّ تولّى تحرير مجلة « الأزهر » ست سنوات ، ثمّ ساهم في إنشاء جمعية الشبان المسلمين في القاهرة .
بذل جهودا مباركة في نشر عقيدة السلف الصالح متمثلة في نشر كتب شيخ الإسلام ابن تيمية . ودفاعه عن الصحابة ورد الشبهات عنهم ونحو ذلك . وقد ساهم في محاربة التنصير وبيان مخازيه فقد نشر في مجلة « المؤيد » كثيرًا من أعمالهم محذرا وفاضحا لمخططاتهم ضد المسلمين . وهو من أوائل العلماء الذين تنبّهوا لأخطار الصهيونيّة ، وحذروا منها ، وكشفوا الغطاء عن حقائقها وأسرارها . ومن أبرز من أظهر دسائس الرافضة ، ودعاة التقريب معهم . صنف كتابه :« الخطوط العريضة لدين الإثنى عشرية » وبين فيه كذبهم على اللّه وعلى رسوله =

مع الكاتب الإسلامي الكبير

السيد محب الدين الخطيب بالقاهرة

« حديث أعده الأستاذ محمد إبراهيم السويلم » [(١)]

واقع العالم الإسلامي اليوم

س : ما رأيكم في واقع « العالم الإسلامي » اليوم؟ وما هي الطريقة التي يستطيع بموجبها أن ينهض نهضة مستمدة من روح الإسلام؟

ج : الإسلام الذي يشترك المسلمون في الانتماء إليه ، ويتكون منهم باسمه واقع « العالم الإسلامي » ، يمتاز بأنه جامع لشعب الحق والخير التي قام حامل أكمل رسالات الله بتوجيه أمته إليها ، والأخذ بأيدي أصحابه نحوها خطوة خطوة ، قبل الهجرة وبعدها في ثلاث وعشرين سنة ، فكان رأسها الأعلى وسنامها الأعظم صحة الإيمان بالله سبحانه وتعالى ، وإخلاص الطاعة والعبادة له ، والتعامل بالأخلاق القويمة ، حتى كانوا بها أمة صدق ووفاء وأمانة ، وتعاون على الحق المحض المشترك ، وتوثيق الكيان الإسلامي بأسباب القوة من جميع أنواعها ، ما كان منها وما سيكون .

وواقع العالم الإسلامي -الذي كنت من شهوده- في هذا القرن الرابع عشر الهجري أي منذ استعجمت دولة الإسلام ، مرتكسًا في سلسلة طويلة من أمراض

= وعلى كتابه وعلى آل البيت الطاهرين .

من آثاره العلمية « توضيح الجامع الصحيح للإمام البخاري » ، « مع الرعيل الأول » ، « الجيل المثالي » ، « من الإسلام إلى الإيمان ».

توفي سنة ١٣٨٩هـ بعد ثلاث وثمانين سنة قضاها في البحث ، والتحرير ، والتأليف ، والدفاع عن الإسلام . انظر ترجمته في « الأعلام » للزركلي (٥/٢٨٢) .

(١) مجلة المنهل - ذو الحجة - ١٣٨٣هـ.

الضعف من جميع النواحي التي أراد لها الإسلام تمام الصحة وجماع القوة

فالإيمان بأصول الدين أراد له الدجالون والمرتزقة من الطرقيين والقبوريين أن يكون شيئًا آخر غير الذي أراده هادينا الأعظم لأمته

والجيل المثالي الذي رباه محمد صلوات اللّٰه وسلامه عليه حتى كان أكمل جيل عرفته الإنسانية ، تعمد أعداء الإسلام من المنتسبين إليه أن يشوهوا حسناته العظمى ، ويدسوا فيها ما يشعر بأنها كانت سيئات ولم تكن حسنات ، فحرموا الأجيال المتعاقبة من شعوب الإسلام نعمة الاقتداء بأئمة الهدى والسير وراء القافلة الأولى ، ففسد على المسلمين وعلى الإنسانية أكمل تاريخ يستضاء بمصابيحه

وحتى العبادات تحولت إلى عادات ، فصارت الصلاة منها قلما تنهى عن الفحشاء والمنكر ، بل كثيرًا ما يقف المصلي في محرابه أو بين صفوف المصلين وهو مشغول الفكر في نصب مكيدة لأخيه المسلم بغير حق ولا هدى ولا كتاب مبين .

والصيام قلما خلص من قول الزور أو العمل به ، وقلما ربى فى الصائم فضيلة الصبر والإمساك عن الأذى والمطامع والبغي .

والحج صار من أندر النوادر أن يجدد لصاحبه حياة بعده نظيفة من كل ما كان ملوثًا به قبل الحج من المآثم ، والأساليب الملتوية

والتواسي بين الطبقات بالزكاة والصدقات إما معدوم بالمرة ، أو موضوع في غير مواضعه .

وعلة ذلك أن المسلمين فرقوا بين الإيمان والأخلاق حتى كأن الأخلاق في نظرهم ليست من شعب الإيمان ، مع أنها من صميم رسالة الإسلام ، بل هي روح الإسلام ، وبها كان المسلمون الأولون أمة صدق وإنصاف وتعاون ومواساة .

إنهم بفصلهم بين الإيمان والأخلاق تحولوا من جماعة متعاونة على الخير متكاملة إلى أفراد متنافسين على الدنيا ، وانصرفوا عن القوة الجماعية إلى الأنانية الفردية ، فكان بأسهم بينهم أفرادًا وشعوبًا .

لا طريق إلى نهوض المسلمين نهضة صحيحة مستمدة من روح الإسلام إلا طريق الرجوع إلى الأخلاق الفردية ، والأخلاق الاجتماعية ، وأن يربي كل منا أولاده على الصدق وسجية التعاون ، وأن يؤمن كل مسلم بأن ثروة كل مسلم ثروة له ، وأن قوة الأمة الإسلامية بمجموعها قوة له ، وأن مجموعة العالم الإسلامي أسرة كبرى لكل مسلم يسوؤه ما يسوؤها ويسعده ما يسعدها ، وأن ما يملكه المسلم من مال يباح له منه - بينه وبين نفسه - ما يكفيه وذويه بالمعروف ، وما زاد على ذلك فهو أمين للَّه عليه ينميه ويزيده بالأساليب التي يرضاها اللَّه ويثيبه عليها في الدنيا والآخرة .

إن هذه المعاني كلها داخلة في باب شعب الإيمان الإسلامي ، وقد انحط المسلمون وهزلوا منذ فصلوا هذه المعاني عن المعنى العام لشعب الإيمان الإسلامي ، ومنذ ظنوا - وفي الظن الإثم والخزي - أن عبادة اللَّه شيء محرر عن معاني الفضائل الإنسانية الفردية والجماعية ، فتحولوا من أمة نافعة قيمة غنية عزيزة متضامنة متعاونة تتخذ من الصلاة طريقًا إلى الفلاح إلى أفراد من قطيع متقاطع ينهش بعضه بعضًا كالذئاب التي لا تؤمن بمعاني الإنسانية ولا تعني بفضائلها ، مع أن الإسلام أكمل أشكال النظم الإنسانية ، وأجمع الهدايات لفضائلها .

علة المسلمين أنهم لا يعرفون ما هم ؟ ومن هم ؟ وأين هم من غيرهم ؟ وقد كان أشمل نداء نودي به المسلمون في صدر تاريخهم هو النداء العلوي الذي قيل لهم فيه :

« أيها المسلمون ، إن لكم معالم ، فانتهوا إلى معالمكم »[١] .

والمسلم – ولا سيما في هذا الزمان – معرض للانغماس في مختلف لجج البر والبحر والجو ، وفي مختلف تيارات الرأي والفكر والهوى ، وفي مختلف دعاوى المذاهب والعقائد والنزعات

فإذا لم يعرف المسلم معالمه التي ينبغي له أن يرجع إليها بصفته مسلمًا وهي شعب إيمانه ، كما ينبغي له أن يفهمها فهمًا عصريًّا سليمًا ، تقاذفته حينئذ لجج البر والبحر والجو ، وتلاطم تيارات الرأي والفكر والهوى ، وصار عرضة لسخرية المذاهب والعقائد والنزعات ، وكان مصيره إلى أن لا يعرف ما هو ؟ ومن هو ؟ وأين هو ؟ وكان مثله كمثل السفينة الضاربة في لجى[٢] على غير هدى ومن غير اتجاه سديد .

إن رأس الحكمة في نهضة المسلمين أن يرسم لهم حكماؤهم مخططًا واسعًا تتعين به معالم إسلامهم على ضوء شعب الإيمان الإسلامي ، وبهدى من السيرة الصحيحة غير المشوهة لأئمة الإسلام الأولين من الصحابة والتابعين لهم بإحسان ، وهم الذين دخلت بدعوتهم وبالاقتداء بهم شعوب الإنسانية في هدى الإسلام ، وتكون بجهادهم وجهودهم هذا العالم الإسلامي ، ونهجت[٣] لهم قوافله الأولى في نصف القرن الأخير طريق المستقبل إلى الهدف الأعظم .

والتاريخ ينتظر من حكماء المسلمين في هذا العصر الساعة التي يشرعون فيها برسم هذا المخطط للعالم ، قبل أن يجرف التيار أطفالنا اليوم ورجال المستقبل فيكونوا ضد ما كان ينبغي لهم أن يكونوا عليه .

---

(١) ذكره القرطبي في تفسيره (١٨/١٠٣).

(٢) لجة البحر : حيث لا ترى أرض ولا جبل . ولججت السفينة تلجيجا خاضت اللجة . « العين » :(لج) ، « مختار الصحاح » : (ل ج ج).

(٣) نهج الأمر وأنهج ، لغتان : إذا وضح . ومنهج الطريق : وضحه . والمنهاج : الطريق الواضح . « تهذيب اللغة » : (نهج).

أحداث العالم الإسلامي اليوم

س : بصفتكم عاصرتم أحداث العالم الإسلامي أكثر من نصف قرن ، واشتركتم في أكثرها ماديًّا ومعنويًّا ، فما هو أهم حادث وقع لكم وأثر في نفسكم ؟ .

ج : أحداث العالم الإسلامي التي وقعت في نصف القرن الأخير أكثر وأهم من الأحداث التي وقعت في مثل هذه المدة من أنصاف القرون المتعددة قبله .

* لقد تقلص فيه الحكم التركي عن البلاد العربية من لحج[1] إلى شمال الشام .

* لقد زال فيه نظام الانتداب الفرنسي من سورية ، ونظام الانتداب البريطاني من العراق .

* لقد قامت فيه دولتان إسلاميتان كبيرتان في باكستان وأندونيسيا .

* لقد انشمرت فيه إيطاليا من ليبيا وما يليها ، بعد أن كان البهلوان « موسوليني » يمثل عليها مسرحية بعث الدولة الرومانية .

* لقد جلت فيه بريطانيا عن قاعدة القناة في السويس ، وعن سائر مصر والسودان ، وأممت فيه القناة .

* لقد تحررت فيه المغرب من نظام الحماية الفرنسية بعد أن كان يطمع في إقامة شريعة للبربر غير شريعة الإسلام .

* لقد بدأت فيه الجزائر تتعرب ، بعد أن كانت فرنسا تعتبر أرضها أرضًا فرنسية كالأرض الفرنسية في أوربا .

---

(١) لَحْج : بفتح أوله ، وإسكان ثانيه ، بعده جيم : موضع من سيف عدن ، قبل نجران . معجم ما استعجم ٤/ ١١٥٢. وانظر معجم البلدان ٥/ ١٤.

لقد حدثت في العالم الإسلامي - في نصف القرن الأخير - أحداث كثيرة جدًّا، وكنتُ أنا نملة صغيرة تسعى في كثير من آفاق هذه الأحداث وفي أوكارها، وكل حادث منها كان عند حدوثه عظيم الأثر في نفسي، لكنني كنت في كل ذلك - من أوله إلى آخره - أراقب سنة اللّٰه في إدالة الدول وتطويرها، فيتبين لي من تسلسل حكمته السامية في ذلك أن لهذه السنة الإلهية مظهرين اثنين؛

المظهر الأول: أن يعود الحق إلى أهله بقوتهم إذا تأهلوا له، وهذا هو المظهر الأقوى والأبقى، والجدير بالثناء والتقدير.

والمظهر الثاني: أن يعود لأهل الحق حقهم، لا بقوتهم بل بضعف أعدائه وأعدائهم، ثم يكون أهل الحق هؤلاء في امتحان من اللّٰه، فإما أن يمضوا في ضعفهم الخلقي والملي والاقتصادي والحربي، فيسلبهم اللّٰه ما أنعم به عليهم عند أولى فرصة تلوح لأعدائهم بزوال ذلك الضعف الطارئ على أولئك الأعداء. وإما أن يستدركوا ما فاتهم في زمن الضعف، فيخلعوا عن كيانهم رداء الخمول والانحطاط والجمود، ويؤهلوا كيانهم للنعمة التي أتاحها اللّٰه لهم، فيصيروا أقوياء بإيمانهم وإمكاناتهم، فيحبهم اللّٰه كعادته سبحانه في محبة الأقوياء من المؤمنين.

إن هذه الأحداث الكثيرة والعظيمة التي كنت من شهودها في نصف القرن الأخير، كانت نعمة لنا من نعم اللّٰه - ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ﴾ [إبراهيم: الآية ٣٤]. غير أننا حصلنا عليها قبل أن نستعد لها، بل حصلنا عليها قبل أن تستجيب شعوبنا لدعوة من يدعوهم من خاصتهم للأخذ بأسباب القوة الملية والقومية والخلقية، والأنظمة المالية والصناعية والحربية للتأهل لها.

فكان ما حصلنا عليه بضعف أعدائنا في الحربين العالميتين الأخيرتين، لا

بقوة سعينا للحصول عليها قبل ذلك ، وفيما بين ذلك ، وبعد ذلك ، بل نحن في موقفنا من الدعوة الصادقة المخلصة لهذا الاستعداد مشتتون أوزاعًا :

يرى بعضنا أن الاستعداد للقوة إنما يكون بتقليد أعدائنا الذي أضعفتهم قوتهم ، وأرهقتهم أساليبهم في الاستعداد ، حتى لقد قال لنا كبيرهم في كتاب له يعتز به :

« إن السبيل إلى ذلك واحدة فذة ليس لها تعدد ، وهي أن نسير سيرة الأوربيين ونسلك طريقهم لنكون لهم أندادًا ، أو لنكون لهم شركاء في الحضارة ، خيرها وشرها ، حلوها ومرها ، وما يحب منها وما يكره ، وما يحمد منها وما يعاب ».

هكذا قال بالنص في كتابه : « مستقبل الثقافة في مصر » ص ٤١ . طبعة دار المعارف بمصر ١٩٤٤م .

وعلى الطرف الآخر المناقض لدعاة التفرنج هؤلاء نرى في العالم الإسلامي دعاة آخرين يرون التمسك بما كنا عليه في العصور العثمانية من جمود ، ويكابرون في الحقائق الكونية المحسوسة على غير ضرورة لذلك من صريح النصوص الشرعية أو الضرورات المتحتمة .

وصنف ثالث يرى الاندفاع في تيار المادة ، والانغماس بملاهي الحياة ولا يقيم وزنًا لقيود الأخلاق ، والأخذ بالفضائل .

وإنما تجاذبتنا هذه الأهواء ، وتخاذلنا عن إقامة كياننا الأصيل على أساس الفضائل الخلقية مدعمة بالعلوم الكونية ، والصناعات الحديثة ، وأسباب القوة في أكمل ما وصلت إليه لأننا لا نزال في غفلة عن معرفة أعدائنا من أوليائنا ، وعن التمييز بين ما ينبغي لنا أن نأخذ به ، وما ينبغي لنا أن نجتنبه ، ويوم تعرف أمتنا نفسها ، وتحرص على التمسك بأسباب قوتها ، والارتفاع بمستواها المادي

والخلقي ، فإنها ستبادر إلى تصحيح تاريخها الممتاز ، ووصل ما انقطع من رسالته التي كانت من معجزات الدهر في صدر الإسلام ، فتتعين طريقها إلى الهدف الأقصى في المستقبل ، مجتمعة كلها على ذلك ، ومتعاونة فيه بالحسنى من أندونسيا إلى أقصى المغرب ، وتستعد له أفرادًا وجماعات بأسباب القومية والخلقية ، وبالأنظمة المالية والصناعية والحربية ، ويوم يتم هذا الحادث المنتظر ، إن شاء اللَّه ، سأعتبره - وأنا تحت أطباق الثرى - أهم حادث وقع للكيان الذي أنا منه ، فأستأنف حياة معنوية مستمدة من حياة أمتي الجديدة إلى أن نلقى اللَّه جميعًا في سعادة الخلود .

الطرق التعليمية ببلاد العرب والإسلام[1]

س : هل لكم رأي في الطرق التعليمية التي تتخذها وزارات المعارف بالبلاد العربية والعالم الإسلامي لتربية النشء الإسلامي ؟ ؟

ج : لما كنت أتولى تحرير مجلة « الأزهر » في السنوات الست الأولى لقيام النظام الجمهوري في مصر ، سنحت لي فرص متعددة تعرضت فيها لهذا الموضوع العظيم الذي كان ينبغي لحكماء هذه الأمة في جميع أنحاء العالم الإسلامي أن يدرسوه دراسة واسعة ودقيقة ، وأن ينتهوا فيه إلى نتائج قطعية وحاسمة ، ولكن الذي يقف في طريقهم الآن عقبتان :

الأولى : أن الأسس التي تقوم عليها أنظمة وزارات المعارف في جميع أوطاننا كانت مرسومة لها من أيام الاحتلالات الأجنبية .

الثانية : أن الأيدي التي تسلمت هذه الأنظمة بعد ذلك هي تعلمت بها ولا تكاد تعرف غيرها .

وقد حدث بلا ريب كثير من التعديل والإصلاح في السنين الأخيرة ، لكنه في

---

(١) تتمة المقال في مجلة المنهل - ذو الحجة ١٣٨٣ هـ .

الغالب يتناول الأشكال أكثر مما يتناول الحقائق ، وهو في العرض لا في الجوهر ، ومحاولة تغلغله إلى الحقائق والجوهر في منتهى الصعوبة ؛ لأن الأسس مرسومة بعناية وإتقان للحالة الحاضرة .

هذا الموضوع لا يستوفي القلم بمقال في مجلة ، أو بإجابة في حديث ، فأكتفي هنا بعرض بعض الحقائق التي تحتاج إلى شباب يؤمن بها ، ويطيل التفكير فيها ، ويجعل في أمانيه الكبرى الدعوة ليحققها .

بين التربية والتعليم

فأول ذلك أن التربية شيء والتعليم شيء آخر . والتربية أقسام ؛ منها تربية العقل للإيمان بالحقائق . ومنها تربية النفس عمليًا لتهذيب النشء بمبادئ تليق بالجيل المسلم حامل أرفع المواريث في رسالة إنسانية واسعة الأغراض بعيدة الأهداف . ومنها التربية الدينية التي تشمل التمرس بشعب الإيمان الإسلامي واعتياد العبادات المفروضة والتأدب بالآداب السليمة ، ثم التربية البدنية التي تعين على تكوين الشاب المسلم القوي الذي يهتف في نشيد :

إنما الإسلام في الصحرا امتهد ليجئ كل مسلم أسد

ووزارات معارفنا لا أعلم أنها تعنى من أنواع التربية إلا بالتربية البدنية ! وبطريقة إفرنجية ، وألمع القائمين بها والمشرفين عليها هم الذين يذهبون إلى أوربا وأمريكا ليتعلموها . وقد عاد أحدهم من هناك فأخبرني بأنه لقي قسيسًا أثنى له على الإسلام لأن فيه أسماء اللّه سبحانه التي تبلغ تسعًا وتسعين اسمًا ذات معان سامية ، وذكر لي عددها باللغة الإنكليزية كما سمعها من القسيس . فقلت له : يا أخي إنها أسماء اللّه الحسنى وأهديت له « المقصد الأسني في شرح أسماء اللّه الحسنى » لأبي حامد الغزالي ، وأرشدته إلى نظمها في نونية ابن القيم . فتعجب

وقال : إنهم في مدارسنا لم يكونوا يذكرون لنا شيئًا من ذلك حتى سمعته من هذا القسيس .

ومن العجيب أن مدارس الفرير والجزويت وسائر الكاثوليك ، وكذلك مدارس البروتستانت من إنكليزية وألمانية وأمريكية ومدارس الأرثوذوكس ، ومدارس الأليانس الإسرائيلي ، كل هذه المدارس وغيرها من مدارس الملل تعنى بالتربية على طريقتها بأكثر مما تعنى بالتعليم . وأما نحن فلا معنى للتربية إلا التربية البدنية بأسلوب أجنبي ممسوخ ، ومع ذلك فإننا نسمع الكثيرين منهم يشكون من التقصير فيه .

التعليم والعلم العالمي

أما التعليم فمن أكبر أخطائنا أننا لا نميز فيه بين العلم العالمي والثقافة القومية والملية .

وقد نبهت كثيرًا في مجلة « الأزهر » على أن هنالك علمًا عالميًّا اشترك في تكوينه من ألوف السنين علماء من مختلف الأمم ، وهو العلم الرياضي والعلم الطبيعي ، وكان لأسلافنا نصيب كبير فيه ، بل إن اسم « علم الجبر » اسم عربي محض لا تعرفه الأمم كلها إلا بهذا الاسم العربي ؛ لأنه كان في زمان حضارتنا الإسلامية علمًا عربيًّا ، وكذلك الطب والكيمياء ، وفلك السماء ، وغير ذلك من العلوم التي كنا أهلها ، ثم شارك فيها غيرنا ، وتقدموا بها حتى وصلوا إلى تحطيم الذرة والطيران في الأجواء ، بتعاون الأمم المشتغلة بمعارف الكون ، فكانت هذه العلوم عالمية نستطيع أن نساهم في تقدمها إذا وضعنا أيدينا في أيدي العاملين بها ، ودخلنا إليها من أبوابها ، واستعملنا مواهبنا الممتازة بطلب العلم للعلم ، لا لأجل أكل العيش وحسب .

هذا هو العلم العالمي ، مما نتعلمه في مدارسنا بمقياس ضيق وبطرق مستقيمة أو ملتوية .

... والثقافة

وهنالك قسم آخر مما نتعلم[١] في مدارسنا وهو « الثقافة » وغير ذلك .

العلم العالمي مشترك بين الأمم ، وأما الثقافة فلكل أمة ثقافتها . فهنالك : الثقافة اللاتينية ، والثقافة السكسونية ، والثقافة العربية الإسلامية . بل إن الإنكليز والأمريكيين - وهما أبناء لغة واحدة - تعتبر كل واحدة منهما أن ثقافة الآخر تفترق - إلى حد قريب أو بعيد - عن ثقافة الآخر .

ومنه يتبين لك أن من الغش دعوى مؤلف « مستقبل الثقافة في مصر » أن المسلم العربي ينبغي له أن يأخذ من الغرب كل ما عنده من علوم وثقافة وحضارة ، خيرها وشرها ، حلوها ومرها ، وما يحب منها وما يكره ، وما يحمد منها وما يعاب » . لا ولا كرامة إن هناك ما يجوز أن نأخذه ، وإن هناك ما يجب أن ندعه . إن من الأشياء أشياء يجب أن نأخذها عن غيرنا لأنها من أسباب القوة ، وإن من الأشياء أشياء لا يجوز أن نأخذها إلا من صميم كياننا ومن خالص تراثنا وصريح سننا .

لما انتهت الحرب العالمية الثانية كان الإنكليز قد ملوا قيادة حزب المحافظين ، وتعاون تشرشل مع حزب العمال ؛ إرضاء للرأي العام البريطاني ، وطمع حزب العمال إذا تجددت الانتخابات أن يكسبوا الأغلبية ، وأن تحرر المملكة من سيطرة تشرشل بعد الانتهاء من حاجتها إليه ، فطالب (أتلي) وزملاؤه من حزب العمال المستر تشرشل بأن يجري انتخابات جديدة ، فجعل تشرشل يماطل ، ثم اقترح أن يعمل استفتاء بدلًا من الانتخابات . أتدري بماذا أجابه (أتلي) في كتاب ملون اشتهر عند جميع المهتمين بهذه الأمور ؟ . لقد أجابه

---

(١) في الأصل « نتعلق » .

بقوله : « إن الاستفتاء سنة غير بريطانية » ، يعني أنها طريقة أمريكية لم يسبق للإنكليز الالتجاء إليها ، فأفحم تشرشل ولم يكابر في هذه الحجة .

إذا كان حزب العمال البريطاني – المفروض أنه ليس محافظًا كالمحافظين – يحرص على السنن البريطانية ، وينوه بها ، ويعمل على حمايتها ، فكم من رجالات وزارات المعارف في العالم الإسلامي والعربي يعلمون أن للمسلمين والعرب سننًا أصيلة جديرة بالاحترام والاتباع ؟ وكم منهم من يحرص على تثقيف النشء الإسلامي والعربي بهذه السنن ، وتربيتهم على احترامها والمحافظة عليها ، والتصدي لحمايتها ؟

المعضلة الكبرى هي أن مدارسنا لا تعلمنا ما نحن ، ومن نحن ، وأين نحن من غيرنا ؟

وليس في مدارسنا إلا النادر ممن يعلم أن التربية غير التعليم ، وأن العلم العالمي المشترك بين الأمم في تكوينه وفي الأخذ به ، غير الثقافة القومية والملية التي تمتاز كل أمة بنصيبها منها ، والتي يعد تجاهلها هزيمة ، وفرضها من أمة على أمة استعمارًا عقليًا واحتلالًا روحيًا ..

الانحلال الخلقي

س : حيث بقيتم طيلة السنين الماضية تحاربون الانحلال والانحطاط الخلقي ، وكان لما قمتم به مع غيركم من جهاد كبير بهذا الشأن الأثر القوي في تصحيح بعض الأوضاع فما هي نصيحتكم للكاتب المسلم الناشئ بهذا الخصوص ؟

ج : الناشئ المسلم الممتاز – ولا سيما إذا تهيأت له الأسباب ليكون كاتبًا أو شاعرًا أو مدرسًا – ينبغي له أن يؤمن برسالة سامية في الحياة ، يتحرى الأنس بها والاطمئنان لصحتها ، وحاجة أمته إلى تحقيقها ، ثم يزداد إيمانًا بها مع توغله في

المعرفة واتساعه في الخبرة والتفكير وزيادة اتصاله بالناس .

ورسالة المسلم الممتاز هي معيار قيمته في حياته وبعد موته ، فكلما كانت هذه الرسالة أسمى وأنفع كان هو أعلى مكانة ، وأعظم قدرًا ..

والناشئ الذي لا رسالة له في الحياة رجل تافه لا قيمة لحياته ولا أثر له يتركه من بعده .

وأول ما يحتاج إليه في تكوين رسالته أن يعرف معدن قوميته ، وسنن ملته ، وما تحتاج إليه أمته من خير ، فيجعل ذلك من عناصر رسالته ، وأن يعلم أنها امتداد للرسالة العظمى التي بعث بها كل رسل اللَّه ، والتي حملها من بعده إلى الإنسانية أصحابه الكملة ، والتابعون لهم بإحسان ، فيدأب على رد القطيع الإسلامي الشارد إلى القافلة التي تمضي بها إلى أدوار التاريخ نحو الهدف ، وكلما غفل الغافلون عن الهدف الأول الذي سارت القافلة نحوه من عهد العمرين جعل من رسالته تنبيه الغافلين لهدفهم الأصيل .

هذه الرسالة هي الإبرة المغناطيسية لكل سفينة إسلامية تجري في بحر الحياة ، وهي كوكب الهدى لكل قافلة عربية تسري في ظلمات الفيافي تحت أجنحة الليالي .

وكلما كثر حملة هذه الرسالة الموحدة كان ذلك ضمانًا لأمن الطريق بين أوله في زمن العمرين ، وبين هدفه الأقصى الذي تتم عنده السعادة بمرضاة اللَّه ، والفلاح الذي يؤذن به المؤذن من كل مسجد للإسلام في بقاع الأرض .

خير كتاب قرأه

س : ما هو خير كتاب قرأتموه وكان له تغيير في حياتكم ؟

ج : لما توفي والدي في سنة ١٣١٥هـ - وكان أمين دار الكتب الظاهرية - ساقت لي العناية الإلهية رجلًا عظيمًا من رجالات الإسلام - وهو الشيخ طاهر

الجزائري – وكان مفتشًا لدور الكتب العامة – وكان بهذا الاعتبار رئيسًا لوالدي في حياته – فسعى لأن أكون خلفًا له في راتب الأوقاف المخصص لأمانة الكتب ، وصار يرشدني إلى نسخ رسائل نافعة من مؤلفات شيخ الإسلام ابن تيمية وتلاميذه وأضرابهم ، فكانت هذه الرسائل الشعاع الأول من النور الذي عرفت الإسلام به .

وأول ما نفعني من الكتب العصرية في تلك الحقبة كتابان ؛ أحدهما « أم القرى » للسيد عبد الرحمن الكواكبي ، وقد عرفت من مناقشاته أدواء المسلمين وعلاجها ، والنكبة التي وقعت على الإسلام ودولته باستعجامها من أواسط الدولة العباسية ، فأيقظني هذا الكتاب ، مع ما تأثرت به من كتب شيخ الإسلام ابن تيمية ، إلى جوهر الإسلام والعروبة ، وحاجتنا إلى بعثهما ورد الحيوية إليهما ، ثم قرأت كتاب « الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية » للشيخ محمد عبده ، فازددت يقظة وعلمًا بأسباب جمود المسلمين ، وأن هذا الجمود علة تزول بالرجوع إلى ينابيع الإسلام الأولى ، وكنت لشغفي بهذين الكتابين – « أم القرى » ، و« الإسلام والنصرانية » – أحرص على إعادة قراءة كل منهما مع كل من أتوسم به الخير من لداتي وإخواني الذين كونت معهم فيما بعد حلقة صار منها بعد سنوات (جمعية النهضة العربية) .

ومع ذلك فالطالب الذي يشغف بالمطالعة والاطلاع يجني عسل العلم من كل زهرة يقع عليها .

أهم الأحداث التي غيرت مجرى حياته

س : ما هي أهم الأحداث التي انفعلتم بها وغيرت مجرى حياتكم ؟ ؟

ج : أول هذه الأحداث اتصالي بالشيخ طاهر الجزائري وصحبتي له ، وتعرفي بوساطته بكل ذي فضل ومزية في دمشق ، ولما أكملت دراستي الثانوية وذهبت

إلى القسطنطينية للالتحاق بكلية الحقوق، راعني أن جميع شباب العرب متتركون، ويتخاطبون فيما بينهم بالتركية، ويتكاتبون بها، ويتأدبون بآدابها، وكان لذلك مغزى ومصير أدركته في وقت مبكر، فكان من رسالتي الأولى بعد فهم رسالة الإسلام والإيمان بوجوب إحيائها كما كانت في البداية، أن أعرف كل عربي مسلم بأنه عربي، وأن الانتساب لعروبته انتساب مشرف، فإن تراث العروبة صنو لتراث الإسلام، وإن كلاًّ منهما مكمل للآخر في هذا العصر والعصور الآتية كما كنا كذلك في العصور السالفة.

إن حكاية هذا الاندفاع طويلة، ولكن هذا كان أولها، وهي التي عينت لي مجرى حياتي، بعد صحبة الشيخ طاهر المتقدمة منذ كنت في الثانية عشرة، وما بعدها من صدر حياتي.

أما الأحداث الأخرى بعد ذلك، فلكل حادث أثره، غير أن طريقي كان قد تجدد وتعين، وكان كل ما أثر به بعد ذلك عونًا على المضي فيه والاستمرار في طلب أهدافه.

كتبه التي لم تطبع

س: هل لديكم كتب من تأليفكم لم يتم طبعها؟ وما هي؟

ج: إن مباشرتي طبع «فتح الباري» أتاحت لي أن أعيش في جوه، فكان ذلك فرصة لأن أكتب تعليقًا على أحاديث «الجامع الصحيح» للإمام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، وقد أتممت منه إلى الآن مجلدين وباشرت الثالث، ولعله يكون في سبعة مجلدات أو ثمانية، يسرت فيه هذه النصوص الإسلامية الأصيلة للجامعيين والطلبة المدنيين، وأضفت إليه تراجم مختصرة للرواة وزعتها في الكتاب، وسيكون لها فهرس أبجدي.

وكنت أعددت مسودات لكتاب «الإيمان الإسلامي» وهو يشمل شعب

الإيمان المنصوصة في الكتاب وصحيح السنة ، وشرحتها شرحًا عموميًّا ينفع المسلم في سيرته وسلوكه وصحة إيمانه والحكمة من عباداته ، وأن الأخلاق بمفرداتها تعد من جواهر شعب الإيمان ، ومسودات الكتاب تحتاج إلى تنظيم وكتابة من جديد ، وهو مبني على أن الإسلام شيئان ؛ حق وخير ، وأن كل ما أمر به وبالإيمان به يتفرع ؛ إما عن شعب الحق أو عن شعب الخير . وبذلك كان الإسلام رسالة الإنسانية العليا التي لا ينبو عنها إنساني مهما كانت نزعاته .

وكنت كتبت في عشرات السنين الماضية فصولًاومقالات فيما يستحق أن يجمع أشباهه إلى نظائره ، فتكون منه كتب متعددة ككتاب « مع الرعيل الأول » ولكن هذا يحتاج إلى وقت وتنظيم .

وإن كثيرين يطالبونني بكتابة مذكرات وذكريات ، وهذه يمكن أن تطول حتى تكون في مجلدات ، ولكن الثمانين - وبلغتها - قد لا تتسع لإصدار هذه الأشياء وكثير غيرها إلا ما يريد اللّٰه منه ، ونحن في حاجة إلى عونه ورحمته وتوفيقه .

❁❁❁

لمحات من الضوء على أعمال المستشرقين[١]

أغراض الاستشراق

بدأ الاستشراق في أوربا بدافع ديني، وما زال يتطور حتى صار له المكان الأول في جهود الاستعمار في القرنين الأخيرين..

وكان الاتصال الأول للأوروبيين بالشرق الإسلامي في الحروب الصليبية، وكان عرب الأندلس المثل الأعلى في العلم والحضارة عند الاسبانيين وفرنسيِّي الجنوب وسائر الأوروبيين، وحتى بعد أن بسط الاسبانيون سلطانهم على جميع بلاد الأندلس، ظلوا ينقشون نقودهم بحروف عربية، ومن هذه النقود نماذج موجودة إلى اليوم في متحف مدريد.

أما الترجمة من كتب العرب، فقد بدأت منذ كان العرب لا يزالون في إسبانيا، ثم أخذ الأوربيون في تأسيس المدارس لنقل العلم العربي.

ومن مدارس أوربا التي كانت تستمد العلم من معارف العرب في القرون الوسطى « مدرسة بادو »، وهي مدرسة إكليركية شرقية، ومن أساتذتها « أغابيتو » الذي تخرج بها عدد من التلاميذ باللغة العربية، وللكردينال « مارباريكو » الفضل في انتشار حركة المشرقيات في هذه المدرسة في القرون الوسطى.

عصر الترجمة

ومن أقدم ما عرفناه من أمر ترجمة الكتب العربية باللغات الأوربية، أن المعز موسى الإيطالي من أهالي « بالرمه » في القرن الثالث عشر الميلادي ترجم من اللغة العربية إلى اللاتينية كتاب أبقراط في « أمراض الخيل ».

---

(١) مجلة « الحج » - ربيع الأول والثاني ١٣٦٨ هـ.

ومن قدماء المشتغلين بعلوم العرب العالم الإيطالي « تبزيو أمير و كيو كونت اليونز » من القرون الوسطى ، ولم أعرف له أثرًا غير كونه من أصحاب العناية ؛ يتتبع أحوال الشرق الإسلامي وعلومه .

والمعلوم من ترجمة حياة « أندري موتكاجون بللون » من علماء القرن الخامس عشر الميلادي أنه لما رأى تراجم كتب ابن سينا المنقولة من العربية إلى اللغات الأوربية والتي كان يستعملها أطباء بلاط فردريك الثاني ليس فيها عناية ، أخذ على عاتقه دراسة العربية في صميم أوطانها ، فذهب إلى دمشق وأقام فيها مدة يدرس ويتعلم ، ثم قام برحلة في سائر بلاد سوريا ومصر وفارس وآسيا الصغرى ، وعاد بعد ذلك إلى كلية ياهو ، ليشرح لتلاميذه فلسفة ابن سينا وعلومه .

ومن هذا القرن الطبيب « جيرو لاموار انوزيو » من أطباء البندقية ، قصد بلاد الشام سنة ١٤٨٣م ليتبحر في فهم كتب ابن سينا ، وليعلق شروحًا على ترجمته لها .

وكانت فاتحة القرن السادس عشر الميلادي بدء تأسيس الطباعة العربية في أوربا ، فقد أنشأ « يوليوس الثاني » في مدينة فانو ، على بحر البلطيق أول مطبعة عربية ، واحتفل ليون العاشر بافتتاحها سنة ١٥١٤م .

ونرى آل دي مدسيس في نابولي كانوا يعملون قبل ذلك على غزو بلاد العرب الإسلامية غزوًا دينيًا مسيحيًا بواسطة الطباعة والنشر ، فظفروا بالمستشرق « ريموندي » المولود سنة ١٥٣٦م ، وهو من أهالي نابولي التي كانت العربية منتشرة فيها أكثر من غيرها ، وكان ريموندي هذا يتقن بضع لغات شرقية ولا سيما العربية ، وهو قدوة الداعين إلى تعلم المشرقيات ، فولاه الكردينال « فرينا نددي مدسيس » إدارة مطبعة مدسيس وفيها نشر « كتاب نحو » و« كتب ابن

سينا » وغيرها ، وكانت مطبوعاته موضع الإعجاب العام بحسن طبعها ووضعها ، وبعد أن قضى نحبه لم تعد أسرة مدسيس تفكر في إعلان حرب الكتب على المسلمين ، بل عمدت إلى إحداث الاضطرابات العملية !

وفي أوائل القرن السابع عشر أسس « سافاوي دي بريف » وكان سفيرًا لملك فرنسا في القسطنطنية مطبعة حجرية شرقية في روما ، وهو الذي حفر أمهات الحروف العربية التي عنها نقلت مطبعة الأمة في باريس أشكالها .

وفي أول القرن السابع عشر أيضًا أسس الكردينال « فردريك بوروميه » مدرسة امبرواز ومكتبتها في مدينة ميلانو ، ومن تلاميذها أنطونيو جيجيو الإيطالي المتوفى في ميلانو سنة ١٦٣٢م وهو مؤلف أقدم معجم صنفه الأوربيون .

وفي فاتحة القرن السابع عشر أيضًا تأسست مكتبة ليدن ، أسسها « فريز » قنصل هولندة في القسطنطينية بعد أن اشترى من ماله - بلا مساعدة - الكتب العربية من تصانيف أكابر الأقدمين ، ووقفها في سبيل النفع العام ، وفي هذه المكتبة خطوط « التبريزي » ، و« ابن الجواليقي » ، و« المقريزي » ، و« الحافظ النسائي » ، و« العماد الكاتب » سكرتير صلاح الدين الأيوبي ، « وعبد الله بن الحشاب النحوي » وأضرابهم ، وأكثر الكتب العربية المطبوعة في أوربا هي من هذه المكتبة ، لذلك كان ما طبعته مطبعة بريل نقلًا عن أصول هذه المكتبة أصح من الكتب التي طبعت في مطابع أخرى .

هذا مجمل ما بدأ به الاستشراق ، وكان أولًا لمقاصد دينية ثم تحول إلى الاستفادة من علوم العرب ، وتحرك فيما بعد إلى معاونة الاستعمار وإمداده بالأخبار العلمية .

رحلات المستشرقين

ومن أقدم الأوربيين الذين رحلوا إلى بلاد العرب « بارتيما » الإيطالي فاتح

باب السفر إلى الحجاز لكل من أتى بعده من الإفرنج ؛ فقد زار الحرمين سنة ١٥٠٣م أيام « قانصوه الغوري » وتسمى باسم « يونس » . ورحلته إلى الحجاز واليمن والهند معربة في مقتطف سنة ١٩١٠م وسنة ١٩١١م .

ثم « فنسان لبلان » الفرنسي فقد زار الحجاز سنة ١٥٦٨م ،و« يوسف بتس » الإنجليزي سنة ١٦٨٠م .

وظلت الرحلات مستمرة بلا انقطاع إلى أن أرسل إمبراطور فرنسا على نفقته سنة ١٨٦٢م الرحالة « بولغريف » وهو إنجليزي يسوعي ، فدخل نجدًا وألف كتاب « رحلة في بلاد العرب الداخلية » طبع سنة ١٨٦٣م ، ورحلته هذه لم تنجح في المقاصد التي أريدت لها .

وسافر « دوتي » إلى مدائن صالح ، وأقام فيها ثلاث سنوات ينقل آثارها ، وله كتاب « جزيرة العرب » .

مشاهيرهم وأعمالهم

وأشهر المستشرقين « وستفيلد » ، « سلفستر دي ساسي » ، « كاترمير » ، « سنوك هو رغورنجه » ، « هوتسما » ، « مولدكه » ، « دوزي » ، و« غولدزيهر » ، « جوليوس » ، « رانبرغ » ، « دي خويه » ، « كليمان هوار » ، « باربيه دمثار » ، « بروكلمن » ، « امبري ميشيل اماري » ، « سيدبو » . ومن المتأخرين « نلينو » ، « كرنكو » ، « رودلف غيره » ، « هانس امزيك » ، « كونهيل » ، « كراتشكوفنيكي » .

ومهمة المستشرقين الحقيقية أن يكونوا عيون أوربا الناظرة إلى عقول سكان الشرق الإسلامي والباحثة عن الثقافة المؤثرة في قلوب المسلمين

وأهم أعمالهم مؤتمراتهم التي يعقدونها في كل بضع سنوات ، وأولها مؤتمر باريس سنة ١٨٧٣م ، والثاني في لندن سنة ١٨٧٦م ، والثالث في بطرسبرج سنة

١٨٧٧، والرابع في فلورنسه سنة ١٨٧٨، والخامس في برلين سنة ١٨٨١، والسادس في ليدن سنة ١٨٨٣، والسابع في فينا سنة ١٨٨٦، والثامن في استكهولم وكرستيانيا سنة ١٨٨٩، والتاسع في لندن سنة ١٨٩٢، والعاشر في جنيف سنة ١٨٩٤، والحادي عشر في باريس سنة ١٨٩٧، والثاني عشر في روما سنة ١٨٩٩، والثالث عشر في هامبورغ سنة ١٩٠٢، والرابع عشر في الجزائر سنة ١٩٠٣، والخامس عشر في كويتهاغ سنة ١٩٠٩، والسادس عشر في أثينة سنة ١٩١٢م، والسابع عشر في أكسفورد سنة ١٩٢٨.

ومن أهم أعمالهم تأليفهم « دائرة المعارف الإسلامية » ، وتأسيسهم جمعيات بمساعدة حكوماتهم « كالجمعية الأسيوية » التي تأسست في باريس بمساعي سلفستر دي ساسي سنة ١٨٢٢، وتأسيسهم مدارس اللغات الشرقية والمعارف العربية في معظم عواصم الغرب لتخريج الساسة والقناصل والمستشرقين الذين يعملون في بلاد تلك اللغات

ولا تقوم أمة بعمل يتعلق بالاستشراق إلا تبادر الأمم الأخرى إلى عمل مثله وما هو أتقن منه ، ولأكثرهم مجلات خاصة بالشرق وعلومه وأحواله .

أما أهم مراكز الاستشراق في البلاد العربية ففي مدينة « بيروت » ، وذلك لكثرة عدد المسيحيين في لبنان .

أشهر المكتبات العربية

وأشهر المكتبات التي تضم كتبًا ثمينة ، ومخطوطات عربية وإسلامية هي مكتبة ليدن ، ومكتبة باريس ، والمتحف البريطاني ، ومكتبة لينغراد ، ومكتبة برلين أو مكتبة الفاتيكان ، ومكتبة الأسكوريال ، وفي استنبول نحو أربعين مكتبة كل منها صغيرة لكنها بمجموعها تعد من أثمن المكتبات العربية

ومنذ شاع استعمال الفوتوغراف في نقل المخطوطات القديمة صارت كل

مكتبة تنقل ما ينقصها من الكتب التي امتازت بها المكتبات الأخرى ؛ حتى دار الكتب المصرية نقلت من مكتبات أوربا مئات كثيرة من الكتب النفيسة التي كنا نحسد تلك المكتبات عليها

وبعد ، فهذا بحث من الظلم أن يفرد له بضعة أسطر أو صفحات ؛ لأن مجهود المستشرقين يتعب المؤرخ الذي يتوسع في الكتابة عنهم بمجلدات !

ولذلك اجتهدت فقط أن ألقي لمحات من الضوء على أعمالهم وصور نشاطهم

❁❁❁

البدوي اليوم، والبدوي أمس[1]

كان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب يرى - بعد التجربة المتكررة - أن أعراب البادية قوة عظيمة تجنح إلى الشر إذا أهملت، وتكون طليعة الخير إذا عني ولي الأمر بأمرها. وكان عمر يحلف أنه لا يحمل رجال البادية إلا على الواضحة، ومات رضي اللّٰه عنه وهو يوصي بالأعراب خيرًا ويقول: إنهم مادة الإسلام.

وبالأعراب فتح اللّٰه على المسلمين ملك الأكاسرة والقياصرة، وبهم أضاء مشعل الهداية في وادي النيل حتى وصلوا إلى الأقيانوس، وعبروا من إفريقية إلى أوربة، وكان منهم أبطال الحرب وساسة الأمم وحملة الحكمة.

ولما حول بنو العباس وجوههم عن قبائل العرب إلى علوج أبي مسلم، ثم إلى فراعنة المعتصم جاءت البادية، فصار أهلها إن لم يجدوا ما يأكلونه أكل بعضهم بعضًا، وما زال أمرهم في إهمال حتى رأينا عرب ما بين الحرمين الشريفين في أيام الدولة العثمانية لا عمل لهم غير قطع طريق الحج، وحتى رأينا المحملين الشامي والمصري لا ينجيهما من بأس الأعراب ما يصحبهما من كتائب الجند المجهزة بالبنادق والمدافع، ولا يؤذن لهما بالمسير حتى تؤدى للقبائل الإتاوة نقدًا وعدًّا.

وفي أيام الحكومة الهاشمية أتيح لي ولكثير من إخواني أن نراقب أحوال بدو الحجاز، فخرجنا من ذلك بحكم على البدو أنهم لا يجوز الاعتماد عليهم في جليل ولا حقير، وأنهم لا يعودون إلى ما كانوا عليه زمن الخلفاء الراشدين ودولة بني أمية إلا بكرامة يختص اللّٰه بها من يشاء من عباده.

إن هذه الكرامة اختص اللّٰه بها عبد العزيز بن سعود، فقلب له عرب الحجاز من أداة شر محض إلى أداة خير محض، وأخرج له من أمة لم تكن تخاف اللّٰه ولا

---

(١) صحيفة أم القرى العدد ٤٠٣ جمادى الأولى ١٣٥١ هـ نقلًا عن صحيفة الفتح.

اليوم الآخر أمة صالحة مؤمنة وقفت له على قدم الاستعداد ليرمي بها إلى الموت إن شاء وإلى الحياة إن شاء.

حدثني شاب فلسطيني متعلم قال: ركبت مع بدوي من قبيلة حرب بعيرًا سافرت عليه من مكة إلى المدينة، وفيما كنا نسري في الليل أخذت أغني.

فقال لي الجمال: أليس خيرًا لك لو أنك سبحت اللَّه بدلًا من هذا الغناء؟

قلت: بلى، ولكن النفس تشهى أن يكون ذلك تارة وتارة.

فقال لا تعط النفس هواها.

فقلت له: من أي القبائل أنت؟

قال: من حرب، ومنازلنا ها هنا بين الحرمين الشريفين.

قلت: منذ كم صرت تؤثر التسبيح على الغناء؟.

قال: منذ تعلمنا الخوف من اللَّه، وصرنا نؤدي فرائض اللَّه.

قلت: ومتى كان ذلك؟.

قال: منذ جاء ابن سعود إلى مكة، وكنا قبل ذلك نقتل الرجل إذا ظننا أن في جيبه ريالًا، وقد نقتله ثم لا نجد الريال، أما الآن فإننا نبصر الذهب ملقى على قارعة الطريق فلا يمسه أحد منا إلا أن يكون هو صاحبه.

في غير هذا المكان من «الفتح» ست وثائق[1] هي بعض البرقيات التي كان يتبادلها الملك عبد العزيز ورجاله المجاهدون الذين ندبهم لسحق فتنة عدو اللَّه ابن رفادة، وهذه الوثائق جاءت على سجية كاتبيها ليس فيها شيء من التصنع، حتى إنهم لم يعبأوا بتنقيتها من ألفاظ بدوية لا توجد في معاجم اللغة.

هذه الوثائق كان لها في نفسي أعظم تأثير؛ لأني كنت أعهد البدو على غير ما رأيتهم عليه في هذه الوثائق، كانوا لا يجيبون نداء ملك ولا أمير إلا إذا وسوس

(١) نشرتها جريدة أم القرى - عدد ٣٩٩.

لهم بالذهب، ولعل الذين بيتوا فتنة ابن رفادة اختاروا لها زمن أزمة الحجاز الخانقة اعتقادًا منهم بأن الذهب بات هنالك أخرس لا يسمع له صوت فلا أمل في أن يستجيب العرب نداء ابن سعود إذا استصرخهم للدفاع عن جزيرتهم. ولكن العرب بعد أن آمنوا بالله، وتعودوا الوقوف بين يديه خمس مرات كل يوم يعبدونه ويطيعونه، صاروا يعلمون أن من ضروب عبادة الله والطاعة له أن يؤدوا واجب الجهاد كما يؤدون واجب الصلاة.

وكان ابن سعود قد عودهم فيما عودهم من عادات الخير أن يحرثوا ويزرعوا، فلما دوى في أودية الجزيرة وجبالها طبل الحرب خافوا أن تمنعهم الزراعة عن واجب الجهاد فترك بعضهم الزراعة، وركب بعضهم إلى الطائف يرجون ابن سعود أن يأذن لهم بالذهاب إلى الحرب وأن ينقذهم من الخذلان باتباع أذناب البقر.

هذه الفتنة الحقيرة التي دس الدساسون رأس ابن رفادة في أتونها قد برهنت لأمم الأرض على أن جزيرة العرب كلها شعلة نار، وأن كل حامل سلاح فيها مستعد لاقتحام كل ما يقف في سبيله حتى يلقى الله شهيدًا، أو يفوز بالنصر سعيدًا.

عرب حرب تعاتب ابن سعود لأنه أرسلهم لقتال ابن رفادة وهم يريدون أن يطيروا إلى غير ابن رفادة، وعرب عتيبة نازلة حول الطائف تلح في أن يؤذن لها بالزحف لتعبد الله بهذا النوع من عبادته، وشمر، وقحطان، وعنزة، وبنو تميم، وعلى رأسهم جميعًا الأمراء آل سعود الذين لبثوا في نجد، ولم يناداهم ملك العرب لحمل رايات القتال، كتبوا بقلم ابنه سعود يعتبون، كيف أن راية القتال يحملها الخادم حلوان، ويبقى الأمراء والمشهورون بالشهامة والفروسية والبطولة، معطلين هم وفرسانهم ورجالهم عن العمل قابعين في المنازل أو بين النخيل؟

إن هذه القوة التي ندبها ابن سعود لتذب الذباب عن ثغور الجزيرة العربية ، إنما هي طائفة قليلة بعددها عظيمة بإيمانها ، وإنما جاءت بالسيارات وعلى ظهور الإبل المهرية الخفيفة وعلى متون الجياد العراب ، فأوقع اللَّه من هيبتها الرعب في قلب كل من يضمر لأرض القرآن شرًّا ، ولكن وراء هذه الطلائع أممًا كلها تحمل السلاح وتحسن استعماله ، وتطير شوقًا إلى لقاء اللَّه في ميادين الجهاد .

إن ابن سعود وجه وجوه جميع من تحت راياته من العرب إلى القبلة وأذاقهم حلاوة الصلاة ، فصاروا يتلمظون ليذوقوا حلاوة الشهادة أيضًا .

هؤلاء البدو الذين أقامهم اللَّه للدفاع عن جزيرة العرب تحت راية ابن سعود ، هم غير البدو الذين كانوا نازلين مع الشريف علي بن الحسين في رابغ ، أو مع الملك فيصل في العقبة ، أولئك كانوا ينتظرون آخر الشهر ليقبضوا الجنيهات الذهبية ، ويتمنون أن لا تقع معركة فاصلة لئلا تنتهي مهمتهم فتسد حنفية الذهب .

أما البدو الذين طاروا على صوت الطبل إلى الشمال ومزقوا جثث جماعة ابن رفادة تمزيقًا ، فإنما جاءوا ليذوقوا حلاوة الموت في سبيل اللَّه وهم يعاتبون ملك العرب بحرية وأدب لأنه آخذ بحجزهم ومانع لهم من أن يخترقوا هذه الحدود التي تهب عليهم منها الرياح الكريهة .

الانقلاب الذي أوجده ابن سعود في بادية العرب سيجعلها مصدر خير ، كما كانت قبل دولة العباسيين ، ولو لم يفعل ابن سعود غير هذا لكفاه فخرًا .

❂❂❂

من أخلاق العرب[1]

هات حبالك

لما وصل الخبر إلى العراق بوفاة يزيد بن معاوية بدمشق كان أميره على العراق عبيد اللّه بن زياد، وكان يومئذ في البصرة، فجاءه الخبر بأن الكوفة قد انتقضت عليه، فأزمع السفر إلى الشام، واستخلف على البصرة مسعود بن عمرو العتكي، كبير الأزد - وكان يقال له: قمر العراق - فركب في موكب من فرسان اليمن وربيعة، وخرج من منازل الأزد معلمًا بقباء ديباج أصفر، حتى إذا غشي المسجد الجامع ارتقى المنبر وجعل يأمر بالسنة وينهى عن الفتنة، وكان في سجن عبيد اللّه بن زياد نحو أربعة آلاف من الحرورية؛ بعضهم من خوارج بني تميم، وآخرون من خوارج سائر القبائل، فاستطاعوا أن يحصلوا على السلاح، واندفعوا من السجن فقصدوا المسجد الجامع وقتلوا مسعود بن عمرو.

وكان آخرون من بني تميم - من غير الخوارج - أرادوا سيد تميم الأحنف بن قيس، على أن يظهر بهم في هذا اليوم ويكون له الأمر، فآثر العزلة والبعد عن الفتنة، فاختار بعضهم للإمارة عبد اللّه بن الحارث بن نوفل بن الحارث بن عبد المطلب الهاشمي.

وكان عبد اللّه بن الحارث لا يزال في بيته عندما قصد مسعود العتكي منبر الجامع وقتل وهو على أعواده، فهاجت الأزد، واتهمت بني تميم بقتل مسعود، وإنما قتله الخوارج، وركبت بنت مسعود إلى مربد البصرة تطالب بدم أبيها، وتوالت رجال من بني تميم ونساء من نسائهم على الأحنف تستفزه للأهبة ولدفع الهائجين من الأزد وأنصارهم من ربيعة، حتى أقاموا عنده البينة الشرعية على

(١) مجلة المنهل - نقلًا عن مجلة الفتح - له - محرم ١٣٨١ هـ - المجلد ٢٣.

اعتداء الأزد على بعض الضعفاء ، فدعا حينئذ عبس بن طلق الضريمي فعقد له اللواء على تميم ، ودعا اللّٰه لهذه الكتيبة بعد أن ولت فقال : اللهم لا تخزها اليوم ، فإنك لم تخزها فيما مضى .

ولما رأى شباب بني تميم أن الأحنف قد تشمر للدفاع جعلوا يقولون : هاجت زبراء ؛ أي غضب الأحنف ، وزبراء أمة له ، فكنوا بها عنه من إجلاله .

وكانت المقاتلة من بني تميم حريصين على خطة الدفاع وعلى إخماد الفتنة ما استطاعوا ، حتى لقد ناشدوا الأزد وهم يقاتلونهم فقالوا لهم فيما رواه الطبري[1] (ج٢ ص٤٦٢ طبع أوربا ج٧ ص٣١ طبع مصر) :

« اللّٰه اللّٰه يا معشر الأزد في دمائنا ودمائكم ، بيننا وبينكم القرآن ، ومن شئتم من أهل الإسلام ، فإن كانت لكم علينا بينة أنا قتلنا صاحبكم- أي مسعود بن عمرو العتكي- فاختاروا أفضل رجل فينا فاقتلوه بصاحبكم ، وإن لم تكن لكم بينة ، فإنا نحلف باللّٰه ما قتلنا ولا أمرنا ولا نعلم لصاحبكم قاتلًا ، وإن لم تريدوا ذلك فنحن نفدي صاحبكم بمائة ألف درهم . فكف الفريقان عن القتال ، ثم جاء الأحنف بن قيس في وجوه مضر إلى منزل زياد بن عمرو العتكي ، فقال الأحنف : يا معشر الأزد ، أنتم جيرتنا في الدار وإخوتنا عند القتال ، وقد أتيناكم في رحالكم لإطفاء حشيشتكم وسل سخيمتكم ، ولكم الحكم مرسلًا فقولوا على أحلامنا وأموالنا ، فإنه لا يتعاظمنا ذهاب شيء من أموالنا كان فيه صلاح بيننا .

فقالوا : أتدون صاحبنا عشر ديات ؟

قال لهم الأحنف : هي لكم !

ثم ندب الأحنف ابن أخته إياس بن قتادة بن موالة العبشمي ، أحد بني عبد شمس بن سعد بن زيد مناة بن تميم ، ليحمل من أغنياء بني تميم حمالات

---

(١) تاريخ الطبري ٤/ ٤٠٥.

تلك الفتنة ؛ دية مسعود المضاعفة عشرة أضعاف ، وديات غيره من عامة الناس الذين ذهبوا ضحايا الفتنة .

قال إياس- فيما رواه أبو عبيدة معمر بن المثنى في كتاب « نقائض جرير والفرزدق » (ص ١٠٥ طبع مصر) : فجهدت أن يقوم لي بهذه الحمالات أهل الحضر فلم يفعلوا ، ولم يغنوا فيها شيئًا ، فخرجت إلى البادية ، فجعلوا يرمونني بالبكر ، أي بالبعير ، وبالاثنين حتى اجتمع لي من جمالتي سواد صالح ، وصرت بالرمل إلى رجل ذكر لي ، فلما دفعت إليه إذا هو رجل أسيود أفيحج[١] ، أعيسر ، أكيشف ، فلما انتسبت له وذكرت له حمالتي قال : قد بلغني شأنك فانزل . قال إياس : فواللَّه ما قراني ، ولا بر علي ، فلما كان من الغد أقبلت إبله لوردها ، فإذا الأرض مسودة ، وإذا هي لا ترد في يوم لكثرتها ، وقد ملأ غلمانه حياضه . فجعل كلما ورد رسل من إبله جاء يعدو : حتى ينظر في وجهي فيقول : (أنت حويمل بني سعد ؟) . ثم يخرج يرقص ، فأقول في نفسي : أخزى اللَّه هذا وأخزى من دلني عليه . حتى إذا رويت الإبل وضربت بعطن -أي بركت بأعطانها - نادى الرجل : أين حويمل بني سعد ؟

قلت : قريب منك !

قال : هات حبالك .

فما ترك لي حبلًا إلا ملأه بقرينين من إبله ، ثم يقول : هات حبالك . فجئنا بمرائر محالبنا ، وأوشية دلائلنا وأروية زمائلنا ، وما زال يقول : هات حبالك . حتى

---

(١) الفحج : تباعد ما بين أوساط الساقين والنعت منه (أفحج) ، والتصغير للتحقير ؛ ولذلك قال : أسيود ، أي أسود .
وأعيسر : أي أعسر لا يستعمل يده اليمنى .
والأكيشف : تصغير الأكشف ، وهو الذي له : شعرات ثائرة في مصاص ناصيته ، والعرب تتشاءم به .

حللنا عصم قربنا ، وعقل إبلنا وخطمها فملأها لنا ثم قال : حبالك

قلت : لا حبال .

فقال قد عرفت من دقة ساقيك أنه لا خير عندك ، أي إنه لبخله يحسب الناس كلهم بخلاء فلم يستعد الاستعداد الكافي لاستقبال الخير والكرم .

وعاد إياس إلى البصرة بما معه من الخيرات ، ففدى بني تميم مسعود بن عمرو بعشر ديات ، وباءوا[1] بين القتلى ، وتم الصلح ، وفي ذلك يقول سوار بن حيان المنقري :

ألم تكن في قتل مسعود عبر جاء يريد إمرة فيما أمر
حتى رأى الموت قريبا قد حضر يطمعهم بحر تميم إن زخر
وقيس عيلان ببحر فانفجر من حولهم فما دروا أين المفر ؟
حتى علا السيل عليهم فغمر

❁❁❁

(١) باء فلان بفلان ، إذا كان كُفئًا له يُقتل به . تهذيب اللغة - (باء).

قلوب تتكلم[١]

(نشرت صحيفة الفتح الغراء في عددها ٤٥٩ مقالًا افتتاحيًا عن زيارة سمو الأمير سعود ولي العهد لفلسطين وقلم الأستاذ محب الدين الخطيب ننقله فيما يلي :

انقلب الأمير سعود راجعًا من بلاد الروم يريد وطنه .، ووطنه - بحسب العرف الدولي - المملكة السعودية ؛ التي يرفرف عليها ذلك العلم الذي يعرف كل عربي وكل مسلم هيئته ونقوشه والكلمات المكتوبة عليه .

ولكنه ما وطئت قدمه أرض فلسطين - التي شاء العرف الدولي أن يعتبرها وطنًا قوميًا لليهود - حتى رأى بعينه كما كان يرى الشمس ، أن هذه الأرض حنت إليه حنين العرين إلى شبله ، لا حنين المضيف إلى ضيفه ، وسالت جبالها وأوديتها ومسالكها بجميع أهلها ليستقبلوه استقبال الأمة بطلًا من أبطالها ، وأملًا من أمالها .

كانت قلوبهم تضحك له فتتكهرب بسرورها أسرتهم ، وكانت مشاعرهم في بهجة أربدت لها وجوه الخطّافين ؛ حثالة الشعوب وسوس الإنسانية ، فأيقنوا أنهم في هذا الوطن غرباء كما كانوا في ألمانيا غرباء ، وسيظلون فيه غرباء ولو فرشوا أرضه بالدنانير ، ولبثوا فيه مثل المدة التي لبثوها بين موسى وبختنصر .

فلسطين بلد قرن اللّٰه مفتاحه بمفتاح الكعبة في سلك واحد ، وإن من وراء المفتاحين قلوبًا بين جنوب أربعمائة وخمسين مليونًا من المسلمين لا يصل أجنبي إليهما أو تبيد هذه الملايين عن آخرها ، . وإن من حول المفتاحين سواعد مفتولة يدافع بهما عنهما سبعون مليونًا من العرب الباسلين لو وقفت الدنيا كلها في

---

(١) صحيفة أم القرى العدد ٥٦٠ في ١٣٥٤/٦/١هـ.

وجوههم في ساعة يستيقظ فيها إيمانهم من سباته لكتب اللّٰه لهم الغلبة على الدنيا بأجمعها !! .

إن فلسطين وقد سالت الأودية والجبال والمسالك بأهلها ليستقبلوا هذا الفارس الذي جاء يخطر على أرضها بعباءة هبت عليها رياح الجنة في أربعين معركة تنكست بسيوفها رؤوس الفتنة ، ولاحت بوميضها آمال الوحدة ، وضيئت وصينت براياتها حياض الوطن والملة ؛ ، إنما جاءت تستقبل معنى من المعاني لا شخصًا من الأشخاص ، جاءت تستقبل هذه الرابطة بين أربعمائة وخمسين مليونًا من القلوب لأنها تحمي ذينك المفتاحين ، وجاءت تستقبل النجدة التي تمثل سواعد سبعين مليونًا من ليوث الجزيرة وما إليها يوم يستيقظ إيمانهم من سباته فيملوا على التاريخ معجزات آبائهم الأولين .

رأى الأمير سعود بعينيه كما كان يرى الشمس ، أن بلاده أوسع نطاقًا وأبعد آفاقًا من هذه الخطوط التي رسمتها السياسة على الخريطة .، وتكهرب قلبه بإذاعة لاسلكية كان يستقبلها من قلوب هذه الألوف المؤلفة المقبلة عليه من الجبال ، ومن أهضام الأودية ، ومن شتى المسالك ، قائلة له بلسان الحال : إن الملك الحقيقي هو الذي يكون مبسوطًا على القلوب لا على الأجسام ، والذي ينضام بجاذبية المشاكلة لا بمقامع المشاكسة . وإن الرابطة القدسية التي يوثق اللّٰه عراها بين الجماعات ، هي التي يعتمد عليها في بناء القوميات وفي تقرير المصير .

هذه الخطوط التي رسمتها السياسة على الخريطة بين الحجاز والشام والعراق وسائر بلاد العرب ، خطوط وهمية تزول بنفخة واحدة من نفخات الإرادة القومية إذا آن أوانها ودنت ساعتها ، والإرادة القومية هي صوت الحق يعتصم بالصبر ما قضت عليه الحكمة أن يصبر ، حتى إذا توافرت أسباب استعلائه تمخضت عنه

الحوادث ، فاستهل صارخًا بصوت يجلجل في آفاق الأرض فتطأطئ له الرؤوس إذعانًا وإيمانًا .

هبط الأمير العربي أرض فلسطين العربية فكان فيها منها ولها ! ..، وتنقل الأمير المسلم بين ربوع فلسطين الإسلامية ، فكان فيها منها ولها ، ! .. وكنت أشتهي من صميم فؤادي لو كان في برنامج رحلته متسع لاختراق وادي بردى والإشراف من جبل قاسيون على غوطة دمشق ، والوصول منها إلى بعلبك وحمص وحماة وحلب ؛ إذًا لرأى هنالك الأرض التي نبغ تحت سمائها عبد الملك بن مروان وعمر بن عبد العزيز ومسلمة بن عبد الملك وعبد الرحمن الداخل وجميع الفاتحين الأولين والمجاهدين السابقين الصادقين ؛ وإذًا لعلم كم كان غليوم الثاني صادقًا يوم قال : « إن دمشق تعرف كيف تستقبل الملوك » وشتان بين استقبالها غليومًا الضيف وسعودًا أخاها في العروبة والإسلام ، ورمز أمانيها في الوحدة والتحرر والاعتزاز .

القومية العربية كائن حي ، بل حياة كائنة وما عرف تاريخ الإنسانية قومية أشد حيوية من هذه القومية التي تبتلع كل شيء ولا يبتلعها شيء وتغلب غالبها وإن طال الأمد ، فيتخلف عنها إن لم يندمج فيها ، وتبقى هي سائرة في قافلة الأجيال على الطريق الذي رسمه لها القائد الأعظم ﷺ . وقد تنام في الطريق وقد يطول نومها عصرًا أو أعصرًا ، إذا لم يكن لها منها قائد ينبهها إلى السير في أوقاته الصالحة ، ولكنها تعود فتنتبه وتنهض ، فتسير حاملة معها من كان عدوًا لها في زمن ضعفها ، أو لافظة إياه في زاوية من زوايا الدنيا ، كذلك كان شأنها فيما مضى ، وهذا ما سيكون متى أراد اللَّه أن يكون .

هذه الروح الممتلئة حياة وقوة - برغم ضعفها ، أو بالأصح ضعف قيادتها - هي التي استقبلت الأمير سعودًا في فلسطين فأشعرته بأن بلاده أوسع نطاقًا وأبعد

آفاقًا من الخطوط المرسومة على الخريطة ، فآمن بأن فلسطين وطن قومي للعروبة والإسلام بعهد من اللَّه وإن عهد اللَّه من العسجد[1] الأصيل ، وإن أهمل العرب والمسلمون جلاءه وتلميعه .

سبحان اللَّه ، أفي عالم الأحلام ما رأى الأمير سعود أم في عالم الحقائق ؟ ! .. في الأمس القريب كانت عمان تتجهم لمكة وتؤوي الضالين والمخطئين ، وفي الأمس القريب كان الأمير سعود في آفاق عسير وإصبعه على زناد بندقيته يتوقع ما يحمله على إطلاقها فتدوي تلك الآفاق بالشرار والنار ، وفي عام واحد استطاع صدر أبيه الحكيم الحليم أن يسع كل محرجة ، فتحول أعداؤه أولياء له ، ووقف الأمير عبد اللَّه يقدم للأمير سعود سيفًا ذهبيًا مرصعًا عربون الصداقة والولاء ، وراح سائر أعداء العرب ، ينادون بالثبور وعظائم الأمور حزنًا على ما لقي من الشيطان من الخزي والخذلان ، بين قلوب العرب من عدنان وقحطان .

إن اللَّه الذي قلب هذه القلوب ، وجعل أصحابها بنعمة اللَّه إخوانًا في خلال عام واحد هو المؤمل أن يجمع شمل العرب ويوجههم جميعًا في طريق القافلة التي أنار محمد بن عبد اللَّه مشعلها صلوات اللَّه وسلامه عليه وعلى آله وصحبه ومن سار في قافلته إلى يوم الدين .

❁❁❁

(١) العسجد : الذهب والجوهر كله ، كالدر والياقوت . « القاموس المحيط » (باب الدال ، فصل العين) .

تسوية الصفوف[١]

لإمامة الدعوة الإسلامية

إنما طمع فينا دعاة النصرانية ، وسعوا نطاق عملهم في ديارنا من بعد الحرب العظمى على الخصوص ؛ لأنهم كانوا فيما مضى يجهلون بعض دخائلنا ، ويتصورون أن للأزهر -مثلًا- خطة مرسومة في خدمة الإسلام وعروته الوثقى ، وأن هناك تعاونًا تفاهم عليه المسلمون بلسان الحال إن لم يكن بلسان المقال ، فالسنوسيون يقومون من جهتهم بعمل مهم لبرنامج يقوم الأزهر بجانب مهم منه ، وعلماء الحرمين يمثلون دورًا في نشر الدعوة الإسلامية ، يفهم مغزاه علماء كاشغر والمدرسون في ديوبند وكابل وفي القرويين والزيتونة !!

هكذا كان يخيل إلى دعاة النصرانية لأن من غير المعقول أن يكون أمة يتراوح عددها بين ثلاثمائة مليون وأربعمائة مليون ولها دين من حقه أن تبلغ دعوته سكان المريخ بعد الانتهاء من إدخال جميع سكان الأرض فيه ، ثم يغفل علماؤه عن أن يكون بينهم مثل هذا التفاهم من بكين وكاشغر إلى رباط الفتح .

تحت تأثير هذا التخيل خرج الأستاذ (فمبري) المجري من بودابست مئتزرًا بلباس درويش مسلم يتكلم اللغة التركية ، وقطع مفاوز آسيا إلى أعمال تركستان ليكتشف دخيلة أمر المسلمين ، ويطلع على ما يكتمونه من طرق التعاون .

وتحت تأثير هذا التخيل لبس العلامة (هرفرونجه) الهولندي (المرقعة) وجاور في الحرم المكي دهرًا طويلًا منتحلًا صفة طالب علم مسلم ، ليقف على ما لا بد أن يكون المسلمون قد رسموه من خطة لخدمة دينهم .

فلما عرفونا كما نحن ، وسعوا نطاق العمل بعد الحرب على أمل أن يستولوا

(١) صحيفة صوت الحجاز العدد ٦٧ ربيع الثاني ١٣٥٢ هـ.

حتى على أولاد الأمراء والوجهاء وشيوخ الدين .

يجب أن تكون هناك خطة ، ويجب أن تعد لهذه الخطة رجالًا ينفذونها ، ويجب أن تتعلم طوائف الأمة جوانب التنفيذ .

لما أراد اللَّه لهذه الأمة أن تهيب بالاجتماع للخلاص من شرور دعاة النصرانية ، لم يشذ عن هذا الاجتماع أحد ، حتى طه حسين صار قلمه يجول بما يوافق هذا الإجماع .

هذه فرصة سنحت ، وقد يضن الدهر بمثلها ، فعلى كل من يقدر المسئولية أمام اللَّه والتاريخ أن ينتهزها ، وأن يعمل على نجاحها ، وأن يجعل ذلك خالصًا لوجه اللَّه وحده .

❁❁❁

لماذا نحج ؟[١]

....فالحج تجريد للنفس من ماضيها المشوب بالإثم ، ومن ثم فهو تجديد للحياة ، وبقدر ما تصدق نية المسلم في ابتغاء هذا التجديد من الحج يكون حجه مبرورًا ، « والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة »[٢] .

لقد يسر اللَّه سبل الحج في هذا العصر ، وتوطدت فيه دعائم الأمن بما لا عهد لحجاج المسلمين بمثله إلا في صدر الإسلام وزمان التابعين لهم بإحسان ، والمسلمون الآن في إقبال عظيم على إقامة هذه الشعيرة من شعائر الإسلام ، حتى بلغ عدد الذين يقفون في عرفة ويطوفون بالكعبة بيت اللَّه الحرام في هذه السنين رقمًا قياسيًا لا نظير له في التاريخ .

ولكن بقي أمر آخر يجب أن يعرفه المسلمون جميعًا ، ويجب أن يؤمن به الحجاج منهم ويعملوا به ، وهو أن العبادات كما أن لها أركانًا ومناسك لا تتم إلا بأدائها ، فإن لها كذلك حكمة عالية ومقاصد سامية ، هي روحها وهي سببها الأول ، وهي الغاية القصوى منها .

فالصلاة وصفها اللَّه عز وجل في سورة العنكبوت بأنها ﴿تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت: الآية ٤٥] . وأن تكبير اللَّه في إحرامها ، وفي أركانها يصغر أمر الدنيا كلها في نفس المصلي ، حتى يرى أنها لا تساوي بخزائنها وكنوزها ارتكاب جريمة تتغير بها هذه الصفة الإلهية للصلاة ، فالمصلي الذي يعلم أن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر يستحي من اللَّه وهو يعلن عن عظمته بجملة : اللَّه أكبر ، أن يكون هو الذي ينقض صفة صلاته بما يستبيحه من بعض

---

(١) مجلة « الحج » – ذو الحجة ١٣٧٦ هـ وهو جزء مقتبس من مقال نشر في « مجلة الأزهر ».

(٢) البخاري (١٧٧٣) ومسلم (٣٣٥٥) .

مخازي الفحشاء والمنكر، وأكثرها شيوعًا الكذب والغش والغيبة والنميمة.

بل يستحي من ربه وهو بين يديه يخاطبه طالبًا منه أن يهديه الصراط المستقيم، ثم لا يكاد ينفتل من صلاته حتى يخرج بشيء من أقواله أو أفعاله عن الصراط المستقيم!

والحج هذه الشعيرة من شعائر الإسلام يقبل المسلمون على إقامتها والمسارعة إليها بشغف ونشاط وارتياح، ويدخرون لنفقاتها كرائم أموالهم، والحلال الطيب من نقودهم، فلماذا نقصر في إرشادهم إلى الحكمة الإلهية في الحج والمقاصد الإسلامية منه؟

لماذا لا نقول لهم إذا بلغو أعلام الحرم وحدوده، وخلعوا عنهم المخيط من ملابس الحضارة، ليلتفوا بمئزر الفطرة من لباس الإحرام: إننا نخلع مع ثياب الحضارة ما أغرانا به الشيطان من آثامها وزلاتها، إننا اليوم أمام فرصة أنعم اللَّه بها علينا لنتوب إليه توبة نصوحًا من كل ما اقترفنا قبل اليوم من إثم، وعلينا الآن أن نبرأ إليه من زلات الماضي ونتطهر من أوضاره[1] لندخل في حياة جديدة، نعاهد اللَّه على أن تكون حياة نظيفة، يرضاها لنا ويثيبنا عليها بسعادة الدنيا والآخرة؟

لماذا لا نقول لهم: إننا إذا هتفنا نناجي اللَّه بكلمة «لبيك» لا معنى لذلك إلا أننا نعقد عقدًا بيننا وبين اللَّه على الاستجابة لكل ما هدانا إليه من مبادئ الإسلام العالية وهداياته السامية، واجتناب كل ما يدنس حجنا ويسخط ربنا ما دمنا أحياء إلى أن نلقاه مع أوليائه وصفوة عباده الصالحين؟

لماذا لا نقول لهم: إننا بتوجيه كلمة «لبيك» للَّه وحده عز وجل نعترف لربنا

---

(١) الوضر - محركة - وسخ الدسم واللبن، أو غسالة السقاء والقصعة ونحوهما، وبقية الهناء، وما تشمه من ريح تجدها من طعام فاسد، واللطخ من الزعفران ونحوه، ج: أوضار. (القاموس المحيط - وضر).

ولأنفسنا بأننا لا نطلب الخير والنفع إلا منه ، ولا نشرك به أحدًا غيره من نبي أو ملك أو ولي ، فضلًا عن غيرهم ، وأن كل ما سوى اللَّه مخلوق له وكل مخلوقاته - على مراتبهم - محتاجون إليه ، ملتمسون رحمته ، ولا يكون منهم شيء إلا بإذنه ؟

إن مشركي الجاهلية كانوا في حجهم يلبون كما نلبيه نحن في الإسلام ، غير أنهم كانوا يستثنون فيقولون : إلا شريكًا هو لك تملكه وما ملك . فجاء الإسلام ليبطل هذه المثنوية وليوجه قلوب الناس إلى اللَّه وحده .

لماذا لا نقول لهم إذا جاءوا لرمي الجمرات في منى : إن هذه حرب يعلنها الإسلام على الشيطان وحزبه وتسويلاته ، وإننا كلما خطر ببالنا بعد اليوم خاطر نعلم أنه يسخط اللَّه يجب علينا أن نعلم أن هذا الخاطر من تسويل الشيطان ، وأنه عدو لنا ، وأننا آذناه بالحرب ونحن نرمي هذه الجمرات في الحج ، ومن تمام الحج بعد الحج وما دام الحاج على قيد الحياة ، مواصلة مخالفة الشيطان ، واعتباره العدو الذي لا ينبغي للعاقل أن يغفل عن وساوسه وينقاد لتسويلاته .

أهم شي في العبادات - ومنها أدعية الحج - أن نعقل معاني ألفاظها ، ومن تعلم أن هذه المعاني تنعقد بها العهود بين المخلوق والخالق ، وأن المخلوق ينبغي له عقد العزيمة على توخي ما يدعو اللَّه به ، وإلا فإنه لا يكون جادًّا بدعائه ولا يكون دعاؤه مستجابًا ، ولو أن كل مسلم إذا قال لربه في صلاته : « اهدنا الصراط المستقيم » . تصور معاني هذه الكلمات ، وتأمل في مدلولاتها ، وعقد عزمه على توخي الصراط المستقيم في تصرفاته الشخصية ، وفي معاملاته مع الناس ، لكان المسلمون بهذه الكلمة وحدها أمة صدق واستقامة وخير ، وكان ذلك منهم أبرع إعلان عن الإسلام في أمم الأرض ، وأنه النظام الذي تبحث عنه الإنسانية ولا تزال تائهة عنه .

أيها الواعظون في الحج ، أوصلوا هذا الخير إلى نفوس إخوانكم الحجاج وقلوبهم ، علموه لهم كما تعلمونهم مناسكهم

وإذا أفلح الحجاج - عامًا فعامًا - في الانخلاع من الماضي والتطهر من أوضاره ، ونووا صادقين أن يجددوا عهدهم مع اللَّه ، وعلى تجديد حياتهم بما يرضيه ، فإنهم سيعودون إن شاء اللَّه إلى أوطانهم حاملين معهم نصيبًا مباركًا من رسالة الإسلام ، كما بعث اللَّه بها حامل أكمل رسالاته ، وأرجو أن نعمل بذلك من عامنا هذا ليعود إلينا النور والهدى من بلاد النور والهدى ، واللَّه ولي العاملين .

❁❁❁

قدوتنا الأعظم[1]

كلما خارت قواي وظننت أن الاستسلام للتيار أجدى، رجعت بروحي وعقلي إلى سيرة القدوة الأعظم - صلاة الله عليه وسلامه - فوقفت وقفة الخشوع والإجلال تجاه سنين من حياته الشريفة قضاها في معالجة أخلاق قومه العرب وأعدائهم؛ لحمل مشعل الفضيلة والهدى والسير به في أقطار الدنيا، وما هي إلا سنوات قلائل حتى كانت دعوة الإسلام أعز دعوة تتحرك بها الألسنة؛ وحتى كانت الشعوب تتجرد من عقائدها وعباداتها، بل من ألسنتها وعاداتها، لتدخل تحت لواء الإسلام، وتنادي بكلمة «حي على الفلاح» في آفاق جديدة من آفاق الأرض.

كان من أول ما اشتهيت أن أعرفه - يوم دخلت مكة - جبل حراء الذي خوطب عليه سيد الخلق ﷺ بوحي الحق جل سلطانه، ودار الأرقم بن أبي الأرقم المخزومي التي كانت مختبأ النبي ﷺ وأصحابه على أن بلغوا أربعين. فكان منهم صف الجهاد الأول في سبيل إعلاء كلمة الله عز وجل.

وقفت من جبل النور على قلة شامخة زلوج، وأرسلت بصري في الآفاق، فإذا جبال خالية من الناس بعيدة عن ضوضائهم، مستريحة من دسائسهم وشرورهم: أمرها الله أن تكون فكانت، ولا تزال على ما أمرها الله به من غير تبديل أو تعديل، إلى أن يأمرها الله بالزوال فتزول.

وتشرفت بدخول الغار المبارك، ثم خلوت بنفسي بعيدًا عن أصحابي، أتأمل كيف أن روح خاتم الأنبياء، وسيد أولي العزم كانت من السعة بحيث ترجو الله أن تعم كلمة «لا إله إلا الله» جميع أقطار الدنيا، وأن تعلو أرواح سكان تلك

---

(١) مجلة الحج - ربيع الثاني - ١٣٧١هـ.

الأقطار من حضيض العبودية للبشر أو الجمادات ، إلى مستوى التوحيد الخالص الذي لا يليق بعقول البشر ونفوسهم غيره ، وأن تتحول من الأرض عن خرافاتها ، وأكاذيبها ، وخساساتها ، وحيلها فتكون بالإسلام أمة صدق ورحمة وإيثار وعمل وجهاد وإصلاح .

في هذا الغار هبط الوحي الإلهي على قلب عبد الله ورسوله محمد ﷺ ، ومن هذا الغار انتشر نور الهدى فاستنارت به قلوب أمم لا عداد لها ، وسيدخل هذا النور قلب كل ابن أنثى إذا استطاعت أمة محمد ﷺ أن تتأسى به وتصغى إلى صوته فيما أمر به من معروف وما نهى عنه من فساد .

ودخلت دار الأرقم المخزومي الواقعة على يسار الصاعد إلى الصفا ، فقلت في نفسي : لو شاء الله أن يلين لدعوة عبده محمد قلوب أهل الأرض جميعًا لأجابوا نداءه في بضع سنين ، بل في ليالٍ قلائل ، ولكنه درس من سيرة سيد الخلق ﷺ يجب على كل مسلم أن يتعلمه ، فيعلم منه أن الحصاد لا يستحقه إلا الذي زرع ، وأن النتائج لا يحصل عليها إلا من قام بمقدماتها .

وويل لمن يتقاعس عن الدعوة إلى الخير بحجة أن أهل هذا الزمان يصدون عن الاستجابة لها ، وهو يتجاهل أن ما لقيه قدوتنا الأعظم ﷺ من العقبات في سبيل دعوته لا يعد ما يلقاه دعاة هذا الزمان في جانبه شيئًا مذكورًا .

ألا فليحاسب « ورثة الأنبياء » في عصرنا أنفسهم ، وليقولوا لنا ما هو الأذى الذي لقوه في سبيل الله ، وما هو البذل الذي بذلوه لإعلاء كلمة الله ، وأي خلق من أخلاق محمد ﷺ وأصحابه تخلقوا به ليكونوا مثالًا حسنًا للإسلام يغري الأغيار بالإقبال عليه والإذعان له ؟

لم تسيء أمة إلى تاريخها ؛ ولم تعش أبصار شعب عن سيرة عظمائه ، كما أسأنا نحن إلى تاريخنا ، وكما عميت أبصارنا وبصائرنا عن مواقف العظمة في

سيرة نبينا ﷺ ، وحياة أكابر المهتدين بهديه من الصحابة والأئمة والمجاهدين .

ولعل هذه الثغرة في سور قلقنا أوسع مكان تسرب إلينا منه الضعف ، وأصابنا منه الوهن والانحلال .

نشكو إدبار النصر عنا ، ولا نحب أن يمر ببالنا شبح المسئولية التي تتوجه علينا من هذا الجانب .

نذكر بالفخر والإعجاب انتشار الإسلام في الصدر الأول انتشارًا يكاد يكون « معجزة » ، وإذا قال لنا إنكليزي مسلم كالمستر مريديوك بكتوال : إن انتشار الإسلام الآن بمثل تلك السرعة ممكن .. إذا دعوتم إليه بسيرتكم وأخلاقكم ، رجونا أن ينتهي كلامه بسرعة ، ونهضنا معاهدين الشيطان على أن نبقى عند ظنه فينا .

كلنا نقول : إن محمدًا ﷺ هو قدوتنا الأعظم ، وكلنا نقرأ في كتاب اللّه عز وجل : ﴿لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ﴾ [الأحزاب: الآية ٢١] ، وكلنا نعلم أن الموانع الواقعة اليوم في سبيل القرآن لا تعد شيئًا مذكورًا في جانب الموانع التي كانت واقعة في سبيله يوم كان محمد ﷺ وأصحابه يجتمعون في دار الأرقم بن أبي الأرقم المخزومي عند الصفا يعاهدون اللّه على الثبات حتى النهاية .

وأقرب ما نقارن به بين حال اليوم وحال الأمس أننا أربعمائة مليون يتلون القرآن ، وأنهم كانوا يومئذ أقل من أربعين .. ولكن الأخلاق ! ؟

❁ ❁ ❁

أمين بن حسن الحلواني المدني[١]

عالم حجازي من أهل المدينة ، كان والده من أعيانها وأفاضلها ، حتى إن الشريف عبد الله بن عون أمير مكة أوفده سنة ١٢٧٩م إلى أمير نجد فيصل بن تركي لينصح له بإعادة الخراج المرتب عليه للدولة العثمانية- وكان فيصل قد منعه في ذلك الحين- فنجح الشيخ حسن الحلواني في مهمته ، وكان موضع التجلة والإكرام من أمير نجد .

وقد نشأ الشيخ أمين في رعاية هذا الوالد الفاضل ، فأمضى صدر حياته في طلب العلم ، واقتناء المصنفات الجيدة ، ولا سيما المخطوطة ، وقام بالتدريس في الحرم النبوي الشريف .

وللشيخ أمين الحلواني في هذا المختصر[٢] عبارة تدل على أنه كان حوالي سنة ١٢٧٣ في مصر ، ولعله كان يطلب العلم في الأزهر ، فقد قال عن الشيخ عبد الرحمن بن محمد بن عبد الوهاب[٣] : « أما الشيخ عبد الرحمن المذكور فقد أدركته في الجامع الأزهر يدرس مذهب الحنابلة ، وكان شيخ رواق الحنابلة سنة ١٢٧٣، وتوفي ١٢٧٤، وكان عالمًا فقهيًا ذا سمت حسن يظهر عليه التقوى والصلاح ».

---

(١) مجلة المنهل - ذو الحجة - ١٣٧٢هـ .

(٢) أي « مختصر مطالع السعود بطيب أخبار الوالي داود » . الذي قام بطبعه الأستاذ الكبير في مطبعته ، مطبعة الفتح بمصر .

(٣) ومراده الشيخ عبد الرحمن ابن الشيخ عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب ، فهو الذي نقل مع والده الشيخ عبد الله ابن الشيخ محمد بن عبد الوهاب إلى مصر بعد سقوط الدرعية سنة ١٢٣٣هـ . وتعلم العلم بمصر ودرس برواق الحنابلة بمصر . وتوفي بها سنة ١٢٧٤هـ وانظر لذلك « مشاهير علماء نجد » (ص٣١٥) .

وهي عبارة صريحة في وجوده بمصر عامئذ، ويحتمل أنه تلقى شيئًا من علومه في الأزهر.

وفي سنة ١٢٩٠ اختصر كتاب «مطالع السعود بطيب أخبار الوالي داود» للشيخ عثمان بن سند، ولعل مما حمله على العناية بهذا الكتاب أن والده أدرك داود باشا مدة إقامته في المدينة شيخًا للحرم الشريف وكان له اتصال به، ولا يبعد أن يكون الأصل الذي اختصره في جملة الكتب التي كان والده يقتنيها.

وفي سنة ١٢٩٢هـ قيل عن الشيخ أمين الحلواني إنه ألف رسالة ينكر فيها صحة المخلفات النبوية التي كانت الدولة العثمانية تتقرب إلى العامة بدعوى الحيازة لها والاحتفال بها في مواكب دورية أو غير دورية، وعلى إثر ذلك قام الحلواني برحلة إلى مصر ولبعض بلاد الشرق العربي.

وفي مصر اتصل بالعلامة الشيخ محمد محمود التركزي الشنقيطي وأخذ عنه واستفاد منه، وخالط طبقة ذلك الوقت من علماء مصر وأعيانها.

وفي ربيع الأول من سنة ١٣٠١ ألف رسالته الصغيرة «جنى النحلة في كيفية غرس النخلة» وأكبر الظن أنه ألفها في مصر ليرشد المشتغلين فيها بالزراعة إلى تجارب أهل المدينة التي اقتبسوها من أهل القصيم في نجد - مثل بريدة وعنيزة والرس - وهم أبرع مستثمري هذه الشجرة القديمة الحبيبة إلى العرب والقائمين على تربيتها ورعايتها.

وفي تلك السنة «أي ١٣٠٣» ذهب إلى ليدن وأمستردام بمجموعة من المخطوطات العربية كان اقتناها في السنين السالفة، فابتاعتها منه مكتبة ليدن الغنية بنفائس مخطوطاتها العربية، ولمخطوطات الحلواني هذه فهرس خاص وضعه المستشرقون ووصفوا فيه مفرداتها.

ورأينا الحلواني بعد ذلك في الهند يسعى في طبع الكتب المهمة، وأهمها

ديوان « لزوم ما لا يلزم » لرهين المحبسين حكيم الشعراء أبي العلاء أحمد بن عبد الله بن سليمان التنوخي المعري ، وقد طبعه على الحجر في المطبعة الحسينية في بومباي الهند سنة ١٣٠٣ بخط حسين البهائي الشيرازي عن أصل صحيح مضبوط بخط عبد الواحد بن عبد الرفيع ، فرغ منه في أواسط صفر سنة ٦٣٩، وكتبه لخزانة الأمير أبي زكريا ابن الشيخ المجاهد أبي محمد ابن الشيخ المجاهد أبي حفص .

وطبعة الحلواني هذه للزوم ما لا يلزم ، هي التي نقلت عنها طبعة عزيز زند وعن هذه نقلت طبعة المكتبة التجارية . وكنت سمعت من الدكتور عبد الرحمن شهبندر أن والده رحمه الله ساهم على سبيل التجارة في نفقات طبعة الحلواني لهذا الديوان الشعري العظيم .

وكان الشيخ أمين الحلواني في مدة إقامته في الهند وفيًّا لذلك الوطن الإسلامي العظيم كوفائه لآداب العرب وتراثها ، وقد حمله ذلك على طبع كتاب « سبحة المرجان في آثار هندستان » للعلامة غلام علي آزاد الحسيني الواسطي البلكرامي المولود سنة ١١١٦، وهو من الأسرة العظيمة العربية الأصل ، التي منها السيد مرتضى الحسيني شارح القاموس وإحياء العلوم ، وقد أتم غلام علي آزاد تأليف السبحة في سنة ١١٧٧ فتكون وفاته بعد ذلك ، وكان طبع الحلواني لهذا الكتاب على الحجر في بومباي الهند سنة ١٣٠٣

وفي الهند أيضًا طبع الحلواني في مختصره هذا ، لكتاب المؤرخ ابن سند عن حوادث العراق من سنة ١١٨٨ إلى سنة ١٢٤٢، وتلك الطبعة فقدت نسخها من الأيدي وأصبحت في ندرتها كالكتب المخطوطة ، وكان طبعها في شوال سنة ١٣٠٤ بالمطبعة الحسينية أيضًا بخط عبد الغني ابن الشيخ محمد الخطيب ، وألحق بمختصر تاريخ ابن سند رسالته « جنى النحلة في كيفية غرس النخلة » التي

نظن أنه ألفها وهو في مصر ، أما اختصاره تاريخ ابن سند ، فلا شك أنه كان وهو في المدينة قبل قيامه منها لرحلاته في الشرق وأوربا .

وفي سنة ١٣٠٧ طبع الحلواني في بومباي الهند أيضًا رده على جرجي زيدان وسماه « نبش الهذيان ، من تاريخ جرجي زيدان » فهو أقدم من كل الذين انتبهوا بعد ذلك لنواحي الضعف في كتب جرجي زيدان التاريخية ، وفي طليعتهم علامة الهند وأستاذ علمائها الشيخ شبلي النعماني ، ومن علماء مصر أحمد تيمور باشا والشيخ أحمد الأسكندري ، ومن غيرهم الأب لويس شيخو .

وقد أجاب جرجي زيدان على رسالة الشيخ أمين برسالة سماها « رد رنان ، على نبش الهذيان » وطبعها سنة ١٨٩١م ، ١٣٠٩هـ .

وظهر للحلواني في سنة ١٣١٢ كتاب « السيول المغرقة ، على الصواعق المحرقة » وهو رد على السيد أحمد أسعد المدني من المنتمين إلى طريقة الشيخ أبي الهدى الصيادي ، لكن الشيخ أمينًا الحلواني لم يصرح في هذا الرد باسمه وانتحل اسمًا مستعارًا هو « عبد الباسط المنوفي » .

ومن المحتمل أن يكون المردود عليه في كتاب « السيول المغرقة » أحد الذين شنوا على الشيخ أمين في سنة ١٢٩٢ بدعوى أنه أنكر صحة المخلفات النبوية التي كانت الدولة العثمانية تزعم حيازتها ، وكان ذلك سبب رحلته عن وطنه إلى مصر والهند وغيرهما .

وبعد ، فإن الشيخ أمين بن حسن الحلواني المدني من مفاخر أهل الفضل الذين أنجبتهم المدينة المنورة في أواخر القرن الثالث عشر وأوائل القرن الرابع عشر الهجري ، وقد أردت أن ألم من حياته بأكثر من هذا ، فسألت أديب المدينة المنورة الأستاذ عبد القدوس الأنصاري عن الموجودين إلى الآن من أقارب الشيخ أمين والعارفين بترجمته ، فعلمت منه أن هذه الأسرة لم يبق منها أحد له صلة بهذه

الأمور أو اشتغال بالمعارف الإسلامية ، فاكتفيت من التعريف به بما استطعت أن أعرفه ، ولا يكلف اللَّه نفسًا إلا وسعها ، وأهل الحجاز ولا سيما المدينة المنورة أولى مني بالبحث عن حياة أفاضلهم ، وفي طليعتهم الشيخ أمين بن حسن الحلواني الذي لا شك في أنه توفي في الهند .

وقد علمت من الشيخ عبد القدوس الأنصاري أن أحد أفاضل الهند كتب ترجمة له بمناسبة وفاته في بلادهم ، وكنت على وعد منه بإرسال صورة من هذه الترجمة لأستفيد مما فيها من زيادة على ما أعلم ، ولا سيما سنة وفاته وسنة ولادته ، إن كان ذلك معلومًا ، ولو وصلت إلى هذه الترجمة لكان فيها ما لعله يزيد القراء علمًا بهذا العالم الحجازي الذي كان في زمنه ووطنه كلمعة البرق ، يعيش بين قومه في عصر يسبق عصرهم ، ويعيشون معه في عصر متأخر عن عصره . رحمه اللَّه وطيب ذكراه .

❁ ❁ ❁



الشيخ

عبد اللّٰه القرعاوي رَحِمَهُ اللّٰهُ

مقالات الشيخ عبد الله القرعاوي[1]

ساعة مع مؤسس مدارس الجنوب[2]

هُيِّئَ لي في ضحوة يوم الجمعة الموافق ١٣٦٧/٤/١٧ أن أجتمع بالشيخ

---

(١) هوالشيخ عبد اللّٰه بن محمد بن حمد بن عثمان القرعاوي ؛ عشيرة من آل نجيد من قبيلة عنزة . ولد عام١٣١٥هـ في عنيزة ،ونشأ بها ، وقد توفي والده قبل ولادته بشهرين فتربى في كفالة والدته ورعاية عمه عبد العزيز بن حمد القرعاوي أحد أعيان مدينة عنيزة .
اشتغل في حداثته بالتجارة ، ثم صار له ميل إلى العلم ، فقرأ القرآن وحفظه عند الشيخ سليمان ابن دامغ .
أخذ العلم عن الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ ، والشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ ، والشيخ عبد اللّٰه بن مانع ، والشيخ عبد اللّٰه بن سليم ، والشيخ عمر بن سليم ، والشيخ أحمد اللّٰه ابن أمير القرشي مدير المدرسة الرحمانية السلفية في دلهي في الهند وعنه أخذ الإجازة في الحديث ، وغيرهم .
كما أخذ عنه العلم الشيخ حافظ بن أحمد الحكمي ، والشيخ عبد اللّٰه البسام ، والشيخ عبد اللّٰه ابن عقيل ، وغيرهم.
سمع من شيخه الشيخ محمد بن إبراهيم رحمه اللّٰه حالة الجهل المطبق في جنوب المملكة ، واستخار اللّٰه تعالى واستشار شيخه في التوجه إلى تلك المنطقة ، وقام بدعوة سلفية صحيحة وفتح عندهم المدارس حتى بلغت ألفين ومائتين مدرسة يتعلم فيها خمسة وسبعون ألف طالب ، منهم عشرة آلاف طالبة ، ويقوم على تعليمهم ثلاثة آلاف معلم ومعلمة .وقد ضمت مدارس القرعاوي إلى وزارة التربية والتعلبم.
أمضى الشيخ ٣١ عاما جُلها في الجنوب قائما بالدعوة إلى اللّٰه وترك آثارا جليلة مازالت حتى اليوم شاهدة له بحب الناس والمكانة الرفيعة . مرض في جازان ثم نقل إلى مستشفى الشميسي في الرياض ، حيث توفي رحمه اللّٰه يوم الثلاثاء الثامن من شهر جماد الأولى في عام ١٣٨٩ هـ عن عمر يناهز الرابعة والسبعين عاما وكان قد أوصى بثلث تركته لتصرف في أوجه الخير .انظر ترجمته في « علماء نجد خلال ثمانية قرون » (٣٩٨/٣) ، « الشيخ عبداللّٰه محمد القرعاوي ، دعوته في جنوب المملكة العربية السعودية » « علماء الحنابلة » للشيخ بكر أبوزيد (ص٤٨٢).

(٢) هذه مقابلة مع الشيخ عبد اللّٰه القرعاوي رحمه اللّٰه أجراها معه رئيس تحرير مجلة المنهل =

عبد اللّه القرعاوي .. مؤسس مدارس الجنوب ، والقائم بالإصلاح في الجنوب ، وهو رجل متواضع ، بشوش ، ربعة ، أصفر اللون ، مستطيل الوجه ؛ أقنى الأنف ، ناتئ الجبهة ؛ أزج الحواجب أقرنهما ، غير واسع العينين ، في أوائل العقد السابع من العمر ؛ وقد وخط الشيب فوديه ولحيته .. وهو دائب الحركة ، خفيف نشط ، وتبدو في ملامحه أمارات الرضا والغبطة .

وقد تحدث إلينا فقال : إنه مع شيبته كان لا يستنكف من تلقي دروس الحساب والخط مع صغار التلاميذ في مدرسة الأستاذ إبراهيم حلواني في مكة المشرفة ، وإنه ارتحل إلى الهند وهو كبير السن لاستكمال الدراسة ؛ وقد كرر الدراسة مرارًا - في نجد - على شيخه العلامة الشيخ محمد بن ابراهيم بن عبد اللطيف آل الشيخ في الرياض ، والشيخ عبد اللّه بن مانع في عنيزة ؛ والشيخ عبد اللّه بن سليم ، والشيخ عمر بن سليم في بريدة ، وإنه يطبق بذلك على نفسه المبدأ القائل : « طلب العلم من المهد إلى اللحد » . وإنه كان يستعد بذلك كله لهذا العمل الذي قام به في الأخير .

وليس القرعاوي من أولئك الأشخاص الذين يلقون على ماضي حياتهم سجفًا سميكًا من الغموض ؛ استظلالًا بحاضرهم اللامع ، واستقلالًا عن آثار ذلك الماضي .. فقد حدثنا ممتنًا مسرورًا بما آلت إليه حاله من تقدم ، بعد أن كان لاقى عنتًا ومشاق في ماضي حياته ، إذ اشتغل فلاحًا وجمالًا وبائعًا مشتريًا في دكان له بعنيزة ... كما فتح أثناء ذلك مدرسة في « عنيزة » أربع مرات .

وقد عزف عن الوظائف أيًا كان لونها ؛ أهلية أو حكومية ؛ لأنه كان يُعد نفسه

= الشيخ عبد القدوس الأنصاري ونشرها في شهر جمادى الأولى ١٣٦٧هـ وهي المقالة الوحيدة التي عثرنا عليها تتعلق بالشيخ القرعاوي ، ولما اشتملت عليه المقدمة التي كتبها الشيخ عبد القدوس من الفوائد آثرنا نقلها مع المقابلة .

إعدادًا لهذه المهمة العلمية ؛ وقد قام باستخلاص لقمة العيش من أعماله الحرة قانعًا جاهدًا .

ومدارس القرعاوي الأهلية في تهامة ؛ شبكة متصلة الحلقات ، تقع في مدن وقرى متقاربة ، ليتسنى له الإشراف الدائم على سيرها ، وليست مدارس تعليمية محضة يستفيد منها طلابها العلم المقروء فقط ، بل إنهم يستفيدون مع العلم المقروء ، الهداية والرشاد والإصلاح والسداد في عقائدهم وفي أعمالهم وحياتهم الدينية .

ويُدَرّسُ فيها القرآن ، والتوحيد ، والفقه ، والحديث ، ومصطلح الحديث ، والسيرة النبوية ، والخط ، والحساب ، والإملاء ، والإنشاء ، والنحو ، والصرف ، والفرائض .

هي إذن (مدارس نموذجية) من طراز خاص .. يستهدف التقويم والتعليم ، ولا يلغي أثر البيئة ومقتضيات الظروف .. وتلك حكمة سديدة وتوفيق عجيب .

وإلى جانب إنشائه هذه المدارس ، أنشأ بجانبها عدة مساجد .

وقد سألته عن البواعث التي حملته على هذا الاتجاه ؟ .

فقال : إنني كنت أتلقى العلم على شيخنا محمد بن إبراهيم ، وسمعت ذات يوم عن حالة الجنوب وما هم فيه من الجهل ، فاستأذنته في الذهاب إليهم لنشر الدعوة والعلم في ربوعهم ، فرغَّبني في ذلك وأوصاني بتقوى اللّٰه ودعا لي بالخير ، فسافرت وأسست أولى مدرسة في « سامطة » .. وهكذا .

وكان من حسن التيسير أن لاقت هذه المدارس - شأن كل نافع وصالح - من جلالة الملك ومن سمو ولي العهد عناية كريمة .

وقد تفضل سمو ولي العهد المعظم فخصص رواتب شهرية لستين أستاذًا ؛ للست والعشرين مدرسة التي افتتحتها في الجنوب ، وتبرع سموه الكريم لها بعدة

مكاتب تحتوي على آلاف المجلدات لإفادة الطلاب وتعليمهم، كما تفضل سموه الكريم بإعانة سنوية خاصة غير الرواتب الشهرية التي جادت بها مكارم سموه، وغير الإعانات الشهرية المتدفقة، مما نهض بهذه المدارس نهضتها الملموسة.

وقد أطلعني عبد الله القرعاوي على رسالة ترجم فيها حياته ومشروع مدارسه وهي مخطوطة، وحينما طالعتها وجدت فيها حقائق لا توجد في غيرها؛ ووجدت فيها شيئًا آخر، هو بساطة الأسلوب، مما أذكرني بأسلوب تاريخ الطبري وابن بشر، وقد أغراني هذا وذاك إلى نشرها كاملة في هذه المجلة توخيا لإفادة القراء وإمتاعهم بكل طريف.

« المحرر »

⚫⚫⚫

الرسالة القرعاوية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد للّٰه رب العالمين، والصلاة والسلام على عبده ورسوله، نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.

أما بعد؛ فقد سألني جملة من الإخوان أن أبين لهم رحلتي اليمانية، وسير المدارس فيها، وما يتعلق بذلك فأقول: وأنا كاتب الأحرف: عبد اللّٰه بن محمد بن حمد بن محمد بن عثمان بن علي بن محمد بن نُجَيد. فإن جد جدي محمد بن نجيد كان في عنيزة بالجناح، ثم باع أملاكه بعنيزة، واشترى بدلها أملاكًا في القرعاء، وجاور أهلها، وكان يسمى فيها ابن نجيد، وكذلك أولاده وأولاد أولاده حتى جدي الأدنى حمد المحمد بن نجيد، ثم انتقل جدي الأدنى هذا إلى عنيزة، وكان لا يعرف فيها إلا باسم (ابن نجيد)، وكذلك في مكاتباته وأسانيده لا يكتب إلاَّ حمد المحمد بن نجيد، فلما بنى بيوته في عنيزة، وغرس نخله المشهور بالقرعاوية، لقب بالقرعاوي؛ لقبًا بلفظ النسب، ولكن في المكاتبات والأسانيد كان يكتب (ابن نجيد)، فلما وقعت حرب عنيزة قلع الأشجار والنخل وباع الأرض والبئر، وانتقل إلى جنوب بريدة، وغرس نخله المشهور الآن بالفيضة، وهي ملكنا حتى الآن، وبقيت بيوته وأولاده في عنيزة.

وهناك فروع لآل نجيد غيرنا كثيرون، في عنيزة وبريدة، والبكيرية، والخبراء، والبدائع، وفي بغداد، والشام، لأن أجدادي كانوا دائمًا يسافرون إلى بغداد وإلى الشام وحلب جمالين، يحملون البضائع من هناك، ولم يشتهر أحد منهم بالقرعاوي إلا جدي حمد المحمد بن نجيد لما ذكرت آنفًا.

وفي عنيزة حمد العلي القرعاوي وأخواه صالح وعبد اللّٰه وذريتهم؛ أهل بيت

كل واحد منهم يقال له ويطلق عليه لقب القرعاوي حتى الآن ، وهم مشهورون بهذا اللقب مثلنا ، وهم أيضًا منتقلون من القرعاء ، ولكنهم ليسوا من آل نجيد بل يرجعون إلى آل مطوع ، فهم آل مطوع ، ونحن آل نجيد .

كان جدي حمد أولًا فلاحًا بالقرعاء ، ثم جمالًا ببغداد ، ثم في حلب ، ثم فلاحًا بعنيزة ثم فلاحًا بالجنوب ؛ ثم توفي في شهر رمضان سنة ١٣١٥هـ بعد أن مرض بالفالج ؛ وبقي على فراش المرض أربع سنوات بمرض الفالج ، وفي شوال من تلك السنة أيضًا توفي أبي . وفيها ولدت في ١١ ذي الحجة بعد وفاة أبي بشهرين .

هذه حقيقة نسبي القريب . وأما النسب البعيد فليس عندي منه حقيقة حتى الآن ، ولم أطلبه بعمري قط ، وليس يهمني ذلك ، وإنما يهمني ما أنا الآن بصدده وسيق الكلام من أجله ..

وذلك أني لما رجعت من الهند في ٢٢ رمضان سنة ١٣٥٧هـ وقدمت الرياض ، أقمت عند شيخي الفاضل العلامة محمد بن إبراهيم بن عبد اللطيف آل الشيخ ، أقرأ عليه للمرة الثالثة ، وأما الرابعة فكنت مستمعًا ، وأما الخامسة فلم أجده ، لأنه كان بمكة يومئذ ، وقد ذهبت إلى الأحساء عند فضيلة الشيخ عبد العزيز بن بشر ، وإلى قطر عند فضيلة الشيخ محمد بن مانع ، فقرأت عليهما كليهما في الحديث .

فلما كان آخر ذي القعدة ١٣٥٧هـ توجهت إلى مكة شرفها الله للحج بعد أن استخرت الله تعالى ؛ واستشرت شيخي في التوجه إلى جهة « جازان » للدعوة والإرشاد ، فأشار علي بذلك واستحسنه ، وأوصاني بتقوى الله تعالى ودعا لي ، فودعته ، ثم حججت .

ودخلت سنة ١٣٥٨ وفي هذه السنة عرضت عليَّ إدارة مدرسة المجمعة

وإدارة مدرسة بريدة ؛ وعرض علي أن أكون معلمًا في عنيزة وفي دار الحديث بمكة ، ومطوعًا ، فلم أرغب في شيء من ذلك .

وفي هذه السنة في اليوم العشرين من صفر توجهت لجازان وأخذت منه بضاعة ، وتوجهت لسامطة ثم تجولت بجهات سامطة ، ونزلت دكانًا في نفس سامطة ووضعت فيه البضاعة التي معي ، وأول أمر بدأت به وأنا في الدكان تعليم القرآن ، وثلاثة الأصول ، والأربعين ، والتجويد ، والفرائض ، وآداب المشي إلى الصلاة .. كان ذلك في ٢١ ربيع الأول ١٣٥٨ فكان هذا الدكان أول مدرسة فتحتها في تهامة اليمن .

وفي آخر جمادى الأولى من هذه السنة توجهت إلى (فرسان) وفتحت فيه مدرسة ، ومنه توجهت إلى (مزهرة) قرية للحكميين (الحكامية) ففتحت فيها مدرسة بأول رجب ، وأصلحت مسجدها ، وهو أول مسجد أصْلَحت بتهامة .

وفي غرة شعبان توجهت إلى (سامطة) ففتحت المدرسة بها ثانيًا في بيت ناصر خلوفة ؛ لأنه لا يستطيع المشي وهو من خيار الطلبة وأكبرهم ؛ فأردت أن لا يتكلف ؛ وفيها استقرت حتى الآن .

وفي هذه السنة وفد إلينا جملة من طلبة العلم من (الجرادية) وما وراءها و(النجامية) وما وراءها و(الجاضع) وما وراءه و(خلب) وما وراءه .

ثم توجهت من سامطة إلى نجد لزيارة أولادي في آخر شهر رمضان من السنة نفسها ، فوصلت (عنيزة) في أول ذي القعدة من السنة ، فأقمت بها شهرين بعد غيابي أربع سنوات لطلب العلم ، وتوجهت منها إلى مكة في آخر ذي الحجة .

ثم دخلت سنة ١٣٥٩ وفيها وصلت مكة ، وأخذت منها كتبًا كثيرة في الحديث والتفسير والتوحيد والأحكام ، وتوجهت إلى (جازان) في ١٨ صفر ؛ ومنه إلى (سامطة) .. وبوصولي إليها بنيت المدرسة في بيت ناصر خلوفة ؛ وهي

من الخشب والجريد والحبال والحشيش ؛ واتخذت للكتب خزانة فهي أول مدرسة ؛ وأول خزانة أسستا فيها .

وفي ١٣ ربيع الأول فتحت الدرس ثالثًا .

وفيها قدم الشيخ خالد بن أحمد السديري أميرًا على جازان .

وفيها قدم إلينا من كل جهات سامطة طلبة علم ، وطلب منا أهل كلِّ (مخلاف) من القبائل أن نتجول في جهاتهم ، فكنا نشتغل بالدروس حتى إذا كان آخر يوم الخميس خرجنا وكبار الطلبة إلى جهة من الجهات ؛ ونعظ ونرشد ونأمر بالمعروف وننهى عن المنكر . والطلبة يقومون بذلك وأنا معهم أبيِّنُ لهم الطريقة في التيسير والتبشير والرفق واللين والبصيرة والبعد عن العنف والشدة والتعسير والتنفير ، وألْقي في الليل درسًا في التفسير والحديث والتوحيد ؛ لأن أكثر اجتماع الناس كان في الليل ؛ ونرجع صبح يوم السبت .. فكان أول خروج الطلبة معي نحو الساحل الغربي (سامطة) فأزلنا كثيرًا من الأشياء المخالفة للشرع المجعولة على القبور والأشجار والأحجار ، وهرب كثير من الذين يدجلون على العوام بأنواع السحر والتنجيم والكهانة والتزوير والخط والشعوذة ، وأكثر هؤلاء من وراء المملكة ، بل كلهم لا أكثرهم ، وكان لخروج الطلبة هذا أثر عظيم ، وكأن الناس كانوا راقدين فانتبهوا ، أو جاهلين فعلموا ، وحينئذ صار الناس فريقين : فريق المدجلين وأتباعهم وفريق الطلبة وأتباعهم ، وأنا أعظ هؤلاء بترك الشدة والعنف ، وأولئك بترك التخريف والبدع ، وأمير سامطة يومئذ « سند الحماد » كان مساعدًا للدعوة ومحبًا لها من كل وجه .

وفي هذه السنة وفد إلينا بسامطة طلبة علم من (غامد) و(زهران) و(رجال ألمع) ..

وفيها أتانا محمد بن أحمد الحكمي أخو حافظ بن أحمد برسالة من أخيه

يطلب كتابًا في التوحيد ويعتذر من عدم القدوم باشتغاله في خدمة أبويه في رعي الغنم ، ويطلب منا وصولنا للقرية التي هم بها ، فأجبت حالًا إلى ذلك ومعي جملة من الطلبة ، فكان وللّه الحمد ، لا ألقي درسًا إلا ويحفظه ويفهمه ، فأقمت بقرية (الجاضع) أيامًا ، وكنت آتيهم مرة ويأتيني أخرى لطلب الإفادة من التعليم والتعلم .

وفي هذه السنة مرضت مرضًا شديدًا في (الجرَادِية) .

وفيها عرض علي الأمير خالد السديري قضاء سامطة فاعتذرت ؛ وقضاء المسارحة فاعتذرت .

وفيها صارت تجولاتي أكثر من إقامتي .

وفيها بنيت بسامطة مسجد سوق الاثنين ، وزدت مظلة في مسجد (الْفَتاحية) الذي أقامه القاضي ؛ وأصلحت أرضه ؛ وبنيت مسجد (المجروب) و(أبو الرديف) و(الجرادية) و(الجاضع) للمرة الأولى .

وفيها طلب شيخ المسارحة من الأمير خالد توجهي إلى بلادهم لفتح مدرسة عندهم فتوجهت إليهم بأول ذي القعدة من هذه السنة ، وبنيت عندهم مسجدًا ومدرسة ، وبالرمادة مسجدًا ، وفتحت مدرسة وفي (الجعدية) مسجدًا .

ثم دخلت سنة ١٣٦٠هـ . وفي هذه السنة تفرغ الأخ حافظ لطلب العلم بإذن أبويه ؛ وطلب مني أهل سامطة ، وهو فيهم أن أترك التجول لأتفرغ للتدريس ، فوافقتهم على ذلك وبنيت مدرسة سامطة للمرة الثانية ، وزدتها كثيرًا ، وجعلت فيها ستين معلمًا من كبار الطلبة ، واجتمع فيها نحو مائة وثلاثين طالبًا ، واختتن كثير من الأطفال وفيهم حافظ ، وقد أوْلَمتُ له ، وقلت لغيره من الأولاد : كل من فعل هكذا ، وترك اللعب واللهو واختلاط الرجال بالنساء والإسراف في النفقات الفارغة فإني مستعد له بمثل ذلك ، وكان لهذا الختان الذي جرى في

المدرسة أثر عظيم في ترك العادات القبيحة ، وجاء الناس من كل جهة يدخلون أولادهم المدرسة يقرؤون ويختتنون . ومن كان من الطلبة محتاجًا يجد المأكل والمشرب والملبس ولله الحمد .

كانت المدرسة في هذه السنة هادئة صافية ، وكان الطلبة مجتهدين ، والبلغة وافرة ومتيسرة ، واجتمع طلبة للعلم كثيرون وفيهم غرباء من (القرن) و(يَبّه) و (يبا) و(حلى) و(رجال ألمع) و(قحطان) و(غامد) و(زهران) .

وفيها جاءت هيئة لجازان وتوابعه ، يرأسها الشيخ محمد بن علي البيز ، فوصلوا سامطة ونزلوا في المدرسة واختبروا جملة من الطلبة فوجدوهم كأنهم قارئون على مشايخ أو متخرجون من مدارس ، فقرروا أن يتفرق كبار الطلبة على الجهات المحتاجة للتعليم .

وفيها بنيت مسجد (المسنا ، والجردية ، والحضرور ، والموسم ؛ والفراشية ، والجاضع ، واللقية) . وأصلحنا مسجد (الدريعية) وجامع (الجرادية) وفتحت مدرسة (المضايا) (بالحكامية) للمرة الأولى ، وأصلحت مسجد الطلبة في (سامطة)

وفي آخر هذه السنة بلغ حافظ رشده وحج مع والده وأخيه ، وتوفي والده عائدًا من الحج ، وكانت أمه قد توفيت قبل ذلك في شهر رجب من هذه السنة .

ثم دخلت سنة ١٣٦١هـ وفيها فتحت مدرسة(الجَرَادية) مع مدرسة(سامطة) وجعت فيها ستة معلمين مثل سامطة ، وكان تلاميذها نحو عشرين ومائة ..

وفيها فتحت مدرسة(النجامية) ومدرسة (بني حمد) ومدرسة (الجاضع) للمرة الثانية ، ومدرسة (اللقية) ، وبنيت مسجد بني حمد .

وفيها تجولت نحو جهة (بيش) ، وفتحت فيها مدرسة وبنيتها .

وفيها طلعت مع الأمير خالد والأمير تركي إلى (الرَيْث) ، وكان معي بعض الطلبة .

وفيها فتحت مدرسة (الحصامة) وبنيت مدرسة (النجامِية) وأصلحت مسجدها .

وفي هذه السنة تأخر خريف تهامة فأوجب الحال انتقال أهل تهامة لاتباع مساقط الأمطار في الوديان والحبائط[1] ، وكان الطلبة مع أهليهم ، وفي انتقالهم معهم بَث للدعوة فيما ينتقلون إليه من البلاد ، فوقع لذلك أثر عظيم في تلك الجهات ، فكان بعضهم يفتح مدرسة ويعلم فيها ، وبعضهم يبني مسجدًا ويؤذن فيه ويدعو الناس للصلاة ، وصاروا يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويطاردون المشعوذين الذين يدجلون على العوام بأنواع الدجل .

ثم دخلت سنة ١٣٦٢هـ . وفيها جمعت غالب الطلبة في مدرسة(الجاضع) لخصب تلك الجهة وجدب بلادهم ، ورجع المتنقلون منهم ومعهم جملة من طلاب العلم يطلبون معلمين لبلادهم ، فأرسلت معهم جملة من كبار الطلبة .

وفيها تسبب الأمير خالد السديري عند الحكومة لجملة من الطلبة بثلاثمائة ريال توزع عليهم شهريًا ، وهذا من مساعدته للدعوة ..

وفيها جعلت عمر بن أحمد الجروي في مدرسة(بيش) .

وفيها كثر الوافدون من كل جهة لطلب العلم من (الليث ، وييا ، والقرن ، والعرضية ، وحلي ، ورجال ألمع ، وغامد ، وزهران وتهامة وعسير ، وبَلَّحْمَر ، وبَلَّسْمَر ، وقحطان ، وشهران ، ورقبة) وأكثر هؤلاء يذهبون إلى اليمن لطلب العلم ، فإذا سمعوا بمدرسة (سامطة) صاروا يأتون إليها ؛ إما في ذهابهم وإما في إيابهم ؛ فمنهم من يقيم ويطلب العلم ما شاء اللّه ويرجع إلى أهله ، ومنهم من يذهب إلى اليمن بعد أن يستفيد من معرفة التوحيد والسنة والعمل بها ويعرف

---

(١) الحبائط : هي الأراضي المتاخمة لسفوح الجبال بين تهامة وجبال السراة في طول الجنوب . (المنهل).

التخريف والبدعة ويتجنبهما ، ويدعو إلى اللّه أينما كان وأينما توجه ، ويصبر على الأذى في ذلك ، والتوفيق بيد اللّه .

وفي هذه السنة اشتريت بيتًا بجوار المدرسة وتزوجت عند الأخ محمد عثمان ، وكان هذا أول بيت تأهلت فيه بتهامة ، وكنت قبلُ أنا وحافظ والغرباء في المدرسة والمسجد ؛ وفي بيت القاضي .

وفيها حصل لي مكسب في البيع والشراء على حسب الحال .

وفيها حصل جدب فتفرق غالب الطلبة للتكسب فلم يبق غير حافظ والغرباء وبعض كبار الطلبة .

وفيها أشرت على حافظ أن ينشئ نظمًا في التوحيد على موجب ما قرأه من كتب الشيخ محمد رحمه اللّه وكتب الشيخين ابن تيمية وابن القيم رحمهما اللّه .

وفيها تم بناء المسجد في الجرادية وإصلاح مسجد أبي حجر ، ومسجد الموسم .

ثم دخلت سنة ١٣٦٣ . وفيها اطلع سمو ولي العهد المعظم حفظه اللّه على خبر المدرسة والتلاميذ فتفضل ببعث إعانة كبيرة لي ، جزاه اللّه خيرًا ووفقه للأعمال الصالحة ، وقد جعلها سموه عادة سنوية ، وأمر سموه أمراء الجهة وقضاتها بتشجيع المدرسة والتلاميذ ، فكان الأمر كذلك وللّه الحمد ، وقد ازددنا بشرًا ونشاطًا .

وفي هذه السنة جعلت حافظًا ، مديرًا لمدرسة سامطة ويلاحظ مدرسة الجرادية .

وفيها تجولت نحو جهة بيش ، وفتحت مدرسة السلامة العليا وبنيتها ، ومدرسة المحلة ، وأم الخشب للمرة الثانية ، وتجولت في جهة الحكامية ، وفتحت مدرسة المضايا ثانيًا وجعلت فيها محمد عثمان .

وفيها بنيت مسجدًا في جازان للعسكر وفتحت عندهم مدرسة بطلب القائد والعسكر .

وفي هذه السنة بنيت مسجدًا بالمحلة ، وجعلت غالب بن إبراهيم إمامًا ومعلمًا فيها . وكثر الطلاب في كل نواحي تهامة ، وأكثرت التجولات .

وفيها أشرت على حافظ أن ينشئ نظمًا في الفقه والآداب ، ونظمًا في ذم الدخان والقات وأشباههما ، وكان حافظ ومن معه في جنوب تهامة ، وأخوه ومحمد عثمان في وسط تهامة ، وحسين عبد اللّٰه الحكمي ، وغالب ، وعمر ، في شمال تهامة . وأنا أدور على مدارسهم ، وأزودهم بما مَن اللّٰه تعالى به .

وفيها حج الأمير خالد وكان مساعدًا للدعوة .

ثم دخلت سنة ١٣٦٤، وجاء الشيخ محمد بن محمد السديري أميرًا لجازان وسلك خطة أخيه الشيخ خالد بمساعدة الدعوة وأوسع ، وطلب أمراء مقاطعة جازان وقضاتها ومشايخ القبائل أن أبعث لهم معلمين ، يفتحون المدارس وهم يساعدونهم على نشر الدعوة والإرشاد ، ففرقت الطلبة على حسب الاستطاعة ، وفتحت مدرسة الحدث بالمركز ، ومدرسة دهوان ، ومدرسة العارضة بالمركز ، ومدرسة الشيخ ومدرسة الشقيق بالمركز ، ومدرسة القحمة بالمركز ، ومدرسة بالبرك عند ابن حميد ، ومدرسة في بيش بالمركز ، ومدرسة في فيفا بالمركز ، ومدرسة في بني مالك بالمركز ، ومدرسة في هروب بالمركز ، ومدرسة في الدرب عند الشيخ ، ومدرسة في اللحا ، ومدرسة في أبي القعائد ، وفي الجارة ، ومدرسة في صبيا بالمركز ، ومدرسة في ضبيا ، ومدرسة في جازان ، ومدرسة في حاكمة ، ومدرسة في القعدة ، ومدرسة في مقاب ، ومدرسة في ميزاب بالمركز ، ومدرسة عند الشيخ ، ومدرسة في الدغارير ومدرسة في حجا ، ومدرسة في الدريعية ، ومدرسة في الطوال ، ومدرسة في شعب الدرعي ،

ومدرسة في المجنة ، ومدرسة في وعلان ، ومدرسة في الحفلة ، ومدرسة في مجعر ، ومدرسة في الركوبة ، ومدرسة في المرابي . وتجولت في الحبائط والجبال ، لملاحظة المدارس .

وفي هذه السنة نقلت حافظًا إلى مدرسة السلامة العليا ليدرس فيها ، ثم إلى أم الخشب ، ثم إلى صبيا ، ثم نقلته إلى سامطة ، فكمل فيها نظم الفقه ، وكتب نبذة في الفرائض وفي مصطلح الحديث . وكان ولله الحمد سير جميع المدارس والتلاميذ بهدوء وسكينة وجد واجتهاد في التعليم ونشر الدعوة بالرفق واللين .

وفي هذه السنة بلغ جلالة الملك أيده الله بنصره خبر المدارس ؛ فأرسل هيئة تكشف حقيقة الأمر .

ثم دخلت سنة ١٣٦٥؛ والمدارس مستقيمة ، والتجول عليها مستمر ؛ والأمراء والقضاة وعرفاء القبائل مساعدون .

وفيها أشرت على حافظ بنظم منظومة في السيرة وفي مصطلح الحديث .

وفيها وصلت الهيئة المشار إليها يرأسها صالح بن عبد الحميد ؛ فنزلت من أبها على الدرب ، فأعجبتهم مدرسته وما رأوا من المعلم والتلاميذ والدروس ، وهكذا حتى وصلوا إلى جازان ، ورأوا مدرستها ، ثم سامطة ومدرستها ، ثم مدرسة الجرادية ، فأعجبهم كل ذلك ثم رجعوا إلى سامطة ، وجاء المعلمون وكبار الطلبة ، وكتبت الهيئة أسماء المعلمين وأسماء التلاميذ والمدارس ، ورفعوا ذلك لجلالة الملك ، فلما بلغه ذلك حمد الله وأثنى عليه ، ودعا للطلبة وأمر للهيئة بجائزة كبيرة ، وأمر أن يقرر للمعلمين والتلاميذ رواتب شهرية ، وكانت الهيئة رفعت عن ست وعشرين مدرسة ، وستة وخمسين معلمًا ، ومائتي وألف تلميذ ، فقرروا على ما رأوا . والحمد لله رب العالمين الذي جعل ولي أمرنا يتفقد أحوال المسلمين فيعين أهل الخير ويقمع أهل الشرور ، رزقه الله البطائن الصالحة .

وفي آخر هذه السنة رجعت الهيئة على طريق أبها .

ثم دخلت سنة ١٣٦٦. وفي هذه السنة تجولت في جهة بيش والدرب ، والشقيق والقحمة .

وفيها وافقت قاضي جازان الشيخ عبد الله بن عودة بالدرب وهو ذاهب إلى أبها ، وقد مرض فشيعته إلى المخاضة ، فوافقت الأمير تركي السديري هناك ، فعرض عليَّ أن أتجول في أبها ونواحيها ، فأحببت ذلك واستأذنت فيه الملك وولي العهد فحصل الإذن والمساعدة ، فتجولت على المدارس الموجودة في أعمال أبها ، وهذه المدارس من آثار الشيخ عبد الله بن يوسف والشيخ عبد الله بن سليمان بن حميد والشيخ صالح التويجري ، وكان الأمير تركي يساعدنا مساعدة واسعة ؛ حتى أمر صاحب دكان لديه أدوات المدارس أن نأخذ منه ما نريد للمدارس على حسابه بدون حصر ولا قيد . فرأيت المدارس ذات أثر عظيم في جهات أبها ؛ وكان التلاميذ في أبها يقرأون على الشيخ ابن يوسف ، فأشرت عليه أن يفرقهم في القبائل ليفتحوا المدارس فوافق على ذلك ففرقتهم ، ثم تجولت أيضًا فرأيت الناس ولله الحمد مقبلين على الخير ، والمعلمين مجتهدين ، عسى الله أن يجعل الأعمال خالصة لوجهه ويرزق ولاة الأمر البطائن الصالحة .

وفي آخر هذه السنة استأذنت جلالة الملك حفظه الله وسمو ولي العهد حفظه الله ، فأذنا لي فتوجهت من أبها في رابع ذي الحجة ووصلت مكة شرفها الله تعالى ليلة الثامن ، واتفقت بسمو ولي العهد المعظم وكذا بشيخي الشيخ محمد بن إبراهيم ، وبالشيخ عمر بن حسن ، وبالشيخ عبد الله بن حسن آل الشيخ ، كلهم عند سمو ولي العهد المبجل في تلك الليلة ، فلما انقضى الحج استقدمت حافظًا إلى مكة .

ثم دخلت سنة ١٣٦٧. وفي أوائل المحرم منها قدم حافظ إلى مكة ، وزوجته ابنتي ثامن المحرم ، واستأذنت من سمو ولي العهد لزيارة جلالة والده

الملك أيده اللَّه فأذن لي وأمر لي بركوب الطائرة ، فسلمت على جلالة الملك ثم على جميع إخواننا الذين لم نتفق بهم في مكة . وقد أكد سمو ولي العهد على معالي وزير المالية بإجراء رواتب المعلمين شهريًّا ، ولِلَّه الحمد والمنة وبه التوفيق والعصمة .

انتهت الرسالة القرعاوية .

❁ ❁ ❁

الشيخ

محمد بن عبد الرزاق حمزة رحمه الله

مقالات الشيخ محمد بن عبد الرزاق حمزة(١)

---

(١) هو الشيخ محمد بن عبد الرزاق حمزة المصري ثم المكي . قال الشيخ عبدالله خياط - رحمه الله - : ينتهي نسبه إلى رسول الله ﷺ .ولد في شعبان عام ١٣٠٨هـ في قرية كفر عامر بمصر .
حفظ القرآن الكريم ومجموعة من مباديء العلوم ، والتحق في المدرسة الابتدائية الأميرية . ثم التحق بالأزهر وبعد تخرجه التحق بدار الدعوة والإرشاد التي أنشأها الشيخ محمد رشيد رضا - رحمه الله - فقرأ فيها ما كان مقررا من العلوم ، ثم لازم الشيخ محمد رشيد رضا ، وصار معاونا له في تصحيح ما يطبع في مطبعة المنار ، مع ملازمته في حضور دروسه .ودروس غيره من العلماء ومن أبرزهم الشيخ سليم البشري ، شيخ الأزهر ، والشيخ محمد توفيق صدقي ، أحد علماء الأزهر . كما لازم الشيخ عبد الظاهر أبا السمح ، ووجهه إلى قراءة كتب شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله وكانت معرفة الشيخ محمد عبد الرزاق حمزة بالشيخ عبد الظاهر أبي السمح بدار الدعوة والإرشاد معرفة قوية ثم توثقت العلاقات بالمصاهرة بينهما .
وبناءً على رغبة الملك عبد العزيز رحمه الله انتقل الشيخان بأهلهما وأولادهما إلى مكة المكرمة سنة ١٣٤٧هـ وأصدر الملك أمره بتعيين الشيخ عبد الظاهر محمد أبي السمح إمامًا وخطيبًا ومدرسًا في المسجد الحرام ، وتعيين الشيخ محمد عبد الرزاق حمزة إمامًا وخطيبًا ومدرسًا بالمسجد النبوي بالمدينة . ولم تطل إقامة الشيخ محمد عبد الرزاق حمزة في المدينة فنقل إلى مكة المكرمة في غضون ١٣٤٨هـ مدرسًا في الحرم المكي ، ومساعدًا للشيخ عبد الظاهر في إمامة الحرم والخطابة. كما عهد إليه التدريس في المعهد العلمي السعودي .
واستأنف- رحمه الله- نشاطه العلمي الإرشادي في مكة ، بفتح دروس للعامة بين العشاءين ، وبعد صلاة الفجر في المسجد الحرام ، في التفسير والحديث.
وكان للشيخ - رحمه الله - بعض الدروس لأفراد من راغبي العلم في حجرته بباب علي في المسجد الحرام وكانت تعرف بقبة الساعات .
وكان الاهتمام بالحديث وكتبه ودراسته ودراسة فنونه في مقدمة ما كان يحرص عليه الشيخ وبناءً عليه قام مع الشيخ عبد الظاهر بتأسيس (دار الحديث بمكة) سنة ١٣٥٠هـ.
وبذل الشيخ محمد عبد الرزاق مجهودًا كبيرًا في رفع مستوى طلاب الدار في علوم الحديث.
وفي سنة ١٣٧٢هـ تأسس في الرياض أول معهد علمي ، وانتدب الشيخ محمد عبد الرزاق حمزة للتدريس به ، واستمر انتدابه سنة واحدة تقريبًا ثم عاد إلى مكة المكرمة ليواصل التدريس ونشر العلم حيث تخرج عليه كثير من العلماء من أبرزهم الشيخ عبدالله بن عبد الغني خياط =

حق اللّٰه على عباده[(١)]

عن معاذ رضى اللّٰه عنه قال : كنت ردف النبى ﷺ على حمار ليس بينى وبينه إلا مؤخرة الرحل فقال : « يا معاذ ، هل تدري ما حق اللّٰه على عباده وما حق العباد على اللّٰه » قلت : اللّٰه ورسوله أعلم . قال : « حق اللّٰه على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا ، وحق العباد على اللّٰه أن لا يعذب من لا يشرك به شيئًا »[(٢)] الحديث .

اتفق على روايته عن معاذ إماما الدنيا في الحديث أبو عبداللّٰه محمد بن إسماعيل البخارى ، وأبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري في كتابهما الصحيحين ، اللذين هما أصح وأشهر وأبرك وأفضل كتابين بعد كتاب اللّٰه تعالى .

والحديث أفاد أن للّٰه على عباده حقًا أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا ، وهذا أمر تواطأت عليه الفطر والعقول والكتب السماوية والأديان الإلهية ، وإن اختلفت فيه

= والشيخ علي بن محمد الهندي والشيخ سليمان بن عبد الرحمن الصنيع .
واستمر للشيخ في جهاد علمي متواصل ، وخدمة للعلم في مختلف مجالاته ، ونشر للمعرفة بكل الوسائل مع زيادة اهتمام منه في التأليف والتعليقات على الكتب وكتابة المقالات في المجلات . حتى الأيام الأخيرة من عمره حيث أصيب رحمه اللّٰه بعدة أمراض واشتدت عليه وطأتها ، فأصبح من سنة ١٣٩٠هـ ملازمًا للفراش ، وأخيرًا وافاه الأجل المحتوم في الساعة الثامنة بالتوقيت الغروبي من يوم الخميس ٢٢-٢-١٣٩٢هـ وصُلِّيَ عليه في المسجد الحرام بعد صلاة المغرب ، ودفن بالمعلا ، رحمه اللّٰه رحمة الأبرار ، وأسكنه الفردوس الأعلى .
ومن مؤلفاته وآثاره العلمية : كتاب الصلاة ، وكتاب الشواهد والنصوص ، ورسالة في الرد على بعض آراء الكوثري ، وكتاب ظلمات أبي رية وغيرها . « الشيخ العلامة المحدث محمد عبد الرزاق حمزة ، حياته العلمية » لمحمد بن أحمد سيد أحمد « أعلام المكيين من القرن التاسع إلى القرن الرابع عشر الهجري » لعبداللّٰه بن عبدالرحمن بن عبد الرحيم المعلمي (٣٩٧/١).

(١) مجلة الإصلاح - العدد الثاني - ١٣٤٧/٣/١٥هـ .

(٢) أخرجه البخاري (٢٨٥٦) ، ومسلم (٣٠) من حديث معاذ رضي اللّٰه عنه .

مشارب الناس وأهواؤهم ، فأسعدهم من اهتدى إليه مسترشدًا بنور الفطرة وهداية الوحي وحسبنا في ذلك آخر كتب اللّه المنزلة وهو كتابه المجيد وما بينه من سنة رسوله الأمين ﷺ .

قال اللّه تعالى : ﴿وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [النِّساء: الآية ٣٦] .

وقال : ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ﴾ [الإسراء: الآية ٢٣] .

وقال : ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذّاريَات: الآية ٥٦] .

وعبادة اللّه أمر جامع لما يحبه اللّه من عباده ويرضاه منهم ، يدخل فيها كل ما تقرب الناس به إلى اللّه من صلاة وزكاة وصيام وحج وصدقة ونذر وذبح ودعاء واستغاثة وتوكل وخوف ورجاء .

قال الإمام شمس الدين ابن القيم في كتابه « مدارج السالكين »[(١)] :

وسر الخلق والأمر والكتب والشرائع والثواب والعقاب انتهى إلى هاتين الكلمتين – يعنى ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفَاتِحَة: الآية ٥] – وعليهما مدار العبودية والتوحيد ، وهما الكلمتان المقسومتان بين الرب وعبده نصفين فنصفهما له تعالى وهو ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [الفَاتِحَة: الآية ٥] ، ونصفهما لعبده وهو ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ .

ثم قال[(١)] : والعبادة تجمع أصلين غاية الحب بغاية الذل والخضوع ، والعرب تقول : طريق معبد أى مذلل ، والتعبد التذلل والخضوع ، فمن أحببته ولم تكن خاضعًا له لم تكن له عابدًا ، ومن خضعت له بلا محبة لم تكن عابدًا له حتى تكون محبًا خاضعًا . ومن هنا كان المنكرون لكونه تعالى محبوبًا لهم بل هو غاية مطلوبهم ووجهه الأعلى نهاية بغيتهم – منكرين لكونه إلاهًا وإن أقروا بكونه ربًا

---

(١) مدارج السالكين ٧٨/١، وما بعدها .

للعالمين وخالقًا لهم فهذا غاية توحيدهم وهو توحيد الربوبية الذي اعترف به مشركو العرب ، ولم يخرجوا به من الشرك كما قال تعالى ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزخرف: الآية ٨٧] ، وقال تعالى : ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الزخرف: الآية ٩] ، ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ ، ولهذا يحتج عليهم به على توحيد إلهيته وأنه لا ينبغي أن يعبد غيره ، كما أنه لا خالق غيره ولا رب سواه .

ثم تكلم الشيخ على الاستعانة بنحو هذا الأسلوب العذب والمنهل الصافي ، وبين النكتة البليغة في تقديم العبادة على الاستعانة ، وتقديم المعبود المستعان على فعل العبادة والاستعانة بكلام شهي ، فارجع إليه إن شئت .

ثم قال[١] : إذا عرف هذا فالناس في هذين الأصلين - وهما العبادة والاستعانة - أربعة أقسام : أجلها وأفضلها أهل العبادة والاستعانة بالله عليها ، فعبادة الله غاية مرادهم ، وطلبهم منه هو أن يعينهم عليها ويوفقهم للقيام بها ؛ ولهذا كان من أفضل ما يسأل الرب سبحانه وتعالى الإعانة على مرضاته ، وهو الذي علمه النبي ﷺ لحبه معاذ بن جبل فقال : « يا معاذ ، والله إني لأحبك فلا تنس أن تقول في دبر كل صلاة : اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك »[٢] .

فأنفع الدعاء طلب العون على مرضاته ، وأفضل المواهب إسعافه بهذا المطلوب ، وجميع الأدعية المأثورة مدارها على هذا ، وعلى دفع ما يضاده ، وعلى تكميله وتيسير أسبابه فتأملها .

---

(١) مدارج السالكين ٧٨/١، وما بعدها .

(٢) أخرجه أبو داود (١٥٢٢) ، وابن خزيمة (٧٥١) ، وابن حبان (٢٠٢٠) من حديث معاذ رضي الله عنه ، وصححه الألباني .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه[١] : تأملت أنفع الدعاء فإذا هو سؤال الله العون على مرضاته ، ثم رأيته في الفاتحة في ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفَاتِحَة: الآية ٥] .

ومقابل هؤلاء (القسم الثانى) وهم المعرضون عن عبادته والاستعانة ، به فلا عبادة ولا استعانة بل إن سأله أحدهم واستعان به فعلى حظوظه وشهواته لا على مرضاة ربه وحقوقه ، فإنه سبحانه يسأله من في السموات والأرض ، يسأله أولياؤه وأعداؤه ويمد هؤلاء وهؤلاء .

وأبغض خلقه عدوه إبليس ومع هذا فسأله حاجة فأعطاه إياها ومتعه بها ، ولكن لما لم يكن عونًا له على مرضاته كانت زيادة له في شقوته وبعده عن الله وطرده عنه . وهكذا كل من استعان به على أمر وسأله إياه ولم يكن عونًا على طاعته كان مبعدًا له عن مرضاته قاطعًا له عنه ولابد ، وليتأمل العاقل هذا في نفسه وفي غيره وليعلم أن إجابة الله لسائليه ليست لكرامة كل سائل عليه ، بل يسأله عبده الحاجة فيقضيها له وهى فيها هلاكه وشقوته ، ويكون قضاؤها له من هوانه عليه وسقوطه من عينه ، ويكون منعه منها لكرامته عليه ومحبته له ، فيمنعه حماية وصيانة وحفظًا لا بخلاً ، وهذا إنما يفعله بعبده الذي يريد كرامته ومحبته ، ويعامله بلطفه فيظن بجهله أن الله لا يحبه ولا يكرمه ، ويراه يقضى حوائج غيره فيسيء ظنه بربه ، وهذا حشو قلبه ، والمعصوم من عصمه الله ، والإنسان على نفسه بصيرة ، وعلامة هذا حمله على الأقدار وعتابه الباطن لها كما قيل :

وعاجز الرأي مضياع لفرصته حتى إذا فات أمر عاتب القدرا

فوالله لو كشف عن حاصله وسره لرأى هناك معاتبة القدر واتهامه وأنه قد كان ينبغى أن يكون كذا وكذا ولكن ما حيلتى والأمر ليس إلى . والعاقل خصم

---

(١) المستدرك على مجموع الفتاوى لابن قاسم ١/ ١٧٥.

نفسه والجاهل خصم أقدار ربه ، فاحذر كل الحذر أن تسأله شيئًا معينًا ، خيرته وعاقبته مغيبة عنك ، وإذا لم تجد بدا من سؤاله فعلقه على شرط علمه تعالى فيه الخيرة ، وقدم بين يدى سؤالك الاستخارة ، ولا تكن استخارة باللسان بلا معرفة ، بل استخارة من لا علم له بمصالحه ولا قدرة له عليها ولا اهتداء له إلى تفاصيلها ولا يملك لنفسه ضرًا ولا نفعًا ، بل إن وكل إلى نفسه هلك كل الهلاك وانفرط عليه أمره .

وإذا أعطاك ما أعطاك بلا سؤال فاسأله أن يجعله عونًا على طاعته وبلاغًا إلى مرضاته ، ولا يجعله قاطعًا لك عنه ولا مبعدًا عن مرضاته ، ولا تظن أن عطاءه كل ما أعطى لكرامة عبده عليه ، ولا منعه كل ما يمنعه لهوان عبده عليه ، ولكن عطاؤه ومنعه ابتلاء وامتحان يمتحن بهما عباده قال اللّٰه تعالى : ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا﴾ [الفجر : ١٥ - ١٧] أى : ليس كل من أعطيته ونعمته وخولته فقد أكرمته ، وما ذاك لكرامته عليَّ ولكنه ابتلاء مني وامتحان له أيشكرنى فأعطيه فوق ذلك أم يكفرنى فأسلبه إياه وأخول فيه غيره ؟ وليس كل من ابتليته فضيقت عليه رزقه وجعلته بقدر لا يفضل عنه فذلك من هوانه عليَّ ولكنه ابتلاء وامتحان منى له أيصبر فأعطيه أضعاف أضعاف ما فاته من سعة الرزق أم يتسخط فيكون حظه السخط ؟

فرد اللّٰه سبحانه على من ظن أن سعة الرزق إكرام وأن الفقر إهانة فقال : أبتلي عبدي بالغنى لكرامته علي ، ولم أبتله بالفقر لهوانه عليَّ ، فأخبر أن الإكرام والإهانة لا يدوران على المال وسعة الرزق وقدره ، فإنه يوسع على الكافر لا لكرامته ويقتر على المؤمن لا لإهانته له ، إنما يكرم من يكرمه بمعرفته ومحبته وطاعته ، ويهين من يهينه بالإعراض عنه ومعصيته ، فله الحمد على هذا وهذا وهو

الغني الحميد فعادت سعادة الدنيا والآخرة إلى ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفَاتِحَة: الآية ٥] .

ثم ذكر القسم الثالث وهم من لهم نوع عبادة بلا استعانة .

والقسم الرابع فقال : هو من شهد تفرد اللَّه بالنفع والضر ، وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، ولم يدر مع ما يحبه وبرضاه ، فتوكل عليه واستعان به على حظوظه وشهواته وأغراضه وطلبها منه وأنزلها به فقضيت وأسعف ، ولكن لا عاقبة له ، سواء كانت أموالاً أو رياسة أو جاهًا عند الخلق ، أو أحوالاً من كشف وتأثير وقوة وتمكين ، فإنها من جنس الملك الظاهر والأموال ، لا تستلزم الإسلام فضلاً عن الولاية والقرب من اللَّه تعالى ، فإن الملك والجاه والحال معطاة للبر والفاجر والمؤمن والكافر ، فمن استدل بشيء من ذلك على محبة اللَّه لمن آتاه إياه ورضاه عنه وأنه من أوليائه المقربين فهو من أجهل الجاهلين وأبعدهم معرفة باللَّه ودينه والتمييز بين ما يحبه ويرضاه ويكرهه ويسخطه ، فالحال من الدنيا فهو كالملك والمال إن أعانك على طاعة اللَّه ومرضاته وتنفيذ أوامره ألحقك بالملوك العادلين البررة وإلا فهو وبال على صاحبه ومبعد له عن اللَّه وملحق له بالملوك الظلمة والأغنياء الفجرة .

أقول : تأمل هذا الكلام النفيس في الأحوال من كشف وتأثير وما يسميه الناس خوارق وكرامات ، فقد فتن بها خلق كثير وضل بشر لا يحصون ، فضلوا بها وأضلوا عن سواء السبيل ، وهذا في الأحوال الحقيقية فما بالك بالمختلق منها الذي يصنعه منتحلوه بحيل وتلبسات وأكاذيب مفتريات ، فإنا للَّه وإنا إليه راجعون ، نسأل اللَّه العفو والعافية والمعافاة ، ونحمده على ما عافانا مما ابتلى به كثيرًا من خلقه ، ونسأله الهداية ودوامها والتوفيق ، ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب .

قال الشيخ : إذا عرف هذا فلا يكون العبد متحققًا بـ ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ إلا بأصلين عظيمين :

أحدهما : متابعة الرسول ﷺ .

والثاني : الإخلاص للّه المعبود فهذا تحقيق ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ ، والناس منقسمون بحسب هذين الأصلين أيضا إلى أربعة أقسام :

أحدها : أهل الإخلاص للمعبود والمتابعة لرسوله ﷺ وهم أهل ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ حقيقة ، فأعمالهم كلها للّه ، وعطاؤهم للّه ، ومنعهم للّه ، وحبهم للّه ، وبغضهم للّه ، فمعاملتهم ظاهرًا وباطنًا لوجه اللّه وحده لا يريدون بذلك جزاء من الناس ولا شكورًا ، ولا ابتغاء الجاه عندهم ولا طلب المحمدة والمنزلة في قلوبهم ، ولا هربًا من ذمهم ، بل قد عدوا الناس بمنزلة أصحاب القبور لا يملكون لهم ضرًا ولا نفعًا ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا ، فالعمل لأجل هؤلاء وابتغاء الجاه والمنزلة عندهم ورجاؤهم للضر والنفع منهم لا يكون من عارف بهم البتة ، بل من جاهل بشأنهم وجاهل بربه .

فمن عرف الناس أنزلهم منازلهم ومن عرف اللّه أخلص له أعماله وأقواله وعطاءه ومنعه وحبه وبغضه ، ولا يعامل أحد الخلق دون اللّه إلا لجهله باللّه وجهله بالخلق ، وإلا فإذا عرف اللّه وعرف الناس آثر معاملة اللّه على معاملتهم . وكذلك أعمالهم كلها وعباداتهم موافقة لأمر اللّه ولما يحبه ويرضاه ، وهذا هو العمل الذي لا يقبل اللّه من عامل سواه ، وهو الذي بلى عباده بالموت والحياة لأجله . قال تعالى : ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡمَوۡتَ وَٱلۡحَيَوٰةَ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۚ﴾ [المُلك: الآية ٢] ، وجعل ما على الأرض زينة لها ليختبرهم أيهم أحسن عملًا[1] .

---

(١) يشير لقوله تعالى : ﴿إِنَّا جَعَلۡنَا مَا عَلَى ٱلۡأَرۡضِ زِينَةٗ لَّهَا لِنَبۡلُوَهُمۡ أَيُّهُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗا﴾ [الكهف: الآية ٧] ، وكلام الفضيل تفسير لها .

قال الفضيل بن عياض : هو أخلصه وأصوبه . قالوا : يا أبا علي ، ما أخصله وأصوبه ؟ قال : إن العمل إذا كان خالصًا ولم يكن صوابًا لم يقبل ، وإذا كان صوابًا ولم يكن خالصًا لم يقبل حتى يكون خالصًا صوابًا . والخالص ما كان للَّه والصواب ما كان على السنة .

وهذا هو المذكور في قوله تعالى : ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: الآية ١١٠] ، وفي قوله : ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ [النّساء: الآية ١٢٥] فلا يقبل من العمل إلا ما كان خالصًا لوجهه على متابعة أمره وما عدا ذلك فهو مردود على عامله يعود أحوج ما كان إليه هباءً منثورًا .

وفي الصحيح عن النبي ﷺ : « كل عمل ليس عليه أمرنا فهو رد »[1] . وكل عمل بلا اقتداء فإنه لا يزيد عامله من اللَّه إلا بعدا فإن اللَّه تعالى إنما يعبد بأمره لا بالآراء والأهواء .

الضرب الثاني : من لا إخلاص له ولا متابعة فليس عمله موافقًا للشرع ولا هو خالصًا للمعبود كأعمال المتزينين للناس المرائين لهم بما لم يشرعه اللَّه ولا رسوله ، وهؤلاء هم شرار الخلق وأمقتهم إلى اللَّه عز وجل ولهم أوفر نصيب من قوله : ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [آل عِمران: الآية ١٨٨] يفرحون بما أتوا من البدعة والضلالة والشرك ويحبون أن يحمدوا باتباع السنة والإخلاص .

وهذا الضرب يكثر فيمن انحرف من المنتسبين إلى العلم والفقر والعبادة عن الصراط المستقيم فإنهم يرتكبون البدع والضلالات والرياء والسمعة ، ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا من الاتباع والخلاص والعلم ، فهو أهل الغضب والضلال .

(١) أخرجه البخاري (٢٦٩٧) ، ومسلم (١٧١٨) من حديث عائشة رضي اللَّه عنه .

الضرب الثالث : من هو مخلص في أعماله لكنها على غير متابعة الأمر ، كجهال العباد والمنتسبين إلى طريق الزهد والفقر وكل من عبد اللَّه بغير أمره واعتقده قربة إلى اللَّه تعالى ، فهذه حاله كمن يظن أن سماع المكاء والتصدية قربة ، وأن الخلوة التي يترك فيها الجمعة والجماعة قربة ، وأن مواصلة صوم النهار بالليل قربة ، وأن صيام يوم فطر الناس كلهم قربة ، وأمثال ذلك .

قلت : رحم اللَّه الشيخ فأين المقلدون الذين يعبدون اللَّه بآراء شيوخهم ويعرض عليهم كلام اللَّه ورسوله فيعرضون عنه تقليدًا لمن نهاهم عن تقليدهم .

قال الشيخ : الضرب الرابع : من أعماله على متابعة الأمر لكنها لغير اللَّه تعالى كطاعات المرائين وكالرجل يقاتل رياء وحمية وشجاعة ويحج ليقال : يقرأ القرآن ليقال : فهؤلاء أعمالهم أعمال صالحة مأمور بها لكنها غير خالصة فلا تقبل ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البَيِّنَة: الآية ٥] ، فكل أحد لم يؤمر إلا بعبادة اللَّه بما أمر اللَّه وبالإخلاص للَّه في العبادة وهم أهل ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ [الفَاتِحَة: الآية ٥] . اهـ .

انتهى ما أردت تلخيصه من كلام هذا الإمام الجليل في معنى ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ [الفَاتِحَة: الآية ٥] ، وهو لائق بشرح ما جاء في الحديث الذي ابتدأت الكلام به من قوله ﷺ : « حق العباد على اللَّه أن يعبدوه » . وبقي الكلام على قوله : « ولا يشركوا به شيئا » . إلى آخر الحديث نرجئها إلى الكلمة التالية لبسط الكلام فيها على الشرك وأنواعه وما وقع الناس فيه منه وهم لا يشعرون ، وجدالهم عنه وشبههم في ذلك مستعينين في ذلك بحول اللَّه وقوته وتوفيقه وهدايته ، ثم بكلام أئمة العلم ونجوم الهداية وفحول البيان المستند إلى كلام اللَّه وسنة رسول اللَّه ﷺ ، ولا حول ولا قوة إلا باللَّه العلي العظيم .

❁ ❁ ❁

إن أكرمكم عند الله أتقاكم(١)

قال الله تعالى وهو أصدق القائلين: ﴿إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: الآية ١٣] صدق الله العظيم.

قرر الإسلام هذا الإصلاح العام الشامل وأصل هذا الأصل الأصيل الحق النافع، أن الناس كلهم بنو أب واحد وأم واحدة، أبوهم(٢) آدم والأم حواء، فهم إخوة أشقاء يجري فى عروقهم جميعًا دم الأخوة الإنسانية عربهم وعجمهم أسودهم وأحمرهم والأصفر والأبيض، لا فضل لأحد على أحد إلا بالعمل الصالح والتقوى والنفع العام للمجتمع البشرى، فحطم بذلك أغلالًا من الباطل غلت بها أيدي الإنسانية المظلومة عن التعاون الخيري المؤسس على العدل والإنصاف، فقد قسمت -لأغراض ظالمة(٣) -الناس قسمة ضيزى، لا سند لها من عقل ولا فطرة ولا واقع وميزوا بعضها بالوهم والغشم، وجعلوها أجناسًا من حيوانات شتى، وفرقوا بينها بفوارق الأنانية والأثرة والتعالي الكاذب وظلم الإنسان لأخيه الإنسان، عندك وثنية الهندوس التي قسمت الناس أقسامًا أربعة، أعلاها البراهمة وأدناها شودر، ينفصل بعضها عن بعض في كل شيء من مرافق الحياة في الطعام والشراب والاختلاط والاتصال والزواج، فليس لواحد منها أن يتطلع إلى غير طبقته أو يرفع بصره عنها، حتى لقد اعتقدت كل طبقة بنجاسة من دونها، فالشودري(٤) مثلًا: عليه أن يخلي الطريق لمن فوقه كالبرهمي، ولا يصح

(١) مجلة «الحج» - رجب - ١٣٦٧هـ - السنة ٢.

(٢) في الاصل «أبوهما».

(٣) في الأصل «الظالمة».

(٤) في الأصل «فالشورى».

له بحال من الأحوال أن يمسه ، ولا أن يتعبد معه في معبد . دعى الحكيم أجمل خان زعيم الهند السياسي ورأس أطبائها لمعاينة مرض أحد الرجوات الهندوس ، وعندما جس[١] نبضه ، دعا الراجا بماء لغسل يده ، مما مست يد الحكيم أجمل خان ، فدعا أجمل خان خادمه - مقابل للعمل بمثله - فغسل يده وانصرف عن الراجا بازدراء حتى دهش الراجا وانبهر.

هكذا يعامل الإنسان أخاه الإنسان كمعاملة متفيهق موسوس لكلب أو خنزير ! وقد سرى هذا العنت والظلم إلى وثنيات أخرى فترى مثل هذا أو شبيهًا به لدى جاهلية الفراعنة والأكاسرة والأباطرة ، حتى عرب الجاهلية الذين صهرتهم خشونة الصحراء ، وساوى بينهم شظف العيش لم يسلموا من هذه النعرة الجنسية والتفاخر بالأحساب والاعتزاز بشرف الأنساب ، حتى جاء الإسلام بهذا الانقلاب والإصلاح وبالثورة على هذا الظلم الصارخ ، فدك تلك الحواجز الوهمية ، وأبطل تلك الفروق الجاهلية ، فنادى في صريح كتابه وعلى لسان رسوله أن الناس كلهم بنو آدم ، ففي القرآن ما لا يعد كثرة من قوله تعالى : ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ﴾ [الأعراف: الآية ٢٦] وقوله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾.

وهذه الآية في صدر المقال تنادي بصريح العبارة أن الناس خلقوا من ذكر وأنثى فهم أشقاء الأبوة الآدمية والأمومة الحوائية ، وإنما جعلهم اللَّه شعوبًا وقبائل للتعارف بالانتساب لا للتفاخر بالأنساب ولا للتباهي بالأحساب وختمها بالقول الفصل ﴿إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡ﴾ [الحجرات: الآية ١٣].

وجاء في السنة النبوية ما هو ضياء ونور وشرح لكتاب اللَّه تعالى ، فعن حذيفة ابن اليمان قال[٢] : قال رسول اللَّه ﷺ : « كلكم بنو آدم وآدم خلق من تراب ،

---

(١) في الأصل « جلس ».

(٢) بعدها في الأصل : « من تراب » .

لينتهين قوم يفخرون بآبائهم ، أو ليكونن أهون على اللّه تعالى من الجعلان أو الجعل »[١] . ويقول العامة : الجعلان دويبة خسيسة تندس في الأقذار وتتغذى بها .

وعن ابن عمر رضي اللّه عنهما أن رسول اللّه ﷺ خطب على راحلته فحمد اللّه تعالى وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال : « يا أيها الناس إن اللّه تعالى قد أذهب عنكم عبية الجاهلية - أي كبرها - وتعظمها بآبائها فالناس رجلان ؛ رجل بر تقي كريم على اللّه تعالى ، ورجل فاجر شقي هين على اللّه تعالى ، إن اللّه عز وجل يقول : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: الآية ١٣] ، ثم قال ﷺ : « أقول قولي هذا وأستغفر اللّه لي ولكم » . نقله الحافظ ابن كثير[٢] عند تفسير هذه الآية من تفسير ابن أبي حاتم وعبد بن حميد ، قال : وروى الإمام أحمد في « مسنده »[٣] بسنده إلى عقبة بن عامر قال : إن رسول اللّه ﷺ قال : « إن أنسابكم هذه ليست بمسبة على أحد ، كلكم بنو آدم ، طف الصاع لم يملؤوه ، ليس لأحد على أحد فضل إلا بدين وتقوى ، وكفى بالرجل أن يكون بذيًا بخيلا

(١) مسند البزار (٢٩٣٨) . قال الشيخ الألباني : (صحيح) انظر حديث رقم : ٤٥٦٨ في صحيح الجامع.

وقد ورد في الحديث : « الْجِعْلاَنِ التى تَدْفَعُ بِأَنْفِهَا النَّتْنَ » . أخرجه أحمد (١٠٧٩١) ، وأبو داود (٥١١٦) . قال في عون المعبود (١٦/١٤) : قال العلامة الدميري في حياة الحيوان الجعل كصرد ورطب وجمعه جعلان بكسر الجيم والعين ساكنة وهو يجمع الجعر اليابس ويدخره في بيته وهو دويبة معروفة تعض البهائم في فروجها فتهرب شديد السواد في بطنه لون حمرة يوجد كثيرا في مراح البقر والجواميس ومواضع الروث ومن شأنه جمع النجاسة وادخارهاومن عجيب أمره أنه يموت من ريح الورد وريح الطيب فإذا أعيد إلى الروث عاش ومن عادته أن يحرس النيام فمن قام لقضاء حاجته تبعه وذلك من شهوته للغائط لأنه قوته .

(٢) تفسير ابن كثير ٧/ ٣٦٦.

(٣) أحمد ٤/ ١٤٥، ١٥٨.

فاحشًا » . قال : ورواه ابن جرير ولفظه : « الناس لآدم وحواء ، طفُّ الصاعِ ، لم يملؤوه ، إن اللَّه لا يسألكم عن أحسابكم ولا عن أنسابكم يوم القيامة ، إن أكرمكم عند اللَّه أتقاكم » .

قال الجزري في « النهاية »[١] : قوله : « كلكم بنو آدم ، طفُّ الصاعِ ، ليس لأحد على أحد فضل إلا بالتقوى » : أي قريبٌ بعضكم من بعض . يُقال : هذا طفُّ المكيال وطفافه -بكسر الطاء وضمها- وطفافه : ما قرب من ملئه . قال : والمعنى : كلكم في الانتساب إلى أب واحد بمنزلة واحدة في النقص والتقاصر عن غاية التمام . شبههم في نقصانهم بالمكيل الذي لم يبلغ أن يملأ المكيال ، ثم أعلمهم أن التفاضل ليس بالنسب ولكن بالتقوى اهـ .

وروى الإمام أحمد[٢] عن درة بنت أبي لهب قالت : قام رجل إلى النبي ﷺ وهو على المنبر فقال : يا رسول اللَّه ، أي الناس خير؟ قال ﷺ : « خير الناس أقرؤهم وأتقاهم للَّه عز وجل وآمرهم بالمعروف وأنهاهم عن المنكر وأوصلهم للرحم » .

وفي حديث حبيب بن خراش القصيري أن رسول اللَّه ﷺ يقول : « المسلمون إخوة لا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى » . رواه الطبراني[٣]

وفي حديث أبي هريرة عند مسلم[٤] قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « إن اللَّه لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم » .

---

(١) النهاية ٣/ ١٢٩.

(٢) أحمد ٥/ ٤٣٢. قال الشيخ الألباني : (ضعيف) انظر حديث رقم : (٢٨٩٧) في ضعيف الجامع.

(٣) المعجم الكبير (٣٥٤٧) . قال الشيخ الألباني : (موضوع) انظر حديث رقم : (٥٩٣٤) في ضعيف الجامع.

(٤) برقم (٢٥٦٤).

وروى الإمام أحمد[1] عن أبي ذر رضي اللَّه عنه قال إن النبي ﷺ قال له: « انظر فإنك لست بخير من أحمر ولا أسود إلا أن تفضله بتقوى ».

هذا ولو لم تكن تلك الرذيلة إلا أنها من اختراع رأس كل شر، وينبوع كل ضلال، أعني: إبليس لعنه اللَّه إذ يقول: ﴿أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف: الآية ١٢]، ﴿ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ [الإسراء: الآية ٦١]، لكفى بها رذيلة، وحسبك بها مقتًا وحقارة وعارًا.

وقد جاءت سنة النبي ﷺ العملية تطبيقًا لهذا الإصلاح تنظيمًا لهذا المبدأ وجريًا على هذا المنوال الحكيم فقد اشمأزت عصبية قريش وعبيتها من التفاف الموالي من السابقين الأولين حول النبي ﷺ كبلال وخباب وصهيب، فطلبوا منه أن يطردهم عنه ليجالسوه بنعرتهم الحسبية وتعظمهم بالنسب والجاه والمال، ومال النبي ﷺ إلى شيء من ذلك حرصًا على هدايتهم وطمعًا في جلبهم إلى الخير، فأنزل اللَّه تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الأنعام: ٥٢، ٥٣].

وقوله: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ﴾ [الكهف: ٢٨، ٢٩]

وقال للذي لم تظل الخضراء ولم تقل الغبراء أصدق لهجة منه أزهد الناس في الدنيا وحطامها الفاني أبي ذر الغفاري عندما عير أحد الموالي بأمه فقال له: يابن

(١) أحمد ٥/ ١٥٨. وحسنه الألباني. « غاية المرام » (٣٠٨).

السوداء، فقال النبي ﷺ في غير محاباة ولا مداورة «أعيرته بأمه؟ إنك امرؤ فيك جاهلية»[١]. فقال أبو ذر: على كبر سني يا رسول الله! فكان أبو ذر بعد ذلك يقسم قطعتي الحلة بينه وبين مولاه فيلبس شقها ويلبس مولاه شقها الآخر، وهو الذي روى الحديث: «إخوانكم خولكم جعلهم الله تحت أيديكم فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يطعم وليلبسه مما يلبس»[٢].

وزوج عبد الرحمن بن عوف الزهري أحد سراة الصحابة أخته لبلال بن رباح الحبشي المولى. رواه الدارقطني[٣]. وبنو زهرة هم بنو زهرة من علياء قريش، وأصهار بني هاشم، وأخوال النبي ﷺ.

وزوج رسول الله ﷺ بنت عمته زينب بنت جحش الأسدية القرشية مولاه زيد بن حارثة الكلبي، وزوج فاطمة بنت قيس بنت عم عبد الله بن أم كلثوم وهي قرشية وخطبها معاوية بن أبي سفيان فأشار عليها النبي ﷺ بمولاه وحِبه أسامة بن زيد بن حارثة الكلبي فتزوجته واغتبطت به، وقالت جعل الله لي في ابن زيد خيرًا كثيرًا.

وزوج النبي ﷺ بنتيه رقية وأم كلثوم الواحدة تلو الأخرى من عثمان بن عفان الأموي العبشمي، وزوج ابنته زينب من أبي العاص العبشمي.

وزوج علي بن أبي طالب بنته أم كلثوم الفاطمية الهاشمية من عمر بن الخطاب العدوي.

وقال النبي ﷺ لبني بياضة من الأنصار وهم من خالص العرب: «أنكحوا أبا طيبة[٤] وهو مولى لهم حجام... الخ.

---

(١) البخاري (٣٠، ٦٠٥٠)، ومسلم (١٦٦٠، ١٦٦١).

(٢) المصدران السابقان.

(٣) الدارقطني ٣/ ٣٠١.

(٤) أبو داود (٢١٠٢). وفيه: «أبا هند»، وصححه الألباني في الصحيحة (٢٤٤٦).

وزوج أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس القرشي سالمًا -مولى امرأة من الأنصار- زوجه بنت أخيه الوليد بن عتبة بن ربيعة وتبناه.

وروى الترمذي[1] وحسنه عن أبي حاتم المزني عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا أتاكم من ترضون دينه وخلقه فأنكحوه إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير». قالوا: يا رسول الله وإن كان فقيرًا؟ قال: «إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فأنكحوه ثلاث مرات».

وقد رأينا ذلك الفساد الكبير وتلك الفتنة التي أشار إليها ﷺ فيمن انحرف عن هذه السنة القديمة وأحيا النعرة الجاهلية وأنبت جذور الشجرة التي اجتثها الإسلام، فأعنس العواتق، وعجز الفتيات اللاتي أعدتهن الفطرة أن يكن سيدات بيوت، وأمهات رجال المستقبل، وشقائق الرجال، فأفسد تلك الفطرة القويمة وعوج الصراط السوي.

حكى المقبلي اليمني في كتابه «العلم الشامخ»[2] أن ضيفًا نزل برجل نسيب عنده فتاة ناهد[3]، فسأل المضيف ضيفه: أسيد أنت؟ ليصاهره. فأشارت إليه الفتاة من طرف خفي قل: نعم. فقال الضيف: لا. فصاحت الفتاة، فعل الله بك وفعل، تقع في إمام وقتها الذي أحيا تلك السنة الجاهلية بعدما أماتها الإسلام.

استقام المسلمون أولًا على صراط الإسلام حقًّا ظاهرًا وباطنًا، قلبًا وقالبًا، جسدًا وروحًا، فاستقام لهم عز الدنيا والآخرة، وملكوا مقاليد العالم. ولما غيروا وبدلوا غير الله عليهم وصرف نعمته عنهم مما نجني ثماره المرة اليوم، بل ما

---

(١) الترمذي (١٠٨٥). وحسنه الألباني. «إرواء الغليل» رقم(١٨٦٨).

(٢) «العلم الشامخ» (ص٣٥٥).

(٣) ناهد: إذا نهد ثدي الجارية، قيل: هي ناهد إذا كعب وانتبر وأشرف. تاج العروس (ن هـ د).

نحصد إلا بشوك وقتاد .

والدين هو الدين في جوهره ولبه ومعناه ومبناه ، ولو عدنا إليه حقًّا لعادت إلينا سيادة الناس وقيادة العالم وعز الدنيا وسعادة الآخرة ، ولقد قال اللَّه تعالى : ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [النّور: الآية ٥٥] .

وقال إمام دار الهجرة مالك بن أنس رحمه اللَّه : لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها .

يعني بالدين . ولنا رجاء نرجوه في رحمة اللَّه أن يستدير الزمان ويعود للمسلمين عزهم بالتمسك بدينهم ، وما ذلك على اللَّه بعزيز .

ولقد تغنى الشعراء بهذا الإصلاح الإسلامي وأشاعوا هذا المبدأ الحق ، فقد قال قائلهم[1] :

كن ابن من شئت واكتسب أدبًا يغنيك محموده عن النسب
فقد رفع الإسلام سلمان فارس ووضع الكفر النسيب أبا لهب

وللَّه أبو الآخر إذ يقول منفرًا عن غرور العظامية :

لئن فخرت بآباء ذوي حسب فقد صدقت ولكن بئس ما ولدوا

هذا ، وأرجو أن لا يكون في هذا الكلام مساس بشعور أحد من خلق اللَّه تعالى وإساءة إلى إحساس فرد من الناس ، فما كان إلا بيانًا للإصلاح الإسلامي ، وشرطًا لما صرحت به الآية الكريمة ، وأن أكرمكم عند اللَّه أتقاكم ، وما بينها وفصلها من سنة النبي الكريم قولًا وعملًا وإصلاحًا وتطبيقًا .

---

(١) « جمهرة الأمثال » (٣١٢/٢) .

ولسنا ننفس[1] على العظاميين ما تعلقوا به من عظام ونسب ، فلو شئنا لسابقناهم في هذا المضمار ، وقد نسبقهم فيه ، ولكنا دفنا عظامنا كما أمر الإسلام ، فمعاذ اللَّه أن نحيي ما أماته من عبية الجاهلية ، أو نحيا بين الناس إلا بما تصح الحياة به شرعًا وقدرًا من العمل النافع المفيد للهيئة الاجتماعية ، وأن نتنافس إلا فيما حث اللَّه ورسوله على التنافس فيه من الإيمان والتقوى والعمل الصالح ، فهذا هو الصراط المستقيم وذلك هو دين القيمة .

نسأل اللَّه العظيم الهداية إليه قولًا وعملًا وعقدًا والثبات عليه إلى الممات . وآخر دعوانا أن الحمد للَّه رب العالمين .

❁❁❁

---

(١) هكذا في الأصل ولعل الصواب « ننافس ».

«اللَّه رب العالمين في الفطر والعقول والأديان»(١)

(١)

﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فُصّلت: الآية ٥٣] .

خواطر سانحة في الإيمان باللَّه تعالى والإذعان لربوبيته

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ .

وبعدُ : فهذه خواطر سانحة وإحساسات عقلية ووجدانية في الإيمان باللَّه وصفاته ، مقتبسة من القرآن الكريم وثمرات قرائح المفكرين من المؤمنين باللَّه وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر قيدتها تذكيرًا لنفسي ، ولمن يذكر فتنفعه الذكرى ممن له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد .

ولم يغب عني ما قالته تلك العجوز حينما مر بها حفل حاشد إعظامًا برجل عالم ذكروا لها أنه أقام ألف دليل ودليل على وجود اللَّه تعالى .. فقالت العجوز : أكان اللَّه ضائعًا فوجدوه ، أم غائبًا فآب إليهم .. فقال العالم عندئذ : اللهم إيمانًا كإيمان العجائز .

وتلك المرأة التي راودها فاسق عن نفسها وسهل عليها الأمر وأنه لا يراهم إلا الكواكب ، فقالت له : وأين مكوكبها .

وقول الآخر : إن البعرة تدل على البعير ، والأثر على المسير ، فسماء ذات

---

(١) الحج - ربيع الأول - ١٣٧٦هـ.

أبراج ، وأرض ذات فجاج ، أفلا يدلان على اللطيف الخبير .

وقول الآخر : إن سفينة تبحر من الهند إلى بلاد العرب لا ترى إلا السماء والماء لا يعقل أن تكون بلا ربان يوجهها ويسيرها .. إلى آخر ما جاء في ذلك من كلام العقلاء المؤمنين .

بين مؤمن بالله وكافر به .. بين موسى وفرعون

فرعون : ﴿وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: الآية ٢٣] .

سؤال منكر لرب العالمين رب السماوات والأرض ، جاحد لما أقرت به الفطر والعقول والرسل والسماوات والأرض وما بينهما .

موسى : ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: الآية ٥٠] ، ﴿قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ [الشعراء: الآية ٢٤] ، ﴿قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الشعراء: الآية ٢٨] .

فهذه السماوات بنجومها وكواكبها وشموسها وأقمارها ، والأرض بجبالها وجناتها وحيواناتها وآدميها ، والسحاب والرياح والبحار والصحاري ، كلها خلق الله تعالى وتدبيره وترتيبه وتنظيمه وآياته ومظهر علمه وإرادته وقدرته وحكمته ورحمته : ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: الآية ٥٠] . خلقه بعد أن لم يكن وهداه بالسنن والفطرة والغرائز والإحساس والفكر والعقل والدين إلى ما يصلحه ويوصله إلى الغاية التي خُلق لها : ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: الآية ١٦٤] .

إن هذا التدبير المحكم والآيات البينات دليل عقلي فطري وجداني على مدبر عالم حكيم رحمن رحيم شهدت بذلك العقول ، وأقرت الفطر ، آمن به جميع

البشر إلا شرذمة حقيرة .

تحاور جاحد مع زوجه في سبب موت ولدهما ، فقالت له الزوج : إن ولدنا كنا نربيه على أحدث أساليب التربية من غذاء ونظافة ورياضة ، فما سبب موته ؟ قال الجاحد : فأرادت المرأة أن تقهرني على الإيمان بالله .. خالق الأسباب والمسببات ففرت منها إلى بحث آخر : ﴿فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ﴾ [البقرة: الآية ٢٥٨] .

فرعون : ﴿قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ﴾ [الشعراء: الآية ٢٥] ، ﴿قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ [الشعراء: الآية ٢٧] ، ﴿قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ﴾ [طه: الآية ٥١] .

يشهر بموسى أنه يقول ما ليس بمعقول عندهم ، لأنه ينفي الدهرية التي تواطؤوا عليها وارتسموها فيما بينهم ، ويظنونها في القرون السالفة كذلك ، وأنهم لا يعرفون إلا ما يشاهدونه من عالم المشاهدات ، ولا يؤمنون بما وراءه من عالم الغيب الذي هو روح هذه المشاهدات .

موسى : ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: الآية ٥٠] . ﴿رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ [الدخان: الآية ٧] . ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الشعراء: الآية ٢٨] والقرون الأولى ﴿عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى * ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ﴾ .

فالقرون الأولى كافرهم ومؤمنهم ، وما انطوت عليه صفحات تاريخهم ، وسجل أعمالهم لا يخفى على خالقهم ، علمه وكتبه في كتاب عنده لا خطأ ولا نسيان ولا ضلال ولا إهمال ..

ربي الذي جعل لكم الأرض ممهدة صالحة للسكنى ، فليست كلها بحارًا لا

تصلح لحيوانات البر وأناسيه، ولا هي جبال كلها وصخور لا تصلح للنبات والمعيشة وما تحتاجه الحياة من طعام وشراب.

ومن تمهيده هذه السفن والطرق فيها برية وبحرية يتصل بها مشارق الأرض بمغاربها بالأسفار والتجارات والقوافل والفلك المشحون.

وأنزل من السماء ماءًا عذبًا حلوًا، استخلصه من ماء البحار المر الأجاج، يحيا به النبات والحيوان والإنسان، ولولاه لأقفرت الحياة على وجه الأرض، ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ۝١٠ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٧ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ۝٨ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ۝٩ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ۝١٠ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ﴾.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: الآية ٩٩].

﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ۝٦٠ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾ فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ .

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ ۖ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ﴾ [النّور: الآية ٤٣] .

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ .

﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النّحل: الآية ١٨] .

سقنا هذه الآيات في سياق احتجاج موسى على فرعون في جحوده لرب العالمين ؛ لمناسبتها لحجج موسى وتفصيلًا لما أشار إليه الكليم ﷺ مما جاء في القرآن الكريم بيانه وتفصيله مصداقًا للحديث : « ونحن معاشر الأنبياء ديننا واحد »(١) .

حقًّا فإنهم سفراء اللّه إلى خلقه ، وشموس هدايته إليهم ، فالطرق والعصور متعددة والهدف والصراط واحد ، وهي معرفة اللّه والإيمان به وعبادته وحبه والخضوع له .

---

(١) أخرجه البخاري (٣٤٤٣) ، ومسلم (٢٣٦٥) من حديث أبي هريرة رضي اللّه عنه .

«اللَّه رب العالمين في الفطر والعقول والأديان»[(١)]

(٢)

« قيام حجة اللَّه تعالى على الجاحد المكابر »

قال اللَّه تعالى : ﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ﴾ [طه: الآية ٥٦] . وهرب فرعون من حجج العقل ونور الفطرة إلى جبروت الطغيان فقال لموسى : ﴿لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾ [الشُّعَرَاء: الآية ٢٩] . وهكذا النور يطرد الظلام ويغشي أبصار الجاحدين .

موسى : ﴿أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ﴾ [الشُّعَرَاء: الآية ٣٠] . يعني آية حسية تراها بعينك إذ غلظ حجابك عن دلائل العقل وبدائه الفطرة أو اضطرك كبرياؤك عن الإيمان بما جئت به ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [النمل: الآية ١٤] .

فرعون : ﴿قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [الشُّعَرَاء: الآية ٣١] .

موسى ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ﴾ . عصا من عصاة البادية ، كان يتوكأ عليها ويهش بها على غنمه وله فيها مآرب أخرى من دفع عاد من وحش ولص وقتل عقرب وثعبان . فألقاها أمام فرعون وملئه فإذا هي ثعبان مبين لا شك فيه ، وحية تسعى كأنها جان ، ووضع يده في جيبه ثم أخرجها منه بيضاء من غير سوء ولا برص على خلاف بشرته الآدمية وسحنته القمحية .

آيتان يراهما الناس لا لبس ولا تمويه انخرقت بهما العادة وعجز عنهما

(١) الحج - جمادى الآخرة - ١٣٧٦هـ.

الخلق، فمن يقدر عليهما غير الخالق المقتدر خالق العوائد القادر على خلافها.

قصة العصا:

وللعصا قصة مع موسى حينما شرفه الله بالرسالة وتكليم الله إياه، فإنه وهو راجع من مدين التي كان قد فر إليها هاربًا من إهدار دمه بمصر فأنجاه الله من القوم الظالمين، وآواه في مدين وزوّجه بها بعرق جبينه وعضلات يديه ورجليه وبدنه، فسبحان من يكرم عباده المخلصين فييسر لهم سبل الخير.

وبينما هو راجع من مدين إلى منبته ومسقط رأسه مصر ﴿رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى﴾ [طه: الآية ١٠]. أي: هداة عند النار يدلونه على ما يحتاجه من طريق أو نحوه: ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ يَٰمُوسَىٰٓ ﴿١١﴾ إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾ وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِيٓ ﴿١٤﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ﴿١٦﴾ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ﴾. ﴿وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾ لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى﴾.

﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ [النمل: الآية ٧] أي: توقدون نارًا تدفئون بها، ﴿فَلَمَّا جَآءَهَا﴾ [النمل: الآية ٨] – أي النار – ﴿نُودِيَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ * يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾ وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ أي: لم يلتفت وراءه ﴿يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ

ٱلْمُرْسَلُونَ * إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ فِي تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿١٢﴾ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ .

رجل فر هاربًا بدمه ناجيًا بنفسه يهديه اللَّه سواء السبيل ويؤويه إلى صهر كريم ، يزوجه بنته ويرعى له غنمه أجلًا مسمى ، ويرجع بعد الأجل ويدرك أهله المخاض -كما تقول الروايات- ويحتاج إلى نار يستدفئون بها ، فيرى النار على بعد ، فيترك أهله في رعاية اللَّه ؛ ليقتبس من النار جذوة أو يجد عليها هداة يستهديهم الطريق ، فيجد النار المقدسة نورًا يتلألأ في أعصار الشجرة المباركة ، قبس من نور اللَّه ، كما تقول التوراة : ينجلي اللَّه من قاران ، وقاران جبال مكة ، إشارة إلى رسالة خاتم المرسلين (وساعير) طور سيناء . إشارة إلى نبوة الكليم ، وفي القرآن الكريم : ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ﴿١﴾ وَطُورِ سِينِينَ ﴿٢﴾ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ﴾ ، إشارة لذلك .

فهذا مبدأ تشريف موسى بالكلام الإلهي ، والرسالة السماوية وتأييده بالآيتين العصا واليد مع ما انضم إليهما بعد ذلك من الآيات التي تكملت تسعًا ، كما قال اللَّه عنها : ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍ بَيِّنَٰتٍ فَسْـَٔلْ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا﴾ [الإسراء: الآية ١٠١] أي : ساحرًا له ، ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾ [الإسراء: الآية ١٠٢] أي : هالكًا لمكابرة الحق والكبر عليه .

ولو لم يكن لموسى غير تقريعه لفرعون بهذه الصراحة الصريحة لكفى في صدقه ، وأنه رسول اللَّه المؤيد من اللَّه بعين اللَّه ورعايته .

٣- عود إلى العصا مع فرعون :

﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِيَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٠٨﴾ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ .

تمويه على الطغام من قومه ليصرف عقولهم وفطرهم عن الإيمان بهذه الآية العظيمة .

الملأ : ﴿قَالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ﴾ [الأعراف: الآية ١١١] أي : أخرهما ﴿وَٱبْعَثْ فِي ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ﴾ [الشُّعَرَاء: الآية ٣٦] جلاوزة وشرطة ﴿يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ﴾ [الأعراف: الآية ١١٢] نكاثره بهما ، ونموه على العامة بما يتوهمونه من معارضة للحق الصارخ .

فرعون : ﴿قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى﴾ أي : في ميدان واسع يراه الجميع حتى يعرفوا الحق من الباطل ويشهدوا لنا أو لك .

موسى : ﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ﴾ [طه: الآية ٥٩] أي : العيد الذي يتزينون فيه ﴿وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى﴾ [طه: الآية ٥٩] فيجتمعون في ضحوة النهار لا في طرفيه .

فرعون : ﴿فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ﴾ [طه: الآية ٦٠] – السحرة الذين يكايد بهم موسى – ثم أتى موسى ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ﴾ [طه: الآية ٦١] من عارض بسحره ودجله آيات اللَّه تعالى والسحر تمويه ودجل بخلاف آيات اللَّه السماوية ، ﴿فَتَنَٰزَعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجْوَىٰ ﴿٦٢﴾ قَالُوٓاْ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ ﴿٦٣﴾ فَأَجْمِعُواْ كَيْدَكُمْ ثُمَّ

ٱئْتُوا۟ صَفًّا ۚ وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ ﴿٦٤﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ﴾ اعتداد منهم بما جاءوا به من السحر وارتكانًا إليه .

موسى : ﴿قَالَ بَلْ أَلْقُوا۟ ۖ﴾ [طه: الآية ٦٦] وثق بأن الحق يأتي على الباطل فيدمغه ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: الآية ١٨] ، ﴿فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا۟ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [الشعراء: الآية ٤٤] ، ﴿فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾ [طه: الآية ٦٦] .

فهل كانت حيلة خفيفة من حشو العصى والحبال ، أو الزئبق الذي يتمدد بالحرارة فيستقيم القلوي ويتحرك ، وتتجمع الحركات فيتخيل من يراها أنها تسعى ، أو أنهم سحروا أعين الناس فرأى الناس ما ليس له حقيقة ؛ كأن حبالهم وعصيهم تسعى في أعينهم بسبب السحر ، لا في واقع الأمر؟ رأيان في تصوير هذا الخيال .. من رؤية حبالهم وعصيهم تسعى ..

موسى : ﴿فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ﴾ [طه: الآية ٦٧] أن ينخدع الناس بما أدهشهم من سحر السحرة فلا يعودون يصدقون آية موسى إذ أكثر الناس ينخدع بأول ما يدهشه ويغطي على عقله ، وأكثرهم أسرى الخيال مجانبوا الحقائق ، وللنظرة الأولى السلطان الآثم على حكم العقل عند أكثر الناس .

٤- النجدة الربانية :

﴿قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا۟ ۖ إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَٰحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾ ، ﴿فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ [الشعراء: الآية ٤٥]

لقفت العصا إفكهم فبلغت العصى والحبال جميعًا على قول الجمهور ، ولم ينتفخ لها بطن أو مرت على العصى والحبال فردتها إلى حقيقتها لا سعي ولا

حركة ، ورجع الناس بصرهم وعقلهم بلا تخييل ولا سحر ، فرأوا عصا موسى ثعبانًا حقًّا ، وعصى السحرة وحبالهم عصيًا وحبالًا فقط وانكشف الحق وزال التمويه والخيال ، ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [الرعد: الآية ١٧] ، لذلك يضرب الله الحق والباطل .

ظهور الحق وهزيمة الباطل :

﴿فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ﴾ ، ﴿فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾

غلبت الفطرة وصرخ الوجدان واستضاء العقل ولمع الحق ، واعترف السحرة بالآية الكبرى عصا موسى التي أبطلت سحرهم وأنها معجزة ربانية لا يخلقها إلا رب العالمين ، ولا تجيء إلا من رب العرش العظيم ، وأن موسى صادق ، إنه رسول رب العالمين وكليم رب السماوات والأرض ، أرسله الله لهداية الضالين ، وإرشاد الغاوين ، وإنقاذ المستضعفين من ظلم الظالمين ، فأذعنوا له وأعلنوا إيمانهم به وسجدوا لله رب العالمين رب موسى وهارون رب المشرق والمغرب ، وأمسوا به موقنين ، فكانوا أول النهار سحرة كذابين معارضين للحق ، وفي آخره مؤمنين مذعنين لله رب العالمين ، فسبحان مقلب القلوب والأفئدة والأبصار .

مكابرة الباطل واضطرابه بحركة المذبوح :

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: الآية ١٢٣] .

هكذا موه فرعون على الطغام من قومه ، إن هذا تواطؤ من السحرة مع موسى ، وكيد كادوه للدولة ؛ ليذهبوا بعرش مصر ، ويتمكنوا في المدينة ويخرجوا أهلها منها ، وفرعون يعلم في قرارة نفسه وسويداء قلبه أن موسى الذي شرد من مصر إلى مدين في عنفوان شبابه وغاب عن مصر أكثر من عشر سنين ،

وقد تربى قبل ذلك طفلاً في دار فرعون لا يعرف واحداً من السحرة الذين جمعهم فرعون من مدائن مملكته فضلاً أن يكون كبيرهم .

فموسى الذي تربى في قصر فرعون طفلًا وشابًا وفرَّ إلى مدين كهلًا ، وعاش فيها راعي غنم كهلًا ، وشرفه اللَّه بالرسالة والكلام راجعًا إلى مصر ، من أين له أن يعرف السحر أو السحرة ؟ أو يتواطأ معهم على الكيد للملكة وإخراج أهلها منها ؟ ! .

إنما هو التقرير والتمويه وتضليل العامة الذين اجتمعوا ليروا صراع الحق والباطل وعصا موسى وعصى السحرة وحبالهم الخيالية . فظهر الحق وانتصر وهزم الباطل وانخذل .

فماذا يقول زعيم الباطل والغرور والطغيان حتى لا يفلت الحبل من يده ولا تنفتح عيون الناس إلى نور الحق والهدى .

قال فرعون : إن موسى كبير السحرة ، وإنه كبيرهم الذي علمهم السحر ، وإنهم مكروا مكرًا ، وكادوا كيدًا للمدينة ؛ ليخرجوا أهلها منها ويستولوا على زمام الحكم ، وأزمة السلطان وعرش الجبروت والطغيان .

ولجأ إلى سيف الجبروت ووعد بالتهديد والتخويف لهؤلاء السحرة الذين عرفوا الحق فآمنوا به وأذعنوا له وأعلنوه بلا خوف ولا وجل ولا مواربة ولا مداهنة .

❁❁❁

اللَّه سبحانه وتعالى في الفطر والعقول والأديان[1]

(٣)

حياة موسى وما فيها من الآيات والعبر :

١- طفل يولد في شعب مضطهد يسومه آل فرعون سوء العذاب ، يذبحون أبناءهم ويستحيون نساءهم ، ويسخرونهم في أشق الأعمال ، فتحتار أمه فيه أيذبح في حجرها وهي تنظر إليه أم ماذا العمل؟ فيوحي اللَّه إليها بالمخرج من هذه الطامة الكارثة والقارعة المحيرة .

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ﴾ [القصص: الآية ٧] أي : من الذبح من زبانية فرعون - ﴿فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ﴾ [القصص: الآية ٧] أي : في النيل ﴿وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: الآية ٧] .

﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ﴿٣٧﴾ إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ﴾ هو فرعون عدو اللَّه وعدو بني إسرائيل مضطهدهم في المهن الشاقة ، ومسيمهم سوء العذاب ، وذابح أبنائهم حتى لا تقوم لهم قائمة ولا تتوفر لهم قوة للخلاص ، ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: الآية ٤] .

٢- رمته أمه في النيل حيث التماسيح والحيتان والسلاحف والأمواج ؛ ثقة منها بوحي اللَّه لها أن لا تخاف ووعده إياها أن يرد إليها ويجعله رسولًا يخلص على يده شعب بني إسرائيل من العبودية والعذاب .

٣- ﴿فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ﴾ [طه: الآية ٣٩] حمل اليم

(١) مجلة الحج - صفر - ١٣٧٧هـ.

تابوت الطفل الرضيع فلا تماسيح ولا حيتان ولا أمواج طافية ، بل حفظ اللَّه وعده لأمه وقدَّره لخلاص بني إسرائيل .

٤- وسار تيار النيل حتى ألقاه بالساحل في فرضة القصر الفرعوني حيث الخدم والجواري يستقين الماء .

٥- ﴿يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُۥ﴾ [طه: الآية ٣٩] ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ﴾ [القَصَص: الآية ٨] التقطوه ليتخذوه ابنًا ويتبنوه صفيًا ، والمقادير أعدته ليكون له عدوًا وحزنًا يخلص بني إسرائيل من الاستعباد ، وتزول دولة الظلم على يديه ، ويتحقق وعد اللَّه لإبراهيم في بنيه ، وتتم كلمة اللَّه الحسنى على بني إسرائيل بما صبروا ، ويورثهم اللَّه مشارق الأرض ومغاربها .

تآمروا بقتله إذ لم يخف عليهم أنه لقيط إسرائيلي رماه الخوف من ذبحه إلى لجة البحر ، فألقى اللَّه محبته على من يراه ﴿وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [القَصَص: الآية ٩] ما يخبئه القدر على يديه لهم .

ورضخوا لإرادة امرأة فرعون في إبقائه وتبنيه ورجاء نفعه وهي الملكة ، تقول فيسمع لها . ومن ورائها قدر اللَّه المقدور الذي لا يرد : ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [هُود: الآية ١٠٧] .

طفل رضيع لا يعيش بلا رضاعة ، فهل ترضعه الفرعونيات بلبن فرعون ينمي فيه الظلم والجبروت ؟ لا ، بل كما قال اللَّه : ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ﴾ [القَصَص: الآية ١٢] ، فلم يفتح فمه لثدي فرعوني ، ولا مصت شفتاه حلمة امرأة منهم ، ولا فتقت أمعاءه قطرة من لبنهم .

٦- ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا ۖ﴾ [القَصَص: الآية ١٠] أي : من الصبر

والاحتمال ، وغلبت عليها غريزة الأمومة ﴿إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ﴾ [القَصَص: الآية ١٠] وتعلن أمره وتصرخ لفقده ﴿لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [القَصَص: الآية ١٠] ، فقلب رباط الإيمان بوحي اللَّه لها ووعده إياها على هلع الغريزة وطيش الأمومة وعواطف النساء وطبائع البشرية : ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ﴾ [القَصَص: الآية ١١] واقتفي أثره وانظري أين حمل النيل تابوت أخيك ، هل ابتلعه اليم أو التقمه تمساح أو حوت أو رماه الموج إلى الساحل حيث الأعداء وذابح الأطفال الإسرائيلية ، أم ماذا كان أمره ؟

٧- اقتصت الأخت أثر أخيها ﴿فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [القَصَص: الآية ١١] أنها أخته ، ورأت حرمانه من رضاع أثداء الفراعنة .

٨- فقالت : ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ﴾ [القَصَص: الآية ١٢] ، ﴿إِذْ تَمْشِىٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ ۖ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ﴾ [طه: الآية ٤٠] ، ﴿فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [القَصَص: الآية ١٣] .

رجع موسى الرضيع إلى أمه لترضعه وتأخذ أجرها من فرعون ، إنها ظئر متبنية رسميًّا وهي أمه حقًّا ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون ، فيا للحظ ، أمٌّ ترضع ابنها وتأخذ أجر إرضاعها من عدوهما وهو لا يعلم . ويتربى موسى على لبن أمه في بيت نعمة عدوهما فرعون ، إن هذا لهو البلاء المبين .

٩- تربى موسى بين الشعب المضطهد في بيت النعمة والرفاهية ، بيت فرعون ؛ مضطهد شعب موسى ومذله ، وقاتل أبنائهم ومستحي نساءهم ، وسائمهم سوء العذاب .

ولكن إرادة اللَّه التي لا ترد أرادت من موسى الخلاص لشعبه ، فصنعه اللَّه

على عينه في بيت النعم والرفاهية حتى يشب قوي البدن والروح والعقل، صحيح البنية ماضي العزيمة قائدًا عظيمًا، وعلم الله أن فرط النعيم وغلواء الترف لهما شرور وميوعة وكبرياء واحتقار للضعفاء والمساكين فأراد نقل كليمه إلى خشونة عيش البادية وخشونة الحياة في الصحراء والقرى ويرعى الغنم ويجري وراءها ويسقيها بجر الدلو، فقدر له ما تسمع.

١٠- ﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ﴾ [القصص: الآية ١٥] مدينة فرعون - ﴿عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ﴾ [القصص: الآية ١٥] بني إسرائيل ﴿وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾ [القصص: الآية ١٥] - آل فرعون - ﴿فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾ [القصص: الآية ١٥] دفع موسى عدوه الفرعوني؛ ليخلص منه الإسرائيلي، دفعًا لم يقصد فيه إلى قتله، وإنما كان تخليص المظلوم المستعبد من ظالمه ومذله الذي قيل إنه كان يريد سخرته لحمل حطب المطبخ لقصر فرعون، وكزة لدفع الظالم تقضي عليه؛ لأنها من سوي البدن صحيح البنية ربيب النعمة الذي أعدته العناية الإلهية قائدًا عظيمًا في الحق والخلق ليخلص شعبًا مسكينًا مضطهدًا. وهكذا كانت وكزة قاضية لم تكن مقصودة للقتل، ولكن موسى يأسف لها ويعتذر إلى الله منها ويستغفره فيغفر له.

١١- **موسى:** ﴿قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ * قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ﴾ من نعمة الصحة والعافية وتسخير الأعداء لخدمتي ﴿فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ [القصص: الآية ١٧] ولا عونًا للظالمين.

١٢- **موسى:** ﴿فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ [القصص: الآية ١٨] ماذا سيكون من عواقب قتل الفرعوني لتخليص الإسرائيلي منه ﴿فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ﴾ [القصص: الآية ١٨]وهو الإسرائيلي ﴿يَسْتَصْرِخُهُۥ﴾ [القصص: الآية ١٨] يستغيثه

للخلاص من قبطي آخر يسخره على جاري العادة واطراد الحال ومألوف العرف ، ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ﴾ [القَصَص: الآية ١٨] لما سببت لي من قتل بالأمس ثم تجرني إلى عمل آخر اليوم ، ولكن نجدة المظلوم هي من سجايا من خلقوا لنصر الحق وإعلانه ، فتدخل موسى مرة أخرى لنصر المظلوم ، ﴿فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا﴾ [القَصَص: الآية ١٩] أراد دفع الظالم القبطي عن فريسته الإسرائيلي ولو بالبطش والضرب لدفع عدوانه ، ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾ [القَصَص: الآية ١٩] . الظاهر أن القائل لموسى هذا الكلام هو الإسرائيلي ، وإن كان كلامًا بذيئًا ونكرانا للجميل ؛ لأنه هو الذي علم بقتل موسى للقبطي بالأمس .

ويحتمل أن يكون القائل هو القبطي لما تدل عليه عبارته : ﴿إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾ [القَصَص: الآية ١٩] ، ويكون قد علم بحادثة الأمس وقتل أخيه القبطي مما أشاعه الإسرائيلي في أهله وذويه ، اعتزازًا بموسى وقومه ومقامه ومركزه عند فرعون ؛ ظنًا منه أن ذلك لا يضره ، لما للأسرة المتألهة من الارتفاع فوق القانون ، ولما لموسى من حظوة التبني الفرعوني .

وهنا نقف فنسأل كيف عرف موسى أن الإسرائيلي شيعته والفراعنة عدو ؟ هل رضع ذلك من ثدي أمه ولقنته إياه في طفولته ، أم السحنة والدم والوجدان والفطرة أوحت إليه بذلك ؟

قد يكون كل ذلك طبع موسى على حب شيعته بني إسرائيل وبغضه في عدوه آل فرعون ، والغرائز لها حكمها ، والحاسة السادسة قال بها أهل التجارب ، وأم موسى لا تدخر وسعًا في تلقين ابنها حقيقة الأمر وتعريفه أرومته وأصله .

١٣- **النتيجة** : تواترت الأخبار لدى فرعون بقتل موسى لفرعوني وهمه بقتل آخر ، فلم يعد عندهم ريب أنه إسرائيلي تجري في عروقه دم يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم ، وأنه هو الذي تتوقعه بنو إسرائيل لخلاصهم ، ولأنه كان مخدوعًا فيه إذ صدق امرأته حينما رجت أن ينفعهما أو يتخذاه ولدًا ، فقد أفصح اللبن عن زبدة ورجع الفرع إلى أصله ، فأهدر فرعون دم موسى وأباح قتله ، ونفض يده عن تبنيه وحمايته .

قال تعالى : ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ .

سخر اللَّه هذا الناصح لموسى بالخروج فأبلغه تآمر القوم بقتله ، ولا يكون هذا الناصح إلا من آل فرعون وحاشيته وحاضري جلسته حتى يتسنى له أن يعرف ما تآمروا عليه وما وضعوا قرارهم لتنفيذه من قتل موسى ، وذلك كله إثر إرادة اللَّه تعالى إذ قال فيها : ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ﴾ ، ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ﴾ [الأعراف: الآية ١٣٧] .

فموسى الذي صنعه اللَّه على عينه هو عنوان دمار الظلم والغشم وتتبير مُلك الجبار فرعون ، فلن يسلطهم اللَّه عليه ، ولو عقدوا لذلك مؤامرات ، ولو قرروا ما قرروا ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: الآية ٢١] ، ﴿رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [القصص: الآية ٢١] ، هكذا دعا موسى ربه وقت الضيق فاستجاب له ونجاه .

١٤- (أرض الله واسعة للمهاجرين بحريتهم ودينهم ودمائهم).

موسى: ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهْدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ [القصص: الآية ٢٢]. وقد هداه الله إلى السبيل السوي والصراط الموصل إلى مدين.

١٥- (إيواء الله للمهاجرين بدينه وطريقه).

﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ﴾ [القصص: الآية ٢٣] أنعامهم من إبل وبقر وغنم شأن الرعاة البادين في براريهم، وما أجمل الحياة البدوية في حريتها وطلاقتها وبعدها عن ترف المدن ورفاهة المجرمين.

١٦- صنيع المعروف يثمر الجزاء الحسن.

موسى: ﴿وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ﴾ [القصص: الآية ٢٣] أي: تمنعان غنمهما وتكفانها، ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُمَا﴾ [القصص: الآية ٢٣] ما شأنكما تكفان غنمكما ﴿قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ﴾ [القصص: الآية ٢٣] ويفرغ الرجال الأقوياء ويرجعون عن البئر فتخلو لنا ﴿وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ [القصص: الآية ٢٣] فليس عندنا من يقوم عنا بهذه المهمة الأليق بالرجال، فلا إخوان ولا فتيان عند الوالد الشيخ الكبير، فللمرأة أن تكسب رزقها عند الحاجة من مهنة شريفة ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا﴾ [القصص: الآية ٢٤] شأن المروءة والمعروف الذي يجبل الله عليه عظماء الأخلاق ﴿ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص: الآية ٢٤] شكا فقره وحاجته إلى الله الذي يغيث عباده، فلم يسأل الرعاة مذقة لبن، ولا شكا إلى المرأتين اللتين سقى لهما غنمهما جوعًا ولا فقرًا، واحتسب مروءته معهما عند الله الذي لا يضيع عمل عامل ويجزي بالحسنة حسنات كثيرة من عشر إلى ما شاء الله تعالى، والله لا يضيع أجر المحسنين، ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾.

الله رب العالمين

في الفطر والعقول والأديان المكابرة[١]

فرعون : ﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ [الشعراء: ٣٤- ٣٥] ، الرب الأعلى عندهم يقول لعبيده : فماذا تأمرون ؟ .....[٢] الخروج من المأزق بعد ما أضلهم عن الإيمان ، وموه عليهم أن هذه الآيات الإيمانية سحر مبين ، وأن ما جاء به موسى لهدايتهم إلى الله ودلالتهم عليه تمويه وخداع وسحر مبين . فكيف نسي أنه ربهم الأعلى ! وما علم لهم من إله غيره ! إله يعجز أمام عباده ، ورب يطيش عقله من ضعيف أمامه !

الملأ : (قالوا أرجه وأخاه) - أخرجوا بهما للفصل فيما جاءوا به . ﴿وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ﴾ [الشُّعَرَاء: الآية ٣٦] - جلاوزة وشرطا وجنودا - ﴿يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ﴾ [الأعرَاف: الآية ١١٢] - يجمعون لك السحرة المهرة من عموم البلاد ؛ تكاثر بهم هذين وترد سحرًا بأكثر منه .

هكذا أخرج العبيد ربهم من حيرته ، وفرجوا كربته وهمه ، وأخرجوه من غمه وكربه ودهشته ، وأمسكوا له زمام الموقف وحبل السلطان .

الباطل بجيوشه والحق بمفرده :

﴿وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤٠﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُوا۟ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ﴾ [الشعراء: ٣٩ - ٤٥]

---

(١) مجلة « الحج » - رجب - ١٣٧٧هـ.

(٢) غير واضحة في : الأصل ولعلها « ويستجديهم » أو كلمة نحوها.

هاتوا ما عندكم من السحر والبهتان الذي تعارضون به الحق المبين ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا۟ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ [الشعراء: ٣٩ - ٤٥] رموا حبالهم وعصيهم تتلوى في أعين المسحورين ويخيل للناس أنها تسعى. لقفت العصا إفكهم، وألقوا من حبال وعصي ابتلعته على قول الجمهور، أو أبطلت سحره فعادت عصيا وحبالا لا سحر فيها ولا خداع، وبطل ما سحروا به أعين الناس. وبقيت العصا، عصا موسى، آية حية وبرهانًا قائمًا ومعجزة بينة، تروح وتغدو بما ابتلعت من عصي وحبال، أو تسعى وتمشي فوقها، فوق حبال باطلة كالتراب والحصى، غثاء لا حركة ولا سحر، بل حطب ونبل وليف لا حياة فيها ولا حركة ولا سعي.

اعتراف السحرة وإيمانهم:

﴿فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ [الشعراء: ٤٦ - ٤٨] فرعون ﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الشعراء: الآية ٤٩] تغطية للهزيمة ومكابرة لرد الحق وإصرار على التمسك بالباطل واعتزاز بالسلطان الغاشم وطغيان على الحق الأعزل وصولة بالجبروت الطاغي

السحرة المؤمنون:

﴿قَالُوا۟ لَا ضَيْرَ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٥٠ - ٥١].

﴿فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ﴾ [الأعراف: ١١٨ - ١١٩] دمغ الباطل بصيحة الحق، وما يبدئ الباطل وما يعيد بها، ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾

[الأنبياء: الآية ١٨] ، ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ [الرعد: الآية ١٧] .

واستمر الصراع بين الحق والباطل ، واحتدم النضال بين الكفر والإيمان ، وربّ العالمين يؤيد كليمه ورسوله بالآيات ، وسياط العذاب على ظهور الكفر والظلم والطغيان ، كما مر بيانه في أول القصة حتى كان ختام النزاع .

الخاتمة :

قال اللّه تعالى : ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ﴾ [الشُّعَرَاء: الآية ٥٢] أي ليلا ﴿إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾ [الشُّعَرَاء: الآية ٥٢] سيتبعكم فرعون وجنوده ليلقوا ما ينتظرهم في البحر وليمة للأسماك والحيتان ﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ﴾ [الشُّعَرَاء: الآية ٥٣] جامعين للجنود ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ ، ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ﴾ [يونس : ٩٠ - ٩٢] .

هكذا انتهت الرواية بين أكبر معطل جاحد دهري لا يعترف إلا بالعالم المشهود ، ويجحد رب الوجود ، وألقى التاريخ ستار الخزي والعار والهزيمة على صرح الظلم والعلو والجبروت ، على جبار عظيم وطاغوت فظيع ومفسد في

الأرض كبير ، وبقيت لموسى آيات كثيرة شرقي البحر في شبه جزيرة سيناء في تربية بني إسرائيل ، وتدوين شرائع اللّٰه وإقامة الدولة وتكوين الأمة وإخراج شعبه من الظلمات إلى النور ، ومن العبودية إلى الحرية ، ومن الموت إلى الحياة ، مبينة في كتاب اللّٰه تعالى ، لتفصيلها في موضع آخر ؛ إذ كان الغرض هنا ذكر آيات الإيمان التي تدمغ الكفر ، وتعلي حق الإيمان على باطل الكفر .

ومنها إحياء النفس التي قتلوها وتدارءوا فيها فأمروا بذبح بقرة وضرب القتيل ببعضها ، فأحياه اللّٰه وأخبر بقاتله .

ومنها : ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة : ٥٥ - ٥٦] .

ومنها : ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: الآية ١٤٣] .

ومنها : ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ﴾ [الأعراف: الآية ١٧١] .

ومنها : ﴿فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ﴾ [البقرة: الآية ٦٠] إلى آخر الآيات التي كانت لا تفارق حياة موسى كل وقت وحين ، فاللّٰه كان مع موسى أينما حل وارتحل ﴿إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾ [الشُعَرَاء: الآية ٦٢] .

ولو كان موسى في زمان ضلال النصارى الراضين لوثنية اليونان لنسوا يسوعهم (عيسى ابن مريم) وألهوا موسى بدلًا عنه وقالوا إن اللّٰه نزل إلى الأرض وتجسد ليهلك فرعون .

ولكن شعب إسرائيل الغليظي الأكناف القساة القلوب الذين آذوا موسى وأتعبوه ، ولقي منهم كل عنت ، وذاق منهم الأمرين ، تمردوا عليه مرارًا ، وطلبوا منه ما لا يطلبه الأطفال المدللون من آبائهم إذا تدللوا عليهم : ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا

كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ [الأعراف: الآية ١٣٨] ، ﴿لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ﴾ [البقرة: الآية ٦١] - الْمَنَّ وَالسَّلْوَى - ﴿فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا﴾ [البقرة: الآية ٦١] ، ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة: الآية ٥٥] وقالوا في عجل السامري ﴿هَٰذَا إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ﴾ [طه: الآية ٨٨] ، ﴿لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ﴾ [طه: الآية ٩١] إلخ .

❁ ❁ ❁

مثل آخر في الدلالة على الله
(عيسى ابن مريم)(١)

عيسى ابن مريم الذي ولدته أمه من غير أب ﴿أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾ [مريم: الآية ٢٠] وأيد بآيات الله تعالى ؛ يبرئ الأكمه الذي ولد أعمى وعجز فيه الطب فيرد إليه بصره ، والأبرص الذى لا علاج له يمسح جلده فيعود بشرة جميلة لا تشويه فيها ، ويحيي الموتى بإذن الله ، ويخلق من الطين كهيئة الطير فينفخ فيها فيكون طيرًا بإذن الله ، وينبئهم بما يأكلون وما يدخرون في بيوتهم ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: الآية ٢٤٨] ، ﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ [المؤمنون: الآية ٥٠] .

فهذه الآيات العيسوية ؛ خلقه بلا أب ، وإبراؤه الأكمه والأبرص ، وإحياؤه الموتى ، ونفخه في الطين المصور طيرًا فيصير طيرًا بإذن الله ، كلها آيات من الله تعالى لتأييد عبده ورسوله عيسى بن مريم ، وصواعق منزلة من عند الله لحرب الكفرة الجاحدين الذين لا يؤمنون بالله ، وآخرها رفعه إلى السماء حيًّا يعيش بين الملائكة كملك كريم ، ثم ينزل في آخر الزمان حكمًا مقسطًا وإمامًا عادلًا ، فيقتل مسيح الضلالة الذي ضل وأضل الناس بخوارقه الشيطانية ، فيقتل مسيح الهدى عيسى ابن مريم مسيح الضلالة الدجال الذي لا يستحي من عور عينه اليمنى ، والسمة التي بين عينيه (ك ف ر) يقرؤها كل مؤمن قارئ ، وغير قارئ. ومع هذا يوجد من أشباه الأنعام ممن يمشي على قدميه من يصدقه في كفره وضلاله من أجل خوارقه ، وقد أمرنا بالاستعاذة من فتنته وإن لم نره ، لأن من

(١) تابع للمقال السابق.

صدق الخوارق على حساب العقل والدين فقد أصابته فتنة الدجال وإن لم يره ، فمن يرى دجالًا يترك الجمعة والجماعة ويأكل أموال الناس بالباطل فيؤمن له أنه ولي اللّٰه مع هذا ، فقد أصابته فتنة الدجال الأكبر وإن لم يره ، فالمسألة كلها إما عقل ودين أو تمويه وتدجيل ، واللّٰه المستعان .

الخليل إبراهيم أبو الحنيفية السمحة
دين الجود والنظافة والتوجه إلى اللّٰه تعالى وحج بيت اللّٰه الحرام

بعث اللّٰه سبحانه خليله إبراهيم ليعرف من الكلدانيين والأشوريين والبابليين وعبادة الكواكب والنجوم والشمس والقمر والأصنام التي تمثل النجوم عند غيابها .

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً ۖ إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا ۖ﴾ [الأنعام : ٧٤ - ٧٦] كالزهرة أو المشترى ﴿قَالَ هَٰذَا رَبِّي ۖ﴾ [الأنعام: الآية ٧٦] على طريقة قومه ﴿فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ﴾ [الأنعام: الآية ٧٦] .

فالرب لا يأفل ولا يغيب عن عباده ومخلوقاته ولا يحجبه الأفق ﴿فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا﴾ [الأنعام: الآية ٧٧] مشرقًا ﴿قَالَ هَٰذَا رَبِّي ۖ﴾ [الأنعام: الآية ٧٦] فهو أكبر من الكوكب وأضوأ في رأي العين ﴿فَلَمَّا أَفَلَ﴾ [الأنعام: الآية ٧٦] وأدركه ما أدرك الكوكب من الغروب والأفول ﴿قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ﴾ [الأنعام: الآية ٧٧] الذين لهم كل وقت معبود من المخلوقات يبهرهم بريقه ويدهشهم نوره ﴿فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً﴾ [الأنعام: الآية ٧٨] طالعة ﴿قَالَ هَٰذَا رَبِّي

هَٰذَآ أَكۡبَرُۖ﴾ [الأنعام: الآية ٧٨] من الكوكب والقمر ﴿فَلَمَّآ أَفَلَتۡ قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ * إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ حَنِيفٗاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٧٨ - ٧٩].

كان قوم إبراهيم من الكلدانيين والأشوريين والبابليين يعبدون الكواكب والنجوم والشمس والقمر، ويعتقدون أنها أحياء عقلاء تتحرك بإرادتها واختيارها، وتدبر شئون أهل الأرض بقدرتها، وتتصرف فيهم بإرادتها واختيارها، فبرعوا في علم الفلك؛ لمعرفة حركاتها ومواقعها، واخترعوا التقرب إليها بأنواع القرابين والأدعية والعزائم والبخورات، فنشأ فيهم السحر الذي هو عبادة النجوم والأجرام العلوية؛ من دعاء الشمس والقمر والكواكب السيارات، والعزائم والقرابين والبخورات؛ لإرضائها واستجلاب النفع منها ودفع الضرر.

منهم انتشر السحر في العالم، ومنهم اليهود أيام أسرهم ببابل أيام تسلط عليهم «نبوخذنصر» الشهير عند العرب باسم «بختنصر» الذي خرب بيت المقدس، وأسر عظماء اليهود وعلماءهم وأجلاهم إلى العراق.

ومن اليهود سرت عدوى السحر إلى المسلمين، حتى ألف بعض علماء المسلمين كتابه «السر المكتوم في السحر ومخاطبة النجوم»، ونحو ذلك مما تجده في كتب السحرة من مخلفات عباد الكواكب والنجوم؛ «كشمس المعارف الكبرى» وأبي معشر الفلكي ... إلخ[1].

فبعث اللَّه خليله إبراهيم إلى قومه يعلمهم أن الأجرام العلوية والكواكب السماوية مسخرة بأمر اللَّه تعالى، لا حياة فيها ولا عقل ولا تدبير، وأنها تتحرك وتشرق وتغرب بأمر اللَّه وبيده التي تحرك كل شيء، واستدل لهم بذلك على أفولها الذي يدل على تسخيرها وتصريف رب العالمين لها، وأنها لا تعبد ولا

(١) في الأصل «وأبي معشر الفلكي والسحر المكتوم في السر ومخاطبة النجوم ... إلخ».

تدعى ولا يتقرب إليها بشيء من القرابين والعزائم، وأعلنهم بخالص التوحيد، ﴿وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: الآية ٧٩]، ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ * أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٧﴾ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴿٨٢﴾ رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [الشعراء: ٧٥ - ٨٣]. ﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٧ - ٨٩].. سليم من الشرك والضلال وعبادة المخلوقات؛ من شمس وقمر ونجوم وكواكب وأصنام صورت لروحانيتها بزعمهم.

هل سكت المشركون على إبطال شركهم وبطلان معبوداتهم؟ لا. قال الله تعالى: ﴿وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ﴾ [الأنعام: الآية ٨٠] أي جادلوه دفاعًا عن شركهم، وفرارًا من حنيفيته وتوحيده ﴿قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ﴾ [الأنعام: الآية ٨٠] في إفراد العبودية له ﴿وَقَدْ هَدَانِ﴾ [الأنعام: الآية ٨٠] إلى توحيده ﴿وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ﴾ [الأنعام: الآية ٨٠] خوفوه من آلهتهم إذ أنكرها وأعرض عن عبادتها وهزأ بعابديها ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا﴾ [الأنعام: الآية ٨٠] لكن إن أصابني شيء فليس من آلهتكم، الجماد الموات التي لا تعقل ولا تفعل، وإنما هو بإرادة ربي الفعال لما يريد ﴿وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ [الأنعام: الآية ٨٠] إنه الخالق العليم الفعال لما يريد، إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون، القاهر فوق عباده الذي يجير ولا يجار عليه ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ﴾ [الأنعام: الآية ٨١] من جماد وأجرام لا تملك لنفسها شيئا فضلا عن غيرها ﴿وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا﴾ [الأنعام: الآية ٨١]، فأنتم تشركون

بالله رب العالمين، شديد البطش، جبار السموات والأرض، القهار الشديد العقاب، فتجعلون له أندادًا من خلقه التي لا تملك لنفسها ولا لغيرها ضرًا ولا نفعًا ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا، وهو سبحانه يكره الشرك ويبطله ولم ينزل به حجة ولا سلطانًا ولا برهانًا ولا يرضاه لعباده ﴿فَأَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ﴾ [الأنعام: الآية ٨١] المؤمنين الحنفاء الموحدين أو المشركين المتخذي الأنداد لله رب العالمين ﴿أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ﴾ [الأنعام: الآية ٨١] ورضاء الحق، ورحمته، ورعايته، ورأفته ﴿إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [آل عِمرَان: الآية ١١٨].

والجواب فيمن هو أحق بالأمن عند من يعقل ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: الآية ٨٢] لم يلبسوا إيمانهم ولم يخلطوه بشرك، بل صفوا إيمانهم من كدر الشرك، وأخلصوه لله رب العالمين. فلم يعبدوا إلا رب العالمين، ولم ينذروا إلا له، ولم يذبحوا الذبائح من هدي وأضحية وقرابين إلا تقربا لله رب العالمين، ولم يدعوا في شدة أو رخاء إلا رب السموات والأرض رب العالمين ﴿إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ * لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٦٢ - ١٦٣]..

إن ما تراه اليوم من تعظيم القبور والمقبورين بالطواف حولها وتعليق السرج ووضع الأنصاب والستور عليها ودعاء أهلها والخضوع أمامهم وطلب الحاجات منهم والاستغاثة بهم - ما هو إلا الشرك غير مقنع، ودين آزر وأبي جهل وأبي لهب بلا خفاء ولا مواربة[1].

❁❁❁

(١) المواربة: المداهاة والمخاتلة. لسان العرب (و ر ب).

فلسفة عبادة الأصنام والأوثان، وحافز نحتها[1]

هال المشركون من قوم إبراهيم وأفزعهم غياب الكواكب والنجوم عنهم بالأفول والغروب، فاخترع لهم الضلال والهوى والخيال أن يشيدوا لها الهياكل والمعابد والأصنام التي تذكرهم بها في غيابها، وتحل روحانيتها - بزعمهم - فيها حينما تأفل وتغرب، فكانت هياكل الزهرة والمشترى وزحل والشمس والقمر ... إلخ، في حران وآشور وكلدان والموصل ونينوى .... إلخ .

مهاجمة الخليل الأصنام وتحطيمها

إبراهيم- ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ﴾ [الصافات : ٨٨ - ٨٩] لم يشأ الخروج معهم لعيد لهم، لما يضمره لآلهتهم من الدمار والبوار والتجزير ﴿فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ﴾ [الصَّافات: الآية ٩٠] خوفًا من العدوى، أو إسراعًا إلى حفلهم وعيدهم ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ [الصَّافات: الآية ٩١]؛ تهكما بها واستهزاء بما يشيعه سدنتها من أخذ القرابين من الطعام والعطور لأجلها ولإطعامها. ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ﴾ [الصَّافات: الآية ٩٢] هزئ ببكمها وصخريتها، وأنها لا تنطق فلا تعقل، فلا تعدو أن تكون صخرًا أو نحاسًا لعبت فيه يد النحات .

﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ فَأَقْبَلُوٓا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ﴾، ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُوا مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ﴾ .

---

(١) تتمة المقال في مجلة « الحج » - رمضان - ١٣٧٧هـ .

محاكمة إبراهيم أمام مجلس عسكري، الخصم فيه هو القاضي

﴿قَالُواْ فَأْتُواْ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعۡيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡهَدُونَ﴾ [الأنبياء: الآية ٦١] [الأنبياء: ٥٨ - ٦١] ليذهب إليه الجلاوزة لإحضاره إلى المحكمة العسكرية: ﴿ءَأَنتَ فَعَلۡتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ﴾ [الأنبياء: الآية ٦٢] ولم يكن لهم عقل يهديهم إلى أنها لو كانت آلهة لما حطمها فتى من الناس - المتهم إبراهيم ﴿قَالَ بَلۡ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمۡ هَٰذَا فَسۡـَٔلُوهُمۡ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ﴾ [الأنبياء: الآية ٦٣]، استهزاء بعقولهم التي غطاها الشرك، وكشفٌ للتراب عن أفهامهم، لعلها تعود إليهم؛ أنها لو كانت آلهة حقًّا لدافعت عن نفسها أو -على الأقل- لنطقت بمن حطمها جذاذًا فشكته إليهم وأخبرت عنه. ألا يجوز أن يكون كبيرهم قد غار منهم فلم يردها شريكة له، وأراد الانفراد وحده بعبوديتكم، إن كان غار منها فكسرها، فالله رب العالمين أغير منه وهو أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملا أشرك معه فيه غيره تركه. وربما أراد إيقاظ عقلهم فيفيقوا من غفلتهم، ويعرفوا أن الكبير فضلًا عن صغارهم لا يفعل شيئًا كما لا ينطقون، وإذا تسجل عليهم العجز وعدم النطق كانت جمادات لا تعبد؛ إذ لم تدافع عن نفسها ولم تنطق بمن حطمها.

- المحكمة: ﴿فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمۡ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٤ - ٦٥] ظلمتم الفتى إبراهيم بتهمة تكسير الأصنام، وشهرتم به وأهنتموه؛ إذ جررتموه وأتيتم به على أعين الناس فشهدوا إحضاره للمحكمة مهانًا مكبلًا.

- المحكمة ﴿ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمۡ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ﴾ [الأنبياء: الآية ٦٥] [الأنبياء: ٦٤ - ٦٥] علاهم الخزي والعار ونكسوا رؤوسهم فاعترفوا

بالحقيقة المرة التي ليست في صالحهم ، فقالوا : لقد علمت وعلمنا وعلم الناس جميعًا أن هؤلاء الأصنام لا تنطق ، ولا كبيرهم يستطيع تكسيرها ، فله يد لا تبطش ، ورجل لا تمشي ، وعين لا تبصر ، وأذن لا تسمع ، وإنما صورت لتمثل الكواكب في غيابها ، وقولك لنا عنها : ﴿هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ * أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ﴾ [الشعراء : ٧٢- ٧٣] ، حق ، فهي لا تسمع إذ ندعوها ولا تضرنا ولا تنفعنا ، ولكنا وجدنا آباءنا كذلك يفعلون من عبادتها تعظيمًا فورثناهم في ذلك بغير عقل وقلدناهم بغير بصيرة .

إعلان الحق

إبراهيم ﴿قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ۝٦٦ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء : ٦٦ - ٦٧] تعبدون ما لا يسمع ولا يبصر ولا يجيب الداعي كما اعترفتم ؛ وتكسرت وتحطمت فلم تدفع عنها التكسير الذي صارت به جذاذًا ، ولم تنطق بمن فعل بها ذلك ، واتهم كبيرها بتكسيرها فلم يحر جوابًا ولا دافع عن نفسه الاتهام ، وكسرت شركاؤه أمام عينيه الحجريتين ، فلا إحساس ولا علم ولا دفاع ولا صراخ ولا كلام ﴿أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء: الآية ٦٧] ، أين عقولكم حتى تبين لكم أنها أصنام لا تضر ولا تنفع فلا تعبد ولا تؤله ؟ !

المحكمة : لقد اعترف المتهم ضمنا بفعلته الشنيعة ؛ إذ شتم الأصنام وتأفف منها وهزأ بها ؛ من بكمها وعجزها عن النفع والضر . فمن يعلن للأصنام بهذا الإعلان ويشجبها هذا الشجب ويجرحها هذه الجروح لا يبعد منه أن يكسرها هذا التكسير ويحطمها هذا التحطيم . وقرائن الأحوال مؤيدة لذلك ، فقد تخلف عن الخروج معنا إلى الاحتفال بالعيد بدعوى السقم والمرض ، فتجمعت عليه أدلة

الاتهام؛ تخلفٌ عنا، وبقاءٌ عندهم، وأصنامٌ محطمة دليل الجريمة، وتهكمٌ بها أمامنا وقت المحاكمة أنها لا تنطق ولا تضر ولا تنفع، والتأفف منها ومنا لعبادتها، كل أولئك أدلة صريحة على الجريمة والمجرم، فماذا أنتم حاكمون في هذا الجرم الشنيع؟. تداولوا وأصدروا حكمًا صارمًا يردعه وأمثاله.

الحكم

المحكمة: ﴿قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء: الآية ٦٨]، ﴿قَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ﴾ [الصَّافات: الآية ٩٧] ليس أشفى لصدورنا وأدفع للعار عن آلهتنا من حرق المتهم حيًّا في نار الجحيم.

التنفيذ

جمعوا من الأحطاب ما يقدرون عليه، حتى لقد كانت العجوز تبيع غزلها وتشتري حطبًا لإحراق إبراهيم؛ تقربًا إلى الآلهة التي كسرها وأذهب حرمتها، وبنوا البناء الضخم وأوقدوه نارًا حتى صار جحيمًا لا يمكن القرب منه، وارتفع لهبه في أجواء السماء حتى إنه لا يمر به طير في الطبقات العليا من السماء.

وبقيت مشكلة رميه في النار، إذ لا يمكنهم القرب منها، وحرها يشوي من اقترب منها، ولو بقدر ميل.

فاخترع لهم الغيظ والحنق والإسراع بنصر آلهتهم بوحي الشيطان آلة يرمونه بها على بعد، هو المنجنيق الذي ورثه الناس عنهم لهدم الحصون والقلاع وتطور مع الزمن إلى مدافع الهاون وقنابل الحصون وقذائف جهنمية إلى الدبابات والطائرات وقاذفات القنابل، ثم القنابل الذرية.

ووضعوا الخليل في المنجنيق ليرموه في الجحيم وهم من الجحيم بعيدون، وقذفه المنجنيق إلى نار الجحيم، وضجت السموات والأرض والملائكة لحرق خليل الرحمن مكسر الأصنام نبي الحنيفية البيضاء عبادة الرحمن؛ ورفع الخليل

بصره إلى السماء وقال: حسبي الله ونعم الوكيل، ضارعًا إلى رب العالمين، فكانت الآية وظهرت المعجزة وكانت النجدة أسرع من لمح البصر.

النجدة الآية الكبرى

نصر الخليل رسول رب العالمين

﴿قُلْنَا يَـٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَـٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ۝٦٩ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَـٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ﴾، ﴿فَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَـٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ﴾ [الصَّافات: الآية ٩٨] خسار وسفال باءوا بهما، نار تأرجحت إلى جو السماء لو رمى فيها الحديد لأذابته، لم يُستطع القرب منها، ولا رُمي من أرادوا حرقه فيها إلا بالمنجنيق، قال الله لها: ﴿كُونِي بَرْدًا وَسَلَـٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الأنبياء: الآية ٦٩] فتحولت من جحيم لهب يتأجج إلى برد سالم من الأذى، فأصبح البناء الذي بنوه جحيمًا، وأمسى على إبراهيم فردوسًا ونعيمًا وبردًا وسلامًا، (**وأرادوا كيدًا**) أي: كيدٌ بنار يمسي فيها في غمضة عين رمادًا، فبردت النار بردًا وسلامًا، وجعلهم الله الأخسرين والأسفلين وجعل لإبراهيم لسان صدق في الآخرين.

فهذه ديانات السماء؛ دين موسى الكليم، وعيسى ابن مريم، ومحمد خاتم المرسلين، تجل الخليل وتصلي وتسلم عليه وعلى آله كل وقت وحين، ويسيرون على منهاجه المستقيم؛ من وفقه الله منهم. ولم يبق لآشور وما حولها إلا الذكر السيئ، وخرافات السحر والكهانة، وما يفسد فطر العالمين....

أليس ذلك آية رحمة الله رب العالمين؟ ودليل صدق وبرهان حق على الرحمن الرحيم مالك يوم الدين؟

حواشي القصة

جاءت الآثار بأن الخليل حينما ألقي في النار ضجت الملائكة إلى الله تعالى:

إن خليلك يحرق في النار ، واستأذنت بحار الأرض وغيوم السماء في إطفاء النار ، وعرض جبريل الروح الأمين على الخليل معونته ، فقال الخليل : أما إليك فلا ، وأما إلى اللَّه فعلمه بحالي يغنيني عن سؤالي .

وقال اللَّه للملائكة والسموات والبحار والغيوم : إن استغاث بكم فأغيثوه ، وإن استغاث بي فأنا أرحم الراحمين منكم . ومغزى -هذه- الإشادة بكمال خلة الخليل إبراهيم وأنه عبد اللَّه حقًّا .

وصح عن ابن عباس أنه قال : حسبنا اللَّه ونعم الوكيل . قالها إبراهيم حينما ألقي في النار - يعني فكان من أمره ما كان - وقالها محمد وأصحابه حينما قالوا لهم : ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ [آل عمران : ١٧٣، ١٧٤] .

قال اللَّه : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: الآية ٢٥٨] شاغب الكافر في الحياة والموت ، فكتم الخليل نفسه بطلوع الشمس وغروبها ، فبهت الذي كفر .

كمال خلة إبراهيم في الأمر بذبح بكره إسماعيل

وقال بعض العلماء : إن الحكمة في أمر إبراهيم بذبح بكره وفلذة كبده إسماعيل (أن اللَّه اصطفاه وجعله)[1] خليلا ، والخلة لا تزاحم ، ورزق إسماعيل على كبر ، فأحبه ، فزاحم حبه في قلبه خلته للَّه تعالى ، فأمره اللَّه في المنام بذبحه ، فلما امتثل وأسلم تله للجبين وناداه اللَّه : يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا .

---

(١) طمس بالأصل ، ولعل المثبت هو المناسب للسياق .

وصفت الخلة ، ولم يزاحمها حب ولد ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾ [الصافات : ١٠٥ - ١٠٦] وسارت الضحايا في عيد الأضحى سنة ماضية عند الحنفاء من ذريته ؛ ذكرى لذلك الحدث العظيم .

دعوات الخليل إبراهيم

أثرها البين إلى اليوم

١ - قال الخليل ﴿رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ [إبراهيم: الآية ٣٧] فأجاب اللّه دعاءه وامتن علينا بذلك فقال : ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [القصص: الآية ٥٧] ، وهكذا هو إلى اليوم وإلى يوم القيامة حرما آمنا .. إلخ .

٢ - وقال الخليل مع ولده إسماعيل : ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [البقرة : ١٢٨ - ١٢٩] فاستجاب اللّه له وكانت الأمة الإسلامية التي سدت الخافقين من مشارق الأرض إلى مغاربها ، وبعث اللّه فيهم رسولا منهم ؛ محمد بن عبد اللّه بن عبد المطلب بن هاشم ، يتلو عليهم آيات اللّه من الكتاب والحكمة ، ويعلمهم الكتاب والقرآن وكتابته والحكمة ، فزالت عنهم الأمية وأصبحوا علماء الدنيا وحكماء العالم ، ويزكيهم ويطهرهم من درن الشرك وخبائث الأخلاق[1] فللّه الحمد والمنة .

---

(١) في الأصل : « خبائث والأخلاق » . والمثبت هو الصواب .

وجاء في الحديث[1] : « أنا دعوة أبي إبراهيم وبشرى عيسى بن مريم - يعني قول عيسى ابن مريم كما حكاه الله عنه في سورة الصف : ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ [الصَّف: الآية ٦] - ورؤيا أمي ؛ رأت نورًا خرج منها فأضاءت له قصور بصرى بالشام » ﷺ .

٣ - ومن دعاء الخليل عليه الصلاة والسلام : ﴿وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾ [الشُّعَرَاء: الآية ٨٤] أي ثناءً حقًّا على ألسنة الناس بعدي ، وقد أجاب الله دعاءه ، فأي ذكر أذكر من ذكر الخليل الذي هو أبو أنبياء بني إسرائيل والعرب ؟ . يجتمعون على احترامه وتعظيمه والصلاة عليه والسلام مع أنبيائهم إلى يوم القيامة ، والختانُ وإكرامُ وحجُ بيت الله الحرام ذكريات طيبات لخليل الرحمن ﷺ .

٤ - ﴿وَاجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ﴾ [الشُّعَرَاء: الآية ٨٥] فاستجاب الله له وأثنى عليه فقال : ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [النحل : ١٢٠ - ١٢٢] .

٥ - ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: الآية ٣٥] فاستجاب له وجنبه وبنيه إسماعيل وإسحق وإخوتهما عبادة الأصنام ، ولا يزال في ذريته من يعبد الله وحده مخلصًا له الدين .

لذلك حمد الله تعالى على ما أنعم عليه فقال : ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ ۚ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ [إبراهيم: الآية ٣٩].

أما دعوته لأبيه بالمغفرة فلم تستجب ؛ لأنها كانت معلقة بشرط إيمان أبيه كما قال تعالى : ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا

---

(١) الحاكم (٢/ ٦٥٦، رقم ٤١٧٤) وابن عساكر (١/ ١٧٠).

إِيَّاهُ﴾ [التوبة: الآية ١١٤] ، أي حينما قال له : ﴿وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا﴾ [مريم: الآية ٤٦] . ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ۚ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة: الآية ١١٤] .

وهذا التبين من حال أبي إبراهيم آزر لإبراهيم هل كان في الدنيا فيتبرأ منه في الدنيا ؟ أو في الآخرة حينما يلقاه وعلى وجه آزر قترة ؟ . فقال له : ألم أنهك أن لا تعصيني ؟ فيقول له آزر : فالآن لا أعصيك . فيقول إبراهيم للَّه : يا رب ألم تعدني أن لا تخزيني ؟ وأي خزي أخزى من أبي الأبعد ؟ فيقال له : انظر تحت قدميك . فإذا بذيخ ملطخ بروثه- أي : ضبع ذكر ، يمسخ آزر إلى صورته- فتنتزع محبته من قلب إبراهيم ويرمى آزر في النار(١) .

٦ - ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ﴾ [البقرة: الآية ٢٦٠] أي لم تصدق بأني أحيي الموتى ﴿قَالَ بَلَىٰ وَلَـٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ﴾ [البقرة: الآية ٢٦٠] أي أؤمن بأنك تحيي الموتى ، ولكن طلبت الرؤية والمشاهدة ؛ لأصل إلى عين اليقين فوق حق اليقين ، فليس الخبر كالعيان ، والإيمان فوقه المشاهدة بالأعيان ﴿قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ﴾ [البقرة: الآية ٢٦٠] قطعهن كما يقول الجمهور : ﴿ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا﴾ [البقرة: الآية ٢٦٠] أجناحها أو رجلا أو صدرًا ثم ادعهن يأتينك سعيًا (أحياء) واعلم أن اللَّه عزيز حكيم ، فأراه اللَّه إحياءه للموتى رؤية العين والبصر في هذه الطيور الأربعة ، إذ ذبحها وقطعها قطعًا ثم دعاها فجاءت إليه سعيًا حية . فقال الخليل : أعلم أن اللَّه عزيز حكيم ، يقول للشيء كن فيكون ، ويحيي الموتى وهو على كل شيء قدير .

وفي الأنبياء والرسل من بعد نوح في دعوتهم لأقوامهم وحجاجهم معهم وهمّ أممهم بهم ونصر اللَّه لرسله ومن آمن بهم كما قال : ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ۝١٧١ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ۝١٧٢ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَـٰلِبُونَ﴾ [الصافات : ١٧١ - ١٧٢] .

---

(١) البخاري (٣٣٥٠) من حديث أبي هريرة .

في ذلك كله آيات بينات وحجج واضحات على الإيمان بالله رب السموات والأرض وما بينهما إن كنتم تعقلون ؛ رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم مؤمنين .



نوح عليه الصلاة والسلام[1]

فهذا نوح عليه الصلاة والسلام يدعو قومه ليلًا ونهارًا ويعلن لهم ويسر لهم إسرارًا، فيرفضون دعوته ويجعلون أصابعهم في آذانهم ويصرون على الكفر ويستكبرون استكبارًا، ويتهددون بالرجم: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ﴾ [الشُّعَرَاء: الآية ١١٦] ويرمونه بالجنون ﴿فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ﴾ [القَمَر: الآية ٩].

لقد كانت دعوة نوح واضحة نيرة لا لبس فيها ولا اشتباه ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ [نوح: ١٠ - ١٣] احترامًا وخشية ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ [نُوح: الآية ١٤] [نوح: ١٤ - ٢٠]. من نطفة إلى علقة إلى مضغة إلى جنين إلى مولود إلى رضيع إلى طفل إلى شاب إلى شيخ، ثم الموت والحياة بعده ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا﴾ [نوح: ١٤ - ٢٠]. فرقعة الأرض التي يعيش عليها كل قوم مبسوطة تحت الأقدام، فيها السبل والفجاج، ومهدت لمعايشهم وسكناهم، فبسطها تحت الأقدام وفي رأي العين وتمهيدها للسكنى والمعيشة لا ينافي كريتها وأنها كوكب سيار.

فأعرضوا واستكبروا استكبارًا، وقالوا: ﴿يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ [هُود: الآية ٣٢].

---

(١) تتمة مقال «الله رب العالمين في الفطر والعقول والأديان» مجلة «الحج» - محرم ١٣٧٨هـ.

وأوحى الله إلى نوح : ﴿أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ۝٣٦ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ۝٣٧ وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُواْ مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾ [هود : ٣٦ - ٣٨] واستهزءوا به وبعمله الفلك ، ولا عهد للبشرية حينئذ بفلك ، لا يعرفون إلا الصحراء التي يجتازونها والبحار التي يقفون على سواحلها ، والغرق لمن تحدثه نفسه بالدخول فيها .

ما هذا يا نوح ؟! ألواح من الخشب تشقها وتركبها على أضلاع من الخشب كأضلاع الإنسان والحيوان يمسكها عمود فقري كعمود ظهر الإنسان والحيوان وتمسك بعضها على بعض بالدسر والمسامير .. يا للعجب لما تصنع ! ويا للسخرية من عمل لا مفهوم له ! .. أكوخ تسكنه ، وليس هو كالأكواخ ، فلا سقف ولا أعمدة ولا أركان ، أم سقف مقلوب على الأرض ؟ هذا هو الهذيان ! قل لنا بالله ما هذا الذي لا نفهمه ولا نعقله ؟ أخشاب مجمعة على هيئة هيكل عظمي !

نوح : ﴿إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ * فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ [هود : ٣٨ - ٣٩] .

قومه : تتوعدنا بماء يغرقنا ولم نر ولم نسمع بما يغرق الصحراء والجبال ، وإنما رأينا وديانًا تسيل بعد الأمطار ، فنهرب منها إلى بيوتنا والهضاب والظراب والآكام ، بله الجبال .

وإن كان كما تقول فكيف النجاة منه بألواح متجمعة تغرق براكبها قبل أن يغرق الناس ؟ . هل سمعت بإنسان أو حيوان ركب البحر قبلك ولو على ألواح مجمعة ركبت تركيبًا لا يفهمه الناس ؟ ولم يسبق لهم به عهد ولا ورثوه عن آبائهم الأولين ؟ !

نوح : اسخروا ما شاءت لكم السخرية اليوم ، وغدًا سيعم الدنيا الطوفان ونركب سفينتنا باسم اللَّه مجريها ومرساها . ونسخر منكم حينئذ كما تسخرون منا اليوم وسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه حينما يفجأه الطوفان وقد ركبنا سفينتنا ويحل عليه عذاب مقيم من غرق إلى نار الجحيم .

الطامة الكبرى .. الطوفان التاريخي العظيم

حتى إذا جاء أمرنا بهلاكهم بالطوفان وفار التنور الذي يخبز فيه- بالماء- فقد تفجرت الأرض عيونًا بعد ما أرسلنا السماء بماء منهمر .

﴿قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ [هُود: الآية ٤٠] ذكر وأنثى ؛ جمل وناقة ، ثور وبقرة ، كبش ونعجة ، ديك ودجاجة ، حصان وفرس .. إلخ ، مما تعمر به الأرض من إنسان وحيوان . ﴿وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ﴾ [هُود: الآية ٤٠] منهم : ابنه وزوجته اللذان لم يؤمنا به ولم يصدقا رسالته ووعيده لقومه ﴿وَمَنْ آمَنَ﴾ [هُود: الآية ٤٠] به من قومه ، وما أقلهم ﴿وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [هُود: الآية ٤٠] .

﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ﴾ [القمر: ١٣ - ١٤] ، ﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ﴾ [هود : ٤١ - ٤٣] - بالإيمان والركوب معنا - ﴿وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ﴾ [هُود: الآية ٤٣] ، ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً﴾ [الفُرقان: الآية ٣٧] ، ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ﴾ [يُونس: الآية ٩٢] ، ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ ﴿١١﴾ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ﴾ [الحاقة : ١١ - ١٢] ،

﴿وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ١٣ - ١٥]، ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ﴾ [الأعراف: الآية ٦٤] عموا عن الحق والإيمان برسالة نوح إليهم، واستكبروا استكبارًا

﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ ۖ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [هود: الآية ٤٤] أقلعي أيتها[1] السماء عن ميازيب[2]، وابلعي أيتها الأرض، وقضي الأمر.

وأهلك اللّٰه الظالمين الذين كذبوا نوحا وتحدوه. ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [الأعراف: الآية ٦٩] أهلكهم اللّٰه بدعوة نوح ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: الآية ٢٦] أي أحدًا يسكن الديار ﴿إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ [نوح: الآية ٢٧] يتربى الصغير على ما رباه الكبير.

﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا۟ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا﴾ [نوح: الآية ٢٥] هكذا أغرق اللّٰه الأرض بكفرهم بنبيه نوح ودعوته عليهم بعدما أعرضوا عن دعوته وأصروا واستكبروا استكبارا، وهددوه بالرجم ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ﴾ [الشعراء: الآية ١١٦] - بعدما رموه بالجنون وزجروه ليكف عن نصحهم ﴿وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ﴾ [القمر: الآية ٩] فكان الطوفان الذي علا رءوس الجبال جزاء لنوح الذي كفر به قومه وزجروه وهددوه بالرجم ورموه بالجنون ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: الآية ٨].

---

(١) في الأصل: «أيها».

(٢) (وَزَبَ الماءُ، يَزِبُ، وُزُوبًا): إذا سالَ، ومنهُ المِيزَابُ. «تاج العروس» (وزب).

شفاعة نوح لابنه الغريق

﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ [هُود: الآية ٤٥].

الرب : ﴿قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [هُود: الآية ٤٦] فتشفع فيمن كذب المرسلين ، ولو كان ابنك لصلبك فليس عند ربك محاباة ولا مجاملات لأجل خاطر فلان .

نوح : ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [هُود: الآية ٤٧] تاب نوح وأناب من شفاعة لم يرضها اللَّه تعالى ، فشرط الشفاعة رضا اللَّه عن المشفوع له وإذنه للشافع ، وذلك لم[1] يتوفر في شفاعة نوح لابنه ..

نهاية وبداية

نهاية القوم الظالمين بهلاكهم ، وبداية عمارة الأرض بقوم صالحين . ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [هُود: الآية ٤٨] .

هبط نوح من السفينة هو ومن معه من ذريته والمؤمنين به ، والأزواج التي حملها معه ؛ ليعمر بها الأرض مرة أخرى ، هبطوا جميعًا بسلامة اللَّه وحفظه وبركاته عليهم لتعمر بهم الدنيا مرة أخرى .

وأمم تنشأ بعد ذلك كعاد وثمود سنمتعهم متاع الحياة الدنيا ثم يمسهم منا عذاب أليم في الدنيا والآخرة لكفرهم وتكذيبهم الرسل ، سنة اللَّه في الذين خلوا

---

(١) سقطت « لم » من الأصل.

من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلًا .. ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ﴾ [الأنبياء : ١٠٥ - ١٠٦] .

عبرة

﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [هُود: الآية ٤٩] ..

حجة للنبي الأمي العربي على قومه ، أن يعلم من أمر نوح وقومه وطوفانه وفلكه ، وأخبارهم الغائبة في جوف التاريخ الماضي السحيق ، ما لم يكن يعلم هو ولا قومه ، فاصبر على أذى قومك فالعاقبة للمتقين ، كما كانت لنوح ومن آمن به .

حواشي الحادثة التاريخية العظيمة :

١ - حدث الطوفان الذي طغى على كل حوادث البشر ، هل كان عاما ، عم وجه الأرض وغطى جميع أقطارها ، وطاف على جميع قاراتها ، أم كان جزئيًا حيث كان قوم نوح فقط ؟

للباحثين المتعمقين فيه آراء ، كل يدعم رأيه بما يراه مؤيدًا له من آثار وحفريات وقواقع وأصداف .

٢ - وأين كان قوم نوح ؟ هل كانوا بجزيرة العرب أم بصحراء العراق بين دجلة والفرات ؟

تعمق لم تتعرض له كتب السماء ، ولنا من ذلك العبرة أينما كانوا .

٣ - سفينة نوح التي تركها الله آية ، وأخبر أنها استوت على الجودي ، وذهب من ذهب إلى أنه جبل بالعراق ، وجاء عن قتادة أحد علماء التابعين أنها بقيت حتى رآها أوائل هذه الأمة[١] - يعني المسلمين .

---

(١) تفسير الطبري ٢٢/ ٥٨٢.

وقد ذكرت الصحف أن بعثة أمريكية تريد السفر إلى جبال أذربيجان أو أرمينية ، حيث ذكر لها أن سفينة نوح ترسو هناك ، وأبت عليها روسيا ، متهمة إياها بأن الغرض من ذلك سياسي حربي للتجسس عليها ، فالله أعلم .

٤ - اشتغل مفسرونا بذرع سفينة نوح ؛ طولا وعرضًا ، وإحصاء راكبيها وركابها من الأناسي والحيوانات ، مما هو فضول لا حاجة إليه ، إلا إذا جاء من وجه صحيح يعتمد عليه ، وأنى وأين هو ؟ والعبرة قائمة بما ذكر الله ولا حاجة لما سكت عنه .

٥ - قول قوم نوح : ﴿لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ [نُوح: الآية ٢٣] جاء عن ابن عباس[١] رضي الله عنهما أنه قال : كان هؤلاء قومًا صالحين بين آدم ونوح ، فلما ماتوا عكفوا على قبورهم ، ثم أوحى إليهم الشيطان أن صوروهم ؛ ليكون أدعى لتذكرهم ، فلما طال الزمن ونسي العلم ، عبدت الصور ، وكان الشرك وترك التوحيد . أو ما هذا معناه .

ولذلك جاءت شريعة الإسلام خاتمة الشرائع بالوعيد الشديد على تشييد القبور وبناء المساجد والمعابد عليها ، « ولعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد ، يحذر ما فعلوا »[٢] ، « إن من شرار الناس من تدركهم الساعة وهم أحياء والذين يتخذون القبور مساجد »[٣] ، « لعن الله زوارات القبور والمتخذين عليها المساجد والسرج »[٤] .

أحاديث ثابتة ، معروفة لدى أهلها .

---

(١) أثر ابن عباس أخرجه البخاري (٤٩٢٠) معلقًا .
(٢) البخاري (٤٣٥، ٤٣٦) ، ومسلم (٥٢٩ - ٥٣١) .
(٣) أحمد (١/٤٠٥) ، والطبراني (١٠/١٨٨) ، وقال الهيثمي (٢/٢٧) : إسناده حسن .
(٤) أبو داود (٣٢٣٦) ، والترمذي (٣٢٠) .

رسول الله هود إلى قومه عاد

عمرت الأرض ممن حمل نوح في فلكه المشحون، وانتشر العمران حتى جنوب الجزيرة العربية حيث الأحقاف من حضرموت، وكانت عاد الأولى ﴿ٱلَّذِينَ طَغَوۡاْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ۝١١ فَأَكۡثَرُواْ فِيهَا ٱلۡفَسَادَ﴾ [الفجر: ١١ - ١٢]، وأعادوا وثنية قوم نوح التي كانوا عليها قبل الطوفان وقالوا فيها: ﴿لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمۡ وَلَا تَذَرُنَّ وَدّٗا وَلَا سُوَاعٗا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسۡرٗا * وَقَدۡ أَضَلُّواْ كَثِيرٗاۖ﴾، ﴿وَقَالُواْ مَنۡ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةًۖ﴾ [فُصِّلَت: الآية ١٥] وهم ﴿إِرَمَ ذَاتِ ٱلۡعِمَادِ ۝٧ ٱلَّتِي لَمۡ يُخۡلَقۡ مِثۡلُهَا فِي ٱلۡبِلَٰدِ﴾ [الفجر: ٧ - ٨] أي كانوا أقوى قبيلة على وجه الأرض حينئذ.

فأرسل الله إليهم نبيه هودًا عليه الصلاة والسلام يدعوهم إلى الله وإلى عبادته ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۖ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا مُفۡتَرُونَ﴾ [هُود: الآية ٥٠] كاذبون على الله في اتخاذكم معه شركاء ﴿يَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِي فَطَرَنِيٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ۝٥١ وَيَٰقَوۡمِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا وَيَزِدۡكُمۡ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمۡ وَلَا تَتَوَلَّوۡاْ مُجۡرِمِينَ﴾ [هود: ٥١- ٥٢]، ﴿أَتَبۡنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةٗ تَعۡبَثُونَ ۝١٢٨ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمۡ تَخۡلُدُونَ ۝١٢٩ وَإِذَا بَطَشۡتُم بَطَشۡتُمۡ جَبَّارِينَ ۝١٣٠ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝١٣١ وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِيٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعۡلَمُونَ ۝١٣٢ أَمَدَّكُم بِأَنۡعَٰمٖ وَبَنِينَ ۝١٣٣ وَجَنَّٰتٖ وَعُيُونٍ ۝١٣٤ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾ [الشعراء: ١٢٨ - ١٣٥].

عاد: ﴿قَالُواْ يَٰهُودُ مَا جِئۡتَنَا بِبَيِّنَةٖ وَمَا نَحۡنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوۡلِكَ وَمَا نَحۡنُ لَكَ بِمُؤۡمِنِينَ ۝٥٣ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعۡتَرَىٰكَ بَعۡضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٖۗ﴾، ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي سَفَاهَةٖ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾ [الأعراف: الآية ٦٦]، ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَوَعَظۡتَ أَمۡ لَمۡ تَكُن مِّنَ ٱلۡوَٰعِظِينَ ۝١٣٦ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلۡأَوَّلِينَ ۝١٣٧ وَمَا نَحۡنُ

بِمُعَذَّبِينَ﴾ [الشعراء: ١٣٦- ١٣٨]، ﴿أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الأعراف: الآية ٧٠].

تخديش في وجه الحق، وترديد لما يقوله في كل زمان ومكان المبطلون المصرون على باطلهم، المعرضون عن النور والهداية.

هود: ﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ فَانتَظِرُوٓا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ﴾ [الأعراف: الآية ٧١]، ﴿قَالَ إِنِّيٓ أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوٓا أَنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌ بِنَاصِيَتِهَآ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾ [هود: ٥٤ - ٥٧].

❁❁❁

العاقبـــة(١)

﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا هُودٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَنَجَّيۡنَٰهُم مِّنۡ عَذَابٍ غَلِيظٖ ۝٥٨ وَتِلۡكَ عَادٞۖ جَحَدُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ وَعَصَوۡاْ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَمۡرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٖ ۝٥٩ وَأُتۡبِعُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا لَعۡنَةٗ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ أَلَآ إِنَّ عَادٗا كَفَرُواْ رَبَّهُمۡۗ أَلَا بُعۡدٗا لِّعَادٖ قَوۡمِ هُودٖ﴾ [هود: ٥٨ - ٦٠]، ﴿فَأَنجَيۡنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَقَطَعۡنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۖ وَمَا كَانُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾ [الأعراف: الآية ٧٢]. ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَهۡلَكۡنَٰهُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [الشُّعَرَاء: الآية ١٣٩]، ﴿كَذَّبَتۡ عَادٞ فَكَيۡفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ۝١٨ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا صَرۡصَرٗا﴾ - له صرير من شدته - ﴿فِي يَوۡمِ نَحۡسٖ مُّسۡتَمِرّٖ ۝١٩ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمۡ أَعۡجَازُ نَخۡلٖ مُّنقَعِرٖ ۝٢٠ فَكَيۡفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ [القمر: ١٨ - ٢١]. ﴿وَأَمَّا عَادٞ فَأُهۡلِكُواْ بِرِيحٖ صَرۡصَرٍ عَاتِيَةٖ ۝٦ سَخَّرَهَا عَلَيۡهِمۡ سَبۡعَ لَيَالٖ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومٗاۖ فَتَرَى ٱلۡقَوۡمَ فِيهَا صَرۡعَىٰ كَأَنَّهُمۡ أَعۡجَازُ نَخۡلٍ خَاوِيَةٖ ۝٧ فَهَلۡ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٖ﴾ [الحاقة: ٦ - ٨]. ﴿فَلَمَّا رَأَوۡهُ عَارِضٗا مُّسۡتَقۡبِلَ أَوۡدِيَتِهِمۡ قَالُواْ هَٰذَا عَارِضٞ مُّمۡطِرُنَاۚ بَلۡ هُوَ مَا ٱسۡتَعۡجَلۡتُم بِهِۦۖ رِيحٞ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٞ ۝٢٤ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيۡءِۭ بِأَمۡرِ رَبِّهَا فَأَصۡبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمۡۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ۝٢٥ وَلَقَدۡ مَكَّنَّٰهُمۡ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمۡ فِيهِ وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ سَمۡعٗا وَأَبۡصَٰرٗا وَأَفۡـِٔدَةٗ فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُمۡ سَمۡعُهُمۡ وَلَآ أَبۡصَٰرُهُمۡ وَلَآ أَفۡـِٔدَتُهُم مِّن شَيۡءٍ إِذۡ كَانُواْ يَجۡحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ [الأحقاف: ٢٤ - ٢٦].

فجحد آيات الله يعمي الأبصار ويصم الأسماع ويطبع على القلوب، والعاقبة الجحيم ﴿فَأَمَّا عَادٞ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَقَالُواْ مَنۡ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةًۖ أَوَلَمۡ

(١) تتمة مقال «الله رب العالمين في الفطر والعقول والأديان» مجلة «الحج» - ربيع الأول - ١٣٧٨هـ.

يَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ﴾ [فصلت: ١٥، ١٦] أخزاهم اللَّه في الدنيا بتصديق وعيده على لسان نبيه هود عليه الصلاة والسلام ، فأهلكهم بالريح الذي لا حياة لحيوان ولا إنسان إلا به ، ألا تراه في هدوئه وسكونه متنفس الإنسان والحيوان ، بل الأشجار والنبات . ولكنه في ثورته وهياجه يقلع الأشجار والبنيان وينزع السفن من ظهر البحار إلى العراء والصحراء ، ويخرب العامر ويدمر كل شيء بأمر ربه فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم ، فلا بساتين ، ولا أنعام ، ولا زروع ، ولا قوم عاد الذين قالوا من أشد منا قوة ، فسبحان من يضع سره وقوته في أضعف خلقه ! ومن يجعل من سبب الحياة سببا للهلاك والدمار ، هواء به حياة النفوس ينقلب ريحًا تدمر كل شيء !! .. آمنت باللَّه العظيم ..﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الشُّعَرَاء: الآية ٨] .

نبي اللَّه صالح ورسوله إلى ثمود

تحول العمران إلى شمال جزيرة العرب ؛ إلى الحجر ديار ثمود والذين عمروا الأرض من بعد عاد ، ونحتوا من الجبال بيوتا فارهين ، وأوغلوا في الترف والإسراف ، وأصابهم ما أصاب من قبلهم من الفساد والإجرام ، والشرك والضلال ، والطغيان في البلاد والإكثار فيها من الفساد ، فأرسل اللَّه إليهم نبيه صالحًا عليه الصلاة والسلام ينصحهم ويعظهم قائلًا : ﴿إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٥﴾ أَتُتْرَكُونَ فِى مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوٓا أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾ قَالُوٓا إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ

ٱلْمُسَحَّرِينَ﴾ [الشعراء: ١٤٣ - ١٥٣]، ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾ [هُود: الآية ٦١]. ﴿يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ﴾ [النَّمل: الآية ٤٦]، ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: الآية ٧٤]. ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾ [هُود: الآية ٦٣].

ثمود: ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [الشعراء: ١٥٣ - ١٥٤]، ﴿أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ * أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ﴾ [القمر: ٢٤، ٢٥]، ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ [الأعراف: ٧٥، ٧٦].

فأعلنوا كفرهم بصالح الذي آمن به ضعفاء قومه ﴿قَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ [هُود: الآية ٦٢]، ﴿قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾ [النَّمل: الآية ٤٧] تشاءموا به وبدعوته، نسبوا ما يصيبهم من الشر لكفرهم؛ نسبوه إلى صالح ودعوته والمؤمنين به كما فعل قوم فرعون من بعدهم ﴿فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ﴾ [الأعراف: الآية ١٣١].

آية صالح الناقة

﴿إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ﴾ [القمر: ٢٧ - ٢٨]، ﴿قَالَ هَٰذِهِ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الشعراء: ١٥٥ - ١٥٦]، ﴿فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا﴾ [الشمس: الآية ١٣]، ﴿وَيَا قَوْمِ هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾ [هود: الآية ٦٤]. طلبوا من صالح آية على رسالته وصدقه فكانت الناقة.

وذهب المفسرون(١) إلى أنها أخرجت لهم من صخرة حجرية، وإذا استبعد المألوف ذلك فقد سماها آية، فاعلم أنها آية صالح على أي وجه كانت، وعلى كل حال أهلكوا بكفرهم بها فلا تكن من الكافرين.

التمرد والعصيان:

﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: الآية ٧٧]، ﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ [هود: الآية ٦٥]، ﴿فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ﴾ [القمر: الآية ٢٩]، ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا ﴿١١﴾ إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا﴾، ﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ [النمل: ٤٨، ٤٩].

---

(١) انظر «تفسير ابن كثير» (٣/٤٤٠) ت / سامي سلامة.

الفاصلة ، الصاخة ، الصيحة :

﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ۝ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ﴾ [القمر: ٣٠، ٣١] ، ﴿فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا * وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا﴾ ، ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ [الأعراف: الآية ٧٨] رجفة من الأرض وصيحة من السماء قطعت نياط قلوبهم فأصبحوا في ديارهم جاثمين ، جثوم الطير في أوكارها كهشيم داسته الماشية في حظيرتها بأقدامها فمزقوا شر ممزق ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ . ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ﴾ [الأعراف: الآية ٧٩] .. ومتى كان المفسدون يحبون الناصحين وأين هذا ؟ فانظر قصص الله عن الأمم وأنبيائهم ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف: الآية ١١١] .

وجاء في المأثور خروج الناقة من صخرة صماء ، وأوصافها وأوصاف فصيلها ، وكمية لبنها ، إلى غير ذلك مما تجده في كتب الآثار والسير والتفاسير .

دار الزمان وتحول العمران بعد ثمود إلى العراق ؛ بابل وآشور وكلدان ، وكانت بعثة الخليل إبراهيم عليه الصلاة والسلام وما كان من أمره معهم ، وقد قدمنا خلاصته منها في قصة الخليل مع قومه .

ومن تمام قصة الخليل قصة لوط الذي آمن به وهاجر معه من العراق والشام ، ولما نصر الله الخليل إبراهيم على قومه ونجاه من النار التي أوقدوها لإحراقه قال :

إني مهاجر إلى ربي سيهدين ، فآمن له لوط وهاجر معه من العراق إلى جنوب الشام ، حيث بيت المقدس الآن ، وعمروا الأرض بما وهب الله لإبراهيم ولده إسحق وحفيده يعقوب وابن أخيه لوط وبقية ذرية إبراهيم على ما جاء في التوراة وسير الأولين .

لوط :

أكرم الله لوطًا بالرسالة إلى أهل « سدوم » من قرى فلسطين بقرب مساكن آل إبراهيم حيث البحر الميت الآن ذي البوتاس الكثير .

وكانت قرية سدوم تعمل الخبائث التي لم يسبقهم إليها أحد من العالمين ، كانت تأتي الذكران من العالمين ، وتدع ما خلق الله لها من النساء ، إنهم كانوا قوم سوء فاسقين ، فأرسل الله إليهم رسوله لوطا ناصحًا واعظًا ناهيًا عن تلك الخبائث والرذائل إذ يقول لقومه : ﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ * إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ [الأعراف : ٨٠ – ٨١] ، ﴿أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ [الشعراء : ١٦٥ – ١٦٦] ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ * وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء : ١٧٩ – ١٨٠] ، ﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ * أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [النمل : ٥٤، ٥٥] ، ﴿إِنِّى لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ﴾ [الشُّعَرَاء: الآية ١٦٨] المبغضين ﴿رَبِّ نَجِّنِى وَأَهْلِى مِمَّا يَعْمَلُونَ﴾ [الشُّعَرَاء: الآية ١٦٩] .

قومه : ﴿قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ﴾ [الشُّعَرَاء: الآية ١٦٧] ، ﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ [الأعرَاف: الآية ٨٢] يتنزهون عن أعمالكم ويعدونها قذرًا يتطهرون عنه –

هذا وهو غريب عنكم، لصيق بكم- فما لهذا العراقي واستقذار أعمالنا والنقد لأعمالنا والنفرة عما أحببناه والتشهير بشهواتنا وإتيان الرجال دون النساء.

ضيف إبراهيم وهلاك قوم لوط

﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴾ [الذاريات: ٢٤ - ٢٦] جاء بعجل سمين حنيذ مشوي ﴿فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ [الذّاريَات: الآية ٢٧] فلم يأكلوا ﴿فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾ [الذّاريَات: الآية ٢٨] هو إسحاق ﴿فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ﴾ [الذّاريَات: الآية ٢٩] - ضجيج - ﴿فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ قَالُوا كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾ فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾ وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [الذاريات: ٢٩ - ٣٧] عظة لمن يؤمن بعذاب الله للمجرمين. ودليلا على أن الله ليس بغافل عما يعمل الظالمون.

﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾ [هُود: الآية ٦٩] مشوي على الحجارة المحماة بالنار وهو ما يسمى في الحجاز «بالمندي» وهو أطيب أنواع اللحوم المطهية.

فلما رأى أيديهم لا تصل إليه؛ لأنهم ملائكة لا تأكل ولا تشرب. وتقول التوراة إنهم أكلوا. وهذا غلط من كاتبها ﴿نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ [هُود: الآية ٧٠] لأن من لا يأكل طعامك ربما كان يضمر لك شرا

﴿قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي

شَيْخًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ﴾ [هود: ٦٩ - ٧٥]، ﴿قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا﴾ [العنكبوت: الآية ٣٢] أي فكيف تقلبونها؛ عاليها سافلها ﴿قَالُوا۟ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ [العنكبوت: الآية ٣٢].

﴿يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ﴾ [هود: الآية ٧٦] الجدل في هلاك قوم لوط ﴿إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾ [هود: الآية ٧٦]. ولا يرد بأس الله عن القوم المجرمين.

❁ ❁ ❁

مقدمات الهلاك وأسبابه[1]

﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾ [هُود: الآية ٧٧] استاء من مجيئهم إليه وضاقت نفسه أين يؤويهم من قومه الخبثاء ؟ وقال : هذا يوم عصيب شديد كريب ؛ لما يتوقعه من قذارة قومه وخبائثهم ، فاسمع القصة للنهاية . ﴿وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ﴾ [هُود: الآية ٧٨] - يسرعون إلى صيد ثمين ؛ شبان حسان ، سال عليهم لعابهم ، وراودوه عن ضيفه ؛ يا لوط : إن عندك ما نتوق[2] إليه ونحن فيه ؛ ضيفك هؤلاء الشباب الجمال المرد الحسان .

﴿وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هُود: الآية ٧٨] فليست هذه أولى خباثاتهم ، وذلك ديدنهم طوال أيامهم فليسوا حدثاء عهد بذلك .

لوط : ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ [هُود: الآية ٧٨] عرض عليهم بزواجهم ببناته ، أو الاقتناع بزوجاتهم اللائي وصفهن[3] بأنهن بناته ترغيبًا فيهن[4] ، هن أطهر من الرجال فقد خلقن لذلك ﴿خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ﴾ [النَّجم: الآية ٤٥] .

﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾ [هُود: الآية ٧٨] يحس بفظاعة هذا الخبث ، ويعلم أن إهانة الضيف سخف ، ولا سيما بمثل هذا النوع من الإهانة .

قومه : ﴿قَالُوا۟ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾ [هُود: الآية

---

(١) تتمة مقال « الله رب العالمين في الفطر والعقول والأديان » مجلة « الحج » - جمادى الأولى - ١٣٧٨هـ .
(٢) في الأصل « تتوق » .
(٣) في الأصل « وضعنهن ».
(٤) في الأصل « فيها ».

٧٩] يا للسخافة ! لا حق لهم في البنات ولهم حق في الضيف وإهانته أشنع هوان !! هذا هو المسخ وانحراف الفطرة .

لوط : ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ [هُود: الآية ٨٠] ، كان غريبًا بينهم ، فلا عصبية ولا أقارب يحمونه ، فقد كان مهاجرًا عراقيًا عاش بينهم ، وليس فيه له ركن يركن إليه ؛ من جوار أمير وحماية عظيم ، وفي الحديث : « يرحم اللَّه لوطًا ، لقد كان يأوي إلى ركن شديد »(١) . هو اللَّه سبحانه وملائكته الذين نزلوا لنصرته ، ولكنه كان لم يعرفهم بعد ، وفي الحديث الآخر ما معناه : « ما بعث اللَّه نبيا بعد لوط إلا في عصبية من قومه »(٢) - أي ليحموه من سفهائهم - وما بعد الشدة إلا الفرج ﴿أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: الآية ٢١٤] .

الملائكة : ﴿قَالُواْ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيْكَ ۖ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ ۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ ۚ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ ۚ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ [هُود: الآية ٨١].

تفرّج كرب لوط حين أخبره الضيف أنهم رسل ربه ، وأمروه بالخروج ليلًا من هذه القرية الظالم أهلها ، وأن لا يرجعوا إلى الوراء حيث الهلاك والزلازل والخسف ، والهرب بأهله إلا امرأته ؛ عجوز السوء التي كانت على دين قومه ، وتخون لوطا ، فتخبر بضيوفه وتمالئ قومه ﴿إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا﴾ [هُود: الآية ٨١] من الخسف ورمي الحجارة ﴿مَآ أَصَابَهُمْ﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٧٢] .

إن موعدهم في الهلاك الصبح ؛ صبح تلك الليلة ، أليس الصبح الذي لا(٣) يبعد عنك سوى ليلة واحدة قريبًا ، أي قريب .

---

(١) البخاري (٣٣٨٧، ٤٦٩٤) من حديث أبي هريرة رضي اللَّه عنه .

(٢) الترمذي (٣١١٦).

(٣) سقطت « لا » من الأصل.

العقاب الأليم

أولـه : ﴿وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُواْ عَذَابِى وَنُذُرِ﴾ [القَمَر: الآية ٣٧] .

جاءوا بأعين مفتوحة للشر والخبث ، فرجعوا بها مطموسة يتلمسون الطريق بأيديهم ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ [البُرُوج: الآية ١٢] عمى بعد بصر ، ما أشده من عمى !

وثانيًا : ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا﴾ [هُود: الآية ٨٢] أوتفكت فقلبت ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ * مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَۖ وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ [هود : ٨٢ - ٨٣] .

﴿لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ﴾ ، ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ﴾ [النَّجْم: الآية ٥٣] قرية قوم لوط أفكها ، فقلبها[1] وأهوى بها في جوف الأرض

﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًاۖ﴾ [الأعرَاف: الآية ٨٤] أي من الحجارة ﴿فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ [الشُّعَرَاء: الآية ١٧٣] .

قال ابن كثير في « تفسيره »[2] : وبقي موضع القرية بحيرة مالحة ، لا يعيش فيها حيوان من سمك وحيتان ، لشدة ملوحتها ، تسمى بحيرة لوط . اهـ .

وهو ما يسمى الآن بالبحر الميت ، شديدة الملوحة بأملاح الفوسفات التي تقتل الأحياء من حيتان وأسماك ، وفي الآثار أن جبريل رفع القرية بريشة من جناحه إلى السماء ، حتى سمعت الملائكة صياح ديوكهم ، ثم قلبها . وهو

---

(١) في الأصل « فقبلها » .

(٢) لم نجد هذا النص في تفسير ابن كثير.

تصوير للقوة الإلهية التي اقتلعت القرية من أسسها ورفعتها في الجو إلى ما شاء الله ، ثم قلبتها ، وكان من لوازم ذلك مطر الحجارة المسومة من سجيل وطين ... إلخ ..

وكيف يتصور ذلك العقل العصري ؟ من بركان كان تحت القرية ، فثار فجعل عاليها سافلها ، فقد كان ما أخبر الله به عنهم وثوران البراكين أمرًا معروفًا للبشر في كل زمان ومكان ، وقد حدث في إحدى البلاد قبل العام الماضي خراب عظيم في القرى والبيوت لا تزال حكومتهم مشتغلة بتعميره إلى الآن ، وقد قدروا خسارة ذلك بملايين الليرات ، فسبحان القاهر فوق عباده الذي يرسل من آياته ما يخوف به عباده لعلهم عن غيهم يرجعون .

نبي الله شعيب رسول الله إلى مدين والأيكة

ومدين شرقي بحر القلزم البحر الأحمر ، حيث يلتقي الحجاز بالشام ، وفيها كان هرب موسى من فرعون ، ولعلها بقرب العقبة أو أيلة أو تبوك .

ولقد سار العمران من العراق إلى الأرض المقدسة من جنوب الشام مع الخليل إبراهيم وبنيه ، وسار من بلاد العرب من الحجر ديار ثمود بعد هلاكهم ونجاة صالح ومن آمن به حتى التقيا بمدين ، فازدهر فيها تجارة وبيعًا وشراء وكيلًا ووزنًا ، غير أن أهل مدين أساءوا المعاملة وبخسوا الكيل والميزان وبخسوا الناس أشياءهم وعثوا في الأرض مفسدين ، فبعث الله إليهم نبيه شعيبًا يذكرهم بالله وينصحهم في حسن المعاملة ويأمرهم بالعدل في الأخذ والعطاء فقال :

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ ۚ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ﴾ [هُود: الآية ٨٤] – فلا حاجة بكم إلى هذا التطفيف – ﴿وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ﴾ [هُود: الآية ٨٤] . ﴿وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى

ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [هود : ٨٥ - ٨٦] ما يبقى لكم من ثمرات طاعة الله -الباقيات الصالحات- خير لكم مما تكسبونه بالسحت ونقص الكيل والميزان .

أهل مدين : ﴿قَالُوا يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾ [هود: الآية ٨٧] .

تهكموا بدينه وصلاته وأوغلوا في الحرية الشخصية ، ولو كانت تخرب العمران وتهلك الاجتماع ، مثلما تراه اليوم في أشباههم ممن يهلكون الحرث والنسل بدعوى الحرية الشخصية .

شعيب : ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى﴾ [هود: الآية ٢٨] فأنا واثق من ديني ومتبين أمره وصلاحه لي ولكم ﴿وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾ [هود: الآية ٨٨] فنصحي خالص لكم لا تشوبه شائبة حسد لمكاسبكم ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ﴾ [هود: الآية ٨٨] شأن الناصح الأمين يكون أول من يعمل بنصحه كما قال صاحب يس : ﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [يس: الآية ٢١] . والواعظ إذا خالف ما يقول هدم وعظه من حيث لا يشعر ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصَّف: الآية ٣] ، ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: الآية ٤٤] .

يا أيها الرجل المعلم غيره ... هلا لنفسك كان ذا التعليم
تصف الدواء لذي السقام وذي الضنى ... كيما يصح به وأنت سقيم
ابدأ بنفسك فانهها عن غيها ... فإذا انتهت عنه فأنت حكيم

﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ * وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِىٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ﴾ [هود : ٨٨ - ٨٩] . حذرهم ما أصاب

الأمم قبلهم من قوم نوح وقوم هود وقوم صالح ، وقوم لوط قريب منهم زمانًا ومكانًا

﴿وَٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِۚ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ [هُود: الآية ٩٠] هذا غاية ما ينصح به الناصح قومه ، وهذا آخر ما يشفق الشفيق عليهم .

المدينيون : ﴿قَالُواْ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًاۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ [هُود: الآية ٩١] أعرضوا عن نصيحته وزعموا أنهم لا يفقهون ما يقول كإخوانهم قوم نوح حينما جعلوا أصابعهم في آذانهم وأصروا واستكبروا استكبارا .

ثم هددوه برجمه ؛ لأنه ضعيف في نظرهم لولا رهطه وقبيلته وعصبيته التي يخافونها .

شعيب : ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَهْطِيٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّاۖ إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [هُود: الآية ٩٢] كان يجب أن تحترموني لأني رسول اللَّه إليكم وهاديكم إلى الصراط المستقيم لا أن تخافوا رهطي ، فاللَّه ربكم هو الأحق بالخوف والرهبة واحترام رسوله ، وقد اتخذتم اللَّه وراءكم ظهريا وأعرضتم عن شرعه ودينه ، مع أنه محيط بكم وبأعمالكم يحصيها عليكم ليحاسبكم بها .

﴿وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَٰمِلٌۖ﴾ [هُود: الآية ٩٣] سيروا على ما تختارون لأنفسكم من هداية أو ضلال ، من رشاد أو غواية - فالدنيا مزرعة والحصاد في الآخرة ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة : ٧ - ٨] .

﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌۖ وَٱرْتَقِبُوٓاْ إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾ [هُود: الآية ٩٣] قريبًا تعلمون من يخزيه اللَّه بعذاب . جزاء وفاقا ،

وقريبًا تعلمون من هو الكاذب على اللّٰه ومن هو الناصح لكم، ترقبوا حكم اللّٰه بيننا وبينكم فأنا مترقب ﴿قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَىٰ﴾ [طه: الآية ١٣٥].

حوار آخر بين شعيب وأهل مدين

شعيب لقومه ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: الآية ٨٥]، ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ﴾ [الأعراف: الآية ٨٦] - طريق - ﴿وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ [الأعراف: الآية ٨٦]، فالجلوس في الطرقات من آدابها؛ هداية المار بها، لا إضلاله وصده عن السبيل التي يريد الهداية والاستقامة، فإن أصر على البحث عن الخير والحق توعدتموه بالأذى والشر، فكنتم قطاع طريق اللّٰه على مريدي الخير والدين الحق، تريدون تعويج طريق اللّٰه حسب هواكم وما تعودتم من الشر، تبغونها عوجًا، واللّٰه يحب لطريقه الاستقامة وعدم الإعوجاج.

﴿وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: الآية ٨٦]. اذكروا نعمة اللّٰه في الكثرة بعد القلة فهذا دليل الرخاء وإسباغ النعم والأمن والطمأنينة، واعتبروا بعاقبة المفسدين وما أصابهم من سيئات أعمالهم وفساد أحوالهم، فهذه حال قوم نوح وقوم هود وصالح وما أصابهم بكفرهم وتعذيبهم رسله ﴿وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ﴾ [هود: الآية ٨٩] في الزمان والمكان ﴿وَإِن كَانَ طَائِفَةٌ مِّنكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ [الأعراف: الآية ٨٧] تعليل للمؤمنين به أن يصبروا على أذى من لم يؤمن به؛ من توعدهم بأذى من آمن به وصدهم عن سبيله

وابتغاء تعويجها، وتسلية[1] لهم بانتظار حكم الله في المتخلفين من خلقه، وهو خير الحاكمين.

ملأ مدين: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا﴾ [الأعراف: الآية ٨٨] تهديد لشعيب وقومه بالطرد والإخراج من الوطن إذا لم يعودوا في ملتهم ويسكتوا[2] عن كفرهم وفسادهم، بعد التهديد بالرجم بالحجارة والوعيد بالأذى والشر لمن آمن به.

شعيب: ﴿قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ﴾ [الأعراف: الآية ٨٨] لملتكم تعيدوننا فيها كرها، وقد أنكرناها وتبرأنا منها وأعلنا بطلانها والبراءة منها ﴿قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا﴾ [الأعراف: الآية ٨٩]، فمن ينكر شيئا ثم يعود فيه ويقره ويقر أهله عليه فهو كاذب مفتر، كيف ينكره ثم يقره؟!

﴿وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾ [الأعراف: الآية ٨٩]. بتسليم الأمر لحول الله وقوته الذي بيده القلوب وتصريفها ﴿وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ [الأعراف: الآية ٤٣]. ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ [آل عِمرَان: الآية ٨]. وفي الحديث: «القلوب بين إصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء»[3]. «اللهم يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك»[4].

﴿رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ﴾ [الأعراف: الآية ٨٩]. ربنا احكم بيننا وبين قومنا هؤلاء الذين ندعوهم إلى دينك الحق فيهددونا بالرجم وبالإخراج من الوطن إن لم نعد إلى ضلالتهم وملتهم الباطلة- وأنت خير

---

(١) في الأصل «وتسليمه».

(٢) في الأصل «يسكتوا».

(٣) مسلم (٢٦٥٤) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

(٤) أحمد ٢/ ٤١٨، والنسائي في الكبرى (٧٧٣٧) من حديث عائشة رضي الله عنها.

الحاكمين- خير من يحكم بالحق بين الخصماء قدرًا وشرعًا ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَـٰبَ مُفَصَّلًا﴾ [الأنعام: الآية ١١٤] موضحًا فيه طرق الحق والباطل والهدى والضلال والخير والشر.

أهل مدين: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَـٰسِرُونَ﴾ [الأعراف: الآية ٩٠] أوتتركون دين الآباء وما عرفتم عن سلفكم؟ وتتركون حريتكم في التصرف في أموالهم بما تشاءون من نقص في الكيل والميزان وتطفيف وبخس، مما تسوله لكم حريتكم الشخصية ؟!

﴿قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ﴾ [الشعراء: الآية ١٥٣]، نراك مسحورًا أنكرت ديننا، ﴿وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾، قطعا من العذاب الساقط من السماء ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ [الأعراف: الآية ٧٠].

شعيب: ﴿قَالَ رَبِّيٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الشعراء: الآية ١٨٨] وإليه الأمر في عذابكم ومتى يكون وكيف يكون؟ ﴿وَيَـٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ [هود: الآية ٩٣] على ما اخترتم لأنفسكم من كفر وضلال ﴿إِنِّي عَامِلٌ﴾ [الأنعام: الآية ١٣٥] - بما أمرني ربي من دين ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَـٰذِبٌ وَٱرْتَقِبُوٓا۟ إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾ [هود: الآية ٩٣].

❁❁❁

الحكم الحق(١)

والفتح بين الخصمين

﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا﴾ [هُود: الآية ٥٨] - إهلاك المبطلين - ﴿نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَـٰرِهِمْ جَـٰثِمِينَ * كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾ [هود : ٩٤ - ٩٥] ، ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَـٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا ۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَانُوا۟ هُمُ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾ [الأعراف : ٩٢ - ٩٣] ، ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الشُّعَرَاء: الآية ١٨٩] .

رجفة من الأرض ، تحرك بركان فيها فكانت صيحة عظيمة ، تبعها دخان وغبار وحرارة قاتلة ، فاجتمع عليهم غضب اللّٰه المتفجر من الأرض ؛ رجفة وصيحة صارت فوق رؤوسهم دخانًا وغبارًا وحرارة جزاء كفرهم واستهزائهم بوعيده إذ قالوا : ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ [الشُّعَرَاء: الآية ١٨٧] ، ﴿فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَـٰرِهِمْ جَـٰثِمِينَ﴾ [هُود: الآية ٦٧] جثوم الطير في أوكارها ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الشُّعَرَاء: الآية ٨] .

الحزن على الهالكين

هلكت مدين ومن حولها من أصحاب الأيكة والزراعة ؛ من ريفهم وبدوهم ، كأن لم يغنوا فيها ، فأصبحوا أثرًا بعد عين ، وأحاديث لمن بعدهم ، فكأنهم لم يوجدوا في مدين ولا فيما حولها من قراهم الزراعية .

---

(١) تتمة مقال « اللّٰه رب العالمين في الفطر والعقول والأديان » مجلة « الحج » - شعبان - ٢/١٢/ ١٣٧٨هـ .

شعيب : ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ﴾ [الأعراف: الآية ٧٩] وأعرض عن كارثتهم وقال مسليا لنفسه : ﴿لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ﴾ [الأعراف: الآية ٩٣] كيف أحزن على هلاك من كذب الرسالة وتوعدني بالرجم والإخراج من الوطن والديار . إنما نصحي لهم لعبادة اللّٰه وتوفية الكيل والميزان وإنصاف الناس في عدم بخس الناس أشياءهم وتأمين الطرق للسالكين وعدم الصد عن سبيل اللّٰه المستقيمة وعدم بغيها عوجا ، ومن خالف ذلك لا يحزن عليهم ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ﴾ [الدّخان: الآية ٢٩]

[الدخان : ٢٩] .

العبرة

والعبرة : أن للّٰه صراطًا مستقيمًا ودينًا حقًّا يرسله على ألسنة رسله وسفرائه إلى خلقه كما قال لآدم وحواء وإبليس : ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة : ٣٨ - ٣٩] .

﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا﴾ [طه: الآية ١٢٣]- آدم وإبليس - ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٢٧﴾ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ﴾ [طه : ١٢٣- ١٢٨] .

وهكذا توالت هداية اللّٰه إلى خلقه على ألسنة رسله ، وجاءت رسل اللّٰه تترى ، وصدق اللّٰه وعده ووعيده فيمن اتبع هداه أن لا يضل ولا يشقى ولا خوف

عليهم ولا هم يحزنون ، وفيمن كفر وكذب بآيات اللّه وأعرض عن ذكره أن له معيشة ضنكًا ويحشر يوم القيامة أعمى ﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ ۖ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَـٰهُمْ سَعِيرًا﴾ [الإسراء: الآية ٩٧] ، ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ﴾ [البقرة: الآية ٣٩] .

هكذا قص اللّه علينا قصة أنبيائه ورسله مع أممهم لنعتبر ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَـٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف: الآية ١١١] .

العبر والآيات في رسالة خاتم المرسلين
(محمد بن عبد اللّه بن عبد المطلب بن هاشم ﷺ)

لقد كان فيما سقت من بعض قصص المرسلين نوح فمن بعده من العبر والآيات الدالة على اللّه ربهم ورب العالمين ومرسلهم ، شموس هداية لخلقه ، ما يكفي من هداه اللّه تعالى ممن له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد . والآن نسوق من آيات اللّه وعبره في بعثة خاتم النبيين والمرسلين محمد ﷺ ما فيه عبرة وذكرى لمن يتذكر .

ولد محمد في مكة يتيمًا فكفله جده عبد المطلب ثم عمه أبو طالب ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ﴾ [الضّحى: الآية ٦] إلى جد رحيم به ، وعم عاقل شفيق عليه ، ثم شب في قريش أميًّا بين قوم مشركين ، فلا قراءة ولا كتابة ولا تعليم ، وكان يعيش من رعاية الغنم صغيرًا ومن الأجرة في مال خديجة شابًا ، فنشأ فقيرًا في قومه بين شركهم وضلالهم فهداه اللّه بالرسالة وأغناه بالمضاربة في مال خديجة ورغبتها في التزوج به ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ﴾ [الضحى : ٧، ٨] ،

﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: الآية ٥٢] .

عاش محمد بين قومه الضلَّال المشركين أربعين سنة ، لا شعر ولا خطابة ولا محافل ، ثم شرفه اللَّه بالرسالة تصديقًا للتوراة (تجلى اللَّه من فادان) : أي جبال مكة التي سكنها إسماعيل مع أمه هاجر ، وإجابة لدعوة الخليل إبراهيم : ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [البقرة: الآية ١٢٩] ، وقالت التوراة أيضًا : (وسأبعث في بني إخوتهم – بني إسماعيل – نبيا مثلك) .

وقال عيسى ابن مريم : « مبشرا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد » ولا تزال هذه البشارة تلوح في إنجيل عيسى بلفظ : (وسأذهب ويأتيكم الفارقليط يعلمكم كل شيء) والفارقليط أوبر كليس : هو محمد أو أحمد كما اعترف بذلك المنصفون من النصارى ، خلافًا لمن صرفها منهم على عادتهم بالمعزِّى أو المخلص ، ومن الذي جاء بعد عيسى مخلصًا ومعزيًّا يعلمهم كل شيء يوبخ العالم على خطيئته غير محمد العربي الهاشمي .

نتوج هذا البحث بحديث عائشة في « الصحيحين » كيف بدئ رسول اللَّه ﷺ بالوحي ، روى الشيخان البخاري ومسلم[1] من حديث محمد بن شهاب الزهري شيخ المحدثين ، عن عروة ، عن خالته عائشة أم المؤمنين قالت : « أول ما بدئ به رسول اللَّه ﷺ الوحي كرؤياه الصادقة في النوم ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح – أي مثل ضوء الفجر وضوحًا – ثم حبب إليه الخلاء ، فكان يأتي حراء فيتحنث فيه – أي يتعبد – الليالي ذوات العدد ، ثم يرجع

---

(١) البخاري (٣، ٣٣٩٢)، ومسلم (١٦٠) .

لخديجة ويتزود لمثلها حتى فجئه الحق وهو في غار حراء، فجاءه الملك فيه فقال : اقرأ . فقال : « ما أنا بقارئ » . قال : فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد ، ثم أرسلني ، فقال : اقرأ . فقلت : « ما أنا بقارئ » . فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد ، ثم أرسلني فقال : اقرأ . فقلت : « ما أنا بقارئ » . فغطني الثالثة حتى بلغ مني الجهد ، ثم أرسلني فقال : اقرأ باسم ربك الذي خلق خلق الإنسان من علق اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم .

قال : فرجع بها ترجف بوادره - فؤاده - حتى دخل على خديجة وأخبرها الخبر . وقال : « لقد خشيت على نفسي » . فقالت له : كلا أبشر فواللَّه لا يخزيك اللَّه أبدًا؛ إنك لتصل الرحم ، وتصدق الحديث ، وتحمل الكل ، وتقري الضيف ، وتعين على نوائب الحق . ثم انطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى بن قصي ، وهو ابن عم خديجة ، وكان امرأ قد تنصر في الجاهلية ، وكان يكتب الكتاب العربي ويكتب بالعربية من الإنجيل ما شاء اللَّه أن يكتب ، وكان شيخًا كبيرًا قد عمي ، فقالت خديجة : أي ابن عم ! اسمع من ابن أخيك .

فقال ورقة : ابن أخي ما ترى ؟ فأخبره رسول اللَّه ﷺ ما رأى . فقال ورقة : هذا الناموس الذي أنزل اللَّه على موسى ، ليتني فيها جذعًا ، ليتني أكون حيًّا حين يخرجك قومك . فقال رسول اللَّه ﷺ : « أو مخرجي هم » فقال ورقة : نعم ، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي ، وإن يدركني يومك أنصرك نصرا مؤزرا . ثم لم ينشب ورقة أن توفى وفتر الوحي فترة حتى حزن رسول اللَّه - فيما بلغنا - حزنا غدا منه مرارا كي يتردى من رءوس شواهق الجبال ، فكلما أوفى بذروة جبل لكي يلقي بنفسه منه تبدى له جبريل فقال : يا محمد إنك رسول اللَّه حقًّا فيكن بذلك جأشه فيرجع ، فإذا طالت عليه فترة الوحي غدا لمثل ذلك فإذا

أوفى بذروة الجبل تبدى له جبريل فقال له مثل ذلك . اهـ .

قال ابن كثير[1] : وهذا الحديث مخرج في «الصحيحين» من حديث الزهري ... إلخ .

نقف هنا وقفة قصيرة فنقول : لقد كانت خديجة بنت خويلد وابن عمها ورقة بن نوفل أعقل ألف مرة ومرة من عميد كلية الطب بالعراق اليعقوبي[2] .

خديجة بما عرفته من أخلاق محمد وسيرته ظاهرًا وباطنًا وعشرتها له قبل النبوة وبعدها ، وورقة بن نوفل بما قرأه من أحوال الأنبياء في التوراة والإنجيل في لسانهما العبراني ، وبما اضطره مما عرف من فساد وثنية العرب إلى التنصر وفراق دين قومه وآبائه .

خديجة وورقة والسابقون الأولون إلى تصديق محمد في رسالته كأبي بكر وعمر وعثمان وطلحة والزبير وأمثالهم ، بله النجاشي وهرقل والمقوقس وعقلاء الدنيا قديمًا وحديثًا من رجال العلم والدين والسياسة أعلم وأعرف وأنصف وأعدل في الحكم على محمد وصدقه ورسالته من هذا المقلد لأعداء الإسلام الذي يقرر بحماقة أن محمدًا كان مصابًا بصرع في دماغه وهذى فسمى الناس هذيانه قرآنًا ..

يا لتضحية الطب من انتساب مثل هذا إليه ، ويا لخسارة من يسلمون أولادهم لهذا المفتري ، وكيف رضي قطر إسلامي لمثل هذا أن يتربع على كرسي العميد ؟! نترك هذا للعقلاء في ذلك القطر العربي الإسلامي ، ونقول لهذا الباهت الأفاك الأثيم : إن مأوى المصروعين مستشفى الأمراض العقلية يُجر إليها أمثال هذا ليعالج من هذيانه ولا يترك لإفساد عقول النشئ .

---

(١) تفسير ابن كثير ٨/ ٤٥٩.

(٢) بعده في الأصل نقط.

هذا هو محمد رسول الله الذي لم تنجب البشرية ولن تنجب مثله، تلقى من السماء أكمل دين أنشأ به دولة وامبراطورية فشملت[1] وجه البسيطة من الصين إلى المحيط الأطلسي؛ من مطلع الشمس إلى مغربها، دين اعتنقه الملايين باختيارهم؛ فيهم العقلاء والحكماء والقواد والعظماء والملوك والساسة والجماهير.

لقد تولى الله الدفاع عن نبيه لما وصفه سفهاء قومه فقال: ﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝١ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ [القلم: ١ - ٣]، وقال: ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ۝٥١ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [القلم: ٥١، ٥٢]، ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٦٨ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا۟ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ۝٦٩ أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۚ بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ۝٧٠ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ۝٧١ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ۝٧٢ وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٧٣ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ﴾ إلخ سورة المؤمنين [المؤمنون: ٦٨ - ٧٤] أفهذا هذيان أيها الرجال -؟!

وقال تعالى: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ۝٣٤ إِنَّهُمْ كَانُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ۝٣٥ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓا۟ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ ۝٣٦ بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الصافات: ٣٤ - ٣٧] فالمجنون يجيء بأعمال أحط من أعمال الصبيان، ومحمد جاء بالحق وصدق المرسلين الذين بشروا به من قبل؛ موسى في التوراة إذ يقول: (تجلى الله من فاران) أي: جبال مكة. وتقول عن الله تعالى: (وسأبعث فيهم في بني إسماعيل نبيا مثلك) أي: مثل موسى. ويقول

(١) في الأصل «فسمت».

عيسى ابن مريم : (وسأذهب ويأتيكم الفارقليط -بركلس- يعلمكم كل شيء) .

ويدعو إبراهيم ربه : ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [البقرة: الآية ١٢٩] .

(١) ونسأل أعداء الإسلام ؛ باهتي رسوله محمد ﷺ هل كان دين العرب من عبادة الأصنام ووأد البنات والغارات بعضهم على بعض كل وقت وحين وتفرقهم شيعا وفرقًا وانتقاص الفرس لشرق جزيرتهم والأحباش لغربها ، هل كل ذلك كان حقًّا وخيرًا ؟ . والإسلام الذي جمعهم على عبادة اللَّه ، وحرم الفسوق والعصيان والفواحش ما ظهر منها وما بطن من رِبا وزنى وخمر وأكل أموال الناس بالباطل وظلم الضعيف والمسكين وحرمان النساء وأكل أموال اليتامى بالباطل ؛ هل كان هذا وأمثاله خيرًا على البشرية ؟ .. حتى يجيء أعداء الإسلام والبشرية فيبهتوا رسول الإسلام بل رسول البشرية بهذا البهتان الذي استحى منه أعداؤه الأولون ؟ ! .

إن كان المصروعون يستطيعون أن يعملوا ما عمل محمد فليت جميع الناس مصروعون ، إذًا لكان الناس غير الناس ، ولكان البشر ملائكة يمشون في الأرض مطمئنين ، ولما كان الناس في حاجة إلى رسل مبشرين ومنذرين .

إن الشرق والغرب والعالم قديمه وحديثه من أوروبا إلى أمريكا ومن آسيا إلى إفريقيا يعيش في النور الذي جاء به خاتم المرسلين ، سواء منهم من اعترف به ومن جحده .

وإن أوربا التي عاشت في ظلمات الجهل والعمى أبصرت الشمس التي طلعت عليها من سماء الأندلس -شمس الإسلام- وبما استفادت من الاختلاط بالمسلمين أيام الحرب الصليبية ، فكسرت الأغلال التي غلهم بها الملوك

---

(١) تتمة مقال « اللَّه رب العالمين في الفطر والعقول والأديان » مجلة « الحج » - شوال - ١٣٧٨هـ -١٣/ ٤.

والرهبان ، ووضعت لنفسها قوانين الرقي ودساتير التقدم مأخوذة عن الإسلام ، وإن لم يعترف به .

قل -بربك- ما الذي هدى أوربا إلى مجالسها الرسمية وتقرير الحكم فيها بالشورى ومحاربة الظلم والاستعباد وإبطال الرق و ....[1] وتجارة الرقيق الأبيض وحرية الفكر والعمل وفك قيود العقل من أسر الكنيسة والكهنوت ؟ إن كنت في شك من ذلك فسل أحرار أوروبا وعقلاءها المنصفين .

ونعود إلى سيرة محمد خاتم المرسلين في قومه بعد ما شرفه اللّٰه بالرسالة والنبوة فنقول ومن اللّٰه نستمد العون والتوفيق :

وسار محمد في تبليغ رسالة ربه بمكة ثلاثة عشر عاما ، صبر فيها على أذى المشركين امتثالا لأوامر ربه ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾ [الأحقاف: الآية ٣٥] ، ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف: الآية ٦] ، ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: الآية ٣٣] ، ﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [الأنعام: الآية ٣٥] ، ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾ [الشورى : ٥٢ - ٥٣] ، ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ﴾ [الضحى: الآية ٧] .

تعنتوا عليه في رسالته فطلبوا منه ما لا يطلب من البشر ﴿وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ

(١) غير واضحة بالأصل.

ٱلْأَنْهَـٰرَ خِلَـٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ قَبِيلًا﴾ -يقابلوننا وجها لوجه- ﴿أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ﴾ ذهب ﴿أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَـٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَـٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا﴾ [الإسراء: ٩٠ - ٩٦]

طلبوا هذه المطالب التي ليست من مقتضى رسالته ولازم نبوته، بل هي العنت والصد عن سبيل اللّٰه تعالى: ﴿۞ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾ يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ [الفرقان: ٢١، ٢٢]، ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَـٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا ۖ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٣﴾ وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ۘ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ۗ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَمْكُرُونَ﴾، ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ﴾ [الزخرف: الآية ٣١] - مكة والطائف - ﴿عَظِيمٍ * أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَـٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾، ﴿وَقَالُوا۟ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾ لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٧﴾ مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓا۟ إِذًا مُّنظَرِينَ ﴿٨﴾ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٦ - ٩].

ولقد جادلوه عن وثنيتهم وأصنامهم ودين آبائهم أشد الجدال ﴿صٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ

ذِى ٱلذِّكۡرِ ۝١ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ۝٢ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَبۡلِهِم مِّن قَرۡنٍ فَنَادَواْ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾ [ص: ١ - ٣] أي فنادوا وقت ما حاق الهلاك بهم وما كان الوقت وقت فرار من الهلاك ﴿وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنۡهُمۡۖ وَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ۝٤ أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىۡءٌ عُجَابٌ ۝٥ وَٱنطَلَقَ ٱلۡمَلَأُ مِنۡهُمۡ أَنِ ٱمۡشُواْ وَٱصۡبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمۡۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىۡءٌ يُرَادُ﴾ مقصود مدبر ﴿مَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِى ٱلۡمِلَّةِ ٱلۡأٓخِرَةِ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا ٱخۡتِلَٰقٌ ۝٧ أَءُنزِلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ مِنۢ بَيۡنِنَاۚ بَلۡ هُمۡ فِى شَكٍّ مِّن ذِكۡرِىۖ بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ﴾ [ص: ٧، ٨] . ما ذاقوا العذاب على كفرهم الآن ، وسيذوقونه قريبا إن بعثوا على هذا الكفر . ﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذۡكُرُ ءَالِهَتَكُمۡ وَهُم بِذِكۡرِ ٱلرَّحۡمَٰنِ هُمۡ كَٰفِرُونَ﴾ [الأنبياء: الآية ٣٦] ، ﴿وَإِذَا رَأَوۡكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ۝٤١ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنۡ ءَالِهَتِنَا لَوۡلَآ أَن صَبَرۡنَا عَلَيۡهَاۚ وَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ حِينَ يَرَوۡنَ ٱلۡعَذَابَ مَنۡ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ .

وكما تحيروا في شأن الرسول وجادلوه أشد الجدال تحيروا في أمر القرآن أشد الحيرة فقالوا : شعر . وقالوا : سحر . وقالوا : كهانة . وقالوا : أضغاث أحلام . وقالوا : تعلمه من قين حداد . وقالوا : أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلا .

والقرآن يحكي حيرتهم وترهاتهم حكاية الواثق بنفسه المطمئن إلى أنه الحق ، وأنه سينتصر ، ويتحداهم أن يأتوا بمثله ، ثم يتنزل إلى عشر سور مثله ثم ينزل إلى سورة واحدة ، ويسجل عليهم أنهم لن يفعلوا .

﴿ٱقۡتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمۡ وَهُمۡ فِى غَفۡلَةٍ مُّعۡرِضُونَ ۝١ مَا يَأۡتِيهِم مِّن ذِكۡرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحۡدَثٍ إِلَّا ٱسۡتَمَعُوهُ وَهُمۡ يَلۡعَبُونَ ۝٢ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمۡۗ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجۡوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ هَلۡ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثۡلُكُمۡۖ أَفَتَأۡتُونَ ٱلسِّحۡرَ وَأَنتُمۡ

تُبۡصِرُونَ ۝٣ قَالَ رَبِّي يَعۡلَمُ ٱلۡقَوۡلَ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ۝٤ بَلۡ قَالُوٓاْ أَضۡغَٰثُ أَحۡلَٰمِۭ بَلِ ٱفۡتَرَىٰهُ بَلۡ هُوَ شَاعِرٞ فَلۡيَأۡتِنَا بِـَٔايَةٖ كَمَآ أُرۡسِلَ ٱلۡأَوَّلُونَ ۝٥ مَآ ءَامَنَتۡ قَبۡلَهُم مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَآۖ أَفَهُمۡ يُؤۡمِنُونَ﴾ [الأنبياء: ١ - ٦] أي أن الأمم الماضية جاءتهم رسلهم بالآيات البينات وكفروا فأهلكوا، فهل يؤمن هؤلاء إذا جاءتهم الآيات أم يكفرون فيهلكهم الله كما أهلك من قبلهم؟.

ثم رد على اعتراضهم على بشريته وقولهم: ﴿هَلۡ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡۖ﴾ [الأنبياء: الآية ٣]. أي فلا يكون رسولًا ولا يتبع؛ لأنه بشر.

فقال الله: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۖ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ﴾ [الأنبياء: الآية ٧] أي من أهل الكتاب - إن كنتم لا تعلمون أن الرسل السابقين رجال من آدم ﴿وَمَا جَعَلۡنَٰهُمۡ جَسَدٗا لَّا يَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ﴾ [الأنبياء: الآية ٨]، فالجسد لابد أن يطعم ﴿وَمَا كَانُواْ خَٰلِدِينَ * ثُمَّ صَدَقۡنَٰهُمُ ٱلۡوَعۡدَ فَأَنجَيۡنَٰهُمۡ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهۡلَكۡنَا ٱلۡمُسۡرِفِينَ ۝٩ لَقَدۡ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ كِتَٰبٗا فِيهِ ذِكۡرُكُمۡۚ﴾ [الأنبياء: ٩، ١٠] شرف لكم بلسانكم وعلى لسان رجل منكم ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ [القَصَص: الآية ٦٠] أي ما في هذا من الخير والشرف والسعادة لكم.

﴿وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّهُمۡ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٞۗ لِّسَانُ ٱلَّذِي يُلۡحِدُونَ إِلَيۡهِ أَعۡجَمِيّٞ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيّٞ مُّبِينٌ﴾ [النحل: الآية ١٠٣].

وما كان للأعجمي أن يأتي بهذا القرآن، أو أن يعلمه من يأتي به. رأينا الأعجمي لا يستطيع أن يقرأ القرآن فضلا أن يأتي به أو يعلمه من يأتي به ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ۝١٩٣ عَلَىٰ قَلۡبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ۝١٩٤ بِلِسَانٍ عَرَبِيّٖ مُّبِينٖ﴾.

﴿وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا

﴿قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [الفرقان: ٥، ٦].

لقد جاء فيه من أخبار الأولين ما لم يكن يعلمها هو ولا قومه ﴿تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [هود: الآية ٤٩]. فصبر فكانت له ولمن آمن العاقبة، ثم من هم هؤلاء الذين أملوا على محمد القرآن؟. أما كان من العقل أن يواجهوا به الناس بدل إملائه على أمي لا يكتب ولا يقرأ ويكون لهم شرف القرآن بدله؟

ثم هذه الأسرار في القرآن من علوم الكائنات والمخلوقات؛ أناس وحيوانات ونبات وسحاب وسموات وأرض، من ذا الذي كان يعلم منها قليلًا أو كثيرًا من العرب قبل النبوة ووقتها؟

من الذي كان يعرف قوله: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ﴾ [الحجر: الآية ٢٢]. تلقح أزهار النباتات أنثاها من ذكرها[1] كما قال: ﴿وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ [ق: الآية ٧] حتى عرف ذلك قريبًا، وعرفوا أن في النبات الذكر والأنثى؛ منفصلين كالنخل، أو متصلين كسائر النبات في زهره أعضاء التذكير والتأنيث، ولقحوا أنواعًا منه بطلع نوع آخر، واستحدثوا من ذلك أنواعًا جديدة من الثمرات والفواكه والحبوب نتيجة ما عرفوا من أنواع التلقيح التي تقوم به الرياح قديمًا ولا تزال تقوم به إلى اليوم وإلى ما شاء الله، وماء الروائح الزكية وغير الزكية التي تشمها من أزهار النبات لإلقاح الذكور لبويضات الإناث في النبات، فتبارك الله أحسن الخالقين.

سمعت أن ربانًا انكليزيا قرأ ترجمة القرآن حتى أتى على هذه الآية في وصف أعمال الكفار ﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ

(١) في الأصل «بكرها».

سَحَابٌ ظُلُمَٰتُۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النُّور: الآية ٤٠].

فقال الربان : هل ركب محمد البحر في حياته ؟ . فقيل : لا . فقال : أشهد أن هذه الآية لا يقولها ويعرفها إلا من ركب البحر ورب راكبي البحر وخالق البحار والعليم بأحوالها . ويقال : إنه أسلم أو اعترف بأن لا يمكن أن يقول هذا من عند نفسه .

جلس الوليد بن المغيرة المخزومي إلى النبي ﷺ ليسمع منه شيئًا من القرآن ، وكانوا قد اجتمعوا في دار الندوة ليجمعوا رأيهم على قول يقولونه فيه قبل أن يقدم عليهم وفود الحج ليصدوهم عنه . فقال قائلون : شاعر . وقال آخرون : ساحر كاهن ، وقال آخرون : مجنون . كما قال تعالى : ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: الآية ٤٨].

فسمع الوليد من النبي ﷺ أول سورة ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ [غافر: ١، ٢] حتى بلغ ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ [فُصّلَت: الآية ١٣] فأخذ بفم النبي ﷺ وناشده الرحم أن لا يفعل ، فانطلق الوليد حتى أتى مجلس قومه من بني مخزوم ، وقال أبو جهل : أقسم لقد رجع الوليد بغير الوجه الذي ذهب به ، قال الوليد : والله لقد سمعت من محمد آنفًا كلامًا ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجن ، إن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أعلاه لمثمر ، وإن أسفله لمغدق ، وإنه يعلو وما يعلى . ثم انصرف إلى منزله فقالت قريش : صبأ والله الوليد ، والله لتصبأن قريش . وكان يقال : الوليد ريحانة قريش .

فقال لهم أبو جهل : أنا أكفيكموه . فانطلق فقعد إلى جنب الوليد حزينًا ، فقال له الوليد : ما لي أراك حزينا ابن أخي . قال : وما يمنعني أن أحزن وهذه

قريش يجمعون لك نفقة يعينونك على كبر سنك ويزعمون أنك زينت كلام محمد ، وأنك تدخل على ابن أبي كبشة وابن أبي قحافة لتنال من فضل طعامهم .

فغضب الوليد وقال : ألم تعلم قريش أني من أكثرهم مالًا وولدًا . وقال : هل شبع محمد وأصحابه من الطعام فيكون لهم فضل ، ثم قام مع أبي جهل حتى أتى مجلس قومه فقال لهم : تزعمون أن محمدًا مجنون فهل رأيتموه يخلط قط ؟ . قالوا : اللهم لا . قال : تزعمون أنه كاهن ، فهل رأيتموه يتكهن قط ؟ . قالوا : اللهم لا . قال : تزعمون أنه شاعر فهل رأيتموه ينطق بشعر قط ؟ . قالوا : اللهم لا . قال : تزعمون أنه كذاب فهل جربتم عليه شيئًا من الكذب ؟ . قالوا : لا . وكان رسول اللّٰه يسمى الأمين قبل النبوة من صدقه .

فقالت قريش للوليد : فما هو ؟ . فتفكر في نفسه ثم نظر وعبس وبسر فقال : ما هو إلا ساحر ، أما رأيتموه يفرق بين الرجل وأهله وولده ومواليه ، فهو ساحر وما يقوله سحر يؤثر ، فذلك قوله : إنه فكر في محمد والقرآن وقدر في نفسه . ماذا يمكنه أن يقول في محمد والقرآن ، وأنزل اللّٰه في ذلك ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا﴾ [المدثر : ١١ - ١٣] حضورًا عنده يكفيهم مواليه وعبيده مؤونة العمل والسفر في التجارة ﴿وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا ﴿١٧﴾ إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ [المدثر : ١٤ - ٣٠] إلخ .

(١) ومن الغريب أن يقرأ هذه الآيات ابنه خالد بن الوليد ويسلم مختارًا ويذهب إلى المدينة مهاجرًا ، ولم تمنعه عصبيته لأبيه أن لا يسلم رغم ما أنزل اللّه في أبيه .

وشبيه بهذا عمرو بن العاص ، وقد أنزل اللّه في أبيه العاص بن وائل السهمي : ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ۝٧٧ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا ۝٧٨ كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ۝٧٩ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾ [مريم : ٧٧ - ٨٠] .

روى البخاري(٢) أن خباب بن الأرت كان قينًا في الجاهلية ، يصنع السيوف ويحليها ، وأنه جاء إلى العاص بن وائل يطلبه ما له عنده من ثمن تلك السيوف . فقال العاص : واللّه لا أعطيك حتى تكفر بمحمد . فقال خباب : واللّه لا أكفر بمحمد حتى تموت وتبعث . فقال العاص : أَو هناك بعث وقيامة بعد الموت . قال خباب : نعم . قال العاص هازئًا : إذن سيكون لي مال هناك وولد فأقضيك ثَمَّ .. فأنزل اللّه الآية ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾ [مريَم: الآية ٧٧] .

وقال ابن الجلندي -أمير عمان وقطر- لعمرو لما ذهب إليه رسولا بكتاب رسول اللّه ﷺ : ما فعل أبوك يا عمرو؟ قال : مات على كفره . أو نحو ذلك ، ولم يمنعه ذلك من الإسلام وترك ملة أبيه وكفره .

ومثلهما عكرمة بن أبي جهل الذي علم من سيرة أبيه في معارضة الإسلام والصد عن سبيله وأذى الداعي إليه بكل ما يملك من حول وطول حتى قتل كافرًا ببدر ، وأسلم ابنه عكرمة وصار كخالد وعمرو بن العاص بطلًا من أبطال الإسلام

(١) تتمة مقال « اللّه رب العالمين في الفطر والعقول والأديان » مجلة « الحج » - ذو الحجة - ١٣٧٨هـ .

(٢) البخاري (٢٠٩١، ٢٢٧٥، ٢٤٢٥) .

وسيفًا من سيوف الجهاد في سبيله كزميليه خالد وعمرو .

حتى درة بنت أبي لهب وقد أنزل اللَّه في أبيها وأمها سورة تتلى في كتاب اللَّه تعالى صباح مساء : ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝٤ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ﴾ [المسد: ١ - ٥] .

ومع هذا تسلم وتهاجر إلى المدينة ، ويتساءل الناس : درة بنت أبي لهب أسلمت وهاجرت ! .. ويواجهونها بما نزل في أبيها صراحة ، فتذهب إلى رسول اللَّه وتقول : يا رسول اللَّه ، ما كان أحدًا غيري أبوه كافرًا حتى أسمع من الناس ما أسمع . فوعظ رسول اللَّه ﷺ الناس عن أذاها[1] .

وهذا أبو طالب عبد مناف بن عبد المطلب عم رسول اللَّه ﷺ وشقيق أبيه وكافله بعد موت جده عبد المطلب يدافع قريشًا[2] عنه مع موافقته لهم على دينهم ، وهو القائل[3] :

ولقد علمت بأن دين محمد   من خير أديان البرية دينا

لولا الملامة أو مخاف مسبة   لوجدتني سمحًا بذاك مبينا

إلى آخر ما قال من شعر في الشهادة لمحمد أنه لولا عار ترك دين الآباء لأسلم وآمن ، ولما حضرته الوفاة جاءه رسول اللَّه ﷺ وقال : « يا عم قل لا إله إلا اللَّه كلمة أحاج لك بها عند اللَّه » . وكان حاضرًا عنده أبو جهل وعبد اللَّه بن أبي أمية ، قالا : أترغب عن ملة عبد المطلب ؟ ! فكان آخر كلمة : هو على ملة عبد المطلب ، وأبى أن يقول : لا إله إلا اللَّه .

---

(١) الطبراني (٢٤/ ٢٥٩، رقم ٦٦٠).

(٢) في الأصل « قريش ».

(٣) انظر دلائل النبوة للبيهقي ٢/ ١٨٨، والإصابة في تمييز الصحابة ٧/ ٢٣٦.

فقال النبي ﷺ : « لأستغفرن لك ما لم أنه عنك » . فأنزل الله ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ وَلَوۡ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرۡبَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ ٱسۡتِغۡفَارُ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوۡعِدَةٖ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوّٞ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنۡهُۚ إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٞ﴾ [التوبة : ١١٣ - ١١٤] ، وأنزل الله في شأن أبي طالب ﴿إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ﴾ [القصص: الآية ٥٦][١] .

ولما مات جاء ابنه علي إلى النبي ﷺ وقال : إن عمك الشيخ الضال قد مات . قال : « اذهب فواره التراب »[٢] .

ولم يمنع عليا ضلال أبيه أن يكون من خيار خلق الله ورابع الخلفاء الراشدين ، وابنته أم هانئ بنت أبي طالب من خيار المؤمنات .

والعباس عم النبي ﷺ الذي شرفه الله بالإسلام كأخيه حمزة يسأل النبي ﷺ عن أخيه أبي طالب : يا رسول الله ، إن عمك أبا طالب كان يحوطك وينفعك من المشركين ، فهل نفعته بشيء ؟ . قال : « نعم كان في غمرات[٣] من النار فأخرجته منها إلى ضحضاح[٤] من النار ، يلبس نعلين من نار يغلي منهما دماغه ، وهو أخف أهل النار عذابًا »[٥] .

---

(١) البخاري (١٢٩٤) ومسلم (٣٩).

(٢) أحمد (١٠٩٣) وأبوداود (٣٢١٤) والنسائي(١٩٠) وصححه الألباني في إرواء الغليل (٧١٧).

(٣) الغمرات بفتح الغين والميم واحدتها غمرة باسكان الميم وهي المعظم من الشيء. شرح النووي على مسلم (٣/٨٤).

(٤) « ضحضاح » بفتح الضادين المعجمتين وسكون الحاء المهملة الأولى وهو قريب القعر وضحضح الشراب إذا دق . ويقال هو استعارة فإن الضحضاح من الماء ما يبلغ الكعب ويقال أيضا لما قرب من الماء والمعنى أنه خفف عنه العذاب . عمدة القاري (١٧/١٧).

(٥) البخاري (٣٦٧٠) ومسلم (٢٠٩).

وانتقل الجدل والمراء إلى وعيد وعدوان وظلم وبغي، فروى البخاري وغيره(١) أن النبي ﷺ خرج إلى الصلاة في وجه الكعبة، فقال أبو جهل: أيكم يذهب إلى سلا جزور بني فلان - أي مشيمتها - فيضع على ظهر هذا المرائي - يعني النبي ﷺ- عد صلاته لله علنًا عند الكعبة أمامهم رياء.

فذهب أشقى القوم عقبة بن أبي معيط وجاء بالسلا ووضعه على ظهر النبي ﷺ، وابن مسعود الهذلي يرى ولا يستطيع تنحية السلا، ولكنه ذهب إلى دار النبي ﷺ فأخبر فاطمة بنت النبي، وهي فتاة دون الناهد، فجاءت ونحت الأذى عن ظهر أبيها، وسبتهم. وأتم النبي ﷺ صلاته ثم التفت إليهم وقال: «اللهم عليك بقريش، اللهم عليك بفلان وفلان». وسمى ثمانية منهم: أمية بن خلف، وأبو جهل، وعقبة بن أبي معيط، وعتبة وشيبة ابنا ربيعة بن عبد شمس. إلخ.. قال ابن مسعود: فرأيتهم صرعي يوم بدر وسحبوا جثثا هامدة إلى القليب؛ قليب بدر، ووقف النبي ﷺ على القليب صبيحة بدر أو بعدها بيوم وناداهم بأسمائهم وأسماء آبائهم، وأخذ يقول: «هل وجدتم ما وعد ربكم حقًّا؟ فقد وجدت ما وعدني ربي حقًّا». وقال له عمر بن الخطاب: كيف تناديهم وقد جيفوا؟ فقال النبي ﷺ «ما أنتم بأسمع لما أقول منهم إلا أنهم لا يجيبون».

ولما رويت قصة ندائهم لعائشة أولت ما قاله النبي ﷺ بأنه قال: إنهم ليعلمون أن ما أقوله لهم حق؛ ذهابًا منها إلى ظاهر قول الله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [النمل: الآية ٨٠]، وقوله: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ﴾ [فاطر: الآية ٢٢].

وللعلماء في الجمع بين ما رواه عمر وغيره في هذه القصة وما ذهبت إليه أم المؤمنين عائشة كلام طويل مبسوط في شروح الحديث كشرح النووي لمسلم

(١) البخاري (٢٤٠، ٥٢٠، ٢٩٣٤).

وشرح الحافظ ابن حجر للبخاري المسمى « فتح الباري »(١) فارجع إليه إن شئت لأن الغرض هنا ذكر عبر السيرة النبوية .

ومن ذلك أن أبا جهل قال : هل يصلي محمد أمامكم علنا عند الكعبة ؟ لئن رأيته لأطأن على عنقه . فذكر ذلك للنبي ﷺ فخرج غير مبال بوعيده وأحرم بالصلاة ، وجاء فرعون قريش أبو جهل لينفذ وعيده ، ثم رجع ممتقعًا لونه ، يدفع بيديه ويلقي بها فقيل له مالك - أبا الحكم - كنيته عندهم - قال : رأيت فحلا من الإبل يريد أن يلتقمني ، ورأيت أخدودًا من النار بيني وبين محمد . وذكر للنبي ﷺ ما قاله فقال : « ذاك جبريل ولو اقترب مني لابتلعه »(٢) وأنزل اللّه تعالى في ذلك :

﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۝٩ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ۝١٠ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ۝١١ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ۝١٢ أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١٣ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ۝١٤ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ۝١٥ نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ۝١٦ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ۝١٧ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ۝١٨ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب﴾ [العلق : ٩ - ١٩] .

واشتد أذى قريش على النبي ﷺ وأصحابه بعد موت عمه أبي طالب وزوجه خديجة ، فرأى أن يذهب إلى ثقيف بالطائف يدعوهم إلى الإسلام لعلهم يجيبونه فيكونوا حماة له . ولما كلمهم في ذلك ردوا عليه أشنع الرد ؛ فقال أحدهم : ما وجد اللّه رسولا غيرك يرسله . وقال الثاني : لا أكلمك أبدًا ، إن كنت رسولا فأنت أعظم من أن أكلمك ، وإن كنت كاذبًا فأنت أحقر من ذلك . وقال الثالث : هو يمزق أستار الكعبة إن كان اللّه أرسلك .

فخرج من عندهم حزينًا ، وقال دعاءه المشهور يومئذ : « اللهم أشكو إليك

---

(١) شرح النووي ١٢/ ١٥١، وفتح الباري ١/ ٣٥٠.

(٢) انظر سيرة ابن هشام ١/ ٢٩٨، ٢٩٩.

ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين، أنت رب المستضعفين إلى من تكلني؛ إلى بعيد يتجهمني - يعني ثقيف - أم إلى قريب ملكته أمري - يعني قريش - إن لم يكن بك غضب عليَّ فلا أبالي، غير أن عافيتك أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة أن يحل بي غضبك أو ينزل بي سخطك، لك العتبى حتى ترضى »[١].

وعندئذ نزل عليه جبريل وقال: يا محمد إن ربك أسمع علي ما فعل بك قومك، وها هو ملك الجبال تحت أمرك. فسلم عليه ملك الجبال وقال: إن شئت أن أطبق عليهم - يعني أهل مكة الذين أحوجوك للخروج إلى ثقيف يفعلون معك ما فعلوا - الأخشبين -جبلي مكة: (أبي قبيس وقيقعان)- فعلت. فقال: إني أرجوا أن يخرج اللَّه من أصلابهم من يعبده[٢]. وأنزل اللَّه ﴿وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمٞ لَّا يُؤۡمِنُونَ ﴿٨٨﴾ فَٱصۡفَحۡ عَنۡهُمۡ وَقُلۡ سَلَٰمٞۚ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ﴾.

ومن حواشي القصة أن عتبة وشيبة ابني ربيعة كانا في بستان لهما بالطائف ورأيا ما فعل سفهاء الطائف بالنبي ﷺ، فرقا له -وكانا مشركين- وأرسلا له قطفا من العنب مع مولى لها يسمى « عداسا » نصرانيًا، فلما شرع النبي ﷺ يأكل من قطف العنب قال: بسم اللَّه، فقال عداس: ما سمعت هذا من أحد من أهل تلك البلاد. فقال له النبي ﷺ: ممن أنت؟ قال: من نينوي. بلد في العراق يوازي الموصل بينهما نهر، فقال النبي ﷺ: بلد العبد الصالح يونس بن متى. فقال عداس: من أدراك به. قال: ذاك أخي في النبوة. وقرأ عليه شيئًا من قصة يونس ذي النون ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبٗا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي

(١) انظر فقه السيرة للغزالي، وقد ضعفه الألباني ص ١٢٥.

(٢) البخاري (٣٠٥٩)، ومسلم (١٧٩٥).

ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧، ٨٨].

﴿وَأَرۡسَلۡنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلۡفٍ أَوۡ يَزِيدُونَ﴾ [الصَّافات: الآية ١٤٧]، وقول اللَّه في قوم يونس: ﴿فَلَوۡلَا كَانَتۡ قَرۡيَةٌ ءَامَنَتۡ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوۡمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفۡنَا عَنۡهُمۡ عَذَابَ ٱلۡخِزۡيِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَمَتَّعۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ حِينٖ﴾ [يونس: الآية ٩٨].

فإنهم لما كذبوا نبيهم يونس توعدهم بعذاب اللَّه قريبًا، فلما رأوا العذاب وبادرته ندموا على التكذيب، وجاءوا إلى اللَّه فرفع عنهم العذاب، فخرج يونس من بينهم حتى لا يعدوه كاذبًا فيما توعدهم به، وركب سفينة تقلع من فرضة العراق إلى الهند فوقفت السفينة حيث لا موقف فقال ربانها: فيكم عبد آبق من سيده، لا تمشي السفينة إلا برميه في البحر، ومن ذا الذي يرضى لنفسه بالغرق، فعملوا قرعة كتبوا أسماءهم على أوراق بعددهم ووضعت في جعبة وأخرجت منها ورقة حيثما اتفق فكانت باسم يونس ﴿فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلۡمُدۡحَضِينَ﴾ [الصَّافات: الآية ١٤١] ورمى في البحر ﴿فَٱلۡتَقَمَهُ ٱلۡحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٞ﴾ [الصَّافات: الآية ١٤٢]، مرتكب ما يلام عليه، ﴿فَلَوۡلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُسَبِّحِينَ﴾ [الصَّافات: الآية ١٤٣]– المصلين للَّه الذاكرين إياه – ﴿لَلَبِثَ فِي بَطۡنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ﴾ [الصَّافات: الآية ١٤٤] فحينئذ نادى في الظلمات؛ ظلمة البحر، وظلمة الليل، وظلمة بطن الحوت ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ * فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧، ٨٨].

وفي الحديث: «دعوة ذي النون ما دعا بها مكروب إلا استجيب له؛ لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين»[1].

---

(١) أحمد (١٤٦٢)، والترمذي (٣٥٠٥) قال الشيخ الألباني: (صحيح) انظر حديث رقم: ٢٦٠٥ في صحيح الجامع.

صدق رسول الله ﷺ، جربناها فما أخلفت معنا قط.

سمع عداس ما ذكره رسول الله ﷺ من قصة يونس وقومه، فأكب على قدمي النبي ﷺ ويديه يقبلهما، ولما رجع لمواليه؛ عتبة وشيبة، قالا له: مالك! سحرك محمد. قال: إنه رسول الله، وذكر لي من قصة يونس ما لا يعلمه إلا رسول، قالا له: يا عداس دينك خير من دينه[1]. عصبية جاهلية لصده عما ظهر له من الحق، وإلا فما بالهما يصران على دين الأصنام إذا كان يؤمنان أن دينه خير من دين محمد.

جمع القرشيون جمعهم وتشاوروا فيما يخرجهم من مأزقهم الذي حشرهم فيه الإسلام؛ من سب آبائهم واحتقار دينهم وأصنامهم وأنها لا تملك لهم ضرًا ولا نفعًا ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا ﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ﴾ [الأعراف: الآية ١٩٥]، ﴿وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: الآية ١٩٨]، ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾ [الحج: الآية ٧٣]. ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَـٰتُ وَٱلنُّورُ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَـٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ ٱللَّهُ خَـٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّـٰرُ﴾ [الرعد: الآية ١٦]، ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا ۝٨١ كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ [مريم: ٨١، ٨٢]، ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ۝٧٤ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ

---

(١) دلائل النبوة للبيهقي (٦٩٠).

مُحۡضَرُونَ﴾ [يس: ٧٤، ٧٥]

إن المشركين جعلوا أنفسهم جنودًا للأصنام ينصرونهم إذا اعتدى عليها كما قالوا لإبراهيم لما كسرها، ﴿قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمۡ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء: الآية ٦٨].

فهذه الآلهة التي ينصرها عابدوها ولا تنصرهم ما قيمتها وما الفائدة من عبادتها؟! أما الله فيقول: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾ [الحج: الآية ٤٠]، ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ﴾ [محمد: الآية ٧] فهذا الإله الذي ينصر عابديه هو الإله الحق. ﴿أَمَّنۡ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ جُندٞ لَّكُمۡ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحۡمَٰنِۚ إِنِ ٱلۡكَٰفِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ ۝٢٠ أَمَّنۡ هَٰذَا ٱلَّذِي يَرۡزُقُكُمۡ إِنۡ أَمۡسَكَ رِزۡقَهُۥۚ بَل لَّجُّواْ فِي عُتُوّٖ وَنُفُورٍ﴾ [الملك: ٢٠، ٢١] فإذا مسك الله رزقه عن خلقه فحبس المطر من السماء ومنع نبات الأرض فمن ذا الذي يرزقهم غيره؟ ﴿مَّا يَفۡتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحۡمَةٖ فَلَا مُمۡسِكَ لَهَاۖ وَمَا يُمۡسِكۡ فَلَا مُرۡسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ﴾ [فاطر: الآية ٢]، ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمۡلِكُونَ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا لَهُمۡ فِيهِمَا مِن شِرۡكٖ وَمَا لَهُۥ مِنۡهُم مِّن ظَهِيرٖ ۝٢٢ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنۡ أَذِنَ لَهُۥۚ﴾ [سبأ: ٢٢، ٢٣].

فقطعت على المشركين عروق الشرك، فليس لآلهتهم ملك ذرة في السموات ولا في الأرض[١] ولا مشاركة في ذرة منهما ولا معاونة ومظاهرة لمالكها، بقيت الشفاعة وهي لا تنفع عنده إلا بإذنه، فما ذا بقي لهم من سبب يتعلقون به في شركهم؟ لا ملك ولا مشاركة ولا معاونة للمالك ولا شفاعة عنده بغير إذنه.

وقال ﴿وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا ثُمَّ يَقُولُ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ

(١) سقطت «ولا في الأرض» من الأصل.

﴿٤٠﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾.

فمن يعبد الجن التي هي أحقر من الإنس وأجهل منهم وأظلم - وإن تمثلت تتمثل في صورة قط أو كلب أو حية من حقائر الحيوان - فمن يعبد أمثال هذه كيف يذل نفسه لها؟ وقد كرمه اللَّه تعالى وفضله على كثير ممن خلق اللَّه تفضيلًا.

ضاقت قريش بهذه القوارع وأصعقتهم هذه الصواعق، فجمعوا جموعهم وذهبوا إلى أبي طالب، وشكوا إليه ما سمعوا من ابن أخيه في تحقير آلهتهم وسبها ورمي آبائهم بعدم العقل ﴿أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: الآية ١٧٠].

فقالوا لأبي طالب: كف عنا ابن أخيك أو اختر شابا من قريش ندفعه إليك وسلم إلينا ابن أخيك نفعل به ما نريد. فقال لهم: يا معشر قريش، ما أحمقكم أسلم لكم ابن أخي تقتلونه لقاء شاب منكم أكفله وأغذوه وأقوم عليه! هل سمعتم بناقة ترضع غير فصيلها؟!

فرجعوا خائبين، ثم نادى أبو طالب رسول اللَّه، وقال له: يا ابن أخي تعلم كبر سني وضعف جسمي وقلة ذات يدي وقد شكا منك قومك إلخ .. فلو تركت ما يؤذيهم؟

فقال رسول اللَّه ﷺ: «يا عم واللَّه لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك ما جئت به أو أموت دونه ما فعلت وبكى»[1] فقال له عمه: اذهب فبلغ ما أرسلت به، فواللَّه لا أسلمك إليهم ولا أخزيك وأنا لك ناصر ما حييت.

---

(١) انظر سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة للألباني (٩٠٩).

(الهجرة : مقدمات ونتائج)[1]

اشتد أذى قريش على النبي ﷺ بعد ذهابه إلى الطائف مستنصرا بثقيف، وخذلان ثقيف له، حتى لم يقدر أن يدخل مكة بدون حماية تحميه من قريش، فأرسل إلى عدي بن مرة -رهط عمر بن الخطاب- في طلب حمايته فاعتذروا أنهم من أخريات قريش لا يقدرون أن يجيروا على قريش.

فأرسل إلى المطعم بن عدي بن نوفل وهو من أبناء عمومة بني هاشم، جده نوفل أخو هاشم، وهو الذي ذكره أبو طالب في لاميته المشهورة مستثيرًا حماسته للقرابة بقوله:

أيا أخوينا عبد شمس ونوفلا

فتقلد المطعم وبنوه سيوفهم ورماحهم وخرجوا لحماية النبي ﷺ من أذى قريش ودخلوا معه حتى طاف ورجع إلى داره فسكنت قريش على مضض لما رأوا حماية المطعم بن عدي بن نوفل لابن عمه النبي ﷺ. وكانت حماية المطعم بن عدي بن نوفل للنبي ﷺ حمية قرابة لآل عبد مناف بن قصي جدهم الرابع.

وقد حفظ النبي ﷺ هذه اليد البيضاء للمطعم بن عدي بن نوفل بن عبد مناف بن قصي لابنه جبير بن مطعم حينما ذهب إلى المدينة بعد غزوة بدر يفاوض النبي ﷺ في أسرى بدر، فقال النبي ﷺ لجبير بن مطعم: «لو كان المطعم - يعني والد جبير صاحب اليد البيضاء في حماية النبي ﷺ- حيًا وسألني هؤلاء لأعطيتهم إياه»[2] عرفانًا بالجميل- جميل حماية المطعم بن عدي لابن

---

(١) تتمة مقال « اللّه رب العالمين في الفطر والعقول والأديان » مجلة « الحج » - ربيع الأول - ٧٩ ١٣هـ.

(٢) البخاري (٣١٣٩).

عمه النبي ﷺ - حينما اشتد الغضب من قريش على النبي ﷺ وخاف دخوله مكة عليهم في سورة غضبهم وشدة حنقهم .

ذهاب النبي ﷺ لحفل العرب بسوق عكاظ :

لم يثن النبي ﷺ ما لقي من خذلان ثقيف عن المثابرة في تبليغ رسالة ربه ، فقد عزم على لقاء العرب في أعظم مجتمع لهم بسوق عكاظ ، وكانت سوقًا عظيمة يحضرها العرب من جميع أنحاء الجزيرة العربية ؛ شرقًا وغربًا وجنوبًا وشمالًا ، حتى من أطراف العراق من الجزيرة وغيرها ، يرسل المنذر بن ساوى وغيره من أشراف العرب ؛ يرسلون إلى هذا السوق ما يرفع رءوسهم من تجارة وخطابة وشعور وفخار بالأحساب والأنساب ومكارم الآباء وشرف القبائل .

وحفظ التاريخ خطبًا تاريخية لفصحاء العرب وحكمائهم مثل قس بن ساعدة الإيادي في هذا الحفل السنوي التاريخي العام كقول قس بن ساعدة الإيادي حينئذ : أيها الناس اجتمعوا فاسمعوا ، وإذا سمعتم فعوا ، وإذا وعيتم فانتفعوا وقولوا ، وإذا قلتم فاصدقوا ، من عاش مات ومن مات فات وكل ما هو آت آت ، مطر ونبات وأحياء وأموات ، ليل داج وسماء ذات أبراج ، ونجوم تزهر[١] وبحار تزخر ، وضوء وظلام وليل وأيام وبرٌّ وآثام ، إن في السماء خبرا وإن في الأرض عبرًا ، حار فيهن البصر ، مهاد موضوع وسقف مرفوع ، ونجوم تمور[٢] وبحار لا تغور ، ومنايا دوان ودهر[٣] خوان ، كحد النسطاس ووزن القسطاس[٤] ، أقسم قس قسمًا لا كاذبًا فيه ولا آثمًا ، لئن كان في هذا الأمر رضى ليكونن سخط . ثم قال : أيها الناس إن للّه دينًا هو أحب إليه من دينكم هذا الذي أنتم عليه وهذا زمانه

(١) في الأصل « تزهو ».
(٢) في الأصل « تغور ».
(٣) في الأصل « ودهو ».
(٤) في الأصل « كحد القسطاس ووزن القرطاس ».

وأوانه ، ما لي أرى الناس يذهبون فلا يرجعون ! أرضوا بالمقام فأقاموا أم تركوا فناموا .

في الذاهبين الأولين من القرون لنا بصائر ... إلى آخر ما روى عنه في ذلك الحفل العربي العظيم .

ذهب النبي ﷺ مع مولاه زيد بن حارثة إلى هذا الحفل التاريخي العظيم ، وفي الطريق وقعت للنبي ﷺ حادثة عظيمة يحسن الإشارة إليها[(١)] .

فقد نزل النبي ﷺ نخلة اليمانية ، وهي المسماة الآن « بالزيمة » وشمالها على مقربة منها نخلة الشامية ، نزل نخلة لصلاة الفجر مع أصحابه ، ولا يعرف منهم سوى مولاه زيد بن حارثة ، ولما قرأ القرآن استمع له نفر من الجن الذين كانوا يطوفون الجزيرة العربية للبحث عما منعهم من استراق السمع ورميهم بالشهب إذا تجرأوا على ذلك ، فقال لهم كبيرهم إبليس : ليس هذا إلا لأمر[(٢)] عظيم حدث في الأرض فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها لتعرفوا ما هذا الحدث ، فقسموا أنفسهم روادًا سواحًا في الجزيرة ، وكان نصيب رواد تهامة التقاءهم بالنبي ﷺ وهو يقرأ القرآن في صلاة الفجر ، فقال بعضهم لبعض حينما سمعوا القرآن : هذا هو الذي حال بينكم وبين خبر السماء . وقال الله تعالى في تسجيل هذه الحادثة العظيمة : ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ يَـٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَـٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَـٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ

---

(١) البخاري (٧٣٩) ومسلم (١٤٩).

(٢) في الأصل « ليس هذا الأمر ».

لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءُۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ﴾ [الأحقاف: ٢٩ - ٣٢].

لقد كان وفد الجن الذين كانوا رواد إبليس في البحث عما قطعهم عن استراق السمع؛ كانوا أعقل من قريش الذين نزل القرآن بلسانهم على رجل منهم، يعرفونه كما يعرفون أبناءهم، فعرف الجن القرآن وأنه كتاب أنزل من بعد موسى يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم، ودعوا قومهم إلى الإيمان به وإجابة داعي الله ليغفر لهم من ذنوبهم ويجيرهم من عذاب أليم، ولم يركبوا رءوسهم كما فعلت قريش في الكفر بكتاب الله ورسوله؛ لأنهم كانوا طلاب حق وباحثي حقيقة بخلاف قريش الذين أعمتهم عصبيتهم لدين الآباء والإصرار على المألوف وتقليد كبرائهم عن رؤية الحق الواضح والنور المستبين الذي أنزله الله على رجل منهم بلسانهم العربي الفصيح البليغ والذي تحداهم أن يأتوا بسورة منه فعجزوا.

وأنزل الله في ذلك سورة الجن الخالدة التي بينت كثيرًا من أحوال عالم الغيب في الجن ﴿قُلۡ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسۡتَمَعَ نَفَرٞ مِّنَ ٱلۡجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعۡنَا قُرۡءَانًا عَجَبٗا ١ يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلرُّشۡدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦۖ وَلَن نُّشۡرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدٗا ٢ وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا﴾ [الجن: ١ - ٢] - جلاله وعظمته - ﴿مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةٗ وَلَا وَلَدٗا﴾ [الجنّ: الآية ٣] ردا لضلال النصارى في عيسى وأمه، ولضلال مشركي العرب القائلين بأن الملائكة بنات الله من سروات الجن ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطٗا﴾ [الجنّ: الآية ٤] يحكون ضلال من أشركوا بالله ونسبوا إليه ما لا يليق بجلاله من سفهاء قومهم. ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا ٥ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٞ مِّنَ ٱلۡإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٖ مِّنَ ٱلۡجِنِّ فَزَادُوهُمۡ رَهَقٗا﴾ [الجن: ٥ - ٦] كان الإنسي إذا نزل بواد قال: أعوذ بعظيم هذا الوادي من سفهاء قومه. على عادة المشركين في الاستجارة بأحد العظماء والاحتماء به من قومه، فاستطالت الجن على الإنس بذلك وقالوا: تخافنا الإنس وتستجير بعظمائنا فلنزدد في إرهاقهم وتخويفهم منا حتى يبقوا دائمًا

عبيدًا لنا .

وجاء في الحديث : « من نزل منزلا فقال : أعوذ بكلمات اللّه التامة ، لم يضره شيء حتى يرتحل »[(١)] .

فعلمنا الإسلام الاستعاذة بكلمات اللّه تعالى التي تحفظنا من الجن وغيرهم وتزيدنا إيمانًا باللّه تعالى واحتقارًا لغيره من الجن والإنس ﴿وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا۟ كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا﴾ [الجن: الآية ٧] ظن الجن كما ظن الإنس أن لن يبعث اللّه رسولا ، بل تمتد فترة الجاهلية إلى ما شاء اللّه وذلك مما رده اللّه بقوله : ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ﴾ [الزخرف: الآية ٥] ، ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ۝٨ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا﴾ [الجن : ٨، ٩] مرصدًا معدًا لرميه ؛ وهذا هو الذي جعلهم يطوفون أنحاء الجزيرة للبحث عما منعهم خبر السماء حتى وصلوا إلى نخلة وسمعوا القرآن من فم النبي ﷺ في صلاة الفجر عندما كان ذاهبًا إلى سوق عكاظ لتبليغ كتاب اللّه تعالى لقبائل العرب المجتمعين هناك وفي الآية الأخرى ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ۝٦ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ۝٧ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ۝٨ دُحُورًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ۝٩ إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ [الصافات : ٦ - ١٠] ، ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ﴾ [المُلك: الآية ٥] .

وهنا يحسن أن نقول : إن شهب الرمي غير النجوم الثوابت ؛ البروج والمجموعات النجمية ، فقد روت السيرة أنه لما كثر رمي الشهب ، وقت البعثة ، فزع أهل الطائف ظنا منهم أن ذلك مقدمات للقيامة ، فهموا بالخروج من أموالهم

---

(١) مسلم (٢٧٠٨) من حديث خولة بنت حكيم السليمة رضي اللّه عنها .

وأنعامهم ، فقال لهم حكيم منهم ، وكان أعمى : انظروا يا قوم إلى السماء وتأملوا هل تنقص المجموعات الكوكبية وتختل البروج والمنازل عما تعرفون منها قبل ذلك ، فنظروا وقالوا له : البروج والمنازل والمجموعات النجمية كما هي ، فقال : إذن لا شأن لها بالقيامة . ولعله تنبأ لهم ببعثة سماوية لهداية أهل الأرض . وفي الآية الأخرى ﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ [الأنعام: الآية ٩٧] ، وقال : ﴿وَعَلَٰمَٰتٍ ۚ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [النحل: الآية ١٦].

وقال قتادة[1] مفسر التابعين ومحدثهم : خلق الله النجوم لثلاث ؛ زينة للسماء ، ورجوم للشياطين ، ويهتدي بها المسافرون ، فمن تأول فيها غير ذلك يعني من الكهانة والتنجيم فقد ضل وأضاع نصيبه من الهدى ، وما لهذا النجم وسعادة فلان وشقاء علان ؟ ! والنجم الواحد يولد فيه الأبيض والأسود والأحمر والشقي والسعيد وطويل العمر وقصيره . إلخ ما قال أو ما معناه هذا .

وهنا نقف عند قوله تعالى : ﴿لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ [الأنعام: الآية ٩٧] ، وقوله : ﴿وَعَلَٰمَٰتٍ ۚ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [النحل: الآية ١٦] فنذكر ما عرف الآن من الملاحة البحرية والجوية أنه لا يسير ربان بباخرة ولا طائرة إلا بعد ما يدرس نجوم السماء ومواقعها ومطالعها وميولها وكيف يمكن معرفة موقفه في البحر والجو ، يرصد أي نجم في السماء أو الشمس أو القمر مع الاستعانة بالجداول الفلكية السنوية المسماة (نوتيكال) ، وبالآلات الفلكية كالسكستان البحري أو السكستان ذي الفقاعة ، ونحوهما من الآلات المعينة على رصد الشمس والقمر والنجوم بدقة فائقة تمكن من تسيير السفن والبواخر والطائرات في البحر والجو ، وقد كان لآبائنا القدح المعلى في ذلك ولكنا أهملنا وسعى بعضهم لإحياء هذا العلم ؛ فهمًا لقوله تعالى : ﴿لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى

---

(١) الطبري في تفسيره ١٤/ ٩١.

ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ [الأنعام: الآية ٩٧]، وقوله: ﴿وَعَلَٰمَٰتٍ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [النحل: الآية ١٦].

ولكن الفكرة كانت سابقة لأوانها فنامت حتى يوقظها الله متى شاء وتنبهها حاجة الشعب والشباب والمتعلمين.

استطردت لهذا إيمانًا بأن القرآن أنزله الذي يعلم السر في السموات والأرض ويعلم حاجة عباده وما يلزمهم في دينهم ودنياهم، فأرشدهم إلى جميع ذلك بأبلغ وأفصح أسلوب.

ومتى وقف المسلمون على دقائق إشارات القرآن إلى ما يصلح دنياهم وأخراهم سبقوا أمم الأرض سؤددا، وقد استفاد الأوربيون من تنبيه القرآن وحثه على التفكير وحرية الفكر وإقامة الحكم الشوري بينهم فسادوا واستعمروا الأرض، وقد اعترف منصفون بذلك رغم جحد الجاحدين كسديو وسبنسر ولوبون.

ذهب النبي ﷺ إلى عكاظ وعرض نفسه على القبائل: «مَن يمنعني حتى أؤدي كلام ربي فإن قريشًا منعوني من أن أبلغ كلام ربي»[(١)] ويقرأ على الناس شيئًا من كلام الله تعالى، فمنهم من[(٢)] يردُّ ردًّا لينًا، ومنهم من يردُّ ردًّا قاسيًا كبني حنيفة، وكثير من الناس يقول: قوم الرجل أعلم به. يعنون قريشًا، وعمه أبو لهب يمشي وراءه ويقول للناس: هو كاذب فلا تتركوا دين آبائكم لهذا الكذاب الصابئ.

وعلى ذكر أبي لهب نذكر له تلك القصة العجيبة لما نزل قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: الآية ٢١٤] صعد النبي ﷺ على الصفا ونادى

---

(١) أحمد ٣/ ٣٩٠، وأبو داود (٤٧٣٤)، والترمذي (٢٩٢٥) من حديث جابر.

(٢) سقطت «من» من الأصل.

بأعلى صوته : يا صباحاه ، كلمة تقال عند الإنذار بالشر ، فجعل الناس يتسارعون إليه ، ومن لم يستطع بعث من يأتيه بالخبر ، فقال لهم النبي ﷺ : « أرأيتم إن أخبرتكم أن خيلا بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقي ؟ » . قالوا : نعم ، ما علمنا عليك كذبا . قال : « فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد »[1] فقال أبو لهب : تبًا لك سائر اليوم ، ألهذا جمعتنا ؟ فأنزل الله في ذمه سورة من القرآن تتلى إلى يوم القيامة : ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝٤ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ﴾ [المسد : ١ - ٥] .

فشرب مرارتها أبو لهب ، أما امرأته أم جميل العوراء بنت حرب بن أمية بن عبد شمس فلم تستطع أن تصبر على حبل المسد في عنقها في هذه السورة فجاءت ترتجز .

مذمما قلينا * ودينه أبينا * وأمره عصينا

ولها ولولة وفي يدها فهر (حجر) ، ورسول الله ﷺ جالس في المسجد ومعه أبو بكر ، فلما رآها أبو بكر قال : يا رسول الله ، قد أقبلت وأنا خائف عليك أن تراك . فقال رسول الله ﷺ : « إنها لن تراني » . وقرأ قرآنًا اعتصم به ، كما قال تعالى : ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾ [الإسراء: الآية ٤٥] فأقبلت حتى وقفت على أبي بكر ولم تر رسول الله ﷺ فقالت : يا أبا بكر إني أخبرت أن صاحبك هجاني ، قال : لا ورب هذا البيت ما هجاك ، ما ينطق بالشعر ، ولا يتفوه به ، فقالت : إنك لمصدق . وولت وهي تقول : قد علمت قريش أني بنت سعدها ، وعثرت على مرطها وهي تطوف بالبيت : وتقول تعس مذمم - تعني محمدًا - فقالت أم حكيم بنت

---

(١) البخاري (٤٧٧٠) ، ومسلم (٢٠٨) من حديث ابن عباس .

عبد المطلب : إني لحصان فما أكلم ، وثقاف[١] فما أعلم ، وكلتانا من بني العم ، وقريش بعد أعلم .

ولما ولت قال أبو بكر : ما رأتك يا رسول الله ؟ قال ﷺ : « لا ، مازال ملك يسترني حتى ولت »[٢] .

واستمر أبو لهب في معارضة النبي ﷺ فروى الإمام أحمد[٣] بسنده إلى أبي الزناد قال : أخبرني رجل من بني الديل ، يقال : له ربيعة بن عباد ، وكان جاهليًا ، فأسلم قال : رأيت النبي ﷺ في الجاهلية في سوق ذي المجاز . وكانت بقرب عرفات يجوزون منها إلى الموقف يوم عرفة ، وكانت تعقد بعد مجنة التي بمر الظهران وهو- يعني النبي ﷺ- يقول : « يا أيها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا »[٤] والناس مجتمعون عليه ، ووراءه رجل وضيء الوجه ذو غديرتين يقول : إنه صابئ كاذب ، يتبعه حيث ذهب ، فسألت عنه ، فقالوا : هذا عمه أبو لهب . قال أبو الزناد : قلت لربيعة كنت يومئذ صغيرًا ؟ قال لا والله إني يومئذ لأعقل ؛ إني أزفر القربة أي أحملها .

وروى أحمد والطبراني وابن إسحاق[٥] عن حسين بن عبد الله ، عن عبيد الله بن عباس ، قال : سمعت ربيعة بن عباد الديلي يقول : إني لمع أبي ؛ رجلٍ شاب انظر إلى رسول الله ﷺ يتبع القبائل ووراءه رجل أحول وضيء الوجه ذو لمة . يقف رسول الله ﷺ على القبيلة فيقول : « يا بني فلان إني رسول الله إليكم ، آمركم أن تعبدوا الله لا تشركوا به شيئًا وأن تصد قوني وتمنعوني - أي تحموني

---

(١) في الأصل « ثقاف وثقاف ».

(٢) البزار (١٥) من حديث ابن عباس ، وحسنه الحافظ في الفتح ٨/ ٧٣٨.

(٣) أحمد ٤/ ٣٤١.

(٤) في الأصل : « تفلحون » .

(٥) أحمد ٣/ ٤٩٢، والطبراني (٤٥٨٩) ، وابن إسحاق - كما في سيرة ابن هشام ١/ ٤٢٢.

- حتى أنفذ عن اللَّه ما بعثني به » . وإذا فرغ من مقالته قال الآخر من خلفه : يا بني فلان ، هذا يريد منكم أن تسلخوا اللات والعزى وحلفاءكم من الجن من بني مالك بن أقيش ، إلى ما جاء به من البدعة والضلالة ، لا تسمعوا له ولا تتبعوه . فقلت لأبي من هذا؟ قال عمه أبو لهب .

وروى عن ابن مسعود أن رسول اللَّه ﷺ لما دعا قومه إلى الإيمان . قال أبو لهب : إن كان ما يقول ابن أخي حقًّا فإني أفتدي نفسي يوم القيامة من العذاب بمالي وولدي . فأنزل اللَّه تعالى : ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ﴾ [المَسَد: الآية ٢] ذكر ذلك كله ابن كثير في تفسير سورة أبي لهب من تفسيره .

وفي موت أبي لهب من العبرة ما روته السيرة ، أنه بينما كان جالسًا في زمزم ومولى للعباس يحكي ما رأى في غزوة بدر ويقول : ما هو إلا أن التقينا حتى وليناهم ظهورنا- وذكر مدد الملائكة يومئذ- فقام[1] له أبو لهب ودفعه حتى أسقطه على قفاه وركب عليه ، فجاءت أم الفضل بعمود وضربت به أبا لهب وقالت : لئن كان مولاه غائبًا تعمل فيه هكذا .

مرض أبو لهب بالجدري فرموه خارج مكة قريبًا من « حجون » حتى مات ، فلم يقربه أحد من ذويه لدفنه ؛ خوفًا من العدوى ، فرموا عليه الحجارة من بعيد حتى ستروه بها . وريع[2] دفنه خارج مكة يسمى إلى الآن عند الناس (أبو لهب) في طريق الذاهب إلى التنعيم خارج مكة .

إن في ذلك لعبرة لمن آمن واتقى أن يعتبر بمن باع نفسه للحسد والهوى والشيطان ووقف في طريق الحق يعارضه[3] ويصد الناس عنه .

---

(١) في الأصل « فقال ».

(٢) والرِيْع بالكسر : المكانُ المرتفع من الأرض « الصحاح » للجوهري (ريع).

(٣) في الأصل « يعرضه ».

قال ابن كثير[١] : قال العلماء : وفي هذه السورة معجزة ظاهرة ودليل واضح على النبوة فإنه منذ نزل قوله تعالى : ﴿سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ۝٤ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾ فأخبر عنهما بالشقاء وعدم الإيمان لم يقيض لهما أن يؤمنا[٢] ؛ لا باطنًا ولا ظاهرًا ولا مسرًا ولا معلنا ؛ فكان هذا من أقوى الأدلة الباهرة[٣] الباطنة على النبوة الظاهرة . اهـ .

(قلت) في هذا أيضًا أن دين الإسلام دين إيمان وعمل وتقوى ، لا محاباة وخواطر ووجاهات وشخصيات ، فبلال وصهيب وخباب وعمار بن ياسر وأمثالهم من الموالي آمنوا وسبقوا إلى الإسلام فرفعهم ذلك إلى مصاف السابقين الأولين من المهاجرين من سادات قريش ، وكفر أبو لهب وأبو جهل والوليد بن المغيرة وأمثالهم من عظماء قريش فحطهم الكفر في دركات جهنم وقد قيل[٤] :

كن ابن من شئت واكتسب أدبًا ... يغنيك محموده عن السبب

فقد رفع الإسلام سلمان فارس ... وقد وضع الكفر النسيب أبا لهب

❁❁❁

---

(١) تفسير ابن كثير ٨/ ٥٣٧.

(٢) في تفسيرابن كثير بعده « ولا واحد منهما ».

(٣) في الأصل « الظاهرة » والمثبت من التفسير.

(٤) الأبيات في جمهرة الأمثال للعسكري ٢/ ٣١٢.

الإسراء والمعراج[1] :

أراد اللَّه تعالى أن يشرف نبيه بإشرافه على الملكوت الأعلى والسموات العلا كما قال تعالى : ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الإسراء: الآية ١] وقال : ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى ۝٥ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى ۝٦ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى ۝٧ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى ۝٩ فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى ۝١٠ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾ [النجم : ٥ - ١١] ، وقال : ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى ۝١٧ لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾ [النجم : ١٧ - ١٨] .

وأحاديث المعراج مبسوطة في الصحاح والمسانيد ، وقد روى ابن كثير في تفسير سورة الإسراء الكثير الطيب منها بأسانيدها وبيان درجاتها وأحوال رواتها فراجعه إن شئت .

والمرجع عند العلماء أن الإسراء إلى بيت القدس والمعراج إلى السماء كانا في ليلة واحدة ، وهل كان بجسده وروحه أو بروحه فقط ؟ تعمق في البحث يكفي المؤمن في ذلك إيمانه به من غير تعمق وتكييف[2] ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: الآية ٨٥] .

وقد فرضت الصلاة ليلة المعراج خمسًا بعد خمسين ، بمشورة الكليم موسى على النبي ﷺ بالمراجعة فيها حتى استقرت على الخمس ، وقيل للنبي ﷺ ﴿مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [ق: الآية ٢٩].

---

(١) تتمة مقال « اللَّه رب العالمين في الفطر والعقول والأديان » مجلة « الحج » - شعبان - ١٣٧٩هـ .

(٢) هكذا بالاصل ولعل الصواب « وتكلف ».

واتفقت الروايات على تكليم اللَّه تعالى ليلتئذ لنبيه بدون واسطة ملك الوحي جبريل عليه السلام .

وهل رأى النبي ﷺ ربه ليلتئذ أو لم يره ؟ والمرجح أنه رآه بقلبه لا ببصره ، وجاءت الروايتان في مسلم جوابًا لمن سأله : هل رأيت ربك ؟ فأجاب في إحداهما « نور أنى أراه » وفي الأخرى « رأيت نورًا » .

وفسرت بأنه رأى أنوار الحجب الإلهية ، فقد جاء في حديث أبي موسى الأشعري رضي اللَّه عنه « إن للَّه سبعين حجابًا من نور أو نار ، لو كشفها لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه »[(١)]

عليك أن تؤمن بظاهر الحديث وتترك ما وصل إليه البحث اليوم من تركيب المادة من ذرات لا ترى بالعين - والملايين منها مجتمعة لا يملأه مليمتر ، وكل ذرة عالم شمسي لها نواة كالشمس يسمى « نترون » تدور حولها إلكترون واحد ، أو إلكترونات عديدة مثل ما تدور الكواكب السيارة . ونسبة الأبعاد بين نواة الذرة وبين إلكتروناتها التي تدور حولها كنسبة الأبعاد بين الشمس وكواكبها ، وقد ذكروا بين الشمس وأبعد كوكب عنها المسمى بلوطر (٣٦٧٠) مليون ميل .

وبعدما ذكر صاحب كتاب « مع اللَّه » في السماء أبعاد الكواكب عن الشمس قال : أعداد كبيرة ليس تصورها متناسقة في الذهن بالشيء اليسير ، دع

---

(١) قال الشوكاني في « الفوائد المجموعة » (٢٢١/١) : رواه أبو الشيخ . قال في المختصر : سنده ضعيف ، وقال ابن الجوزي : لا أصل له . اهـ . وثبت في صحيح مسلم (١٧٩) و« سنن ابن ماجه » (١٩٥) ، و« مسند أحمد » (١٩٦٤٩) من حديث عبد اللَّه بن قيس أبي موسى الأشعري عن النبي ﷺ قال : « حجابه النور لو كشفه لأَحْرَقت سُبُحَاتُ وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه » .

والسبحات : بضم السين والباء ورفع التاء في آخره ، وهي جمع سبحة .

قال صاحب العين والهروي وجميع الشارحين للحديث من اللغويين والمحدثين : معنى (سبحات وجهه) : نوره وجلاله وبهاؤه . « شرح النووي على مسلم » (٣١٩/١) .

عنك ما ذكروا في أبعاد نجوم المجرة من ملايين السنين النورية ، بل ما ذكروا في أبعاد المجرات الكثيرة التي اكتشفت ، ودع عنك ما ذكروا من الطاقة الهائلة التي تحتفظ بها الذرة ، لإمساك إلكتروناتها حول نواياتها وما ينتج من القوة الهائلة إذا تحولت ذرة عنصر إلى ذرة عنصر أدنى منه ، ومنه نشأ عملية القنبلة الذرية والهيدروجينية .

كل ذلك مما يغرس في نفوسنا الإيمان بعظمة خالق هذه الأكوان رب العالمين ، وما أشار إليه حديث أبي موسى : « إن للَّه سبعين حجابًا من نار ، أو نور ، لو كشفها لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه » . وما وعد اللَّه به في قوله ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فُصِّلَت: الآية ٥٣] وصدق اللَّه العظيم ، فكل ما وصل إليه الناس في أبحاثهم من تجارب علمية طبيعية أو كيماوية أو فلكية يؤيد القرآن ويشهد له ، فكلاهما من عند اللَّه .

أسرى اللَّه بنبيه إلى بيت المقدس بالشام ، وعرج به إلى السموات العلى ورجع إلى داره بمكة ، وأصبح يحدث قريشًا بمسراه إلى بيت المقدس ، فمن واضع يده على رأسه عجبًا ، ومن مصفر بفمه استهزاء . ومن ضعف إيمانه توارى خجلاً من قريش .

وقد روت السيرة[1] أن رسول اللَّه ﷺ جلس في المسجد الحرام متفكرًا فيما رأى ليلته تلك ، فجاءه أبو جهل على عادته هازئًا فقال : يا محمد هل من جديد ؟ قال : نعم ، أسري بي إلى بيت المقدس الليلة ورجعت ، قال : يا محمد هل تحدث قومك بما ذكرت لي ؟ قال : نعم . فرفع أبو جهل عقيرته : يا معشر قريش ، هلموا إلى محمد يحدثكم بعجيبة . فجاءوا إليه ، فقال أبو جهل : يا محمد حدث قومك

(١) انظر سبل الهدى والرشاد ٣/ ٩٣، والخصائص الكبرى ص ٢٦٥.

بما حدثتني به . فأخذ رسول الله يقص عليهم مسراه فصاحوا جميعًا : بيت المقدس الذي نضرب إليه أكباد الإبل شهرًا ذهابًا وشهرًا إيابًا وذهبت إليه وجئت في ليلة واحدة ؟ ! وقيل لأبي بكر : انظر إلى ما يقول صاحبك . فقال الصديق : أنا أصدقه في أبعد من ذلك في خبر السماء .

وكانت فتنة عجيبة وكان امتحانًا ، وقال الله تعالى : ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَـٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾ [الإسراء: الآية ٦٠] – فتن بها ضعفاؤهم واستطال بها مجرموهم – ﴿وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ﴾ [الإسراء: الآية ٦٠] – أي الشجرة التي تخرج في أصل الجحيم ، وهي الزقوم ، ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَـٰطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَءَاكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ﴾ ، كان ذكر هذه الشجرة في القرآن فتنة لكثير من الناس الذين لا يعرفون إلا ما ألفوا وهم لم يألفوا شجرة تنبت في الجحيم وتثمر ثمرة كأنها رءوس الشياطين يأكل منها أهل جهنم فيملؤون منهم البطون فيشربون عليها من الحميم[1] : الماء الحار ، شرب الهيم : عطاش الإبل .

وأيد الله رسوله والمؤمنين به بما وصف لهم من أوصاف بيت المقدس التي يشكون فيها ، وقد سألوه عن بعض قوافلهم العائدة إليهم من الشام فأخبرهم بها ، وصدقه الواقع عندما رجعت القافلة ومن فيها .

انشقاق القمر :

اجتمعت قريش إلى النبي ﷺ وأرادوا تعجيزه بطلب معجزة يظنونها مستحيلة فيعجز عنها ، ويعذرون عند أنفسهم لعدم تصديقهم إياه بعجزه عما طلبوا منه .

طلبوا منه انقسام القمر وانشقاقه نصفين ، فأمده الله وأيده بالمعجزة التي

(١) في الأصل « الجحيم ».

طلبوا وانشق القمر فلقتين؛ رؤيت إحداهما على «أبي قبيس» والأخرى على «قيقعان» وقال النبي ﷺ: «انظروا»[(١)].

وقالت قريش: سحركم محمد؛ سحر أعينكم فرأيتم القمر الذي لم ينشق، ولا يمكن أن ينشق، رأيتموه منشقًا، اسألوا أهل الآفاق حولكم الذين لم يصل إليهم سحر محمد، فسألوهم فأيدوا المعجزة وأخبروا بما وقع، وقد قال الله تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۝٢ وَكَذَّبُوا۟ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ﴾ [القمر: ١ - ٣]. وقول المرتابين: لو حصل انشقاق القمر لرآه جميع أهل الأرض. يرده اختلاف الآفاق ونوم الكثير ممن يمكن أن يراه لو كان ساهرًا سامرًا، واشتغال أهل السهر والسمر بلهوهم عن رفع أبصارهم إلى السماء وقت الحادثة.

وذكرت بعض الكتب أنه وجد في الصين حصن كتب عليه أنه بني سنة انشقاق القمر فالله أعلم. ولكنا صدقنا القرآن والأحاديث في ذلك، وقريش شديدة اللدد والخصومة لم ينكروا آية ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾ [القمر: الآية ١]. وكذبت القرآن في ذلك، وإنما أولتها بالسحر؛ شأنها فيما لا يؤمنون به ويريدون أن يجحدوه، كما قال تعالى: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: الآية ٣٣].

الاستعداد للهجرة:

جلس النبي ﷺ في موسم الحج بمنى إلى جماعة من يثرب، سميت بعد ذلك «المدينة المنورة» بعد الهجرة، وقرأ عليهم القرآن وطلب إليهم حمايته حتى يبلغ كلام ربه، فنظر بعضهم إلى بعض وقالوا: لعل هذا هو النبي الذي تتهددكم به يهود حينما تحاربونهم وتنتصرون عليهم حينما قالوا لكم: قد قرب زمان نبي

---

(١) البخاري (٤٥٨٤) ومسلم (٢٨٠٠).

يبعث فنقتلكم معه قتل عاد وثمود ، لئن كان هو إياه فما أسعدكم به فلا يسبقنكم أحد إلى الإيمان به .

وقد ذكر الله انتظار اليهود لبعثة النبي ﷺ وكفرهم به بعدما بعث محتجًا عليهم فقال : ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: الآية ٨٩] – هو القرآن مصدقا لما معهم – من بشارات التوراة به – ﴿وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [البقرة: الآية ٨٩] – كفار يثرب الأوس والخزرج– بقولهم : قد قرب زمان نبي يبعث فنقتلكم معه قتل عاد وثمود ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ * بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ﴾ [البقرة : ٨٩ – ٩٠] ، غضب الله عليهم لكفرهم بعيسى ثم بمحمد ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [البقرة: الآية ٩٠] ، ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [البقرة : ٩١ – ٩٣] .

سمع يثربيون ما قرأه عليهم النبي ﷺ من القرآن وآمنوا به وقالوا : إن بين قومنا الأوس والخزرج من العداوة والقتال ما لو زال منهم على يديك لا يكون أحد أعز منك . وكان بينهم حروب بعاث التي امتدت نحو عشر سنين وأفنت أشرافهم .

وقالت عائشة : كان يوم بعاث ، أي حروبها ، يوما قدمه الله لنبيه – تعني أفنى فيه من كان لا يرضي إيمانه من أكابرهم .

ولما أراد شياطين اليهود إعادة تفريق المسلمين بعد الهجرة ، وجلس شيطان منهم يذكر ما تقاولت الأوس والخروج يوم بعاث من شعر وخطابة ، وتحركت الضغائن التي أماتها الإسلام ، وتواعدوا على الخروج إلى الحرة مرة أخرى ، فبلغ النبي ﷺ فجاء إليهم وذكرهم بنعمة الله تعالى عليهم ؛ الإسلام ، وأنزل الله

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ۚ وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [آل عمران : ١٠٢ - ١٠٣] . فبكى الأنصار المتحفزون لإعادة الحرب بينهم مرة أخرى جذعة ، وفشلت دسيسة اليهود وتصافح الإخوان المسلمون وندموا وأنابوا

ورجع اليثربيون ، سكان يثرب ، إلى بلدهم بعد الحج وأشاعوا خبر الرسول في يثرب وانتشر الإسلام في المدينة انتشار النار في الهشيم ، ولم يبق دار في المدينة إلا دخلها الإسلام .

وبعث رسول الله ﷺ إلى المدينة من يعلمهم ويزكيهم كمصعب بن عمير وسالم مولى أبي حذيفة ، وأخبرهم النبي ﷺ برؤياه لدار الهجرة ، وأنه ذهب ظنه إلى أنها اليمامة لما رأى فيها من النخيل الذي يشبه نخيل المدينة ، ولكنه صحح الرؤيا وقال إنها يثرب .

وهاجر أصحابه قبله أفرادًا وجماعات متسليين من قريش ، وحصارهم إياهم ، فكانوا يخرجون خفية متسللين إلا ابن الخطاب فإنه تقلد سيفه ورمحه ووقف على ملأ قريش ، وأعلنهم بالهجرة ؛ أنذرهم أن من هانت عليه نفسه فليخرج ورائي خارج الحرم .

وجاء أهل يثرب في العام القادم سنة ١٣ من البعثة إلى الموسم ، وقد أسلم منهم جمع غفير ، وتواعدوا مع الرسول خارج منى عند جمرة العقبة ليبايعوه على أن يحموه مما يحمون منه أولادهم ونساءهم ، وخرج معه عمه العباس مع أنه على دين قومه واستوثق منهم على حماية ابن أخيه ، وانتخبوا منهم اثني عشر نقيبًا ينوبون عن قومهم ، كل نقيب عن قبيلته وتمت البيعة .

وعلم بها قريش وسألوا أهل يثرب ، فحلف مشركوهم صادقين أنهم لم

يحصل منهم شيء يعكر على قريش ، وسكت المسلمون المبايعون وانصرف الناس إلى ديارهم بعد الموسم قافلين . وهم الصديق أبو بكر بالهجرة ، فاستمهله الرسول حتى يؤذن له ، وفرح الصديق بهذه الصحبة المرجوة وعلف راحلتين ؛ استعدادًا لذلك .

هجرة الحبشة :

ولقد كان أيام اشتداد قريش على أصحاب النبي ﷺ أن هاجر كثير منهم إلى الحبشة لما اشتهر من عدل النجاشي وحمايته للاجئين إليه ، وقد كان عند ظنهم به ، فحمى المهاجرين وآواهم ، حتى إن قريشًا غاظهم ذلك فأرسلوا إلى النجاشي هدية من أدم ومسك ؛ رشوة لتسليم المهاجرين إليهم . ولما اجتمعوا جميعًا عند النجاشي ، وأناب المهاجرون عنهم جعفر بن أبي طالب فقرأ جعفر على النجاشي شيئًا من القرآن وحكى له صفة النبي ﷺ ومعرفتهم به وما عرفوا من دين الجاهلية ، ففاضت عينا النجاشي مما عرف من الحق وقال قولته المشهورة : هذا والذي جاء به موسى يخرج من مشكاة واحدة .

ولما حرضوا النجاشي على المهاجرين أنهم يتكلمون في عيسى ابن مريم ويقولون فيه قولا عظيمًا ، فقرأ جعفر أول سورة مريم ، فقال النجاشي : ما زاد عيسى بن مريم عن هذا ولا قدر هذه القشة ، وأخذ قشة من الأرض ، ورجع عمرو بن العاص ورفقته خائبين بهداياهم من عند النجاشي ، وقال النجاشي للمهاجرين : اذهبوا فأنتم سيوم ، أي : أحرار عندي .

❁ ❁ ❁

آن أوان الهجرة [1]

ماذا تعمل قريش ، لقد جادلت عن دينها أشد الجدال وضيقت على الداعي إلى إبطال دينها والاستبدال به دينًا جديدًا أشد الضيق مع الأذى والعدوان عليه وعلى من اتبعه ، والمسلمون كل يوم في ازدياد كما قال أبو سفيان- وهو مشرك- لهرقل عظيم الروم حينما سأله : هل يزيدون أو ينقصون . وقال أبو سفيان : بل يزيدون . فقال هرقل : وهكذا شأن الإيمان حتى يتم . وسأله هل يرتد أحد منهم سخطة لدينه ؟ . قال أبو سفيان : لا . قال هرقل : وهكذا الإيمان إذا خالطت بشاشته القلوب .

فماذا تفعل قريش في هذا الطوفان الذي أغرقهم وفي هذه الطامة التي خلت قلوبهم وفي هذه الرجفة التي زلزلت إيمانهم بدينهم وأصنامهم ؟ .

اجتمعوا للتشاور في ذلك في دار الندوة التي كانوا يجتمعون للتشاور فيها في مهام الأمور ومفزع الخطوب . ويقال : إنه انضم إليهم إبليس في صورة شيخ من نجد قائلًا : قد علمت اجتماعكم للتشاور في شأن هذا الرجل فلعلكم تجدون عندي مشورة أعينكم بها .

اجتماع الشورى

قال أحدهم : ننفي محمدًا عن بلدنا ونستريح منه وليفعل مع غيرنا ما يشاء .

قال الشيخ النجدي : ليس هذا برأي ، فأنتم تعرفون فصاحته وأسلوبه الذي سحر به القلوب ، فيؤلب عليكم الجموع ، ويجيء إليكم ويقلعكم من داركم .

- وهذا هو الذي وقع في بدر وأحد والخندق وفتح مكة - .

---

(١) تتمة مقال « الله رب العالمين في الفطر والعقول والأديان » مجلة « الحج » - محرم - ١٣٨٠هـ .

قال آخر : نحبسه حتى يأتيه ما أتى الشعراء قبله من الموت .

قال النجدي : ليس هذا برأي ، فأنتم تعرفون أصحابه وتفانيهم في فدائه والموت لتخليصه ، ويأتون بقضهم وقضيضهم ويخلصونه منكم .

قال أبو جهل : بدا لي رأي لعله لم يقع عليه أحد منكم ؛ نجمع عشرين شابًا من قريش ونعطيهم السلاح والسيوف والخناجر ويضربونه ضربة رجل واحد فيتفرق دمه في قبائل قريش فنرضي بني هاشم بأخذ الدية ونستريح منه .

قال الشيخ النجدي : هذا واللَّه هو الرأي ولا رأي غيره .

وتعاقدوا على ذلك وأخذوا عليه عهودهم ومواثيقهم ، وشرعوا في انتخاب العشرين شابًا من قبائل قريش ما عدا بني هاشم .

وهل ظهر إبليس في صورة نجدي كما تذكره الرواية أم هو الخيال صور لهم وسواسه فيما تخيلوه من تلك الصورة ؟ أيًا ما كان ؛ فإبليس وجنوده مصدر الشر لبني آدم من يوم حسد أبانا آدم وأبى أن يسجد له وقال : ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف: الآية ١٢] .

وقال ﴿أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: الآية ٦٢] وقال اللَّه له: ﴿إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ﴾ [الأعراف: الآية ١٥] ، وقال : ﴿وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [الإسراء: الآية ٦٤] .

وقوى الشر المتحركة لابد لها من محرك ظهر المحرك واستبان أم اختفى ، ودلت عليه حركته وآثاره ، فبواخر الاستعمار التي تجوس خلال الديار تمخر البحار لتخرب الديار يحركها البخار الذي لا يرى ، وأوامر وزارة المستعمرات ورأس المفسدين في حكومات الاستعمار .

وإذا صحت الرواية في تمثل إبليس بشيخ نجدي فإنما ذلك ليقبل منه ؛ لتجاور الحجاز ونجد ، فلو تمثل لهم بمصري أو شامي أو يمني لما اطمأنوا إليه ولا أشركوه معهم في تشاورهم .

مكر الله ومكر قريش

مكرت قريش لإخراج النبي ﷺ من بينهم ، أو حبسهم لتعطيل وظيفته ، أو قتلهم له ليستريحوا منه كما قال الله تعالى : ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ﴾ [الأنفال: الآية ٣٠] - أي يحبسوك - ﴿أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَـٰكِرِينَ﴾ [الأنفال: الآية ٣٠] . هكذا مكروا ، وهكذا مكر الله بهم لنبيه .

خرج على شبانهم المجتمعين على بابه وفيهم فرعونهم أبو جهل ، وأعلم الله نبيه بمكرهم فأمر علي بن أبي طالب رضي الله عنه أن ينام على سريره ، وخرج عليهم رسول الله ﷺ وقرأ : ﴿وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَـٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [يس: الآية ٩] . فألقى الله عليهم النوم ، وخرج عليهم رسول الله ﷺ ووضع التراب على رؤوسهم ، ومضى إلى دار أبي بكر رضي الله عنه واصطحبه معه إلى غار ثور على بعد بضعة أميال من مكة جنوبا ، وأعد دليلا خريتا يعرف الطريق غير المعتاد من ثور إلى ساحل البحر إلى رابغ إلى المدينة وواعداه غار ثور بعد ثلاثة أيام يأتيهما فيه بالراحلتين .

صعقت قريش وداروا حول مكة يمينا وشمالا ، شرقًا وغربا ؛ بحثًا عن طريدهم الشديد عليهم ، وجعلوا دية مضاعفة لمن يأتيهم بمحمد وصاحبه حيًا أو ميتًا ، ووصلوا ببحثهم إلى الغار ووقفوا عليه ، وقال أبو بكر لرسول الله ﷺ : لو نظر أحدهم تحت قدميه لرآنا . فقال له رسول الله ﷺ : « يا أبا بكر لا تحزن إن الله معنا ، ما ظنك باثنين الله ثالثهما »[١] وأنزل الله في ذلك ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ

(١) البخاري (٤٣٨٦) ومسلم (٢٣٨١).

نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: الآية ٤٠] .

وكان يروح عليهما في الغار عبد اللّٰه بن أبي بكر بغنمه فيبيت معهم ؛ يشربان من ألبان غنمه ويأتيهما بأخبار قريش ، ويصبح كأنه بائت بمكة فيسمع ما تقوله قريش وما تعض عليه أناملهم من الغيظ ؛ لفرار رسول اللّٰه وصاحبه أبي بكر ، ويأتيهم بذلك كله عبد اللّٰه بن أبي بكر مساءً .

ولما انقطع الطلب جاءهم الخريت عبد اللّٰه بن أريقط برواحلهم فركبوا وأخذوا ساحل البحر ؛ عن طريق جدة فرابغ .

والعجب من هذا الخريت المشرك الذي هو على دين قومه ويسمع وعد قريش بدية مضاعفة لمن يأتي بمحمد حيًّا أو ميتًا أو يدل على مكانه أو طريقه ، ثم لا تهزه هذه الدية ؛ مائتان من الإبل على كلمة يقولها عن مكان محمد الذي يعلمه ، ويقنع بدريهمات قليلة لدلالته على طريق شاق طويل غير معتاد ، ما هذا الوفاء؟ ما هذا الشهم بهذه الأخلاق العظيمة التي فطر اللّٰه عليها العرب ؟! اختارهم لتبليغ دينه إلى الخافقين ،فكانوا سفراء الخير والخلق والدين بين رسول اللّٰه وبين سائر الناس .

وفي الناس اليوم الكثير الذي يبيع أخاه وربما أباه بحطام تافه تغريهم به السلطات[1] الحاكمة ، فتفسد بذلك أخلاقهم وضمائرهم وما فطرهم اللّٰه عليه .

لذلك ارتقت العرب في عز الإسلام إلى أوج الكمال ، بينما هبط غيرهم إلى دركات الحضيض والدرك الأسفل من سوء الأخلاق .

---

(١) يريد - رحمه اللّٰه - السلطات التي لا تحكم بكتاب اللّٰه ، ولا تعمل به ؛ في سائر الأقطار ..

وفي الطريق كانت قصة سراقة بن مالك بن جعشم المدلجي ؛ وهي كما روتها السيرة[١] أن سراقة بينما كان جالسًا في مجلس قومه ضحى جاءهم آت فقال : إني أرى أسودة[٢] يزول بهم السراب ، وأظنهم محمدًا ومن معه ؛ الذين تطلبهم قريش . فوقع في نفس سراقة أنهم هم ، ولكنه أراد أن يستأثر بدية قريش المضاعفة فقال : لا ، إنهم فلان وفلان ذهبوا لطلب ضالة لهم وأراد بذلك صرف المجلس عند الظهيرة إلى بيوتهم .

وانصرف سراقة إلى فرسه فأسرجها وخرج بها من ظهر البيوت ، وركض في طريق الساحل حتى أدرك الطريدين الشريدين ، حتى كان منهما على بعد يراهما ، فساخت قوائم فرسه في أرض صلدة جلدة ، فزجر الفرس فقامت ثم ساخت قوائمها مرة أخرى ثم ثالثة ، فعلم أن الأمر ؛ أمر الطُرَداءِ الشُرَداءِ محوط بعناية اللّه تعالى ، فناداهما بالأمان ، وأن لا يدعوا عليه بسوء أو شر ، فسارت فرسه مستقيمة نحوهما حتى أدركهما ، وعرض عليهما المعونة ، وأعطاهما أمارة لراعي إبله إن احتاجا إلى شيء من لبن الإبل أو لحمها ، فقالا : عمِّ عنا الخبر . فدعوا له بخير ؛ استكتبهما[٣] أمانًا يبقى بيده ، فكتب له أبو بكر صكًا بذلك لقى به النبي ﷺ في فتح مكة أو في حجة الوداع ، وعرفه النبي ﷺ وأثنى عليه . وهو الذي سأل النبي ﷺ عندما قال ﷺ : « أيها الناس إن اللّه فرض عليكم الحج فحجوا » . فقال سراقة[٤] : أكل عام يا رسول اللّه ؟ فقال رسول اللّه ﷺ : « لو قلت نعم لوجبت ،

(١) انظر قصة سراقة في البخاري (٣٦٩٣) ومسلم (٢٠٠٩).
(٢) في الأصل « أسود ».
(٣) في الأصل « استكتبيها ».
(٤) في مسلم (١٣٣٧) : « فقال رجل : أكل عام يارسول اللّه » . وفي النسائي (٢٦٢٠) وأحمد (٢٣٠٤) أنه الأقرع بن حابس رضي اللّه عنه . وسؤال سراقة رضي اللّه عنه هو :« أرأيت متعتنا هذه ألعامنا هذا أم للأبد ؟ فقال رسول اللّه ﷺ : « بل هي للأبد » كما في أبي داود (١٧٨٧) .

ولو وجبت لما استطعتم ، إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم » .

ولسراقة قصة أخرى في غزوة بدر لما خرجت قريش بقضها وقضيضها لتحمي عيرها -قافلتها التجارية- التي كان عليها أبو سفيان قادمة من الشام ، فخرجوا لحمايتها من النبي ﷺ ، ولما قربوا من بدر خافوا على أهليهم وذويهم من بني مدلج أن يبيتوا مكة في غيابهم عنها في غزوة بدر ، فظهر لهم إبليس في صورة سراقة بن مالك بن جعشم المدلجي وقال لهم : إني جار لكم لا غالب لكم اليوم لا يأتيكم من بني مدلج ما تكرهون . فساروا مطمئنين على من خلفوا وراءهم في مكة حتى وصلوا إلى بدر ، فلما رأى إبليس المتصور بصورة سراقة ؛ رأى جبريل يزع الملائكة ، يصفهم ويسوي صفوفهم ، نفض يده من يد أبي بن خلف وفر هاربًا فناداه ؛ يا سراقة تجبن وتهرب . وهي كبرى الكبائر عند العرب أن يولي أحدهم ظهره ميدان القتال - فقال إبليس السراقي : إني أرى ما لا ترون إني أخاف الله والله شديد العقاب .

فما زال الناس يشنعون بذلك على سراقة ويحقرونها منه ، حتى أسلم من أسلم منهم فعلموا أنه ليس سراقة . وفي الحديث[1] : « ما رؤى الشيطان أذل ولا أحقر ولا أدحر في يوم ما رؤى يوم عرفة ؛ لما يرى من تنزل الرحمات وتجاوز الله عن الذنوب العظام ، إلا ما رؤى يوم بدر حينما رأى جبريل يزع الملائكة » : يعظهم ويرتبهم .

وجاءت الرواية بتمثل إبليس بصورة سراقة وفي آيات ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم﴾ [الأنفال: الآية ٤٧] يعني قريشَ بدرٍ بطرا ورئاء الناس ، قول أبي جهل : نذهب إلى بدر فنشرب الخمر ونغني ونشتهر في العرب ، ﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [الأنفال: الآية ٤٧] . ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ

---

(١) الموطأ (٩٤٤) ومصنف عبدالرزاق(٨١٢٥).

أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ﴾ [الأنفال: الآية ٤٨] - رجع القهقري موليا الأدبار - وقال: ﴿إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الأنفال: الآية ٤٨].

في هذه الآيات ما يشهد لما جاءت به روايات السيرة من تمثل إبليس بصورة سراقة

وندع الذين يتوقفون في ذلك إلى جمودهم وما قلدوا فيه سادتهم الفرنجة من إنكار الجن وإنكار قدرتهم على التصور، والذي يقرأ القرآن والسنة الصحيحة ينفر غاية النفرة من هذه الدهرية الفاضحة، فهذا سليمان سخر اللَّه له جنوده من الجن والإنس والطير فهم يوزعون، وقال عفريت من الجن أنا آتيك به سرير بلقيس ﴿قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ﴾ [النمل: الآية ٣٩] يأتي به من اليمن إلى بيت المقدس في ضحوة يوم، وقال اللَّه: ﴿وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ (٣٧) وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ (٣٨) هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

وفي الأحاديث الكثير الطيب الذي لا ينكره إلا من أنكر الأحاديث أو حرفها في تمثل الجن وتصورها، لسنا في سعة من إيرادها.

وإذا كان الملائكة الذين أرسلهم اللَّه تعالى لإهلاك قوم لوط تمثلوا ضيوفًا مكرمين وجاءوا إلى الخليل كما قال اللَّه تعالى: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ (٢٤) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ (٢٥) فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ (٢٦) فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ (٢٧) فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾. ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾ [هُود: الآية ٦٩] (مشوي) ﴿فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ﴾ [هُود: الآية ٧٠]؛ لأنهم ملائكة لا يأكلون الطعام، خلافًا لما

جاء في التوراة أنهم أكلوا ؛ غلطا من المترجم ﴿وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ [هود: الآية ٧٠] لأن من لم يأكل ربما أضمر لك الشر أو البغضاء ﴿قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ۝٧٠ وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ۝٧١ قَالَتْ يَا وَيْلَتَىٰ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ۝٧٢ قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ۖ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ ۚ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾ [هود: ٧٠ - ٧٣] - إلى أن قال: - ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ۝٧٧ وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ﴾ [هود: ٧٧، ٧٨] ضيوف جمال شباب مرد ، صيد ثمين ، هذا مطلوبهم لسد شهوتهم من الرجال. إلخ القصة عندما راودوه عن ضيفه ، وطمس الله أعينهم وقلب قريتهم عاليها سافلها .

فإذا تمثل الملائكة بشرًا ضيفًا كرماء فلم لا تتمثل الجن فيما تشاء من صور تناسب حالهم من خسة أو نحوها ؟ ! فالجميع من عالم الغيب ، والواجب الإيمان بما جاء فيه من النصوص عن المعصوم الذي لا ينطق عن الهوى ، والله المستعان .

❁ ❁ ❁

سار الرسول وصاحبه أبو بكر في طريقهما إلى المدينة المنورة. وكان يخرج أهل المدينة كل يوم إلى ظهيرة النهار؛ انتظارًا لهذا القدوم المبارك حتى رجعوا، ونظر يهودي إلى هدف يريده في الحرة فرأى رسول الله ﷺ وصاحبه يزول بهم السراب على بعد، فنادى بأعلى صوته: يا بني قيله، هذا حظكم الذي[1] تنتظرونه. فخرجوا مسرعين متقلدي سيوفهم وقابلوا رسول الله ﷺ أفرح ما يكون كانتظار[2] الساري لطلوع البدر أو الظمآن للماء.

فنزل على بني عمرو بن عوف في منازلهم بقباء جنوب المدينة، ومكث عندهم بضعة عشر يوما، يصلي بهم في مسجدهم الذي نزل فيه، وفي المسجد النبوي بالأولى ﴿لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ﴾ [التوبة: الآية ١٠٨]، ثم ركب وسار نحو المدينة والأنصار يستقبلونه أمام منازلهم، هنا يا رسول الله على الرحب والسعة والعزة والنصرة، ويتعلقون بزمام الناقة، فيقول لهم: دعوها فإنها مأمورة. حتى بركت بفناء أبي أيوب الأنصاري النجاري، فنزل عنها وحل رحله أبو أيوب، ونزل النبي ﷺ عليه وقال: «المرء مع رحله». وأنزله أبو أيوب في أعلى داره ونزل هو وأهله بسفلها، وكان يتنقل في أحياء المدينة ويصلي حيثما تدركه الصلاة في مرابض الغنم.

❁❁❁

---

(١) سقطت «الذي» من الأصل.

(٢) في الأصل «كالانتظار».

تعليقات على كتابي[1]
« العقيدة والشريعة في الإسلام »
« مذاهب التفسير في الإسلام »
تأليف « جولد زيهر »

يهودي مستشرق شرق بظهور الإسلام وبهره ضياؤه حتى غشى في ظلمات حقده وغياهب ضلاله، فذهب يفتري على الإسلام وعلى رسول اللّٰه الكريم بمفتريات حاقدة وأضغان قاتلة في كتابيه « العقيدة والشريعة في الإسلام » و« مذاهب التفسير في الإسلام ».

ولقد كنا في غنى عن نبش أحقاد هذا اليهودي ومفترياته على الإسلام ونبيه، لولا أن بعض الكتاب مدح كتابه « مذاهب التفسير » وأشاد به وقال: إن نفعه أكثر من ضرره.

فأردت أن أذكر نماذج من كتابيه تدل المنصف البصير على إغراق هذا اليهودي في عداوة الإسلام وعدم التزامه حافة الإنصاف والعدل فيما ذكر عن الإسلام في كتابيه.

وحسبي ما أذكر من النماذج دلالة على سائر خبث ذلك الرجل الممتلئ قلبه بصديد البغض للحق والافتراء عليه، والبهتان والزور على دين اللّٰه الذي أرسل اللّٰه به رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله.

وحسبي في ذلك اليهودي قول اللّٰه تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ۝٨ ثَانِىَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ۝٩ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ

---

(١) مجلة المنهل - محرم - ١٣٧٩هـ (السنة: ٢٤).

لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [الحج: ٨ - ١٠].

نموذج (أ) :

قال: «ذلك أن الإسلام كما يبدو عند اكتمال نموه هو نتيجة تأثيرات مختلفة تكون بعضها باعتباره تصورًا وفهمًا أخلاقيًا للعالم وباعتباره قانونيًا وعقيديًا حتى أخذ شكله النهائي، وعلينا كذلك أن نتحدث عن التيارات التي أثرت في اتجاهات نهر الإسلام؛ لأن الإسلام ليس مذهبًا واحدًا بل حياته التاريخية تتأكد فيما نشأ فيه من اختلافات». اهـ.

وأجابه ناشروا كتابه بقولهم: يجعل الإسلام كسائر الأنظمة تطورًا وتدرجًا من طريق النقص إلى الكمال في عقائده وفقهه وغير ذلك. والإسلام كمل في حياة الرسول عليه الصلاة والسلام بما جاء فيه من مبادئ وأصول وتفريع عليها، وما دخل عليه من دخيل من اليونان وغيرهم إن لم يوافق مبادئه فإن المسلمين ينبذونه ويهجرونه ولا يعد هذا الدخيل في الإسلام. وليس بصحيح ما ذكره فيما بعد؛ تأثر فقهه بالقانون الروماني.

وما تأثر به العباسيون في الأنظمة السياسية من قوانين الفرس فما خالف الحياة الإسلامية كان نقمة ووبالا عليهم، ولنقرأ في كمال الدين في عصر النبوة قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًاۚ﴾ [المائدة: الآية ٣].

قلت: وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [آل عِمران: الآية ١٩]. وقوله: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًاۚ﴾ [المائدة: الآية ٦٤]. وقوله: ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ [البقرة: الآية ٨٧].

وقوله : ﴿بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنبِيَاءَ اللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٨٩- ٩٠] .

نموذج (ب) :

قال (ص٥- س٧) :

« ويبين ذلك ، أي تطوره ، إذا عرفت أن نمو الإسلام مصطبغ -نوعا- بالأفكار والآراء (الهيلينية) ، ونظامه الفقهي الدقيق يشعر بأثر القانون الروماني ...

إلى أن قال (س١٥) : فمحمد لم يبشر بدين جديد من الأفكار ، كما لم يحدث أيضًا بجديد فيما يتصل بعلاقة الإنسان بما هو فوق حسه وشعوره باللانهاية ...

إلى أن قال (س٢٣) : فتبشير النبي العربي ليس إلا مزيجا منتخبًا من عناصر وآراء دينية عرفها أو استقاها بسبب اتصاله بالعناصر اليهودية والمسيحية وغيرها التي تأثر بها تأثرًا عميقا ، والتي رآها جديرة بأن توقظ عاطفة دينية حقيقية عند بني وطنه ، وهذه التعاليم التي أخذها عن تلك العناصر الأجنبية كانت في رأيه كذلك ضرورية لتثبيت ضرب من الحياة في الاتجاه الذي تريده الإرادة الإلهية » .

ورد عليه المعرِّبون فقالوا : والرسول عليه الصلاة والسلام قد جاء على فترة من الرسل وغواية وعمى من الأمم ، والناس في شرك وعبادات باطلة ، فهدى الناس وسن لهم اللّه على لسانه الهدى ، كما أوحى إليه ما كان فيه شفاء لهم وإخراج لهم من الظلمات إلى النور .

وأقول : قال اللّه تعالى : ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ

مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المائدة: الآية ١٩] .

وقال تعالى : ﴿يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَـٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَـٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة: ١٥، ١٦] .

وإذا كان الرسول الكريم المؤيد من اللَّه قد استقى دينه -كما زعم هذا المفترى- من مصادر يهودية ونصرانية فلماذا لم يقع في أغلاطهم ؟ ! بل بين ضلالهم وأغلاطهم وكذبهم على اللَّه وعلى أنبياء اللَّه تعالى وفضحهم في كتابه .

وكيف جاء الشرع المستقي المقلِد أرقى من أصله ومنبعه بما لا يقاس بمراحل ؟ ! ولماذا أسلم المنصفون من أهل الكتاب من يهود ونصارى واعترفوا بأن هذا هو الرسول الذي بشرت به أنبياؤهم وكتبهم ؟ !

وهذا هرقل قيصر الروم يقول : وقد كنت أعلم أنه خارج ولم أكن أظن أنه منكم ، ولو أعلم أني أصل إليه لغسلت عن قدميه ، ودعا الروم إلى الإيمان به ليفلحوا ويبقى لهم ملكهم فأبوا عليه حمية جاهلية وعصبية عمياء .

وكذلك شهد له المقوقس ملك مصر والنجاشي ملك الحبشة وأسلم وآمن به بعض اليهود . فأين كانوا من هذا المفكر الضال والرأي الخامج الذي جاء به هذا المفتري البغيض ؟ ! ..

وقال المعربون : رمى (جولد زيهر) النبي ﷺ هنا وفي مواضع أخرى بأنه استقى معارفه من المصادر اليهودية والمسيحية ، وقديمًا نطق بهذه الفرية المعاصرون لرسول اللَّه ﷺ ورد عليها القرآن بقوله : ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ

يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾ [النحل: الآية ١٠٣] .

أقول : وقال اللّه تعالى : ﴿وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝٥ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الفرقان: ٥، ٦] .

[(١)] (جـ) (ص٦ –س٤)

قال جولد زيهر : « لقد تأثر – يعني النبي ﷺ – بهذه الأفكار تأثرًا وصل إلى أعماق قلبه ، وأدركها بإيحاء قوة التأثيرات الخارجية ، فصارت عقيدة انطوى عليها قلبه ، كما صار يعتبر هذه التعاليم وحيا إلهيًا فأصبح بإخلاص على يقين بأنه أداة لهذا الوحي .

لا نريد أن نتتبع خطوة المراحل الباثولوجية التي نشأ فيها الشعور بهذا الوحي واعتقاده وتثبيته في نفسه ، ومن أجل هذا علينا أن نذكر كلمة ذات معنى قالها (هارتاك) عن الأمراض التي تصيب الرجال الذين فوق البشر دون سواهم والتي يشتقون منها حياة جديدة كانت قبل ذلك مجهولة ، كما يتخذون منها قوة تهدم جميع العقبات ، ومن ذلك حياة النبي ﷺ أو الحواري . اهـ .

وأجابه معربو كتابه في حاشية (ص٦) بقولهم : وقد علل هنا إيمان النبي بنبوته تعليلا ركب فيه حظه من المعرفة التي لا تسمو عن المادة ولا تعدو المحسوس ، وهو بذلك مجانب للإنصاف ومتسنم غارب الاعتساف ، ثم يشير إلى عدم إمكان الوحي وأن أمر الأنبياء مسألة نفسية ترجع إلى تشبع المرء بحالة خاصة من فرط استغراقه فيها ، والمؤمنون بالرسل على غير هذا .

---

(١) تتمة مقال « تعليقات على كتابي « العقيدة والشريعة في الإسلام » و « مذاهب التفسير في الإسلام » لجولد زيهر . مجلة المنهل – صفر – ١٣٧٩هـ .

قلت : وقديما رمى المشركون رسول الله ﷺ بالجنون أو الجنة فأجابهم الله بقوله : ﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةُۢ ۚ بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ﴾ [المؤمنون: الآية ٧٠] . وقال : ﴿نٓ ۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝١ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ [القلم : ١ - ٣] .

وقال : ﴿فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ۝٢٩ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ۝٣٠ قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ۝٣١ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ ۚ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ۝٣٢ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ۝٣٣ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ﴾ [الطور : ٢٩ - ٣٤] .

وقال : ﴿بَلْ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ ۝٥ مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ ۖ أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنبياء : ٥، ٦] .

فالمجنون محله البيمارستانات ومستشفيات الأمراض العقلية حيث يسلسل ويغل ويعبث فسادًا فيما تصل إليه يده ، أما رسل الله فهم شموس هداية عباد الله وأدلاء طرق الخير والصلاح وقادة قافلة المفلحين إلى خير الدنيا والآخرة : ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ۝١٢٣ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ۝١٢٤ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ۝١٢٥ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ۝١٢٦ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [طه : ١٢٣- ١٢٧] .

(د) (ص٧ –س٦)

قال : « وفي خلال النص الأول من حياته اضطرته مشاغله إلى الاتصال بأوساط استقى منها أفكارًا أخذ يجترها في قرارة نفسه ، وهو منطو في تأملاته أثناء

عزلته وليل إدراكه وشعوره للتأملات المجردة والتي يلمح فيها أثر حالته المرضية ».

إلى أن قال (س٢٤) : « وأخذ يقضي وقته في الخلوة في الغيران المجاورة للمدينة - مكة - حيث كان يهنأ للأحلام القوية والرؤى الدينية ، وتملكه شعور بأن الله يدعوه بقوة تزداد شيئًا فشيئًا ليذهب إلى قومه منذرًا إياهم بما يؤدي لهم ضلالهم من الخسران المبين بكلمة واحدة ، أحس بقوة لا يستطيع لها مقاومة تدفعه إلى أن يكون مربيًا لشعبه - أي منذره ومبشره - » اهـ

وهذه فرية كسابقتها سبق لنا ردها كما سبق لمعربي الكتاب نسفها وإبطالها .

وحسبنا رد الله في رد ضلال منكري نبوته بقوله : ﴿ ۞ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾ [سبأ: الآية ٤٦] ، ﴿ بَلْ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴾ [الأنبياء: الآية ٥] .

وهذا اليهودي من قبيل من قال الله فيهم : ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴾ [الأعراف: الآية ١٧٩] . وممن قال فيهم : ﴿ وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ [يونس: الآية ١٠١] ، ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۙ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ ۚ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [غافر: الآية ٥٦] .

﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ

ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ [الأحقاف: الآية ٢٦] . ﴿وَقَالُواْ لَوۡ كُنَّا نَسۡمَعُ أَوۡ نَعۡقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [المُلك: الآية ١٠] .

(هـ) (ص٨ –س١)

قال في بدء رسالته : « كانت تأملاته تأخذ طريقها إلى الخارج في شكل أمثال مضروبة للحياة الأخرى ، وتفاصيل كل ذلك كانت تتمثل في رؤاه الانجذابية في أشكال مروعة مخيفة » (ص١٨ –س١٦) .

وقال في (ص١٤ –س١٥) :

« ففي العصر المكي جاءت المواعظ التي قدم فيها محمد الصور التي أوحتها إليه حميته الملتهبة في شكل وهمي خيالي تلقائي ذاتي » .

وقال (ص١٨ –س١٦) :

« بينا نرى محمدًا يسرد في الأولى – السور المكية – رؤاه الكشفية الإلهامية في فقرات مسجوعة متقطعة وفق صوت قلبه المحموم ، نرى الوحي في الثانية – السور المدنية– يتخذ نفس الشكل كشخص مجرد من اندفاعه وقوته .. إلخ » .

وذكر في (ص١٤) أن الرسول غير طابعه وأسلوبه في المدينة عنه في مكة ، ففي مكة كان يشعر أنه نبي متمم برسالته سلسلة رسل التوراة ، وأنه لهذا عليه مثل أولئك الرسل ؛ أن يقوم بإنذار أمثاله في الإنسانية وإنقاذهم من الضلال .

أما في المدينة وقد تغيرت الظروف الخارجية فقد تغيرت مقاصده وخططه واتجهت اتجاها آخر بحكم تلك الظروف الخارجية ... إلخ » .

ورد عليه معربو كتابه : وهذا غير صحيح ، فما زال حتى توفاه اللّٰه يتفق مع من سبقه من الأنبياء في الأصول العامة للدين من التوحيد وغيره ، واختلاف الفروع لا يعد خلافًا .

ويذكر المؤلف أنه يدعو إلى إصلاح دين إبراهيم وتطهيره فيما حاق به ، وهذا

حق في الأصول العامة، أما الفروع فهل يستطيع المؤلف أن يثبت هذا؟. وهل كيفية العبادات وأنظمتها في الإسلام كانت في عهد إبراهيم؟!

يبدو من المؤلف الاضطراب في هذه الناحية، فالنبي مرة عنده خارج على الأنبياء، وهو مع هذا لم يأت بدين جديد بل أتى بدين إبراهيم.

وذكر في (ص١٤ -س١٥) أن القرآن تغير أسلوبه في السور المدنية عنها في المكية.

قال: «ففي العصر المكي جاءت المواعظ التي قدم فيها محمد السور التي أوحتها إليه حميته الملتهبة في شكل وهمي خيالي تلقائي ذاتي، وهو في هذا العصر لا يسمع صلصلة سيفه ولا يتحدث إلى محاربين أو رعايا مسالمين ...».

إلى أن قال: «ولكن حمية النبوة وحدتها أخذت في عظات المدينة والوحي الذي جاء بها تهدأ رويدًا رويدًا، وحيث أخذت البلاغة في هذا الوحي تصبح ضعيفة شاحبة، حتى لقد صار أحيانًا في مستوى النثر العادي، وكان من ذلك أن رأينا حياته الخاصة في جليل شئونها ودقيقها تدخل في نطاق الوحي الإلهي الصادر إليه».

ورد عليه معربوه بقولهم: ذكر أن السور المكية تمتاز في البلاغة وفنون القول عن السور المدنية. وهذه شنشنة يدأب عليها المستشرقون، ولا علم لهم بوجوه البلاغة وأساليب الكلام، وقد جاء كله حسب مقتضيات الأحوال قرآنًا عربيًا غير ذي عوج.

وأقول حسبنا في رده قول الله تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: الآية ٨٨].

وقد تحدى فصحاء العرب وفرسان البلاغة أن يأتوا بسورة من مثله – مدنية

كانت أو مكية - فعجزوا، وسجل عليهم هذا العجز بقوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٣، ٢٤].

(ز) (ص١٧ -س١)

قال اليهودي: «وقد ساهم في تكوين عناصر هذه المذاهب - يعني الإسلامية - قواعد الدين اليهودي والدين المسيحي سواء، وتفاصيل هذه المساهمة والاشتراك لا محل للحديث عنه هنا». اهـ

ورد عليه المعربون بقولهم: ليت شعري ماذا يريد بهذا الكلام المبهم؟ فهل يريد أن في الإسلام صلاة كما فيهما صلاة، ولكن أفلا يعلم أن الصلاة في الإسلام غيرها فيهما؟ وكذلك الصيام والزكاة.

وإذا أحس الكاتب اليهودي مطالبة القارئ له بالبيان يفر من الميدان بدعوى أن المقام ليس للإفاضة في هذا الحديث، ولكن المقام كان غنيًّا عن الرجم بهذه الدعوى والرمي بهذا الفند - أي البهتان.

(ح) (ص١٦-س٢)

قال: «وهو - يعني القرآن - في مجموعه مزيج من الطوابع المختلفة اختلافًا جوهريًا والتي طبعت كلا من العصرين الأولين من عهد طفولة الإسلام».

وردوا عليه بقولهم: القرآن وحدة تامة لا تدافع فيه ولا تضارب ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: الآية ٨٢] - ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: الآية ١] - ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [الفرقان: الآية ٣٣] - ﴿وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٠٥﴾ وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلًا

﴿قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَـٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ [الإسراء: ١٠٥ - ١٠٩] - ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ ۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّـٰهِدِينَ﴾ [المائدة: الآية ٨٣] - ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَـٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَـٰلُكُمْ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَـٰهِلِينَ﴾ [القصص: ٥٢ - ٥٥].

وكان علينا أن نعرض عن لغو هذا الأفاك وهرائه لولا أن بعض الجهال مدحه وأشاد به كما سيأتي.

(ط) (ص١٣-س٤)

قال: « فتحريف الوحي القديم وغموضه اللذان أصبحا مناط شكواه صار لهما منذ ذلك الوقت أهمية كبيرة في تكوين فكرته عن رسالته النبوية، وما تتطلب من واجبات ذلك، إن بعض الذين مالوا عن دينهم الأول والذين كانوا يرغبون في مرضاته قد قالوا فيه: إن أنصار الدين القديم كانوا قد حرفوا الكتاب وأنهم أخفوا البشارات التي جاء بها أنبياء التوراة وأنبياء الإنجيل عن ظهوره في المستقبل، وهذه الشكوى ترى جرثومتها في القرآن ... إلخ ».

وردوا عليه بقولهم: وماذا كان مع الرسول من أسباب السلطان والرغبات؟! هذا اتهام من الكاتب لم يبرهن عليه؛ اتهام للرسول واتهام لمن آمن به واتبعه من غير دليل.

(أقول): هذا النجاشي ملك الحبشة وعنده ضعفاء المسلمين الفارين من ظلم

المشركين بمكة يقول : حينما قرءوا أول سورة مريم وفيها اعتراف بعبوديته للَّه ورسالته وولادته من مريم العذراء بلا أب .

يقول النجاشي : ما زاد عيسى على ذلك ولا بقدر هذه القشة ؛ أخذها من الأرض ، ويقول : هذا والذي جاء به موسى يخرج من مشكاة واحدة .

وهذا هرقل قيصر الروم بعد ما سأل أهل مكة حينما كانوا تجارا بالشام - وكانوا حينئذ مشركين معادين للرسول- فسألهم عن أوصافه ثم قال : قد كنت أعلم أنه خارج ، ولم أكن أظن أنه فيكم ، ولو كنت أخلص إليه لغسلت عن قدميه . ثم دعا قومه الروم إلى مبايعة هذا النبي ليفلحوا ويسلم لهم ملكهم فأبوا عليه ليجعلهم اللَّه غنيمة للمسلمين فيما بعد .

وهذا ورقة بن نوفل المتنصر من أهل مكة حينما سمع أول القرآن سورة ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾ [العلق: الآية ١] قال : هذا الناموس الذي نزل اللَّه على موسى ، ليتني أكون فيها جذعًا حين يخرجك قومك وإن يدركني يومك أنصرك نصرًا مؤزرًا . فقال له النبي ﷺ : « أَوَ مخرجي هم ؟ » قال : نعم . ما جاء أحد بمثل ما جئت به إلا عودي[1] .

فيؤمن به ورقة الذي كان يعرف الكتاب العبراني مع علمه بأن قومه سيخرجونه ويعادونه ويتمنى أن يعيش لذلك اليوم حتى ينصره نصرًا مؤزرًا .

وهذا المقوقس ملك مصر لم ينكر نبوته ولا بشارة الكتب السابقة به ، ورد على رسوله ردًّا جميلًا وبعث إليه بهدية من هدايا مصر .

(ى) (ص١٨ -س٤)

قال : « وهنا الركن الأخير - يعني الحج - احتفظ به محمد عن الوثنية لكنه

---

(١) البخاري (٣) ، ومسلم (١٦٠) عن عائشة رضي اللَّه عنها .

جعله متفقًا والتوحيد، وعدل معناه مسترشدًا في ذلك ببعض الأساطير الإبراهيمية . اهـ

وأجابوه بقولهم : قوله : « الأساطير الإبراهيمية » من أدب المؤرخ أن لا يضفي على الحوادث عقيدته الخاصة وإنما يذكرها كما حدثت، ويذكر البواعث عليها ويدع الحكم فيها، ولكن الكاتب لا يلتزم هذا الأدب . فعزو الحج في أساسه إلى إبراهيم أمر جاء به الإسلام، فعلى الكاتب أن يدون هذا فحسب ولا يعرض لكون هذا أسطورة أو حقًّا صراحًا، فإن عرض شيء من ذلك فليكن عند يقينه به ووقوفه على الدليل عليه، وترى هذا الأمر وهو خلع العقيدة الخاصة للكاتب مثبتًا في أثناء الكتاب في مواضع متعددة . اهـ

أقول : وماذا يرجو المعربون من كاتب كتب كتابه ليحضر به مؤتمرًا عقد بأمريكا لتاريخ الأديان فيتملق به الصهيونية الأمريكية التي لعلها هي التي نظمت هذا المؤتمر للتشويش على المسلمين والإسلام الذي غاظهم ظهوره ونجاحه وغصهم ازدهاره وقيامه بالنصيب الأوفر في تقدم الحضارة وخدمة الإنسانية، ومتى كان كاتب يهودي مستشرق يتملق الصهيونية خائنا للإنصاف ومتحليًا بالأدب مع دين يشرق بريقه حينما يرى نوره وضوءه للعالم .

(د) (ص١٨ –س٧)

قال اليهودي : « وكذلك بعض عناصر القرآن المسيحية تعرف أنها وصلت إلى محمد عن طريق الروايات المتواترة المحرفة وعن ابتداعات المسيحية الشرقية القديمة » .

فأجابوه في (ص١٨) بقولهم : قد كان القرآن حربًا على هذه التقاليد والروايات التي تعتمدعلى التثليث والصلب وما إليها، فكيف تكون عناصر القرآن ؟

وحسبنا أن نقرأ للمنصف قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾ [المائدة: الآية ٧٣] . وقوله: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ﴾ [المائدة: الآية ١٧] . وقوله: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْاْ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا﴾ [مريم: ٨٨ - ٩٥] . وقوله: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٦ - ١١٨] .

وقوله في تكذيب اليهود: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ﴾ [النساء: الآية ١٥٧] .

(ل) (ص١٨ -س٩)

قال: « كما ينضم إلى هذا وذاك شيء من القنوصية الشرقية؛ ذلك لأن محمدًا قد أخذ بجميع ما وجده في اتصاله السطحي الناشئ عن رحلاته التجارية، مهما كانت طبيعة هذا الذي وجده، ثم أفاد من هذا دون أي تنظيم » .

قالوا: (القنوصية) نسبة إلى القنوص: كلمة يونانية - معناها - المعرفة . ثم

أخذ بعده معنى اصطلاحيا هو محاولة التوصل إلى المعارف العليا بنوع من الكشف أو محاولة تذوق المعارف الإلهية تذوقًا مباشرًا بأن تلقى في النفس إلقاءً .

(م) (ص١٩ –س١٠) :

« وكذلك التقليد القائل يعد شيئًا قديمًا كان يجب على النبي تقويمه وكذلك الافتراض القائل بتحريف الكتب المقدسة ، هذا وإن كان طبعا في الإسلام بطابع أقوى ، إلا أنه قد وجد لهما أصل في بعض الأفكار التي تتصل اتصالات وثيقة بتعاليم القديس (كليماندس) المسيحية » . اهـ

وأجابوه بأن القول بتحريف الكتب المقدسة قديم وهذا لا يضر القرآن في شيء . فإن زعم أن صاحب الرسالة ﷺ قلد في هذا من سبقه ، فهي دعوى بلا برهان ، وهل كان كليماندس يقول بتحريف الكتابين في التثليث والصلب مثلا ؟ وهل كان كليماندس ينكر هذه الأمور التي هي من مقومات المسيحية في عهدها المبدل ؟

[(١)](س) : قال المعربون في (ص١٩) : يذكر اليهودي أن الوحي كان فيه نزعة من الحط من شريعة العهد القديم وعدها صادرة عن إله بعيد عن الرحمة .

والوحي والقرآن كان من دأبه الإشادة بالعهد القديم والعهد الجديد واحترامهما . والقرآن جاء مصدقًا لما بين يديه من التوراة والإنجيل ، وإنما ينعى على من حرف فيهما وبدل .

وتحريم أشياء على اليهود لم يكن للقسوة عليهم ، وإنما كانوا يستحقون ذلك كما قال عقب ما حرمه عليهم : ﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ [الأنعام: الآية ١٤٦] .

---

(١) تتمة مقال « تعليقات على كتابي « العقيدة والشريعة في الإسلام » و « مذاهب التفسير في الإسلام » لجولد زيهر . مجلة المنهل – ربيع الأول – ١٣٧٩هـ – السنة (٢٤) .

(به) : آخر (ص١٩) وأول (ص٢٠)

قال : « ومع تسليمه أن اللّٰه خلق السموات والأرض في ستة أيام فإنه رفض عامدًا فكرة أن اللّٰه استراح في اليوم السابع » اهـ.

نعم رفض القرآن فكرة استراحة اللّٰه من خلق السموات والأرض في اليوم السابع بقوله : ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ [ق: الآية ٣٨] .

كما رفض تهورهم على اللّٰه بقولهم : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٨١] . وقولهم : ﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ [المَائدة: الآية ٦٤] . ﴿وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا﴾ [النِّساء: الآية ١٥٦] . وقولهم : إن اللّٰه ندم على خلق آدم . وقولهم : إنه حزن على الطوفان وبكى حتى رمدت عيناه وعادته الملائكة . وقولهم : إنه نزل فتصارع مع يعقوب حتى صرعه يعقوب فابتلاه بعرق النسا في فخذه .. إلى غير ذلك من فرياتهم على اللّٰه .

فهل كان يحب الكاتب من رسول اللّٰه خاتم الرسل وكتابه المهيمن على الكتب كلها أن يقرر هذه الكفريات .

ثم ألا يستحي هذا اليهودي من بهته رسول اللّٰه ﷺ بأنه نقل دينه عن (المرقونية) أو (الفليمانديسية) ، ومن أين للأمي العربي هذه الأفكار ؟

(ف) : (ص٢٠-س٢٢)

قال : « ويمكننا أن نقول عن جميع الأديان : إنها ذات قيمة مطلقة بالنسبة إلى إدراك أتباع كل منها وقيمة نسبية لدى عقل الفيلسوف الناقد » .

وآخر (ص٢٠) وأول (ص٢١) : « إننا اعتبرنا الدين الإسلامي مسؤولا عن عيوب أخلاقية ، ومسؤولا كذلك عن ركود عقلي ؛ وكل ذلك من الاستعدادات الجنسية » . اهـ

هذا كلام جاحد للأديان ومفتر عليها، ولئن صح مثل هذا في اليهودية والنصرانية فلن يصح في الإسلام الذي شهد له منصفو العقلاء والمفكرين أمثال : كارليل، وجوستاف لوبون الفرنسي، وجوستاف صرونيباه النمساوي، وغيرهم من أهل الإنصاف والعقل، وشهاداتهم الحق مدونة في مؤلفاتهم الشهيرة .

(ص) (ص٢٢-س١١)

قال : « كما تتطلب سائر الفضائل التي أخذها الإسلام عن الأديان السابقة والتي يعترف محمد ﷺ بأنبيائها أساتذة له » . اهـ .

رده معربو كتابه بقولهم : هذه العبارة توهم ما لا يفهم المسلم، فالمسلم يفهم أن الفضائل ومكارم الأخلاق في أصول العقائد تتفق فيها الأديان، وجميعها من مصدر واحد هو العلي الحكيم، ولم يأخذ دين عن دين، والأنبياء السابقون أمر النبي ﷺ أن يقتدى بهم في طريقتهم في الإيمان بالله وتوحيده وأصول الدين دون الشرائع الفرعية .

وحاصل ذلك أن يقتدى بهم في الاستمرار على تبليغ ما أمر به والصبر في هذا السبيل، لا أن يأخذ لها عنهم ما أتوا به فقد كفل الله ذلك بالوحي، وترى الكاتب لا يذكر ما جاء في آل عمران ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [آل عِمرَان: الآية ٨١] .

قلت : فسرها ابن عباس[١] بأخذ العهد على كل نبي أن يأمر أتباعه أن يؤمنوا بالنبي الذي يبعث بعده .

فقد أخذ العهد على موسى وعيسى أن يأمرا أتباعهما بالإيمان بالنبي

(١) انظر تفسير ابن كثير (٦٧/٢) ت/سامي سلامة.

محمد ﷺ، كما قال الله لموسى: (سأبعث في بني إخوتهم نبيا مثلك) بشارة بالنبي محمد ﷺ، وقال المسيح ابن مريم: (وسأذهب ويأتيكم الفارقليط يعلمكم كل شيء) والفارقليط هو أحمد، كما ذكر الله عنه في القرآن ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ [الصَّف: الآية ٦].

(يز) (ص٢٤) أولها: ذكر أربع آيات من سورة البلد.

ثم قال (س٣): «وهذا تفصيل أو شرح مطول لما جاء به النبي أشعيا (ص ٥٨: ٦ - ٩)».

وقالوا له: وهذا كما ترى تخرص على عادته وما كان النبي ﷺ ليعرف من أخبار أشعيا أو غيره إلا كما أنبأنا الله وقصه عليه، وما رأينا لهؤلاء المتخرصين دليلا على إفكهم فيما يزعمون.

قُلت: وليس لأشعيا ذكر فيمن ذكر الله من الأنبياء السابقين كحيقوق، وملاخي، وأرميا، وغيرهم ممن ذكروا في التوراة، فلا نصدق ولا نكذب بهم، ونقول: آمنا بأنبياء الله ورسله جميعًا، سواء من قصه الله علينا منهم ومن لم يقصصه، كما قال تعالى: ﴿مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ﴾ [غافر: الآية ٧٨].

وقال تعالى بعد ذكر قصة نوح: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [هُود: الآية ٤٩].

وقال عقب قصة موسى من سورة القصص: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَٰكِنَّا أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾.

وقال تعالى بعد ذكر كفالة زكريا لمريم: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ [آل عِمران: الآية ٤٤].

وقال في آخر قصة يوسف من سورته: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يُوسُف: الآية ١١١].

ولنذكر ألفاظ الآيات الأربع من «إصحاح ٥٨» من أشعيا؛ ليقارن المنصف بينهما وبين الأربع الآيات من «سورة البلد» ويتبين إن كانت الثريا أخذت من الثرى أو العكس!

قال أشعيا عن قول الرب: (أليس هذا صوما اختاره حل قيود الشر، فك عقد النير وإطلاق المسحوقين أحرارًا وقطع كل نير).

٧- (أليس أن تكسر للجائع خبزك، وأن تدخل المساكين[1] التائهين إلى بيتك، وإذا رأيت عريانًا أن تكسوه، وأن لا تتغاضى عن لحمك).

٨- (حينئذ ينفجر مثل الصبح نورك وتنبعث صحتك سريعًا، ويسير برك أمامك ومجد الرب بجميع ساقتك).

٩- (حينئذ تدعو فيجيب الرب، تستغيث فيقول: هاأنذا إن نزعت من وسطك الإيماء بالإصبع وكلام الإثم، وأنفقت نفسك للجائع وأشبعت النفس الذليلة؛ يشرق في الظلمة نورك، ويكون ظلامك الدامس مثل الظهر، ويقودك الرب على الدوام، ويشبع في الجدوب نفسك وينشط عظامك، فتصير كجنة ريا وكنبع مياه لا تنقطع مياهه، ومنك تبنى الخرب القديمة، تقيم أساسات دور فدور فيسمونك مرمم الثغرة مرجع المسالك للسكنى[2]) اهـ ١٩ / ١٠.

---

(١) في الأصل «المسلكين».

(٢) في الأصل «ومنك يبنى الخرب القديمة تقسيم أساسات دورق ورفيمونك مرسم الثغرة مرجع السالك للسني» والمثبت من «سفر أشعياء».

(٠) (ص٢٣ - س٨)

قال اليهودي : « فيما يتعلق بشعائر الحج التي نظمها أو على الأقل احتفظ بها من بين تقاليد الوثنية استنادًا إلى كلمة ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم﴾ [الحج: الآية ٣٤] ».

قلت : دعواه أن محمدًا نظم شعائر الحج ، أي اخترعها ، ثم أعرض عن هذه الدعوى إلى شر منها ؛ أنه احتفظ بها من بين تقاليد الوثنية ، وكلتا الدعويين تهدم إحداهما الأخرى .

وسبق في (ص١٨ - س٤) قوله : « وهذا الركن الأخير - يعني الحج - احتفظ به محمد عن الوثنية لكنه جعله متفقا والتوحيد وعدل معناه مسترشدًا في ذلك ببعض الأساطير الإبراهيمية » .

وكلها دعاوى تنقصها البينات ، فأقل ما يقال فيها إنها كذب على رسول كريم خير رسل الله على الإطلاق ، وتهيب له بالكذب والافتراء على الله وعلى رسل الله ؛ إبراهيم ومن بعده .

وقد قال الله تعالى في كتابه الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد : ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿٢٦﴾ وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ۖ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ [الحج : ٢٦ - ٢٩] .

وقال بعدما أثنى على الخليل بقوله : ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ۚ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾

وَءَاتَيْنَٰهُ فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُۥ فِي ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٠ - ١٢٣].

وقال: ﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عِمران: الآية ٦٨].

وقال: ﴿وَجَٰهِدُوا۟ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [الحج: الآية ٧٨] الآية.

(يط) (ص٢٦ – س٣)

قال: «على أنه يبدو أن هذا لم يرده محمد نفسه فقد قال: إن الله أرسله ﴿شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا * وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾ أي أنه مرشد أنموذج، ومثل أعلا، على الأقل ليس أسوة حسنة إلا بفضل رجائه في الله وذكره الله كثيرا».

وأجابوه في (ص٢٦) بقولهم في الآية: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: الآية ٢١]. أنه أساء فهمها. فقوله: لمن كان يرجو الله واليوم الآخر بدل من (لكم) أي: لقد كان لمن يرجو الله واليوم الآخر أسوة حسنة في رسول الله. أفبعد هذا يقال: لم يكن أسوة حسنة .. إلخ.

ولقد كان الرسول ﷺ في حياته مثلًا أعلى للمؤمنين قبل أن يخلق علم الكلام، وكانوا يعتدون به في كل شيء، وكذلك ائتساء ابن عمر وغيره به معروف، وكذلك حصل في بيعة الحديبية واقتداؤهم في وضوئه وغيره معروف.

وكان الرسول يرى من نفسه التواضع ليقتدى به في ذلك ويقول: «إنما أنا

عبد آكل كما يأكل العبد »[١] . وهو يعرف منزلته عند الله ومكانته من الرسل ويقول : « أنا سيد ولد آدم »[٢] .

فإن كان المؤلف لا يشعر بأنه قديس بالمعنى المعروف عند الكتابيين بما يخرجه من صفات البشر فهذا صحيح ، وقد كان النبي ﷺ يعلم -طبعًا- أنه صاحب معجزات وإلا لِم لَم يَدَعْ الرسالة ؟ فما آية ذلك ؟ وما هي السيئات التي صدرت منه تحت هذا الضعف ؟ !

ويرد على هذا المفتري قول الله تعالى في مدح نبيه : ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القَلَم: الآية ٤] . وقوله تعالى : ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ﴾ [البقرة: الآية ٢٥٣] يعني النبي ﷺ وقوله تعالى : ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: الآية ٥٢] بقوله وعمله والاقتداء به . وقوله تعالى : ﴿ يخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم ﴾ .

(ك) (ص٢٧ -س١٢)

قال الحقود الحسود : « وبعد أن كانت الرؤيا تكشف له انهيار هذا العالم السيء انتقل فجأة إلى تصور مملكة في هذا العالم ، فهو الآن يحمل السيف في العالم ولا يكتفي بعصاه التي يضرب بها الأرض ، ولا بنفثات شفتيه لإبادة الكفرة ، بل هو نفير الحرب الذي ينفخ فيه ، وهو السيف الدامي الذي رفعه لإقامة مملكته ؛ هو نبي القتال والحرب كما ورد في التوراة » .

أجابوه بقولهم : إن الرسول في المدينة وقد تمثل ما يفتح على أمته من الممالك لم ينس العالم الآخر ، ويقول في أيام الخندق وقد رأى هذه الفتوح ما

---

(١) عبد الرزاق (١٩٥٤٣) .

(٢) مسلم (٢٢٧٨) .

معناه: «إنني أخاف عليكم هذه الفتوح أن تفتنكم عن دينكم .. واللّه ما الفقر أخشى عليكم ولكني أخشى أن يفتح عليكم كما فتحت على من قبلكم فتنافسوها فتهلككم كما أهلكتهم»[١].

فلم يتقلب في المدينة ملكًا همه الثراء له ولأمته كما يصوره الكاتب زورًا وبهتانًا، فالرسول في مكة هو الرسول في المدينة، ولم تزل عيشته بعد الفتوح وما أفاء اللّه عليه العيشة الأولى.

قلت: وقالت عائشة أم المؤمنين زوج النبي ﷺ: لقد كنا نرى الهلال والهلال والهلال وما يوقد في بيتنا وما لنا طعام إلا الأسودان التمر والماء[٢].

ومات ﷺ ودرعه مرهونة عند يهودي في ثلاثين صاعًا من شعير طعامًا لأهله[٣]، حتى فكها خليفته من بعده أبو بكر الصديق رضي اللّه عنه، وقال اللّه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ [الأحزاب: الآية ٢٨].

وسُئلت عائشة رضي اللّه عنها عما كان يعمله في بيته قالت: كان في خدمة أهله ويخصف نعله[٤].

وخرج يومًا من داره جائعًا فلقي أبا بكر الصديق فقال: «ما أخرجك الآن يا أبا بكر؟» قال: الجوع. وكذلك لقي عمر، فرجعوا جميعًا إلى بستان أبي الدحداح بن التيهان رضي اللّه عنه، فضيفهم على رطب وتمر وبسر، وذبح لهم عناقًا، فأكلوا وشربوا وقال: «هذا من النعيم الذي تسألون عنه يوم القيامة»[٥]

---

(١) البخاري (٣١٥٨، ٤٠١٥)، ومسلم (٢٢٩٦/ ٣١، ٢٩٦١) من قوله: «ما الفقر ...».

(٢) البخاري (٢٥٦٧، ٦٤٥٩)، ومسلم (٢٩٧٢).

(٣) البخاري (٢٠٦٩، ٢٩١٦، ٤٤٦٧).

(٤) أحمد ٦/ ١٢١.

(٥) أحمد ٣/ ٣٣٨، والترمذي (٢٣٦٩).

ولما رجع عدي بن حاتم رضي اللَّه عنه بالمدينة فاستوقفت النبي ﷺ امرأة في عرض الطريق، فوقف لها حتى فرغت من حاجتها، فوقع في قلب عدي أن هذه ليست من أخلاق الملوك، ثم دخل معه البيت فألقى إليه وسادة جلس عليها عدي، وجلس النبي ﷺ على الأرض. فأكدت في نفس عدي نبوته فأسلم وترك نصرانيته(١)

وجاءت جارية فأخذت بيده حتى ذهبت به إلى مواليها فشفع لها عندهم وقبلوا شفاعته.

واستشفع به مغيث زوج بريرة لما أعتقت وبقي هو رقيقًا مع حريتها ورقه. فقالت بريرة للنبي ﷺ: شفاعة أو أمر؟ فقال: «بل شفاعة»(٢). فردت شفاعته.

أفهذه وأضعاف أضعافها أخلاق ملوك أم أخلاق نبوة؟

(كا) آخر (ص ٣٠) وأول (ص ٣١)

أعاد فريته على الرسول بأنه تغير حاله في المدينة عن حاله في مكة فقال: «إنه كلما أخذ عمل رسالة محمد يتقدم تقدمًا خارجيًا ثم التحول تدريجيًا، فبعد أن كان تحت سلطان الرؤى بالدار الآخرة والتي كانت تملأ نفسه وتؤثر في تبشيره خلال المرحلة الأولى من نبوته انتقل إلى الأماني الدنيوية القوية التي صار لها التفوق في خلال مراحل نجاحه، وهذا ما طبع الإسلام التاريخي بطابع الدين الحربي المتناقض تناقضًا مطلقًا مع مرحلته الأولى حيث لم يفكر في مملكة دائمة في عالم مصيره إلى الفناء، والذي هو في الوسط الحربي المحيط به مباشرة هو أنه أوصى بتحقيق رسالته؛ مستقبله لأمته، وهي جهاد الكافرين والتوسع في نشر الإسلام وفي سيطرته التي هي سيطرة اللَّه على أوسع نطاق.

---

(١) أحمد ٤/ ٢٥٧.

(٢) البخاري (٥٢٨٣)، والنسائي (٥٤١٧).

ومن ثم ترى أن مهمة المجاهدين في الإسلام لم تكن هداية الكافرين فحسب ، بل إخضاعهم أيضًا » .

وأجابوه بقولهم : يمضي أيضًا على عادته في الزعم بتغيير حالة الرسول وطمعه في الدنيا وانتقاله محاربًا جبارًا ، وهذا أبعد ما يكون عن حياة النبي ﷺ ، فقد كان إذا عاد من فتح أو غزو يكون هجيراه : « تائبون آيبون حامدون لربنا عابدون »[1] .

وكان المسيطر عليه وعلى أعماله النظر إلى الآخرة وواجب الدين والتحذير من عذاب الآخرة والتبشير بنعيم الجنة وما فيها مما لا يزال مبثوثًا في تضاعيف السور المدنية ، ففي النساء المدنية يقول تعالى : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٥٦﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا لَّهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ [النساء: ٥٦ - ٥٧] .

وأجابوه في (ص٢٨) بقولهم : لم تتغير فكرة الرسول ﷺ عن الله -وحاشاه من ذلك- فإذا صبر في مكة وحارب في المدينة -وكلا بأمر الله- أفيقتضي ذلك تغيير فكرته عن الله ؟ ! حاشا وكلا .

وأجابوه عن جهاد الإسلام في (ص٢٨) بقولهم : كانت مهمة المجاهدين في الإسلام هداية الكافرين وإخضاعهم إن لم يهتدوا عنوة وكسر شوكتهم حتى لا يستشري شرهم فينالوا من الإسلام . فغرضهم ديني أبدًا ، ولم يطبع الإسلام بالطابع الحربي رغبة في الحرب ، بل الغرض الأول هو دفع العدوان عن الدين ونشر مبادئه القويمة .

قلت : ويؤيد ذلك من القرآن قوله تعالى : ﴿وَقَٰتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ

---

(١) البخاري (٢٩١٩) ومسلم (٤٢٥).

يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۚ وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ ۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ ۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ١٩٠ - ١٩١]. وقوله: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٣٩ - ٤٠].

وقوله: ﴿أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ وَهَمُّوا۟ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ أَتَخْشَوْنَهُمْ ۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: الآية ١٣] إلى آخر الآيات في ذلك.

والتحقيق عند علماء الإسلام المحققين أن الجهاد في الإسلام كان لدفع العدوان وتأمين الحوزة، ولم يكن للإكراه على العقيدة قال تعالى: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: الآية ٢٥٦].

ولشيخ الإسلام ابن تيمية رسالة «الجهاد في الإسلام» حقق المسألة أيما تحقيق فارجع إليها إن شئت(١).

وفي آية المزمل قوله تعالى: ﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ ۙ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى

---

(١) قال سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز - رحمه الله -: «أما قول من قال: بأن القتال للدفاع فقط، فهذا القول ما علمته لأحد من العلماء القدامى ... وقد كتب بعض إخواننا رسالة في الرد على هذا القول، وفي الرد على رسالة افتراها بعض الناس على شيخ الإسلام ابن تيمية، زعم فيها أنه يرى أن الجهاد للدفاع فقط». انظر: «ليس الجهاد للدفاع فقط» ضمن مجموع فتاوى ومقالات متنوعة لسماحة الشيخ عبد العزيز بن باز - رحمه الله - (١٣٦/١٨).

ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [المزمل: الآية ٢٠] . وهي في سورة مكية نزلت بعد الوتر ، وقوله فيها : ﴿وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [المزمل: الآية ٢٠] دليل واضح على أن النبي ﷺ ما تغير دينه لا في مكة ولا في المدينة ، وإنما كان الصبر على الأذى في مكة تأسيسًا وتربية له ولأصحابه حتى يشرع الدفاع عن النفس ورد العدوان متى تأهلوا لذلك .

فلم يتغير شرع اللّه في مكة ولا في المدينة في تأسيسه على دفع العدوان والجهاد لرد البغي والظلم ، والأمور مرهونة بأوقاتها ، وسنة التدرج في التشريع كما هي في القدر والحياة سنة حكيمة جرى عليها شرع اللّه كما جرى عليها نظامه في الحياة والخلق والقدر .

[1] (ص٢٩) :

يشنع اليهودي على قول اللّه تعالى : ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ . وقوله تعالى : ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [الأنفال: الآية ٣٠] . وقوله : ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ﴾ .

قال : « وهذه الصفة أدت إلى نتيجة حتمية وهي أن تمتزج بفكرة اللّه كما كان يمثلها محمد ؛ بعض السمات الأسطورية التي تقلل من شأنها ، كما أن المحارب ذا القدرة اللانهائية في حاجة إلى الدفاع عن نفسه ضد كيد أعدائه ومقاومتهم بلا انقطاع بوسائل تشبه وسائلهم وإن كانت أقوى منها ؛ لأنه حسب مثل عربي قديم مأثور : الحرب خدعة[2] .. إلخ » .

---

(١) تتمة مقال « تعليقات على كتابي « العقيدة والشريعة في الإسلام » و« مذاهب التفسير في الإسلام » لجولد زيهر » مجلة المنهل- جمادى الأولى - ١٣٧٩هـ - السنة (٢٤) .

(٢) حديث صحيح أخرجه البخاري (٢٨٦٦) ، ومسلم (١٧٣٩).

ثم قال في (ص٣٠ -س٣) :

« وليس من الممكن بطبيعة الحال أن نزعم أن محمدًا كان يتصور اللَّه كان يكيد ويمكر حقًّا ، فما في الآيات من تهديد يجب أن يفهم بمعنى آخر ، وهو أن اللَّه يعامل كلا بحسب سلوكه وعمله .. إلخ » .

أجابوه : عمد الكاتب إلى آيات وردت في جانب اللَّه على سبيل المشاكلة والاستجازة والتوسع في العبارة على سنن العرب في كلامهم ، فحملها على الحقيقة والتشبيه ، وبنى عليها نتيجة فاسدة ومثل بقوله : ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ﴾ [الأنفال: الآية ٣٠] .

والعجب أن الكاتب يعمد بعد هذا فيقرر أن الرسول لم يكن يفهم هذه الآيات على ظاهرها ، يعني مشابهة المخلوقات ، بل يفهمها بمعنى صحيح مناسب ، وإذن ففيم هذا الإيهام؟ وأين -في هذه- السمة الأسطورية التي يزعمها ؟ ! .

أقول : والذي فهمه المسلمون جميعًا من أمثال هذه الآيات هو المعنى اللائق بجانب اللَّه تعالى الذي لا يشبه صفات خلقه ، واللَّه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: الآية ١١].

فمفادها هو ما تفيده جميع صفات الكمال والجلال للَّه تعالى من غير تشبيه ولا تمثيل ، ومن غير تحريف وإبطال ؛ شأنها في ذلك شأن رحمة اللَّه ورضاه وغضبه وفرحه وسخطه إلى أمثال ذلك من صفاته التي فهمها المسلمون على ما يليق بجلال اللَّه تعالى .

ونسي هذا اليهودي ما في توراته من تمثل اللَّه في صورة إنسان ، ومصارعته ليعقوب طول الليل ، وعجزه عن يعقوب حتى ضربه في حق فخذه . « إصحاح » (٢٢،٢٤ - ٣٠) .

وما في التوراة « إصحاح » (٦ آية ٦) : وحزن الرب أنه عمل الإنسان في الأرض وتأسف في قلبه ، فقال الرب : امحو عن وجه الأرض الإنسان الذي خلقته ؛ الإنسان مع بهائم ودبابات وطيور السماء ؛ لأني حزنت لأني عملتهم .

فيعمى هذا الحاسد الحقود عن ذلك في كتابه ، ويشنع على آيات من كتاب الله ويسميها أساطير ، كما قيل : « رمتني بدائها وانسلت » . وكما قيل : « الهوى يعمي ويصم » . وقيل في المثل : « من كان بيته من زجاج فلا يرم الناس بالحجارة » . وكما قيل[1] :

وكم من عائب قولا صحيحًا   وآفته من الفهم السقيم

وكما قيل[2] :

ومن يك ذا فم مر[3] مريض   يذق مرا به الماء الزلالا

وكما قيل[4] : « قد تنكر العين ضوء الشمس من رمد » .. إلخ .

(لج) : (ص٣٠ –س٢٤)

قال اليهودى : « ومع هذا فهناك ضلال أسطورى فى الطريقة التى يتصور بها محمد الله ؛ إذ تؤدى إلى أن الله ينزل من عليائه السماوية ليصبح الشريك المعين للنبي في جهاده الذي أخذ به في الاضطلاع في هذا العالم » .

أجابوه في (ص٣٠) بقولهم : ومحمد أبعد الناس أن يتصور النزول الجسمي لله ، وأي شيء فيه ما يمت للجسدية ، والإيمان بنصره وأقداره لا ضلال فيها .

وفي (ص٣٥ –س١١)

قال اليهودي : « فإننا لا يمكن لنا أن نتناسى أن القرآن بعيد كل البعد عن أن

---

(١) القائل هو المتنبي . انظر خزانة الأدب (١٩٢/١).

(٢) القائل هو المتنبي . انظر خزانة الأدب (١٨٩/١).

(٣) سقطت « مر » من الأصل.

(٤) ... وينكرُ الفمُ طعمَ الماءِ من سقمِ ... القائل هو المتنبي . انظرمجمع الحكم والأمثال.

يكفي وحده لمواجهة عقلية الإسلام التاريخية » .

وأجابوه بقولهم : الكتاب والسنة وما فيهما من أصول ومبادئ يواجهان الحياة العامة للإسلام في كل عصوره ، وما كان من نسخ في حياة الرسول كان لأن الوحي لم يكمل ، فأما ما قبل وفاته بقليل فقد كمل الوحي وأقفل باب النسخ .

ويفزع المسلمون دائمًا في كل أمورهم إلى الكتاب والسنة ، فإن خرج بعضهم على قواعد الدين فقد ظلم نفسه وباء بالخسران في عمله .

ويشهد الكاتب أن القرآن كان دستور المسلمين في العصر الأول ، وقد كان المسلمون حينئذ أولى قوة وأولى بأس وذوي مدنية راقية ، أفلم يكن هذا دليلًا كافيًا لكفاية الكتاب والسنة ؟ .

قال في (ص٣٦) للقسم الأول (ص٢٧٢) :

« فأيًّا ما يكن الحكم الذي يمكن أن يكون للقيمة الأدبية للقرآن فإن مما لا جدال فيه في رأي الخالي من التعصب أن الذين اشتغلوا في عهد الخليفتين أبي بكر وعثمان بكتابة القرآن قد قاموا بعملهم أحيانًا على صورة غير مرضية .

إن أقدم السور المكية المتميزة بقصرها والتي سبق أن اتخذها النبي نصوصًا تعبدية تتلى في الصلاة وذلك قبل هجرته إلى المدينة والتي تؤلف كل مقطوعة منها جزءًا كاملًا من التنزيل كانت بسبب إيجازها أقل تعرضًا للتصحيف عند جمعها وكتابتها .

أما بقية سور الكتاب وخاصة في بعض السور المدنية فيتجلى فيها عدم النظام والارتباط مما سبب كثيرًا من المتاعب وأقام صعابًا عديدة في وجه المفسرين في العصور التالية ، والذين كان عليهم أن ينظروا ترتيب السور والآيات على اعتبار أنه ترتيب أساسي ونظام جوهري لا يمكن أن يمس ، ولو تحقق في وقت من الأوقات وفاقًا لرغبة (رودلف جينز) أن تنشر طبعة للقرآن انتقادية حقًّا ومتضمنة

استيفاء كاملًا وتمحيصًا نافيًا للنتائج العلمية ينبغي أن تغير مواضيع بعض الآيات المقتطعة من سياقها الأول وعدم إبقاء التنقيحات والتحسينات المختلفة ، وأن حقيقة التغييرات التي حدثت أثناء جمع القرآن وتحريره فقد أوضحها (نولدكه) في البحث الذي أفاده عن ترتيب بعض السور في كتابة تاريخ القرآن .

وعندما تفترض وجود زيادات لا مبرر لها يكون من الميسور أن نصل أحيانًا إلى أن نحل بسهولة كثيرًا من مصاعب فهمنا للمتن » .

ثم مثل بآية ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَـٰتِكُمْ﴾ [النُّور: الآية ٦١] الآية .

ثم علق عليها بقوله : « فالنبي هنا يأذن للمؤمنين بحرية الجلوس على موائد ذويهم وأقربائهم ، بل يأذن لهم بقبول ضيافة قريباتهم ؛ فيتبادر إلى الذهن في أول وهلة أن الكلمات الأولى في الآية الستين التي تزيد في هذه الإباحة فتشمل العميان والعرج والمرضى لا تلتئم كثيرًا مع السياق الطبيعي لبيان الفكرة وتفصيلها ..».

إلى أن قال : « غير أن فحصًا أعمق من هذا يثبت أن هذه القطعة الغريبة عن سياق الفكرة وبسطها قد نقلت من مجموعة أخرى من الحكم والتعاليم إذ هي تنطبق في الأصل لا على مشاركة الإنسان في تناول الطعام في غير منزله ، ولكن تنطبق على الاشتراك في الغزوات عندما كان الإسلام في بدايته .

إن النبي في سورة الفتح من الآية : ١١ إلى : ١٦ يغلظ القول ويعنف الخالفين من الأعراب الذين لم يشتركوا في الغزوة السابقة وينذرهم بعقاب صارم من ربهم ، تضيف الآية : ١٧ ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ . وهي كنص الآية : ٦١ في سورة النور ، فهذه الجملة

أدخلت في هذا السياق الآخر الذي كانت غريبة عنه ، وقد أثرت تأثيرًا واضحًا في تحرير الآية التي لا يمكن إعادة بدايتها الأصلية مع وجه الدقة » .

أجابوه بقولهم في (ص٢٧٥) : يكفي الرد على كل ما أثاره المؤلف هنا من شبهات أن نقرر أن هؤلاء الضعفاء كانوا يتحرجون من مؤاكلة الأصحاء ؛ يخشون من استقذارهم ، وكانوا كذلك يتحرجون من دخول بيوت المجاهدين في غيبتهم ، مع أنهم أذنوا لهم في دخولها . فرفعت الآية : ٦١ الحرج عنهم في الحالين جميعًا ، ولا شك أن كلا التفسيرين ملائم لما قبله وما بعده ، وكلاهما أثبته البيضاوي .

كان الإنصاف يقضي إذن على المؤلف أن يعرضهما معًا ! لكنه اختار معنى آخر مردودًا ، وهو الترخيص لهؤلاء الضعفاء في القعود عن الجهاد ليبني عليه افتراضه الخيالي وهو أن هذه القطعة قد نقلت من سورة الفتح ، ولا صحة له إلا تشابه اللفظين .

قلت : هذا جوابهم لليهودي في دعواه عدم انسجام الآية ٦١ من سورة النور ، وهو كاف في رد هجومه وتهوره على نظم القرآن .

وبقي أن نجيبه على اتهام كُتَّاب القرآن في عهد أبي بكر وعثمان بأنهم قاموا بعملهم أحيانًا على صورة غير مرضية .

يقال لهذا اليهودي الذي حسد الإسلام على تواتر كتابه حفظًا ونقلًا وكتابة[١] مع حرمان دينه اليهودي من هذه المزية وضياع كتابهم « التوراة » إبان السبى البابلي ، وكتبها لهم عزيرٌ[٢] الكاتب من أفواه العجائز وحكايات الشيوخ وأفواه الناس ، فوقع فيها من التحريف والغلط ما بينه العلماء الأعلام وسجله اللَّه

(١) في الأصل « وكتابته ».

(٢) في الأصل « عزيرا ».

عليهم في كتابه المجيد بقوله: ﴿وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ [المائدة: الآية ١٣] مع التحريف والتبديل الذي سجله عليهم بقوله: ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ﴾ [النّساء: الآية ٤٦]. وقوله تعالى عنهم: ﴿۞ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: الآية ٧٥].

فجاء الحاقد الحاسد ينتقم من الإسلام في دعوى قيام كتاب القرآن في عهد الخليفتين أبي بكر وعثمان بعمل غير مرض، والتاريخ والقرآن والواقع يكذبه في هذا البهتان والافتراء، فالقرآن حفظه من الرسول ﷺ الجم الغفير وقرأه عليهم في الصلوات والخطب وجلساته العلمية.

وأين كان أبو بكر وعمر وعثمان عند قيام هؤلاء الكتبة بعمل غير مرض في تدوين القرآن الكريم؟ والله تعالى يقول: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحِجر: الآية ٩].

وصدق الله وحفظ كتابه على ممر القرون وتعاقب الزمان مع وجود أعدائه من الكفار والمشركين والمنافقين والقرآن قائم يتلى في المساجد في الصلوات والدروس والمدارس بلا شك ولا ريب كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: الآية ٢]. وكما قال: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [فُصّلَت: الآية ٤٤].

فالقرآن والتاريخ وإجماع المسلمين وعقلاء أهل الكتاب يكذبون هذا المفتري، ولكن العمى الذي اختاره هذا اليهودي لنفسه جره على وجهه إلى هذه المباهتة التي لا يوافقه عليها إلا من هم مثله حسدًا وحقدًا وجحدًا وعنادًا للحق.

يتحدى القرآن الإنس والجن أربعة عشر قرنًا أن يأتوا بمثله ولو كان بعضهم

لبعض ظهيرًا أو معينًا . قال اللّٰه تعالى : ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: الآية ٨٨] أي معينًا .

فهيا يا معشر الحساد والكفار اجتمعوا جميعًا وردوا على هذا التحدي وأتونا بكتاب أهدى من القرآن أو مثله في الهدى والرشاد والهداية التي هي أقوم ، بل يتحداكم بعشر سور مثله ، بل بسورة واحدة ، وإلا فموتوا بغيظكم واكتموا قيأكم وصديدكم في صدوركم إن كان لكم بقية من حياء وإنصاف .

وأما دعواه في عدم انسجام السور المدنية لطولها بخلاف المكية ، فدعوى الأعمى الذي يعيب ضوء الشمس ، والأصم الذي لا يسمع الأصوات والألحان والموسيقى والأغاني ، ثم يذهب إلى ذم ما لم تهتز به طبلة أذنه ولم يدخل أوتار سمعه .

إن القرآن الذي أنزله الحكيم العليم ليتلى في الصلوات ويكرر في الأوراد في جميع الأوقات قد نوعه اللّٰه أجمل تنويع وفصله أبين تفصيل وكرره بالإيجاز والإطناب والإجمال والتفصيل حتى لا تسأم النفوس تلاوته ولا تمل القلوب تكراره .

فليس هو كمؤلفات البشر ؛ مبوبًا كل نوع منه على حدة مثل كتب القوانين أو الفنون والعلوم التي لا يستطيع الإنسان إعادة ما قرأ منها فضلًا عن تكراره وترديده .

وجرب بنفسك كتابًا من هذه الأنواع فاقرأه عدة مرات لترى السآمة في كل مرة تعيده فيها والملل عند كل إعادة .

أما القرآن فالمسلمون يقرأونه بكرة وعشيًا في صلواتهم ودروسهم وأورادهم بلا ملل ولا ضجر بسبب عذوبة لفظه وتنويعه على أحسن وجه كما قال اللّٰه

تعالى : ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الزُّمَر: الآية ٢٣] .

أما هؤلاء الذين طبع الحسد والحقد على قلوبهم فقد بين الله حالهم مع القرآن بقوله ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾ [الإسراء: الآية ٤٥] هو حجاب أهوائهم وكفرهم وجحودهم وحسدهم وحقدهم ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا﴾ [الإسراء: الآية ٤٦] ، ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ۖ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ ۗ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ [فصّلت: الآية ٤٤] ، ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾ وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الفرقان : ٤ - ٦] .

(١) وفي (ص٤٧ -س١٨)

قال : « وليس غريبًا أن تكون هذه التعاليم الفقهية والتشكيلات المستعملة قد تأثرت كذلك بثقافات أجنبية ، كما أن المعارف الفقهية الإسلامية تحمل -على سبيل المثال كما حقق ذلك البحث الحديث تحقيقًا ثابتًا- آثارًا غير منكورة من الفقه الروماني » .

أجابوه في (ح) (ص٤٧) : يذكر أن الفقه الإسلامي تأثر بالقانون الروماني وغيره ، وهي نزعة للمستشرقين لم يقيموا عليها دليلا ، وإنما يبغون انتقاص

---

(١) تتمة مقال « تعليقات على كتابي « العقيدة والشريعة في الإسلام » و « مذاهب التفسير في الإسلام » لجولد زيهر » . مجلة المنهل - جمادى الآخرة - ١٣٧٩هـ - السنة (٢٤) .

مقومات الإسلام والحط منها بداعي الهوى والعصبية . ومصادر الإسلام معروفة ليس منها هذا الذي يهرفون به .

ومع هذا فحسبنا أن نشير إلى بحث الأستاذ الكبير صليب سامي باشا أحد الوزراء السابقين الذي نشر بالأهرام وبمجلة الشبان المسلمين بعددها المؤرخ في ٨ يونية عام ١٩٤٥م ، ففيه دحض هذا الرأي من المستشرقين . اهـ

قلت : ويقال لهم حينئذ : ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ﴾ [يوسف: الآية ٢٦] فهذا منصف من أهل الكتاب يرد هذه النزعة المغرضة لهؤلاء المستشرقين الذين شرقوا بريقهم من ظهور الإسلام وهم ممن قال الله في أمثالهم : ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [التوبة: الآية ٣٢] ، ﴿هُوَ الَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: الآية ٣٣] .

وفي آخر (ص ٩٥) وأول (ص ٩٦)

قال : « كان واجبًا عليهم أولًا أن يستأصلوا ما لا يتفق وسمو الله من الأفهام أو التصورات التجسمية[1] التي توجد في المذهب السني التقليدي ؛ هذا المذهب الذي كان لا يقبل شيئًا آخر غير التصديق الحر في التعابير والنصوص المجسمة والمشبهة التي جاءت في القرآن والحديث والنصوص المتواترة ، فالله البصير السميع الغضوب الضاحك ، والذي يجلس ويقف ، وكذلك يداه وقدماه وأذناه مما كان غالبًا جدًّا موضع حديث في القرآن والحديث والنصوص الأخرى .

كل ذلك يجب في رأي السنة أن يفسر حرفيًا ، وأن يؤخذ على ظاهره ، والمدرسة الحنبلية بصفة خاصة قاتلت انتصارًا لهذا الفهم والتصور الخشن لله ،

---

(١) في الأصل « التمحسية ».

وكانت تلزمه لأنه السنة في رأيها » . هـ

وجوابه : أن هذا بهتان عظيم على الإسلام وكتابه وأهل السنة ، فليس في الكتاب ما يهتم به من أذنين وقدمين وضحك وغضب وجلوس وقيام .. إلخ هذا البهتان .

وإنما فيه : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: الآية ١١] . وفيه ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١ - ٤] . وفيه ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [مريم: الآية ٦٥] . وفيه ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة: الآية ٢٥٥] . وفيه ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الأنعام: الآية ١٠٠] .

وفي كلام أئمة الإسلام : العجز عن درك الإدراك إدراك ، والبحث عن سر الذات إشراك ، تفكروا في آلاء اللّٰه ولا تفكروا في ذات اللّٰه فتهلكوا .

وما جاء في النصوص من الصفات مما يظنه هذا المفتري تجسيمًا كاستواء اللّٰه تعالى على عرشه ، ووصفه بالسمع والبصر ، والقدرة والإرادة ، والغضب على أهل الغضب ، والرضى والرحمة والضحك ، ونحو ذلك ، فهمه المسلمون عمومًا وأهل السنة خصوصًا على ما يليق بجلال اللّٰه تعالى مع عدم مشابهته المخلوقات ، وتعالى اللّٰه تعالى عن التشبيه بخلقه أو التجسيم مما لا يليق بجلال اللّٰه وقدسيته وتنزيهه عن مشابهة خلقه .

وفي (ص٢٠ -س٨)

قال : « بل قبل أن يغمض النبي عينيه ، وعلى الأخص بعد وفاته مباشرة تحول المبدأ السائد إلى مبدأ آخر ، ففكرة الزهد في العالم حلت محلها فكرة فتح العالم » . اهـ .

قالوا له (ح) (ص١٢٠) : يذكر أن محمدًا ﷺ تحول من الزهد إلى الطمع

في العالم ، ففكرة الزهد في العالم حلت محلها فكرة فتح العالم .

الزهد الكلي في الدنيا لم يكن من شريعة الإسلام ، ولا مما عرف عن الرسول وأصحابه في صدر الإسلام ولا في آخره ، والإسلام دائمًا دين القوة والعمل ، وهو يرغب عن التبتل والرهبانية والانقطاع عن الحياة ، ومن دلائل ذلك ما تجده في سورة القصص المكية : ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: الآية ٧٧] هذا هو المبدأ الذي يتجلى في الإسلام في أوله وآخره ورغبة الرسول في الفتح ، وتوجيه أمته إلى ذلك ؛ إنما هو لنشر دين الإسلام الذي هو دين عام لخير العالم ، وقد كلف بتبليغه بحسب استطاعته وما يسعه زمانه ، وعلى خلفائه وسائر أمته أن يتابعوه في هذا التبليغ .

وأما وقوع التفكير في الفتح بعد الهجرة ؛ فلأن الأمر في مكة ما كان ليتسنى لمثل هذا التفكير ولم يكن قد جاء أوانه . هـ .

ونقول لهذا اليهودي : ألم يكن بنو إسرائيل مأمورين في مصر بالصبر وتحمل الأذى من فرعون وقومه ، حتى قالوا لموسى حينما قال لهم : ﴿وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ * قَالُوا أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف : ١٢٨ - ١٢٩] . وقال تعالى : ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ۝٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾ [القصص : ٥ - ٦] .

فهذه سنة اللّه في خلقه يبعث رسله في أمم ضعيفة ، ويأمرونهم بالصبر وتحمل الأذى حتى يقويهم اللّه وينصرهم ويمكن لهم في الأرض ويستخلفهم

فيها كما قال: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [النّور: الآية ٥٥] . وقال تعالى : ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ [الأنبياء: الآية ١٠٥] .

وليس في الإسلام تلك الرهبانية التي ابتدعها أوائل النصارى من ترك الزواج والغنى وتحريم الطيبات كما قال اللَّه عنهم : ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ۖ﴾ [الحديد: الآية ٢٧] .

وقال اللَّه تعالى في سورة الأعراف وهي مكية : ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: الآية ٣٢] ..

فدعوى اليهودي على الرسول والإسلام والمسلمين أنهم تغيروا في حياتهم المدنية في النظر إلى العالم وفتحه عن حياتهم المكية في الزهد في الدنيا ، دعوى باطلة كاذبة يردها الدين من أوله إلى آخره ؛ مكيه ومدنيه .

وفي سورة المزمل المكية : ﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ ۙ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ﴾ [المزمّل: الآية ٢٠] فأشارت الآية إلى أن المؤمنين سيكونون تجارًا ومقاتلين في سبيل اللَّه وهي آية مكية من أوائل ما نزل .

والصحابة الذين ذكر ثراءهم من الغنائم كالزبير وطلحة وأمثالهما لا لوم عليهم إذا اغتنموا من الحلال ؛ من التجارات والسير في الأرض ، وأدوا حقوق الغنى من زكاة وصدقات ومواساة المحتاجين ، فليسوا كاليهود الذين قالوا : ليس علينا في الأميين من سبيل . فيأكلون الربا والسحت ومال من ليس منهم ، وقد

قال الله تعالى فيهم : ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: الآية ٩٦] .

وفي (ص١٢٢ –س٦)

قال : « وكانت البواعث الغالبة التي دفعت العرب إلى القيام بالفتوحات هي الحاجة المادية والطمع ، كما فصل ذلك في دقة عظيمة « ليوني كاتبًا » في عدة فقرات من كتابه عن الإسلام » .

قالوا له في (ح) (ص١٢٢) : ذكر أن البواعث الغالبة التي دفعت العرب إلى القيام بالفتوحات هي الحاجة المادية والطمع ، وقد علمنا الدوافع إلى الاهتمام بنشر الدين ، وأن الرغبة فيه كانت لنشر الدين وتكوين دولة عالمية ، وأما المال فلم يكن القصد إليه إلا أمرًا ثانويًا .

وقد روى الطبري[1] في حوادث السنة المائة أن عمر بن عبد العزيز كتب لعامله على خراسان الجراح بن عبد الله الحكمي بوضع الجزية عمن أسلم من أهل الذمة– أي رفعها عنهم– فكتب إليه : إن الناس سارعوا إلى الإسلام فرارا من الجزية لا حبا فيه . فكتب إليه عمر بتأكيد وضعها – أي إسقاطها – عمن أسلم ؛ لأن الله بعث محمدًا داعيا ولم يبعثه جابيًا . اهـ .

قلت : رضي الله عن أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز أعدل خلفاء بني أمية الذي بين حكمة الله تعالى في بعث رسوله محمد ﷺ داعيًا إلى الله بإذنه وسراجًا منيرًا ، وبشيرًا ونذيرًا ، كما أمر الله تعالى أهل الكتاب باتباع النور الذي أنزل معه ، وقد قال الله تعالى : ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ فَـَٔامِنُوا۟

(١) تاريخ الطبري ٥/ ٣١٤.

بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلْأُمِّيِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَـٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: الآية ١٥٨] فأي هداية رآها العالم مثل الهداية النبوية المحمدية ؟ ! وأي نور أضاء العالم كنور الإسلام ؟ ! ولقد كانت الأمم تتخبط في ظلمات الجهل واستبداد الحكام وتحكم رؤساء الدين حتى جاء الإسلام وفك آصارهم وأغلالهم فسارعوا إلى الله فرحين مستبشرين مسرورين كما قال الله تعالى : ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَـٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَـٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: الآية ١٥٧] .

فالمسلمون أعزهم الله بالإسلام وليسوا ممن قال الله فيهم : ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأعراف: الآية ١٦٧] .

وقوله : ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَـٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَـٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا﴾ [الإسراء : ٤ - ٥] إلى قوله : ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْـَٔاخِرَةِ لِيَسُـۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا * عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ۘ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَـٰفِرِينَ حَصِيرًا﴾ [الإسراء : ٧ - ٨] .

وفي (ص١٢٧ –س٣٧).

قال : « فقد روى عنه أنه قال : « حبب إلي من دنياكم الطيب والنساء » . مع هذه الإضافة : « وجعلت قرة عيني في الصلاة » .

قالوا له في حاشية (ص١٢٧) : يرى أن جملة « وجعلت قرة عيني في الصلاة » . زيادة أضيفت إلى حديث « حبب إلي من دنياكم الطيب والنساء »[١] وليتنا نعلم ما الذي رابه في هذه الجملة حتى حكم بزيادتها ؟ وهل كان في حياة الرسول العملية ما لا يتفق مع مضمون هذه الجملة ؟ .

لقد كان النبي ﷺ مقيمًا للصلاة ، ويهش لاستقبالها ويقول : « أرحنا بها يا بلال »[٢] . وكان كما روى أبو داود[٣] : « إذا حزبه أمر صلى ».

كما كان يصلي في السلم والحرب ، وفي شدة الخوف ، وشرع ذلك كله للمسلمين .

والحديث بهذه الزيادة رواه الثقات ولا مغمز فيه ولا مطعن ، ولكن المؤلف ممن يؤمن ببعض الكتاب ويكفر ببعض ؛ ميلًا مع الهوى ومجانبة للنصفة . اهـ .

نقول له : وكان آخر وصية للنبي ﷺ في مرض موته : « اللَّه اللَّه في الصلاة وما ملكت أيمانكم »[٤] .

وتقول عائشة أم المؤمنين زوجته ﷺ : « كان يكون معنا .. حتى إذا حضرت الصلاة فكأنه لا يعرفنا ولا نعرفه »[٥] .

وسأله بعض الوفود أن يخفف عنهم من الصلاة فأبى وقال : « لا خير في دين لا صلاة فيه »[٦] .

وأول شيء بدأ به بعد الهجرة بناء مسجده ﷺ وشارك في حمل لبناته مع أصحابه .

---

(١) أحمد ٣/ ١٢٨، ١٩٩، والنسائي ٣٩٣٦، ٣٩٤٠.

(٢) أبوداود (٤٩٨٥) . قال الشيخ الألباني : (صحيح) انظر حديث رقم : ٧٨٩٢ في صحيح الجامع.

(٣) أبو داود (١٣١٩) .

(٤) أبو داود (٥١٥٦) ، وابن ماجه (١٦٢٥) .

(٥) البخاري (٦٧٦) .

(٦) أحمد ٤/ ٢١٨ بلفظ : « لا ركوع فيه » .

وقال : « العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة من تركها فقد كفر »[١] .

لقد سقت نيفًا وثلاثين مثلًا من أمثلة حسد هذا اليهودي للإسلام ورسوله ونحو ثلاثين بهتانًا من أبهات هذا الحقود الذي شرق بدين الإسلام وأغشى عينه ضوؤه الذي ملأ الخافقين وسار مسير الشمس شرقًا وغربًا .

ولم يكن قصدي أن أستوعب جميع ضلالاته فهي تفوق الحصر وتزيد على العدد ، وإنما رأيت أن أسوق هذه النماذج من كتاب « الشريعة والعقيدة الإسلامية » ليعرف الناس ألوان عناده وأصناف جحوده للحق الواضح المبين ؛ وذلك مما يشهد بصحة الإسلام وصدق رسوله ﷺ ، وكما قيل : وبضدها تتبين الأشياء . وقيل : والضد يظهر حسنه الضد .

وسأنتقل لشيء بعد هذه الأمثلة إلى كتابه الآخر « من مذاهب التفسير في الإسلام » ليحذر الناس دخائله .

[٢] وأما رغبة الحاسد الحقود الآخر ؛ سلفه في الشر[٣] والكفر بهذا الدين وكتابه ؛ أعني (رودلف جيير) في أن يرتب القرآن حسب أهوائهم ، وتغير بعض مواضع الآيات المقتطعة - بزعمهم - من سياقها الأول .. إلخ ..

فحسبهم ما حرفوه من كتبهم السابقة حتى أفسدوها وأضاعوا الثقة بها ، أما كتاب اللَّه تعالى الذي تولى اللَّه تعالى حفظه فلا سبيل لهم إلى تغييره أو تحريفه أو تبديله ؛ لأن منزله هو الذي تولى حفظه ، لا مبدل لكلمات اللَّه .

وأما مشاكل بعض المفسرين لكتاب اللَّه تعالى فطبعي ؛ لأن مدارك الإنسان

---

(١) أحمد ٥/ ٣٤٦، والترمذي (٢٦٢١) .

(٢) تتمة مقال « تعليقات على كتابي « العقيدة والشريعة في الإسلام » و « مذاهب التفسير في الإسلام » لجولد زيهر » مجلة المنهل - شعبان - ١٣٧٩هـ - السنة (٢٤) .

(٣) في الاصل « الشهر ».

تقصر أحيانًا عن حكمة أحكم الحاكمين في شرعه وقدره .

فثمة مشاكل الخلق والتدبير في الطبيعة والكيمياء وعلم الأحياء والفلك ونواميس الكون قائمة تشهد بعجز العقل البشري عن حلها ، فلم لا يكون في كتاب اللّه تعالى الذي أنزله بعلمه ما يعلو على أفكار بعض الناس أو يشكل على بعض المفسرين ؟ وقد قال اللّه تعالى : ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [آل عمران: الآية ٧] .

وأما سخافة (أوبتز) صاحب كتاب « الطب في القرآن » التي نقلها عدو الإسلام (جولد زيهر) في (ص٢٧٤ -س٨) وس(١٣)

بقوله : « فإن أكلة واحدة مع أحد المرضى يمكن أن لا تكون خطرة على الصحة . وأن النبي كان يحسن أن لا يقاوم الاشمئزاز الذي تحدثه مثل هذه المشاركة » .

أقول هذه السخافة أحقر من أن تحتاج إلى جواب ، فالقرآن لم يأمرنا بالأكل مع المجذومين والمجدورين وأمثالهم من ذوي الأمراض التي تعدي الأصحاء ، وإنما رفع الحرج عن الأعمى والأعرج والمريض الذين يطيب خاطر الأصحاء بأكلهم معه ؛ تطييبًا لخاطر هؤلاء الضعفاء ورفعًا لمعنوية أنفسهم وتحقيقًا للتكافل الاجتماعي لسائر طبقات الإسلام .

(كو) (ص٣٥) – الفصل الثاني : (تطور الفقه)

تمثل اليهودي بقول أتاتول فرنسي ، في قصة قديمة سماها حكمة .

قال أتاتول : إن من يؤسس دينا لا يدري ماذا يفعل ؟ !

قال اليهودي : « أي أنه من النادر أن يدرك مؤسس الدين مدى أثر عمله على

تاريخ العالم .. قال : وهذه الكلمة تنطبق على محمد أفضل انطباق[1] » .

أجابوه في الحاشية الأولى من (ص٣٥) بقولهم : إن النبي ﷺ كان يعلم – أي بتعليم الله له– ما يصيبه الإسلام من الانتشار وتمكين السلطان ، وقد بشر أصحابه بالفتوح التي تمت في عهد سلطانه ، وفي سورة النور قوله تعالى : ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [النور: الآية ٥٥] .

قلت : وقوله تعالى : ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: الآية ٣٣] .

وفي الحديث عندما كان في بيت عبادة بن الصامت ، فنام ، ثم استيقظ يضحك ، فسألته الصحابية بنت ملحان عن ضحكه ؟ قال : « رأيت أناسًا من أمتي يركبون ثبج[2] هذا البحر ملوكا على الأسرة أو كالملوك على الأسرة » .

ثم نام مرة أخرى ورأى مثل ذلك فقالت له : ادع الله أن يجعلني منهم قال : « أنت من الأولين » . وكانت أن غزت مع زوجها قبرس وماتت فيها »[3] .

والحديث الآخر : « إن الله زوى لي مشارق الأرض ومغاربها وإن ملك أمتي سيبلغ ما زوى لي منها »[4] .

---

(١) في الأصل « قال : وهذه الكلمة تنطبق على تاريخ العالم . قال : وهذه الكلمة تنطق على محمد أفضل انطباق ».

(٢) ثبج البحر : هو ظهره ووسطه . فتح الباري (٩٤/١).

(٣) البخاري (٢٧٨٨، ٢٧٨٩) ، ومسلم (١٩١٢) من حديث أنس .

(٤) مسلم (٢٨٨٩) من حديث ثوبان .

وفي (ص٣٥ –س١١)

قال : « وإنه من ناحية أخرى لم تكن النظم التي وضعها- يعني النبي ﷺ- في حياته لتكفي العلاقات الكبيرة التي واجهها الإسلام الفاتح منذ الأيام الأولى ، فقد كان تفكير الرسول متجهًا فقط ودائمًا إلى تلك الأوضاع الضرورية أولًا وبالذات » . اهـ .

أجابوه : أن النظم التي جاءت في الكتاب - أي والسنة - كفت وتكفي ما جد وما يجد من العلاقات بتطبيقها وإجمالها وبما فيها من مبادئ وأصول ، ولم يكن التشريع مقصورًا على الضروري من زمن البعثة فقط في الجزية وأمثالها -أي والهدنة والصلح والمعاهدة- بل وضعت نظامًا ينفذه من يأتي بعده .

وفي (ص٣٦ –س٢)

قال : « وصارت بذلك بعد أن كانت أمة دينية بمكة ارتقت في المدينة إلى صورة سياسية ساذجة ؛ دولة سياسية عالمية » .

وأجابوه في (ص٣٦) : الأمة الإسلامية في مكة والمدينة أمة دينية سياسية على السواء ، وإن كانت السياسة في المدينة غيرها في مكة ، والسياسة والدين في الإسلام ممتزجان . هـ .

يريدون أن الإسلام في مكة كان يؤسس أصول الدين من توحيد اللَّه تعالى والإيمان بوحيه ورسله واليوم الآخر بين قوم مشركين لا يؤمنون بذلك ، فكان عمله معهم إقامة الحجة والبرهان على أصول الدين ، وبيان ضلال المشركين وجهلهم ، وما أعد اللَّه من الثواب لمن آمن والعقاب لمن كفر .

ولما انتقل إلى المدينة شرع له أحكام العبادات من زكاة وصيام وحج وجهاد ومعاملات ، والكل شرعه في مكة والمدينة جاء على سنة النمو والارتقاء والتشريع بحسب الحكمة وحاجات الناس ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ فَمَالِ

هَٰٓؤُلَآءِ ٱلۡقَوۡمِ لَا يَكَادُونَ يَفۡقَهُونَ حَدِيثٗا﴾ [النّساء: الآية ٧٨] .

(كح) (ص٣٥ –س٩)

قال : « وكذلك كانت في الوقت نفسه تقنن مسائل الحياة العملية وأشكال العبادات في أصول ضرورية تقنينا متأرجحًا غير ثابت » . اهـ .

أجابوه (ح١٠٥) : الأسس التي يحتويها الكتاب والسنة مبادئ وأصول عمل بها الفقهاء في التقنين لما جدَّ ، على أن يفرعوا منها النظريات الفقهية ولا يخرجوا عليها ، وليس لهم أن ينتقلوا بها أو يعدلوها ويطوروها بحسب الأحوال المستحدثة ، وأشكال العبادات الأصلية لا اجتهاد فيها ، إنما الاجتهاد في أشياء تتعلق بها سكت عنها وتجاذبتها أصول مختلفة في الدين ، فالفقهاء عملهم الاجتهاد والترجيح ، وقد تعبدهم اللَّه وتعبد أتباعهم بما يفضي إليه اجتهادهم بعد أن يبلوا في النظر .

(ص٣٦ –س١٤)

قال : « وهكذا يظهر غير صحيح ما يقال من أن الإسلام في كل العلاقات جاء إلى العالم طريقة كاملة ، بالعكس ، فإن الإسلام والقرآن لم يتما كل شيء وكان الإكمال نتيجة لعمل الأجيال اللاحقة » .

أجابوه في (ص٣٦) : جاء الإسلام في كل العلاقات بطريقة كاملة في المبادئ والأصول ، وهذا ما ينتظر من القانون والنظام أن يحتوي الكليات ويترك الجزئيات والتفصيل للقائم بالفهم والتنفيذ ، وقد يكون في ذلك مجالا للاختلاف ، وهذا لا بأس متى كان رائدًا لجميع فهم النصوص وتحقيق الحوادث بمبلغ الاجتهاد والبعد عن الهوى . اهـ .

(كط) (ص٦٧) : الفصل الثالث : (نمو العقيدة وتطورها) .

قال (س٣) : « ليس الأنبياء من رجال علم الكلام ، فالرسالة التي يأتون بها

بدافع إدراكهم المباشر ، وكذلك المعارف الدينية التي يوقظونها لا تتمثل كهيكل مذهب مبني طبعًا لخطة فيها مقدمًا ، بل كثيرًا ما تتحدى كل محاولة للتنسيق المذهبي » . هـ

أجابوه في الحاشية بقولهم : عقيدة المؤلف كغيره من المستشرقين أن ما يأتي به الرسول من عنده ، ومن ثم فكلامه عرضة للتناقض والاضطراب وإن ما جاء به لا يقوى أن يكون مذهبًا قويمًا منسجمًا من أول الأمر شأن كل عمل يصدر عن البشر .

والمؤمنون ويؤازرهم كثير من المستشرقين المنصفين يؤمنون أن ما جاء به الرسول وحي من اللَّه لا يعتريه خلف ولا بطلان ، والقرآن مشحون بتثبيت هذه العقيدة .

وفي نصوص الوحي ما يحتمل وجوهًا من المعاني وما هو مصروف عن ظاهره بما نصب من القرائن والملابسات ، وفيها نصوص مجملة تحتاج إلى الفحص عن المراد منها والتماس ما يوافق السياق ، وقد وكل هذا كله إلى العلماء والفقهاء في الدين الفاهمين عن الرسول عليه الصلاة والسلام ومن حذا حذوهم ، وكان من آثار ذلك أن اتسعت مدارك الفقهاء وتربى المجتهدون والمستنبطون ، وكان العلماء مفزع الأمة في الاختلاف مما عرفوا من الشريعة وهدوا إليه من الدين .

قلت : جاء في حديث جندب بن عبد اللَّه البجلي : وعظنا رسول اللَّه ﷺ موعظة بليغة وجلت منها القلوب وذرفت منها العيون فقلت : يا رسول اللَّه ، كأنها موعظة مودع فأوصنا . قال « عليكم بالسمع والطاعة وإنه من يعش منكم فسيرى اختلافًا كثيرًا فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين عضوا عليها بالنواجذ وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة وكل

ضلالة في النار »[١] .

وفي الحديث الآخر : « .. تركتكم عليها بيضاء نقية ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك »[٢] ، وفي الحديث : « تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي : كتاب اللّٰه » ، وفي بعض الروايات : « وسنتي »[٣] .

❁❁❁

---

(١) أبو داود (٤٦٠٧) ، والترمذي (٢٦٧٦) ، وابن ماجه (٤٢، ٤٣) من حديث العرباض بن سارية .

(٢) ابن حزم في الإحكام ٢٤٣/٦ بهذا اللفظ ، وأخرجه أحمد ٣/ ٥٩، والترمذي (٣٧٨٨) بنحوه .

(٣) أحمد (١٢٦/٤) ، وابن ماجه (٩٩٦) من حديث العرباض بن سارية رضي اللّٰه عنه .

ما هكذا يا سعد[1]

نموذج من الرد على الأستاذ محمود أبو رية

في كتابه: «أضواء على السنة المحمدية»

في الدفاع عن الإمام أبي هريرة في روايته لحديث:

«خلق الله التربة يوم السبت»

قال الأستاذ أبو رية في صفحة (١٧٥) فما بعدها: روى مسلم[2] عن أبي هريرة قال: أخذ رسول الله ﷺ بيدي فقال: «خلق الله التربة يوم السبت، وخلق فيها الجبال يوم الأحد، وخلق الشجر يوم الاثنين، وخلق المكروه يوم الثلاثاء، وخلق النور يوم الأربعاء، وبث فيها الدواب يوم الخميس، وخلق آدم عليه السلام بعد العصر من يوم الجمعة في آخر الخلق من آخر ساعة من ساعات الجمعة فيما بين العصر إلى الليل» .. وقد روى هذا الحديث أحمد والنسائي[3].

قال أبو رية: «وقد قال البخاري وابن كثير وغيرهما أن أبا هريرة قد تلقى هذا الحديث عن كعب الأحبار؛ لأنه يخالف نص القرآن في أنه خلق السموات والأرض في ستة أيام. والعجب أن أبا هريرة قد صرح في هذا الحديث بسماعه من النبي ﷺ وأنه أخذ بيده حين حدثه به.

وإني لأتحدى الذين يزعمون في بلادنا أنهم على شيء من علم الحديث وجميع من هم على شاكلتهم في غير بلادنا أن يحلوا هذا المشكل، وأن يخرجوا بعلمهم الواسع شيخهم من الهوة التي سقط فيها ...».

---

(١) مجلة المنهل - المحرم - ١٣٧٨هـ السنة (٢٣).

(٢) مسلم (٢٧٨٩).

(٣) أحمد ٢/ ٣٢٧، والنسائي في الكبرى (١١٠١٠).

قال : « إن الحديث صحيح السند على قواعدهم لا خلاف في ذلك ، وقد رواه مسلم في « صحيحه » ولم يصرح بسماعه من النبي ﷺ فقط ، فقد زعم أن رسول اللَّه ﷺ أخذ بيده وهو يحدثه به .

وقد قضى أئمة الحديث بأن هذا الحديث مأخوذ عن كعب الأحبار ، وأنه مخالف للكتاب العزيز ، فمثل هذه الرواية تعد -ولا ريب- كذبًا صراحًا وافتراء على رسول اللَّه ﷺ ، فما حكم من يأتي بها ؟ وهل يدخل تحت حكم رسول اللَّه ﷺ « من كذب علي فليتبوأ مقعده من النار » ؟ أم هناك مخرج لراوي هذا الحديث بذاته ؟

إني واللَّه لفي حاجة إلى الانتفاع بعلمهم في هذا الحديث وحده الذي يكشف - ولا ريب - عن روايات أبي هريرة التي يجب الاحتياط في تصديقها » . اهـ . كلام الأستاذ أبو رية .

نقلت هذا الكلام الغث على طوله ليرى الناس رجلًا ينتسب إلى العلم يسفه هذه السفاهة على صاحب من أصحاب رسول اللَّه ﷺ ويعجب لسفاهته هذا الإعجاب .

وهاك جوابه من أحد طلبة العلم النبوي ودارس للحديث مطالعة وتدريسًا ؛ محمد بن عبد الرزاق آل حمزة .

أولًا : نقلك عن البخاري أنه قال : إن أبا هريرة قد تلقى هذا الحديث عن كعب الأحبار ، من أين لك هذا النقل عن البخاري ؟ أمن صحيحه ؟ أم من كتبه الأخرى « خلق أفعال العباد » ، و« الأدب المفرد » و« رفع اليدين في الصلاة » و« القراءة خلف الإمام » أم من أحد تواريخه الثلاثة الكبير والأوسط والصغير ؟ !

أتحداك أن تعزو نقلك عن البخاري إلى كتاب من كتبه ، ولا ينفعك أن تقول : قال فلان وذكر فلان ، فإنك تشكك في رجال الحديث وتكذبهم فضلًا

عن غيرهم .

وهاك الجواب عن حديث أبي هريرة « خلق اللَّه التربة يوم السبت .. إلخ » أسوق الجواب لمن يعقل وينصف وعنده مسكة من إنصاف وورع فأقول :

هذا الحديث علم من أعلام النبوة ، ليس مخالفًا لنص الكتاب العزيز ، ولا تلقاه أبو هريرة عن كعب الأحبار ، بل تلقاه أبو هريرة من مشكاة النبوة المحمدية ؛ من فم رسول اللَّه ﷺ ، فاستفدنا منه علمًا من علوم النبوة ، لا كما زعم أبو رية أنه سقطة من سقطات شيخنا أبي هريرة ، وتحدى أهل العلم بالحديث أن يحلوا هذا المشكل ، وأن يخرجوا بعلمهم الواسع شيخهم أبا هريرة من الهوة التي سقط فيها .

وأقول لهذا المعجب برأيه الذي ظن أن أبا هريرة سقط في هوة الكذب على رسول اللَّه التي لا يمكن إخراجه منها :

أقول - وما توفيقي إلا باللَّه عليه توكلت وإليه أنيب : أثبت المحققون عقلًا ونقلًا أن اللَّه تعالى وتقدست صفاته وأسماؤه عن التعطيل لم يزل ولا يزال خلاقًا عليمًا فاعلًا مختارًا ، لم تتعطل صفات كماله أزلًا ، كما زعم المتكلمون أنه مكث آمادًا لا أول لها معطلًا عن الخلق والفعل والتدبير والكلام ، معطل القدرة والإرادة والحكمة ما لا نهاية له أزلًا ، ثم بدأ يخلق ويرزق ويقدر ويريد ويحسن ويتكلم .

وعلى قول المتكلمين هذا فقياس ما فعل إلى ما لم يفعل أزلا وقياس ما أراد وقدر إلى ما لم يرد ولم يخلق كقياس لا شيء إلى شيء ، أو كنقطة في بحار لا تتناهى .

وآية : ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾ [الكهف: الآية ١٠٩] . والآية الأخرى ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن

شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ﴾ [لقمان: الآية ٢٧] فيهما الإشارة إلى عدم تناهي كلماته التي يقول بها للشيء كن فيكون ، وبالتالي إلى عدم انتهاء مخلوقاته أزلًا وأبدًا ، فما من عالم إلا وقبله عالم إلى ما لا نهاية له أزلًا مادام اللَّه لم يزل خلاقًا فاعلًا مختارًا . والمسألة مشروحة في كتب شيخ الإسلام ابن تيمية « كالعقل والنقل » و« منهاج السنة النبوية » وشرح حديث عمران بن حصين « جئت أسأل عن هذا الأمر » ، و« شرح الطحاوية » ، و« الصواعق المرسلة » وغيرها من مبسوطات الكتب .

وعلى هذا التحقيق العلمي -عقلًا ونقلًا- يكون هذا العالم المشهود والمخلوق في ستة أيام قد سبقه عالم قبله ، وهكذا إلى ما لا نهاية إلى الوراء أزلًا ؛ إذ لم يزل اللَّه قادرًا مريدًا خلاقًا فعالًا لما يريد بدون بداية ولا نهاية .

إذا ثبت هذا كان هذا العالم الذي نعيش فيه قد وضع اللَّه أساسه وتصميمه وخلق لبناته في يوم سبت من آخر أيام أسبوع عالم قبله ، ويكون حديث أبي هريرة « خلق اللَّه التربة يوم السبت » أي : سبت سابق لأيام هذا العالم ، قد أفاد علمًا زائدًا على ما في الكتاب العزيز ، لا مخالفًا للكتاب العزيز كما فهم ذلك من فهمه .

فللَّه در أبي هريرة إذ لم يضيع شيئًا من نفائس علم النبوة التي حدثه بها رسول اللَّه ﷺ ، ولله در أبي الحسين مسلم بن الحجاج وشيخه الإمام أبي عبد اللَّه أحمد بن حنبل وبعدهما أبو عبد الرحمن النسائي ؛ إذ نقلوا لنا هذا العلم النفيس ، ولو أهملوه لضاعت علينا لؤلؤة من لآلئ علم النبوة وجوهرة من جواهر الوحي الإلهي النبوي ، فقد أفادنا هذا الحديث أن تصميم هذا العالم وتهيئة لبناته قد كان في آخر أيام عالم آخر قبله سماه السبت .

فأي مخالفة للكتاب العزيز في هذا ؟ ومن لم يفهم هذا قلنا له ما قال الخليل

ابن أحمد لمن لم يفهم علم العروض :

إذا لم تستطع شيئًا فدعه وجاوزه إلى ما تستطيع

أو قول الآخر :

ومن يك ذا فم مر مريض يجد مرًّا به الماء الزلالا

ومن كذب بهذا قرأنا عليه ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ [يُونس: الآية ٣٩] .

وقد سمعت شيخنا المرحوم السيد رشيد رضا يحمد للمحدثين صنيعهم في رواية كل ما صح عندهم وإن استشكله بعض ، فليس ما يشكل عليك يشكل على غيرك ، أو يكون مشكلًا في الواقع .

والذين توقفوا في صحة الحديث جعلوه بسبب نزول درجة التصحيح عند الإمام مسلم عنها في علوها عند البخاري ، كعدم اشتراط مسلم في اتصال السند شرط العلم باللقاء ، مع اشتراط البخاري مع المعاصرة العلم بلقاء المتعاصرين ، ونحو ذلك من أسلوب كل محدث واختياره في التصحيح .

فليس الحديث كما تجهم أبو رية أنه صحيح بلا خلاف عندهم ؛ لأنه رواه مسلم .

ولو كان الدين أو الرسول لا يقول إلا ما يوافق عليه عقل الأستاذ أبو رية لما كان للناس كبير حاجة به ، فإن الدين يأتي بمحارات العقول -أي بما يحيرها- لا بمحالات العقول -أي ما هو مستحيل عقلًا- فليس كغيره من الأديان ؛ الواحد ثلاثة والثلاثة واحد ونحوها[1] .

---

(١) جاء في نهاية المقال العبارة التالية : (من كتاب يصدر قريبًا في الرد على أضواء السنة المحمدية) .

وقل الحق من ربكم[١]

كتب الأستاذ أبو رية في « المنهل » الأغر كلمة رد فيها دفاعي عن حديث أبي هريرة : « خلق اللَّه التربة يوم السبت ...» عنوانها « كلمة هادئة في الرد على مقالة هائجة » .

وكنت أحب وأتمنى من صميم قلبي للأستاذ أن يكون هدوؤه على أصحاب رسول اللَّه ﷺ الذين رماهم في كتابه بأن منهم من ارتد عن الإسلام ، ومنهم من شرب الخمر بعد تحريمها وحد فيها ، ومنهم من هو فاسق ، ومنهم من لعن بعضهم بعضًا .. إلخ ما يشكك به في عد التهم التي ثبتت في كتب اللَّه السماوية ، وأجمع عليها المسلمون ، ولا يرتقى إليها شك عند المسلمين .

وخص أبا هريرة صاحب رسول اللَّه ﷺ بما سوغه له أدبه من بهته إياه بأنه ؛ أكول ، مهذار ، طفيلي ، لئيم المحتد والنحيزة ، كذاب على رسول اللَّه ﷺ ، اغتنى من بني أمية على حساب الكذب لهم على رسول اللَّه ﷺ حتى بنوا له قصرًا بالعقيق وأقطعوه أرضًا بها وزوجوه أميرة منهم لم يرع حقها ولا فضلها عليه ... إلخ ما برأه اللَّه من بهتانه عليه .

ذكر عن الشيخ ابن تيمية وابن كثير والسيد رشيد رضا نقلهم عن البخاري وابن المديني والبيهقي أن حديث : « خلق اللَّه التربة يوم السبت ..» . سمعه أبو هريرة عن كعب الأحبار . وزاد عليهم أن أبا هريرة كذب على رسول اللَّه . وتحدى أهل الحديث أن يخرجوا شيخهم أبا هريرة من ورطة الكذب على رسول اللَّه ﷺ وأغفل عمدًا قولهم : إن الوهم في هذا الحديث ممن دون أبي هريرة . مع إجماعهم مع سائر العلماء على القول بصدق أبي هريرة وبراءته من الكذب

(١) مجلة المنهل - رجب - ١٣٧٨هـ - السنة (٢٣) .

براءة الذئب من دم يوسف ، وشهادة التاريخ مع الإجماع على صدقه .

والبخاري في « تاريخه الكبير »[1] قال في ترجمة أيوب بن صفوان الأنصاري : إسماعيل بن أمية عن أيوب بن خالد عن عبد الله بن رافع عن أبي هريرة عن النبي ﷺ « خلق الله التربة يوم السبت ..» . وقال بعضهم : عن أبي هريرة عن كعب وهو أصح . اهـ

فترى البخاري يقول : « وعن بعضهم عن أبي هريرة عن كعب . وهو أصح » فيفيد أن طريق أيوب بن خالد عن عبد الله بن رافع عن أبي هريرة عن النبي صحيح ، كما يفيده لفظة : أصح ؛ لأن مقابل أصح صحيح ، يعرف ذلك من له إلمام بلغة العرب وعنده قليل من إنصاف ، ويحب أن يفهم كلام العلماء على وجهه .

فأي عيب على مسلم والإمام أحمد والنسائي أن يختاروا هذا الطريق الصحيح ويخالفوا البخاري فيما رآه أصح ، وهم أئمة مثل البخاري ، ليس عليهم أن يقلدوه ولا حرج عليهم أن يختاروا غير ما اختار ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ [البقرة: الآية ١٤٨] جزاهم الله خيرًا فيما حفظوه لنا من سنة النبي ﷺ .

هؤلاء العلماء الذين ذكرتهم في حديث التربة ومعهم إجماع خير القرون من الصحابة والتابعين وتابعيهم بإحسان إلى يوم القيامة بعدالة أبي هريرة وصدقه ، وأن سقوطه من السماء إلى الأرض أهون عليه من الكذب على رسول الله ﷺ ، وأنه صادق صديق من خيار أصحاب رسول الله ﷺ وحفاظ دين الإسلام .

فلماذا قلدتهم في حديث التربة وخالفت إجماعهم في تصديق أبي هريرة وبعده عن الكذب بعد السماء عن الأرض ؟ ! أم هو الهوى وبغض الحق يعمي

---

(١) التاريخ الكبير ١/ ٤١٣.

ويصم ؟ ! أم هناك مآرب أخرى من التقرب لأعداء الإسلام ؟ !

إن من ذكرت من العلماء في كلامهم على حديث التربة يبرئون أبا هريرة من تهمة الكذب على رسول اللَّه ﷺ ، وشكهم في الحديث فيمن دون أبي هريرة ، ويشير إلى ذلك صنيع البخاري في تاريخه إذ قد ذكر الحديث في ترجمة أيوب بن خالد الأنصاري ، وقال : « وعن بعضهم عن أبي هريرة عن كعب ، وهو أصح » .

وأيوب بن خالد فيه لين كما في « التقريب »[1] ، وقال الأزدي : ليس حديثه بذاك فإن يحيى بن سعيد ونظراءه لا يكتبون حديثه . نقل ذلك الحافظ ابن حجر في « تهذيب التهذيب »[2] :

فالشك في أيوب بن خالد - وهذه حاله - أهون ألف مرة من تكذيب أبي هريرة أيها الرجل ، فأبو هريرة صحابي جليل متفق على عدالته وصدقه ودينه وورعه ، ولا يشك في حديثه كما قال ابن خزيمة ، إمام الأئمة ، إلا جهمي خبيث ، أو قدري بغيض ، أو رافضي مارق .

لنا أن نسأل الأستاذ أبا رية : من كذب أبا هريرة من خيار الأمة وخير القرون وأئمة أهل السنة والجماعة قبلك ؟

ولن نقبل في أبي هريرة كلام مبغضي السنة كعبد الحسين النجفي الرافضي وأضرابه كأبي جعفر الإسكافي .

أقول : وفات الذين نسبوا حديث أبي هريرة في خلق التربة يوم السبت إلى كعب الأحبار أن كتاب كعب الذي يعتز به ويحدث عنه وهو التوراة يقول في سفر التكوين في الإصحاح الثاني آية (١ و٢) : فأكملت السموات والأرض وكل جندها ، وفرغ اللَّه في اليوم السادس من عمله الذي عمل ، فاستراح في اليوم

---

(١) تقريب التهذيب ١/ ١١٨.

(٢) تهذيب التهذيب ١/ ٣٥١.

السابع من جميع عمله الذي عمل . اهـ .

فكيف ساغ لكعب أن يخالف نص كتابه ويحدث أبا هريرة بما يكذب كتابه وهو الذي يعرف الناس عنه عصبيته لكتابه وإسرافه في الحديث عنه ؟ اللهم إن هذا مما يشهد أن هذا الحديث تلقاه أبو هريرة من لسان رسول الله ﷺ ، فهمه من فهمه وشك فيه من شك .

أما بياني لحديث « خلق التربة يوم السبت ..» وعدم مخالفته للقرآن ، كما زعم من زعم ذلك ، فقد شرحته في كلمتي السابقة التي أهاجت الأستاذ أبا رية وبتر منها صدرها ، ثم ذكر أنه لم يفهمها ، وما ذنبي أنا !

وقديمًا حكى الله عن جاحدي القرآن قولهم : ﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ﴾ [فُصِّلَت: الآية ٥] . ولا حيلة لك فيمن لا يريد الحق وأعرض عنه .

وأخيرًا أصر الأستاذ أبو رية على أن دعواه كذب أبي هريرة على النبي في حديث : « خلق الله التربة يوم السبت ..» . دعواه كذب أبي هريرة الذي صدقه التاريخ وإجماع سلف الأمة وخير قرونها ، وجانبهم الشيخ أبو رية ، وأصر على أن دعواه كذب أبي هريرة لا تزال باقية . فلتبق في نفسه إلى يوم القيامة ؛ يوم تبلى السرائر وينصف الله أبا هريرة من خصومه وباهتيه .

وإذا كان لأبي رية في مهاجمة الإسلام في أشخاص الصحابة عمومًا وفي طعن أبي هريرة خصوصًا غرض من التحبب إلى أعداء الإسلام فربما ينال غرضه وربما يجيزونه على ذلك ، والله الهادي .

❁❁❁

من أحاديث الكتب[1]

« خرافة الميتافيزيقيا »

تأليف : الدكتور / زكي نجيب

كتاب للأديب الفاضل الدكتور زكي نجيب محمود ؛ مدرس الفلسفة في (جامعة القاهرة) بسط فيه آراء باحثي الغرب الواقعيين في مسألة (الميتافيزيقيا) أو ما يسمى : ما وراء الطبيعة ، وقد انتصب لنقده أحد أفاضل علماء الأزهر في عددي صفر وربيع الأول سنة ١٣٧٣هـ من مجلة (الأزهر) فعرض لمسألة تافهة مما أنكر على المنطق ، وهي مسألة تقابل النفي والإثبات في شيء واحد ، ورمز لها بـ(ق) و(لا .ق) وجمع همته للرد على منكريها ، وذكر أنه يدافع بذلك عن تراث العقل البشري ، ثم حمد نفسه وحمد المؤلف إذ أتاح له فرصة الرد على علماء الغرب ومناضلتهم والوقوف أمامهم .

ولو علم الشيخ الفاضل الناقد أن المنطق خيالات فاسدة مفسدة أقعدت المشتغلين به فلم يقدموا أي نفع للبشرية ولو إبرة خياطة - بله ما ازدهر على أيدي رافضي المنطق من صناعات البخار والكهرباء وتحليل مركبات المادة وتركيب بسائطها- لما وصفه أنه تراث العقل البشري !

ولو علم الشيخ الفاضل أن علماء الإسلام بينوا فساده وإفساده للعقول واللغة وللدين ، وأخص منهم شيخ الإسلام ابن تيمية الذي كتب الكتب وألف الرسائل في تهافته وفساده وإفساده للعقول والأديان ، وظهر له في عالم المطبوعات ردان ؛ أحدهما مطول طبع في (الهند) في بمبي بمطبعة آل شرف الدين ، والثاني مختصر طبع في مصر بمطبعة الشيخ محمد حامد الفقي ، وقد فصل القول في بطلان

---

(١) مجلة اليمامة - العدد ٦ - في ١٣٧٣/٥هـ .

قضاياه وخرج بنتيجة ذهبية فيه هي أن أكثره باطل فاسد والقليل منه صحيح يستغنى عنه الأذكياء ولا يفيد الأغبياء.

وإني أهيب بالشيخ؛ ناقد كتاب (خرافة الميتافيزيقيا) أن يرجع إلى أحد الردين المذكورين أو كليهما، ولا تخلو منهما المكتبات العامة. فإذا سمح وقت الشيخ الناقد وحفزته همته إلى مطالعتهما أو أحدهما فإنني أعتقد بأننا سنتفق رأيا، فنجتمع لدفن رمم هذا العلم، هذه الرمم المنتنة التي آذت البشرية أحقابًا طويلة وأخرتهم عن ركب الحضارة والاختراع والعمل الصالح النافع.

هذا وقد سمعت أن بوقًا من أبواق الإلحاد وكاتبا يتظارف بالدعوة إلى ترك الدين هو سلامة موسى، فرح بهذا الكتاب وتمنى أن يكون في استطاعته شراء نسخ منه بعدد طلاب (كلية دار العلوم) ليوزعها عليهم مجانًا؛ لظنه أنه يهاجم الدين والأخلاق ويهدم أركانها.

ونحن نسوق إلى هذا البوق ما يزيده غيظًا ويحرق كبده؛ هو أن الكتاب لا يمس الدين في قليل ولا كثير، والدين هو أساس الأخلاق، ولكن هذا الكتاب يهدم خيالات أفلاطون وأرسطو ومن قلدهما من متفلسفة العرب، من المجردات التي لا وجود لها إلا في خيال من تخيلها، وأضرب لذلك أمثلة يتبين منها سلامة الدين وأصوله وأركانه، بينما تتقوض دعاوى من زعم أو تخيل أن في الوجود مالا يمكن أن يحس أو يرى أو يلمس.

المثال الأول: الروح - أو النفس الناطقة - يقول عنها أفلاطون وأرسطو ومن قلدهما: إنها جوهر مجرد عن المادة، لا داخل العالم ولا خارجه، ولا حيز ولا زمان، ولا مكان لها ولا طول ولا عرض، ولا .. ولا .. مما يحمل العقلاء جميعًا أن يقولوا: إن ذلك شيء لا يعقل ولا يتصوره إلا المبرسمون[1].

---

(١) المبرسم: بفتح السين اسم مفعول وهو لفظ معرب من البرسام (بكسر الباء)، المصاب =

أما الدين فيقول عن الروح إنها في بدن صاحبها ، وإنها نفخت فيه ، وإنها تخرج من البدن حين النزع ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ﴾ [الواقعة: الآية ٨٣] ، ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُ﴾ [الأنعام: الآية ٩٣] . وفي الحديث : « لا تؤمن يا عمر حتى أكون أحب إليك من نفسك التي بين جنبيك »[١] ، و« إن أمسكت روحي فارحمها وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين »[٢] .

المثال الثاني : زعم فلاسفة اليونان ؛ أفلاطون وتلميذه أرسطو ومن قلدهما من بعدهما أن هناك مجردات مثل أفلاطونية ، وعقول عشرة ونفوس فلكية تسعة ، وأنها مجردة عن المادة ، لا داخل العالم ولا خارجه ، ولا طول ولا عرض ، ولا تحس ولا ترى ولا تلمس ، ولا .. ولا .، مما لا يمكن وصف المستحيل بأبلغ مما وصفوها به ، وظن بعض المتفلسفة أنها المرادة بالملائكة عند أهل الأديان ، وشتان بين خرافة هذه المجردات وبين الملائكة عند أهل الأديان ، فالأولى أمر لا يعقله إلا متهوسو المتفلسفة ، وحق المواقعيين من بني آدم أن يعدوا ذلك خرافة وتفاهة ولا معنى له .

أما الملائكة عند المؤمنين بها من أهل الأديان فهم كما جاء في الكتب السماوية ؛ أولو أجنحة مثنى وثلاث ورباع ، وتمثل أحدهم وهو جبريل لمريم بشرًا سويًّا ، وتمثل كثيرًا بصورة أعرابي يسأل رسول اللَّه ﷺ ويراه ويسمعه الصحابة ، وتمثل الملائكة ضيوفًا لإبراهيم حتى قدم لهم عجلا حنيذًا ، وتمثلوا للوط وقومه شبانًا جميلي الصور ، ويصعدون إلى السماء وينزلون إلى الأرض ...

= بمرض البرسام وهو التهاب يعرض للحجاب الذي بين الكبد والقلب ، ويعرف أيضا بالجرسام ، وقد يصاب المبرسم بارتفاع الحرارة فيهذي في كلامه . معجم لغة الفقهاء (١/ ٤٠٠).

(١) البخاري (٦٦٣٢) من حديث عبد اللَّه بن هشام رضي اللَّه عنه .

(٢) البخاري (٦٣٢٠) ، ومسلم (٢٧١٤) من حديث أبي هريرة رضي اللَّه عنه .

إلى آخر ما جاء في وصفهم في الكتب السماوية . فلا تنالهم خرافة الميتافيزيقيا بسوء ولا تعرض لهم في قبيل ولا دبير .

المثال الثالث : خالق السموات والأرض رب العالمين يقول عنه المتفلسفة ، إنه علة العلل والعقل الأول ، وإنه واحد من كل وجه ، وإنه لا داخل العالم ولا خارجه . ولا .. ولا .. ولا .. من السلوب التي تجعله هو والعدم سواء .

فلو قيل لهم : صفوا العدم أو المستحيل . لما وصفوه بأكثر مما وصفوا به رب العالمين ، أما المسلمون - بل واليهود والنصارى - فمؤمنون أن رب العالمين فوق العرش وأنه يرى في الآخرة ، ويتكلم بكلام يسمعه من شاء من خلقه كموسى ومحمد ، وأنه عرج إليه النبي ﷺ ليلة المعراج ، وسمع كلامه ورآه أو رأى نوره ، وأنه تشرق الأرض بنوره يوم القيامة ، وأنه يجيء والملك صفًا صفا لفصل الحساب ، وأن له يدين مبسوطتين ، وبيده الميزان يخفضه ويرفعه ، وأن الأرض جميعًا قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه ، وأن له سبعين حجابًا من نار أو نور ، لو كشفها لأحرقت سبحات وجهه[1] ما انتهى إليه بصره من خلقه .. إلى آخر ما جاء في القرآن والحديث والتوراة والإنجيل وآمن به المسلمون واليهود والنصارى الذين لم يمرضوا بمرض الفلسفة والتعطيل كمن قلدوا متهوسي اليونان الذين بدأوا طفولة تفكيرهم في عنصرهم الجاهلي الوثني وقلدهم في هذه الآراء الصبيانية والخيالات البدائية في التفكير من مرض بالفلسفة من العرب ، كالفارابي وابن سينا والغزالي وابن رشد والرازي - بله الجهمية والمعتزلة والأشاعرة - .

هذا وإننا نحب انتشار هذا الكتاب وأمثاله ؛ آمنين على جانب الدين منه ، حتى يشفى به من مرض بالمجردات الخيالية المسماة عندهم بالعقول العشرة

---

(١) السبحات بضم السين والباء ورفع التاء في آخره وهي جمع سبحة . قال صاحب العين والهروي وجميع الشارحين للحديث من اللغويين والمحدثين : معنى (سبحات وجهه) نوره وجلاله وبهاؤه . شرح النووي على مسلم (٣١٩/١).

والنفوس الفكلية والتسعة والنفوس الناطقة ... إلى آخره .

ولسنا نخاف على الدين وأصوله وأركانه أن يصدم بمخالفة تفكير صحيح من عقلاء بني آدم .

ولو أن المؤلف الذي لخص بحوث عقلاء الغرب رفع رأسه قليلا إلى تراث علمائنا المحققين كمؤلفات شيخ الإسلام تقي الدين ابن تيمية وتلميذه شمس الدين ابن القيم لرأى فيها ما يثلج صدره من إنكار الميتافيزيقيا عقلا ونقلا وأن مجردات الفلاسفة لا وجود لها إلا في أذهان متخيليها ولا وجود لها في الواقع وخارج الأذهان ولرأى أن ما لخصه من تحقيق علماء الغرب إنما استفادوه من تحقيق علمائنا الأعلام حرص عليه الغرب وارتشف علماؤه من رحيق أزهاره وقدموه لنا عسلا ظنناه من صنع أيديهم وليس الأمر كذلك وإنما مثلهم في ذلك كمثلهم في خامات الشرق يأخذونها عنه ثم يعيدونها إليه مصنوعات براقة مدهشة تعشى بصر من يراها ممن لا يعرف الحقيقة ، والعيب فينا نحن عندنا خامات لم نحسن ننتفع بها وأدوية لم نتعالج بها ، فنحن مرضى والدواء في دارنا ، وجياع وخيرات الدنيا بين أيدينا ، وجهال لم ننتفع بما كتب محققونا .

ولعل المؤلف الفاضل ترتفع همته إلى مطالعة تراثنا الشرقي فيجمع بينه وبين ما يعرف عن الغرب فيخرج لنا كتابا يجمع مشرق شمس الحقيقة ومغربها فيحبب شبابنا في مراجعة تراث أسلافهم فيستفيدوا الحق من القديم والحديث . ومن لا قديم له لا جديد له !

هذه العجالة حفزني إلى كتابتها ما قرأته في مقدمة كتاب « خرافة الميتافيزيقيا » ولم آت على الكتاب بتمامه وخصوصا :باب الخير والشر فقد رأيت من بعض الأحباب اشمئزازا منه فلعل الفرصة تؤاتي لاستيعاب الكتاب فأكتب عنه ما أرى فيه من حسنات وغيرها ... فإلى مقال آخر .. والسلام .

من أحاديث الكتب[1]

نظرات سريعة : في كتاب « ترجمة محررة لمالك بن أنس »

تأليف الأستاذ أمين الخولي - من الأمناء

ألقى إلي اتفاق البحث - بغير قصد - كتاب « ترجمة محررة للإمام مالك بن أنس » للأستاذ أمين الخولي ، فقرأت بعضها وأردت أن لا يفوتني قيد ما أجد فيها من ملح وغرائب ؛ لأعرضه على قراء غيري فأستفيد موافقتهم أو مخالفتهم ، وأستنير برأيهم في المسألة إثباتًا ونفيًا ، ورغبة القيد غريزة إنسانية ، وقديمًا قيل :

العلم صيد والكتابة قيده قيد صيودك بالحبال الواثقة

فمن الحماقة أن تصيد غزالة وتتركها بين الخلائق طالقة

وعرض فكرك على الأنظار مما يوجبه الإنصاف وحب الاستطلاع والبعد عن الإعجاب بالرأي .

وسأنظر إلى الترجمة بمنظار أبيض يكشف جوانبها المنيرة وغير المنيرة ، وقد حكي أن المسيح ابن مريم مر هو وتلاميذه على جيفة خنزير ، فتأفف التلاميذ اشمئزازًا ، فقال عيسى عليه الصلاة والسلام لتلاميذه تعليمًا لهم أن ينظروا لكل شيء من جوانبه الطيبة : « انظروا ما أبيض أسنانها »

هكذا يجب علينا أن ننظر للأشياء كلها من جوانبها اللامعة وإن لم نغفل عن جوانبها الأخرى ، ولمن يعلم الناس أن يقول لهم ليست الجيفة القذرة شرًا من كل نواحيها ، فإنكم إذا دفنتموها في بستان أو مزرعة صارت سمادًا طيبًا مفيدًا ينمو عليه الزرع ، والشجر فيؤتي أطيب الثمار والحبوب .. إلخ .

---

(١) مجلة اليمامة - العدد السابع - جمادى الآخرة - ١٣٧٣هـ .

فمما نحدثك به من حسنات الترجمة المحررة : نفي تهمة عن أبي جعفر المنصور أنه بنى قبة خضراء في قصره الذهبي ببغداد ليصرف الناس عن قصد الكعبة المشرفة .

فأضاف المحرر إلى جُهدِ شبلي النعماني لنفي هذه التهمة التي صورها صاحب تاريخ التمدن الإسلامي جورجي زيدان - صنع الله به ما يستحقه - أضاف جهدًا مشكورا وعملًا مبرورًا ص١٨٨ إلى ص١٩٤ ج ١.

ومن تلك الحسنات - أو هي أحسنها - بعد ما وصف حال الحاكمين والمحكومين من الناحية الدينية ص٣١٢ وص٣١٣ ج٢- قال : وكذلك نجد المحور الظاهر هو الشعور الديني - والمفزع الأخير هو الشعور الديني - وقوة الاحتمال من الشعور الديني ، وفيض الغضب للشعور الديني ، وإذا ما كان هذا عمل الشعور الديني في حياة الحاكمين والمحكومين فلا غرو أن نجد أصحاب الصفة الدينية - سواء أكانت علمية كالقراء والفقهاء والمحدثين والمتكلمين والمفسرين و .. و .. إلخ- أم عملية كالزهاد والعباد والمتصوفة - ذوي مكانة بارزة وأثر فعال في الحياة حتى لتستطيع أن تقول : إنهم في سير هذا النظام يمثلون سلطة الشعب - إن صح هذا التعبير - في ظل الحكم الفردي السائد ، وهم على كل حال يدخلون في حياة الحكام والمحكومين بصفة من هذا النوع تمثل وجود الشعب ومصلحته وما إلى ذلك ، فأما دخولهم في حياة الحكام بهذه الصفة الشعبية فبما هم وصلة إلى الترضية - يعني ترضية الشعب عن حاكمه - ومظهر لحسن تصرف الحاكم مع هذه الفئة حسنًا تبتهج له نفوس السواد من المحكومين ؛ لدلالاته على حب الخير والصلاح وحب العالم واحترام الدين .. و .. و .. من تلك الصفات التي تمكن للحاكم من أعناق المحكومين بما تقربه من قلوبهم أو تخدعهم عن أنفسهم في هذه الناحية .. ومن هنا نرى أصحاب

الصفة الدينية العلمية والعملية يحترمون ويكرمون ويعطون ويستشارون ويستقضون، وما إلى ذلك من المظاهر العملية التي تنقل إلى الشعب تلك السيرة الحسنة ولا أقل من أن يستنصحوا ويسألوا الموعظة، فيكون لها أثرها على قلب الحاكم، فيبكي أحيانًا حتى تخضل لحيته أو يجم أو يغير ما هو فيه من تمتع ولعب ونحو ذلك مما يشع فيكون أحدوثة حسنة، ومن هنا نراهم يحملون العلماء على تولي القضاء ونحوه، ويشتطون في إكراههم على ذلك، فيظهرون بذلك الحرص الشديد على الانتفاع بهم والنزول على رأيهم أو يظهرون كما قال أحدهم - : إن في الدولة أشخاصًا أقوياء النفوس صلحاء منصرفين عن الدنيا إلى هذا الحد، فيكون ذلك شهادة بحسن حال الأمة، وأن الدنيا بخير ما دام في الأمة مثل هؤلاء..

ثم ضرب المؤلف مثلاً بما ذكره ص٤٧ و٤٨ عن أبي حنيفة في إيثاره علم الفقه؛ لأنه إذا تعلم الفقه يسأل ويفتي الناس ويطلب للقضاء وإن كان شابًا.. وقوله عند ذلك: ليس في العلوم شيء أنفع من هذا - يعني الفقه - ولزم تعلم الفقه - إلخ ص ٣١٥.

ثم يقول المؤلف في هذه الصفحة: «وأصحاب هذه الصفة الدينية علميًا وعمليًا يدخلون في حياة المحكومين دخولًا واضحًا قويًا، فهم المشيعون للآراء والمقالات في حكم الحاكم ونظام الحكم، وهم المدبرون المشرعون في هذا كله، أعني أنهم يتولون حياة هذه الجماهير الحكومية من الناحيتين الاعتقادية والعملية، فإن كان استفتاء وسؤال تصحيحًا للعقيدة في صاحب الحق ومدى حقه فهم المستفتون والمعلمون، وإن كان في النفوس من ذلك شيء فهم الواعظون والناصحون، وإن كان حيف فهم الملجأ والملاذ يستشفع بهم الشعب فيلقون الأمراء والحاكمين لقاء السياسيين أو لقاء الموجهين، فيكشفون عن

أولئك المجتهدين بشفاعة مقبولة أو عظة زاجرة من لم يستشفع أو يشفع فهو ساخط غير مؤيد ، وهذا السخط قد يخرج في صورة عظة مواسية للعامة تريح النفوس بانتظار العدل الإلهي والجزاء السماوي ، وتطمئنهم إلى النهاية المحققة للظلم وهي النكال والزوال ، وإن زادت حدة عن هذه الدرجة كانت إفتاء بالخروج وإعانة عليه ، وقد تكون مشاركة فعلية فيه كما كان من غير واحد من أولئك القراء والفقهاء والعلماء وذوي الصفة الدينية بعامة . وفي هذا التعليم والإفتاء والوعظ توجيه فعال للمشاعر والقوى ، كما يقدر ذلك . ومن هنا تكون شخصية ذوي الصفة الدينية عاملًا هامًا في سير الحوادث ، فإن كان ضعيف المنة قليل المقاومة بث روحه في الجمهور ومهد للحكم الظالم ، وإن كان ذا همة وحمية بث ذلك في الأنفس وأرهب الحكم الظالم .

وهكذا تدرك في وضوح أن ذوي الصفة الدينية مثلوا الشعب بحق - في هذه العصور - وصح أن يعدوا في نظام الحكم الإسلامي أنهم هذه السلطة إما متحيفة متهتكة وإما معترفًا بها اعترافًا ناقصًا أو غير ناقص ، وبذلك كانت شخصياتهم قوية الأثر على الحياة ،

ومن كل ذلك يتجدد واجبهم الاجتماعي في الأمة إذ ذاك ، كما تعرف حقوقهم التي كان يمنحهم إياها هذا النظام بسلوك الأمراء نحوهم وتأثيرهم على الشعور الديني في سير الحياة لعهدهم » . ص٣١٣- ٣١٦ ج ٢.

وأقول للأستاذ : أحسنت وأجزلت في تصوير حال الشعور الديني وأهله في الحاكمين والمحكومين ، وهيبة رجال العلم والعمل عند الحكام ، وتأثيرهم في العامة ، وقد رأينا أمثلة لذلك وسمعنا بها ، وما أشبه الليلة بالبارحة .

ولكنا نقول : إن ذلك كله لم يكن خداعًا وتضليلًا كله ، وحسن الظن يعطي أن كثيرًا منه كان عن وجدان وإيمان ، ولكنا نزيد على ما قلت : إن ذلك كله مما

يصلح الحكم الفردي ويقومه ويقلل شروره، فهيبة الشعب في قلب حاكمه التي تتصور في احترامه للعلماء مما يكبح من جماح غرائزه وشهواته، ويقيمه على الحق طوعًا أو يقسره عليه قسرًا؛ كما قال تعالى من سورة البقرة: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ﴾ [البقرة: الآية ٢٥١]، وكما قال تعالى في سورة الحج: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: الآية ٤٠]، ولا يخصص الدفاع والدفع بالحرب بالسيوف فحسب، فاختيار لفظ الدفع والدفاع ليكون أعم من مجالدة السيوف، والحكم الفردي المقلم الأظفار بهيبة الحاكم للشعب وخوف الحاكم من الانتقاض عليه، فيراعي الحاكم مصالح شعبه ويسترضيهم في أشخاص علمائهم، هو خير ما يمكن في تلك العصور.

بل رؤي في هذا العصر خيرًا من الديمقراطية الزائفة والأحزاب المتطاحنة على كراسي الحكم، والناقد البصير يوازن بين عصر فؤاد وفاروق وديمقراطيته، وعصر الانقلاب العسكري في مصر وبين حكم أتاتورك وحكم مجلس المبعوثين قبله في الترك.

ثالث ما قرأت من حسنات الترجمة المحررة ما وصفته للمركز العالمي للأمة الإسلامية عصر مالك: «أنه مركز القيادة والإرشاد، فحين ولد مالك في أصيل القرن الأول الهجري كانت نسائم (الأطلنطي) تحي الأعلام الإسلامية الخافقة في الأندلس غربًا، وكانت كتائب الحضارة تحاول تنفيذ ما أمله الطامحون من الوصول إلى «القسطنطينية» عبر أوروبا عن طريق الأندلس بعد ما كانت تلك الكتائب قد وقفت مرارًا على شواطئ البسفور وتحت أسوار هذه القسطنطينية تنذر الرومان وتبشرهم برسالة الإسلام، وفي حياة مالك وصلت هاتيك الكتائب

إلى قلب فرنسا وقاربت باريس ، كما كاد بحر الروم - أو البحر الأبيض المتوسط - يعود بحيرة إسلامية ؛ إذ أذن في شواطئه الجنوبية دعاة العدل والمدنية ، وأصاخ سكان شواطئه الشمالية لرسالة أولئك الداعين ، مقدرين أن حدثا جديدًا قد عم العالم وهز أسس الظلم والاستبداد وعبادة الأشخاص والجمادات ، في حين كانت تلك الكتائب قد وطئت حدود الصين شرقًا . وإنها لعزة تسمو الأرواح لها وتبعث في أفراد تلك الأمة الحياة والأمل وتبسط أمامهم آفاقًا من النظر الفسيح والإدراك الصحيح لنظام الكون .

وفي حياة مالك - أيضًا - تقسمت تلك الإمبراطورية الفسيحة دويلات ، وسقطت الأموية في الشرق فلاذت بأندلس ، وعشش صقرها على دوحه وبسط جناحه على أنحاء الجزيرة الغربية ينشر عليها بسلطانه ظل الأمن ويؤدي رسالته الإسلامية فوصل الشرقيون حبلهم بالسلطات بين العباسية في الشرق والأموية في الغرب ، ويئست العباسية من القضاء على تلك الدولة النائية ، فذهبت توازن العالم القديم موازنة سياسية محورها الدولة الإسلامية والسيطرة الإسلامية ، فوصل الشرقيون حبلهم بالسلطات السياسية في غرب أوروبا ، وأهدى الرشيد إلى (شرلمان) هداياه التاريخية المشهورة ، ومنحه ومنح النصارى على يده في الشرق منحًا يستديم بها وده ويقيمه عدوًا للدولة الأموية المناجزة لسلطانه في الغرب ، وكذلك بسط الأمويون يدهم لرومان الشرق في القسطنطينية يوادونهم ويهادونهم ليقيموا منهم عدوًا دائمًا للدولة الإسلامية الشرقية في بغداد وهي التي كانت تغزوهم مسانهة في نظام مطرد ، وهكذا كان لسان الميزان السياسي في اليد الإسلامية والقوى السياسية في العالم تلوذ من السيطرة الإسلامية بملاذ في الشرق أو الغرب ، والمسلمون يدركون مكانتهم العالمية وسموها في كل مكان على أساس هذا التقدير ، ينظرون في شئون الدنيا وأصول الحقوق ونظم ما بين الناس

من روابط ، ويفتيهم مالك وأضرابه من رجال التشريع .

وإذا كانت تلك هي حالة العالم الإسلامي جملة فلا تزال تجد للبيئة الحجازية في هذا الموقف المزدوج مركزها الخاص ، فهي قبلة الدولتين ، ومأوى أفئدتهم وموضع القسطاس بينهم ، يؤمها المغاربة والأندلسيون حاجين فلا يلمون بالعراق ولا يلقون أهله ، بل يأخذون عن الحجاز وينقلون علم الحجازيين حتى ظهر أثر هذا العلم في حياة مالك نفسه فسمعناه يقول للمهدي الخليفة حين طلب إليه أن يضع كتابًا يحمل الأمة عليه : أما هذا السقع وأشار بيده - وأشار إلى المغرب بيده - فقد كفيته . وما ذلك إلا بفضل هذه الصلة .

وقد كان من مظاهر هذه العزة أن تحمل إلى مالك أخبار الأندلس وحكومتها فيعلن رضاه عنها إعلانًا يؤيد به نقده للعباسيين أو نفوره من ممالأتهم ، ذلك النفور الذي بدأ في تأييده لخروج « النفس الزكية » - على ما سلف - فقد سأل مالك عن سيرة عبد الرحمن بن معاوية الأموي الداخل إلى الأندلس والممتلك بجزيرته ، فقيل له : إنه يأكل خبز الشعير ويلبس الصوف ويجاهد في سبيل اللّه ، وعددت مناقبه . فقال مالك : ليت أن اللّه زين حرمنا بمثله . وبلغ هذا عبد الرحمن فسر به حين نقم العباسيون ذلك وعد سبب محنة الإمام - في رأي - على ما سنبينه .

وهكذا تقف البيئة الحجازية بفضل بسطة الملك بين الدولتين وتبسط علمها حيث لا تبلغ سيطرة المتحكمين في الشرق فيكون لحياة الفقه المالكي بتلك الأقطار النائية القريبة إلى حياة البداوة المشبهة للحياة الحجازية - على ما لحظه ابن خلدون في مقدمته - أثر في حياة ذلك الفقه يتبينه مؤرخه » .

هذا شوط أول - في ميدان هذه الترجمة المحررة - قد أبصرت فيه نواحي مضيئة وجوانب لامعة فيها ، ففتح أذنك واشرح صدرك لجوانب أخرى قد تكون

كابية أو قائمة ، ووسع خاطرك لما لا يعجبك من كلامي ، ولا تقل متزمت جامد حتى لا أقول منحل مائع ، وتعال معي إلى كلمة نصف نتساوى فيها جميعًا : ليس كل قديم ضارًا منبوذًا ، ولا كل جديد نافعًا مفيدًا . فهذا الجمل في صحراء العرب مع قدمه يبلغ ما لا تبلغ السيارة أو الطائرة والقطار فضلاً عن منافع لبن أنثاه ووبرهما ولحمهما وجلدها - إلخ .

فأول ما نقص عليك مما لم يعجبنا في نواحي الترجمة : طريقة الاستدلال بروايات « الأغاني » و« زهر الآداب » و« شرح رسالة ابن زيدون » وتنزل إلى « الجواهر واليواقيت » للشعراني ، وإذا أحس المترجم بضعف في الرواية اعتذر عنها بقوله ص٣٦٤ج ٢ : « ولن أنسى أنك قد تنظر إلى هذه الرواية في « الأغاني » بعين الناقد المتزمت ، فتتهم أو تنكر ولكن لا تنس أنها عند من وضعوها - إن رميتها بالوضع وهذا شر ما تقذفها به - ثم هي عند من قد أولوها إنما تحدث عن تقدير لمظاهر الحياة وظواهر الوجود في هذا العصر ، وتصف من أمر البيئة وأهلها حقائق اجتماعية هي في جملتها واقعة ، إن لم تكن في ذاتها من عمل فلان أو فلان بأعيانها ، فهي تمثل شيئًا شعروا به في حال من أحوالهم ، وإن لم تكن حقيقة الأمر إن هذا بشخصه وذاته قال ذلك بنصه ولفظه ، ولا أخالك حين تصح نظرتك الاجتماعية وتدقق ستنكر - حتى فيما ترى اليوم من حياتك - أن الفاكهة المصنوعة والنكتة الموضوعة والداعية المفتعلة ليست إلا صدى لمعنى أحس به المتفكه وحقيقة شهدها المداعب ، فهي في حساب متفهم الحياة الاجتماعية المتفطن لنواميسها ذات دلالة صحيحة صادقة على جملة الأمر ووجود الظاهرة » .

فتخرج من هذا المنطق العجيب أن كذب الكذب إن لم يصبح جزئيًا صدق كليًا ، وإن حكاية يصورها خيال مجان ويخترعها ذهن كذاب تكون دليلًا على

المجتمع كله في عصر هذا الكذاب .. يا عجبًا !! .

ألف ليلة وليلة مملوءة بحكايات الشياطين والسحرة وطيران الطائرين إلى أرض السند والهند وجبال واق الواق فماذا يدل عليه ذلك عند صحيح النظرة الاجتماعية .

ذكروا في سرعة بديهة أبي الفرج الأصبهاني صاحب كتاب « الأغاني » أن متحدثًا أمامه ذكر أنه دخل الصين فرأى نعنعا « أي : النعنعاع » يكبر حتى يجعل من أغصانه سلم يرتقي عليه فقال أبو الفرج - بسرعة - عندنا ما هو أعجب من ذلك صنيع من نحاس وضعناه تحت زوج حمام عندنا فخرج فراخًا . فبهت الكاذب ، فماذا يفهم منها صحيح النظرة الاجتماعية سواء صحت الحكاية أو كانت موضوعة ؟

الذي أفهمه ولا يخالفني فيه الناس أن الحكاية المكذوبة تدل على أفق خيال كاذبها وتأثره بها .

●●●

من حديث الكتب

نظرة سريعة في كتاب «ترجمة محررة لمالك بن أنس»[١]

تأليف : أمين الخولي

الذي أفهمه ولا يخالفني فيه الناس أن الحكاية المكذوبة تدل على أفق خيال كاذبها وتأثره بما طالع أو سمع في بيئته الخاصة وما قرب وبعد عنها ، والذين سودوا صحائفهم بما صوروا من حكايات أو قصص أفادونا بسعة خيالهم فيما تخيلوا ، وما تأثروا به من روايات عن أشخاص بعيدة أو قريبة منهم . فما تقرؤه في قصصهم من خلاعة وفسق وترف لا يمكن أن نحكم به على جميع سكان بلدانهم .

فإذا قرأنا شيئًا من هذا القبيل لكتاب مصر المعاصرين ، فإنه لا يسوغ لنا أن نحكم به على جميع سكان مصر ، فنفهم من تلك الكتابات أنه ليس في أرياف مصر فقر ولا عري ولا مرض ولا جوع ، وإنما نفهم أن خيال القصاص تأثر بما قرأ صاحبه من خلاعات وفسق وفجور وترف في نحو (باريس) أو (روما) وغيرها .

ب- يقدم المؤلف اعتذاره عما وصف به المجتمع الإسلامي من تفسخ وفساد - كما سيأتي في الفقرة الآتية - فاعتذر بقوله (ص٢٠٣) : «إن التاريخ الحق حينما يعرف هذا المجتمع إنما يذكر من أمره ما كان واقعًا جاريًا ، لا ما كان الإسلام يرجوه له ويعلمه إياه ويجب أن يكون من شأنه فيما يتقرر من وضعه لا يمس مبادئ الإسلام ولا يغض من سموها وحيويتها ؛ لأن الذي كان شيء والذي ينبغي أن يكون شيء آخر ولا بد من تقدير الفرق بينهما» .

---

(١) مجلة اليمامة - العدد السادس - رمضان - ١٣٧٣هـ.

وفات المحرر للترجمة أن يذكر قوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عِمران: الآية ١١٠]، وقوله: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ ۚ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا ۖ سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾ [الفتح: الآية ٢٩]

وقال النبي ﷺ: «خير القرون قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم»[(١)]، لا يدري الراوي أذكر بعد قرنه قرنين أو ثلاثة. وقال ﷺ: «أنتم توفون سبعين أمة أنتم خيرها وأكرمها على اللّٰه تعالى»[(٢)].

وقال: «إني لأرجو أن تكونوا ثلث أهل الجنة»[(٣)]. وقال ما معناه: «ما من نبي إلا وأتى ما على مثله آمن البشر، وكان الذي أوتيته وحيًا فأنا أرجو أن أكون أكثرهم - يعني الأنبياء - تابعا يوم القيامة»[(٤)].

وحديث عمل اليهود إلى الظهر وإعطائهم قيراطًا، وعمل النصارى إلى العصر وإعطائهم قيراطًا واحدًا، وعمل المسلمين إلى آخر النهار وإعطائهم قيراطين، وغضب اليهود والنصارى لذلك، وقول اللّٰه لهم: «هل ظلمتكم من حقكم شيئًا؟ قالوا: لا. قال: فذلك فضلي أعطيه من أشاء»[(٥)].

فهذه الآيات والأحاديث تدل على عمل المسلمين بدينهم السامي المبادئ

---

(١) لم يرد الحديث بهذا اللفظ: «خير القرون». وإنما المعروف بلفظ: «خير الناس قرني ..». أخرجه البخاري (٢٦٥٢)، ومسلم (٢٥٣٣) من حديث ابن مسعود رضي اللّٰه عنه.

(٢) أخرجه أحمد ٥/٣ من حديث معاوية القشيري رضي اللّٰه عنه.

(٣) أخرجه البخاري (٣٣٤٨) من حديث أبي سعيد الخدري، ومسلم (٢٢١) من حديث ابن مسعود رضي اللّٰه عنهما.

(٤) أخرجه البخاري (٤٩٨١)، ومسلم (١٥٢) من حديث أبي هريرة رضي اللّٰه عنه.

(٥) أخرجه البخاري (٥٥٧، ٢٢٦٩) من حديث ابن عمر رضي اللّٰه عنهما.

الحيوي الآداب ، وأن واقعه يقارب فيه ما كان بما ينبغي أن يكون وجرى منهم ما كان هو أو قريب منه ما يرجوه الإسلام لهم .

وكان على المحرر للترجمة أن يذكر تلك النصوص ويبين لنا رأيه فيها ولو على أنها روايات تاريخية يأخذ منها صحيح النظرة الاجتماعية حالة العصر .. إلخ ما قرره في دلالة الرواية ولو كانت موضوعة .

ج- وصف المحرر لترجمة مالك حال عصر مالك وما قبله وصفًا مطولًا - من ص٢٠٣ إلى ص٢٢٥ ج١ - ولخصه في ص٣١١- بقوله : « فهي حياة اجتماعية واقتصادية قائمة بأخلاط من أجناس الناس ، قد اختلفت ألسنتهم وألوانهم وأديانهم بعد ما تفرقت دماؤهم ، وقد تقسمتهم طبقات واضحة الفروق بينة الاختلاف ، ودبرهم حكم فردي لا يعرف من الشورى إلا صورة فردية أيضًا في شخصية وزير مخلص لا يخلص من الفتك المفاجئ واستصفاء المال وتبديد العشيرة ، ومع هذه الحياة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ما تثمره دائمًا من ثمار لن تكون إلا من هذه الطعوم وذلك المذاق ، وفي غير هذا المقام يطول الحديث عن تلك الأشجار وهاتيك الثمار التي لا بد من معرفتها معرفة متذوقة ليستطاع فهم الحياة التي يمثلها هذا البستان أو تلك الغابة فهما يستقيم به القول في تفسير التاريخ الإسلامي تفسيرًا ناموسيًا صادقًا لا يقوم على النظرة القاصرة والخطفة الطائرة من مصادر مدونة لم يعتمد هذا التاريخ بعد على غيرها ولم تدرس هي نفسها درسًا حقًا على منهج الأقدمين والمحدثين » .

هذا مجمل رأي المحرر لترجمة مالك في المجتمع الإسلامي في عصر مالك ورأيه فيما دون من تاريخه .

وسنقص عليك نتفًا مما فصله - سابقًا ص٢١٣ - لمجمل ما أجمله هنا . وقبل ذلك نقول للمحرر لترجمة مالك إن كان يشير باغتيال وزير ناصح ومصادرة

أمواله إلى محنة البرامكة وما أوقعه بهم الرشيد، فلم يكن البرامكة ناصحين للإسلام ولا لخلفائه سواء امتحنوا لتوجس سعيهم في قلب الإسلام فارسيًّا، أو قلب الخلافة من بني العباس إلى بني علي (أو .. أو .. أو ..) مما سطره التاريخ في سبب محنتهم.

وأما ما فصله المحرر في بيان حال المجتمع في عصر مالك فطويل يستغرق أربع عشرة صفحة - من ص٢١١ إلى ص٢٢٥ - أكتفي منه بما يأتي - ولعله لا يكون شر ما فيه- .

١- قوله ص٢٢٧: «وأسلمتهم هذه المتع كلها إلى الشهوة المسرفة، فاتخذوا السراري من أجناس وألوان في كثرة من العدد مدهشة، ومبالغة في أثمان أولئك الجواري وبذل الآلاف المؤلفة في إحداهن، ولا تسل عن مصابهم بالغلمان، وأقبلوا على ما يتصل بذلك من شراب ولهو وغناء وعبث ولعب ومجون.

وكانت الرقيقات في هذا المجتمع لا يمنعهن حجاب ولا يصدهن حياء ولا تردعهن تربية، فقمن في هذه الحياة مقام المتبذلات اليوم في بلاد المدنية المنعمة، وعمرن في الدور الخاصة والعامة ما كان يزيد على حياة النوادي (البارات والكباريهات) بل بيوت الدعارة السرية والعلنية. وكل أولئك إعلان للفساد وله أثره على الأخلاق وفعله في النفوس كبارًا وصغارًا جهالًا وعلماء، فللحياة في هذه البيئة أثرها على النفوس في تقدير سلطان الشهوة وغلبة الهوى وسيطرة المتعة».

هذه حال المجتمع الذي عاش فيه مالك وترعرع، فضلًا عن الثوري والفضيل بن عياض وابن عيينة وغيرهم !! فهل لنا أن نقول إن المترجم لمالك أراد أن يكمل ما أسسه صاحب (حديث الأربعاء) الذي نشر - تباعًا - في جريدة

(السياسة) قديمًا أن أئمة هذا العصر كانوا أمثال حماد عجرد وبشار بن برد وأضرابهما الذين رآهم أحدهم مجتمعين فسألهم ماذا تعملون ؟ فقال قائل منهم : نقذف المحصنات ، فقال آخر : وهل في الدنيا محصنة ؟ !

إن كان هدف المحرر لترجمة مالك – وأحد الأمناء – أراد تكميل بناء أسسه صاحب (حديث الأربعاء) فليبن لنا فيه ما شاء من بناء ، وليرفع فيه ما شاء من طبقات ما دام الغرض معروفًا والهدف معلومًا – إن صح أن يسمى هذا بناء – وإن كان الأجدر به أن يعد هدمًا ؛ هدمًا لبناء مجتمع اعترف المؤلف آنفًا أن راياتهم قد داعبتها نسائم الأطلنطي وأن رماحهم قد هزت أسوار القسطنطينية وحملوا إلى حدود الصين أنوار العدل والمدنية

فكيف يصح لمجتمع متفسخ هذا التفسخ -عند المحرر- ومتعفن هذا العفن أن تصل راياتهم إلى ما وصلت إليه حتى أصبح البحر الأبيض (بحر الروم) بحيرة إسلامية يسمع الأذان الإسلامي في نواحيه ، فإن لم يكونوا هم فاتحي هذه الأصقاع ، فقد احتفظوا بها عن الضياع إن لم يكونوا زادوا عليها ، وقوم شأنهم ما ذكره المؤلف لا يمكن أن يكون بيدهم ميزان قوة العالم القديم ، بل كان ضرب الفرس والروم لهم وإذلالهم واسترقاق حرائرهم هو المعقول الذي تقتضيه نواميس الحياة وتقضي به سنن العمران .

ومن العجب أن المؤلف لا يستشهد على ما قال ولو بشاهد من « الأغاني » أو « زهر الآداب » حتى ولو من (يواقيت الشعراني) ، وأحيانًا يدعي ولا يستشهد ؛ لأن الأمر عنده أوضح من أن يحتاج إلى شهادة ولو من كذاب .

٢- والمدينة وطن مالك ومنبت غرسه التي كانت قديمًا عش المهاجرين والأنصار وصارت بعدهم وطن أبنائهم وتلاميذهم ومواليهم صارت هي ومكة « مركزًا للموسيقى والغناء ، ومنها تخرج الموسيقيون اللازمون لبلاط دمشق ،

ففيها كانت تلتقي أصداء الألحان بأنغام الدعاء والاستغفار وأصوات المتعبدين، ولا مفر من أن يكون لهذا التلاقي أثره»

ثم ضرب المثل لذلك - كما سيأتي في الفقرة التالية - فهنيئًا لمكة والمدينة بهذه التجارة الرابحة تصدير المغنيين والموسيقيين إلى الأقطار وإلى بلاد دمشق، ويكون الحديث في مدح سكنى المدينة حينما تفتح اليمن والشام والعراق، ويقول الرسول ﷺ: «والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون»[1]. للخارجين إلى تلك الأقطار المفتوحة، فيا ترى هذه الخيرية في هذا الحديث لأن سكان المدينة سيصدرون مغنيين وموسيقيين إلى تلك الأقطار؟ وفي الحديث الآخر: «من صبر على لأواء المدينة، كنت شفيعًا له، أو شهيدًا يوم القيامة»، فأين اللأواء والشدة مع وجود المغنيين والموسيقيين يا ترى؟ والرواية إن لم تصح عند الأستاذ المؤلف فلا أقل من أن يكون لها دلالة اجتماعية على حسب أصله الذي أصله في دلالة الروايات المصنوعة المكذوبة.

⁂

(١) أخرجه البخاري (١٨٧٥)، ومسلم (١٣٨٨) من حديث سفيان بن أبي زهير رضي الله عنه.

العلوم والفنون[١]

كثر اللغط هذه الأيام بسبب ما نشر وأذيع أن روسيا أطلقت صاروخا وصل إلى القمر واستقر عليه .

فمن الناس من يظن أن ذلك يمس الدين أو يشكك فيه ؛ بزعم أن مخترعات البشر كيف تخترق أطباق السموات وتصل إلى الملأ الأعلى ؟ .

وعندي أن لا ضرر على الدين ، ولا تشكيك في أصوله من ذلك الصاروخ ، فدين الإسلام لا ينكر التقدم البشري والارتقاء في الصناعات والمخترعات .

فإذا كان من الناس -كروسيا مثلا- من عرف قوة الجاذبية الأرضية ومدى بعدها وتوصل إلى صاروخ يخرج بقوة دافعة عن مدى سلطان الجاذبية الأرضية ، وأطلقه في الفضاء حتى خرج من سلطان الجاذبية الأرضية ، ووقع في تأثير الجاذبية للقمر حتى استقر على سطحه ، فأي غرابة في هذا ؟ وأي ذنب للدين على إقحامه في إنكار مثل ذلك وتعريضه لنقد الناقدين ؟ !

ودين الإسلام قد جاء بالحث على السعي في مصالح الدين والدنيا ، ولن يقف حجر عثرة في التقدم والارتقاء الصناعي والمخترعات ، والنبي ﷺ يقول : « أنتم أعلم بأمور دنياكم ، وإذا حدثتكم عن اللّٰه فلن أكذب »[٢] ﷺ .

---

(١) مجلة المنهل - في ربيع الثاني ١٣٧٩هـ .وقد جاء في صدر المقال مقدمة للمجلة بما نصه : امتلأت أنهار الصحف في أرجاء الدنيا ، وأجواء الإذاعات العالمية بأنباء إرسال الصواريخ من الأرض إلى القمر ، وإلى غيره من النجوم كالمريخ والزهرة .
وقد رأت إدارة مجلة « المنهل » أن تستطلع آراء علماء الدين الإسلامي حيال هذا الموضوع .
ونرى القراء فيما يلي إجابات أصحاب الفضيلة الأساتذة محمد عبد الرازق حمزة ، إبراهيم الشورى ، عبد اللّٰه خياط .

(٢) مسلم (٢٣٦٣) من حديث أنس .

ولم نقف على شيء مأثور عنه ينفي تقدم الحضارة والعمران ، بل جاء في الدين الحث على النظر في ملكوت السموات والأرض : ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ [يوسف: الآية ١٠٥] .

والقرآن مملوء بالأمر بالتفكر والتدبر والتعقل ، وذم الدين الذين لهم قلوب لا يفقهون بها ، ومدح الذين يتفكرون في خلق السموات والأرض وجعلهم من أولي الألباب : ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَأَيَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [آل عمران: الآية ١٩٠] ، ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: الآية ١٦٤] .

والذين يستغربون هذا ويستبعدون وصول شيء من صنع البشر إلى القمر لظنهم أن القمر من السماء التي يعجز البشر عن التطاول إليها ، يقال لهم : ليس القمر هو السماء التي يسكنها الملائكة وتنقطع أعناق البشر عن الوصول إليها ، وإنما هو جرم علوي يدور حول الأرض في نحو شهر مرة ، فيحدد للناس أوائل الشهور العربية وأواخرها كما قال تعالى : ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ﴾ [البقرة: الآية ١٨٩] .

فليس القمر هو السماء ؛ مسكن الملائكة ، وإنما هو جرم يدور في الفضاء للحكمة التي خلقه الله لها ؛ يرتبط مع الأرض بالجاذبية العامة التي تمسك جميع الأجرام العلوية .

وقد جاء ذكر السماء في القرآن بمعنى العلو في آيات كثيرة كقوله : ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾ [النّحل: الآية ٦٥] . ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ

يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ﴾ [الحج: الآية ١٥] . ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ [الرُّوم: الآية ٤٨] . ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ﴾ [النُّور: الآية ٤٣] . ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ﴾ [النّحل: الآية ٧٩] .. إلى غير ذلك من الآيات التي جاء فيها ذكر السماء بمعنى العلو كالسحاب ونحوه وأجواء الفضاء .

أما السماء التي هي مسكن الملائكة وصعد إليها النبي ﷺ ليلة المعراج فرأى آدم في الأولى منها ، وعيسى ويحيى في الثانية ، وموسى في السادسة ، وإبراهيم في السابعة ، وفيها شجرة المنتهى عندها جنة المأوى ، وفوقها كرسي الرحمن وعرشه المجيد ، فلن نسمع لأحد يتطاول إليها أو يدعي وصول شيء من اختراعه إليها ، وهي من عالم الغيب الذي نصدق ما جاء في وصفه عن الصادق الأمين . والسلام .

❁❁❁

حول مشاهد القيامة في القرآن(١)

في « البلاد السعودية » يوم الأحد غرة رجب ؛ في آخر مقال الأديب أحمد جمال في رده على سيد قطب تفسير قوله تعالى : ﴿وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٍ﴾ [سَبَأ: الآية ٥٢] ما معناه : أنه أخذ الملائكة للمشركين وجرهم لهم إلى العذاب .. إلخ .

وليس هذا من معنى الآية في قبيل ولا دبير ، ولا ذكره أحد من المفسرين قديمًا ولا حديثًا ، ولا دل عليه سياق الآية لا بالتضمين ولا بالمطابقة ولا الالتزام .

ولا يخفى على الأديب الفاضل ما جاء من الوعيد في تفسير القرآن بالرأي ، وأن تفسير القرآن له قواعد وعلوم وإحاطة بما جاء عن السلف وأئمة التفسير ، فعلى من يريد أن يدخل هذا الميدان أن يتسلح بسلاحه وأن يعد عدته .

ويسرنا أن نرى أدباءنا يضربون بأسهمتهم مع أدباء العالم وأن يزاحموهم في النقاش والحوار ، ولكن لا نحب لهم دخول المعركة عزلا غير مستعدين بعدد العراك والكر والفر .

ولنذكر للأديب شيئًا من مقال المفسرين ، والكلام لشيخهم الإمام ابن جرير رحمه الله قال(٢) : يقول تعالى ذكره : وقال هؤلاء المشركون حين عاينوا عذاب الله : آمنا به ، يعني آمنا بالله وبكتابه ورسوله ، في حين لا ينفعهم قبل ذلك ، فقال الله : وأنى لهم التناوش . أي وأين لهم التوبة والرجعة ؛ أي قد بعدت عنهم ، فصاروا منها في موضع بعيد أن يتناولوها وإنما وصفت ذلك الموضع(٣) بالبعيد ؛

(١) مجلة البلاد السعودية – العدد (٧١٨) ١٣٦٧/٧/٨هـ .

(٢) تفسير ابن جرير ٢٢/ ١٠٩، ١١٠.

(٣) في الأصل « وأنى وصف الموضع » والمثبت من « تفسير الطبري ».

لأنهم قالوا ذلك في القيامة ، فقال الله : أنى لهم التوبة المقبولة ، والتوبة المقبولة إنما كانت في الدنيا ، وقد ذهبت الدنيا فصارت بعيدًا عن الآخرة .

ثم روى ذلك عن ابن عباس ومجاهد وابن زيد وبمثل ذلك ذكر القرطبي[١] وغيره من سائر المفسرين .

هذه كلمة عابرة ؛ نصيحة للأديب ومحبة في حسن سمعة البلاد العربية ؛ مهبط الوحي ومشرق شمس الإسلام ، ورفعة لشأنها لدى العالم الإسلامي ، بله العالم المتدين كله ... والسلام .

❁❁❁

(١) تفسير القرطبي ١٤/ ٣١٥، ٣١٦.

محرم الحرام(١)

قال الله تعالى : ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثۡنَا عَشَرَ شَهۡرٗا فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوۡمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ مِنۡهَآ أَرۡبَعَةٌ حُرُمٞۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُۚ فَلَا تَظۡلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمۡۚ وَقَٰتِلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ كَآفَّةٗ كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمۡ كَآفَّةٗۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ٣٦ إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٞ فِي ٱلۡكُفۡرِۖ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُحِلُّونَهُۥ عَامٗا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامٗا لِّيُوَاطِـُٔواْ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّواْ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُۚ زُيِّنَ لَهُمۡ سُوٓءُ أَعۡمَٰلِهِمۡۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [التوبة : ٣٦ - ٣٧] .

توقيت الزمن وتقسيمه أمر فطري جبل الله الجبلة البشرية عليه ؛ لتنظيم شئون معايشهم وتنظيم أعمالهم ، فمتى بدأت غريزة الفهم والتمييز في الإنسان بدأ يعرف الليل من النهار ، ومتى ارتقت معارفه عرف أن توالي الأيام يكون أسبوعًا ، وتوالي الأيام والأسابيع يكون عنه الشهور ، ومجموع الشهور سنون ، والسنون أحقاب وقرون .

وقد ربط الله الليل والنهار بسير الشمس ، فظهورها نهار واختفاؤها ليل ، وفي أكثر البلاد المعمورة ما عدا المناطق غير المعمورة حيث القطبين .

واتفق الناس أن كل سبعة أيام هو الأسبوع ، وذهب بعض أهل العلم إلى أن مدة تسبيع الأسبوع سرت إلى الناس من ديانات السماء ؛ بسبب تشريع الديانات كل سبعة أيام يومًا للعبادة والراحة .

وجاء في أحاديث « أضل الله من قبلنا عن يوم الجمعة وهدانا إليه ، فغدًا لليهود وبعد غد للنصارى ، فالناس لنا فيه تبع »(٢) أو كما قال ﷺ . وفي أثر

---

(١) مجلة « الحج » - محرم وصفر - ١٣٦٩هـ - السنة (٣) .

(٢) البخاري (٨٧٦) ، ومسلم (٨٥٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

آخر: « ما حسدتنا اليهود على شيء كما حسدتنا على يوم الجمعة »[1].

أما عدد أيام الشهور والسنين فقد اختلف تقدير الناس في الميزان الذي توزن به الشهور والسنون، فمنهم من ربطها بسير الشمس في بروجها؛ فإذا دارت في فلكها دورة كاملة عدوا ذلك سنة، وقد قدروها بـ « ٢٥ و ٣٦٥» يومًا تقريبًا، ثم قسموا هذا العدد ١٢ قسمًا، سموا كل قسم شهرًا.

ولما كان هذا العدد لا ينقسم قسمة صحيحة إلى ١٢ فقد اصطلحوا أن يكون بعض الأقسام ٣٠ يومًا وبعضها ٣١ يومًا وواحد منها ٢٨ أو ٢٩ يومًا.

فهذا هو أساس اختلاف أيام الشهور الأعجمية؛ فارسية كانت أو رومية أو إفرنجية.

أما العرب وأهل الكتاب قبل أن يخلطوا توقيتهم ويمزجوه شمسيًا بقمري، فقد كان تحديدهم للشهر بسير القمر الذي يكون أول الشهر هلالًا صغيرًا يرى بعد الغروب جهة الغرب، فيبتدئ عندهم أول الشهر ثم يزداد وتطول مدة مكثه بعد الغروب إلى أن يتكامل بدرًا ويبقى الليل كله، وحينئذ يتنصف الشهر، ثم يأخذ في النقص ويتأخر شروقه حتى ينمحق ويختفي، وبذلك ينتهي الشهر، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ﴾ [البقرة: الآية ١٨٩]. وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ﴾ [الإسراء: الآية ١٢].

وقد بحث الناس في الأفضل من ربط الشهور بسير القمر أو الشمس.

فمنهم من فضل ربطها بالشمس، لموافقة فصولها؛ صيفًا وشتاء وربيعًا وخريفًا لأحوال الزراعة، وجعلوا التوقيت بالشهر القمري إنما يناسب الأمة البدوية

---

(١) أحمد ٦/ ١٣٤. وانظر صحيح الترغيب والترهيب (٥١٥).

التي تعيش على الصيد فلا حاجة لها بشئون الزراعة وتأثير القيظ والبرد عليها .

ومنهم -وهم أهل الأديان- من يدافع عن التوقيت الشهري والسنوي بسير القمر بأنه هو التوقيت الفطري الذي يراه كل أحد من البدو والحضر ، فلا يحتاج إلى حساب يغلط فيه الغالطون ، ويكون الناس فيه تحت سيطرة دكتاتورية ممن يزعم لنفسه معرفة الحساب الفلكي وتسيير النجوم في أفلاكها .

ولشيخ الإسلام ابن تيمية في ذلك كلام نفيس خلاصته : أن هذه الشريعة الإسلامية أكملها اللّٰه تعالى ؛ ومن كمالها أن أوقات العبادة فيها للصلاة والصوم والحج يشترك في معرفتها سائر الناس من بدو وحضر ، فلم يحوجهم اللّٰه إلى حساب ولا منجمين ولا طائفة معينة تتحكم في توقيت عباداتهم ، فصلاة الصبح مثلا يدخل وقتها بفلق الفجر ؛ الشفق الذي يسبق طلوع الشمس ، والظهر بزيغ الشمس عن كبد السماء ، والعصر بمصير ظل الأشياء كطولها شرقًا ، والمغرب بغروب الشمس ، والعشاء بمغيب الشفق الذي يبقى بعد الغروب قليلًا ، وهكذا قل في شهور الصوم والحج والأشهر الحرم .

ونحن إذا تجاوزنا عن خطأ قد يحدث أحيانًا من تقدم بعض الشهور يومًا في بعض الأقطار أو تأخره يومًا بسبب الاختلاف في رؤية الهلال أحيانًا ، فإننا نرى الطريقة القمرية أقرب إلى الضبط ، فلم يقع فيها ما وقع في التقويم الشمسي من التعديل الجريجواري على التقويم اليوليوسي إذ ألغى البابا الجريجوار عشرة أيام من التقويم اليوليوسي لا تدخل في الحساب أصلًا ؛ سببها أن دورة الشمس الحقيقية هي « ٢٤ و ٣٦٥» يومًا ، فلما اعتبرت ٢٥ و٣٦٥ زادت السنة ١, ١٠٠؟ في اليوم عن قدرها الحقيقي فتجمعت هذه الزيادة عشرة أيام في عصر البابا جريجوار القرن السادس عشر الميلادي ، وتأخر مرور الشمس يوم الاعتدال الربيعي عن (٢٢ مارس) عشرت أيام فاضطر البابا المذكور إلى حذف هذه العشرة الأيام .

وقد قبل تعديله أهل أوربا الغربية ، ولم يقبله الشرقيون منهم فصار بين توقيتهم فرق (١٣ يومًا) ؛ هذه العشرة الأيام التي حذفها البابا المذكور وثلاثة أيام تجمعت في القرون الثلاثة التي جاءت بعده إلى الآن .

فتجد الاحتفال بعيد الميلاد المسيحي مثلا عند الأمم الغربية متأخرًا ثلاثة عشر يومًا عنه عند الأمم الشرقية بسبب هذا التعديل الجريجواري ، وقبوله عند قوم منهم وعدم قبوله عنده آخرين ، وهكذا قل في الصوم وسائر أعيادهم الدينية .

أما نحن المسلمين فقد أغنانا اللَّه تعالى عن تقويم نحتاج فيه إلى تعديل جريجواري أو خلافه ، ومسألة تقدم الشهر بيوم أو تأخره به تزول متى اتفق المسلمون على قاعدة متفق عليها بينهم في كيفية إثبات رؤية الهلال .

وهل يكفي فيها شهادة الشهود ولو علمنا أو ظننا خطأهم ؟ أو لابد من ضم القرائن والشواهد التي تؤيد رؤيتهم أو تشكك فيها ؟ وليس ذلك على عقلاء المسلمين وزعمائهم وأهل الحل والعقد فيهم بصعب خصوصًا بعد تقارب سياساتهم وتوحيد كلمتهم في مؤسسة عظيمة كالجامعة العربية .

أخبر اللَّه تعالى أن عدة الشهور عنده في شرعه وقدره وكتاب أقداره اثنا عشر شهرًا بسير القمر الذي قال اللَّه عن أهلته : ﴿مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ﴾ [البقرة: الآية ١٨٩] ، ﴿مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾ [التوبة: الآية ٣٦] بينها النبي ﷺ في حجة الوداع أنها ثلاث متواليات ؛ ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ، ورجب مضر بين جمادى وشعبان .

بقي أن يقال : إننا نرى الشهر القمري مرة ثلاثين يومًا ومرة تسعة وعشرين يومًا ، فهل يسير القمر شهرًا صحيحًا وشهرًا أعرج أو مريضًا ؟ !

وجوابه سهل على من مارس شيئًا من علم حركات أجرام السماء ، فقد علم بالاستقراء أن القدر الحقيقي لدورة القمر في فلكه حول الأرض هو (٥, ٢٩) يومًا

تقريبًا، والشهر يحسب أيامًا صحيحة، فترك نصف يوم من شهر وأضيف إلى شهر آخر، أو بتعبير آخر: إن دورتي القمر في فلكه حولنا تستغرق (٥٩) يومًا جعل منها ٣٠ يومًا لشهر و٢٩ لآخر.

وأما قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا لِّيُوَاطِـُٔوا۟ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ﴾ [التوبة: الآية ٣٧] .. إلخ، فإن ذلك على ما أفاده البغوي في «تفسيره»[١]: أن العرب كانت تعتقد تعظيم الأشهر الحرم، وكان ذلك مما تمسكت به من ملة إبراهيم عليه السلام، وكانت عامة معايشهم من الصيد والغارة، فكان يشق عليهم الكف عن ذلك ثلاثة أشهر؛ ذا القعدة إلى المحرم على التوالي، وربما وقعت لهم حرب في الأشهر الحرم فيكرهون تأخير حربهم، فنسئوا، أي: أخروا تحريم ذلك الشهر إلى شهر آخر، وكانوا يؤخرون تحريم المحرم إلى صفر، فيحرمون صفر ويستحلون المحرم، فإذا احتاجوا إلى تأخير تحريم صفر أخروه إلى ربيع، وهكذا شهرًا بعد شهر حتى استدار التحريم على السنة كلها، وقد رجع المحرم إلى موضعه الذي وضعه اللَّه عز وجل فيه، أي سنة حجة الوداع. ثم روى البغوي حديث البخاري[٢] عن أبي بكرة رضي اللَّه عنه عن النبي ﷺ قال في حجة الوداع: «إن الزمن قد استدار كهيئته يوم خلق اللَّه السموات والأرض؛ السنة اثنا عشر شهرًا؛ منها أربعة حرم ثلاث متواليات ذو القعدة وذو الحجة والمحرم، ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان» إلى أن قال: «إن دماءكم وأموالكم». قال محمد - يعني ابن سيرين راوي الحديث - عن أبي بكرة: وأحسبه قال: «وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا -يعني يوم النحر- في بلدكم هذا - يعني مكة - في شهركم هذا -

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ٤٥.

(٢) البخاري (٣١٩٧، ٤٤٠٦، ٤٦٦٢).

ذا الحجة - وستلقون ربكم ويسألكم عن أعمالكم ، ألا فلا ترجعوا بعدي ضلالا يضرب بعضكم رقاب بعض ، ألا فليبلغ الشاهد الغائب فلعل بعض من يبلغه أن يكون أوعى له من بعض من سمعه ، ألا هل بلغت ؟ ألا هل بلغت ؟ » .

قال البغوي في « تفسيره » : قالوا وكان قد استمر النسيء بهم ، فكانوا ربما يحجون في بعض السنين في شهر ويحجون من قابل في شهر آخر ، قال مجاهد : كانوا يحجون في كل شهر عامين ، فحجوا في شهر ذي الحجة عامين ثم حجوا في المحرم عامين ثم حجوا في صفر عامين وكذلك في سائر الشهور ، فوافقت حجة أبي بكر رضي اللَّه عنه قبل حجة الوداع السنة الثانية من ذي القعدة ، ثم حج النبي ﷺ في العام القابل في حجة الوداع فوافق حجه شهر الحج المشروع ؛ وهو ذو الحجة ، فوقف بعرفة اليوم التاسع وخطب اليوم العاشر بمنى ، وأعلمهم أن أشهر النسيء قد تناسخت باستدارة الزمان وعاد الأمر إلى ما وضع اللَّه عليه حساب الأشهر الحرم يوم خلق السموات والأرض وأمرهم بالمحافظة عليه لئلا يتبدل في مختلف الأيام .

ثم ذكر البغوي اختلافهم في أول من نسأ النسيء إلى أن انتهى إلى رجل يقال له : جنادة بن عوف رجل من بني كنانة يقال له : قلمس قال شاعرهم :

وفينا ناسئ الشهر القلمس

وقال الآخر[1] :

لقد علمت معد بأن قومي كرام الناس أن لهم كراما
ألسنا الناسئين على معد شهور الحل نجعلها حراما
فأي الناس لم ندرك بوتر وأي الناس لم نملك لجاما

---

(١) هو : عمير بن قيس جذل الطعان أحد بني فراس بن غنم بن ثعلبة بن مالك بن كنانة يفخر بالنسأة على العرب . « سيرة ابن هشام » (١/١٦١) .

وذكر الحافظ ابن كثير في « تفسيره »[1] عن الشيخ علم الدين السخاوي من جزء له سماه : « المشهور في أسماء الأيام والشهور » أن المحرم سمي بذلك لكونه شهرًا محرمًا . قال ابن كثير : وعندي أنه سمي بذلك تأكيدًا لتحريمه لأن العرب كانت تتقلب به فتحله عامًا وتحرمه عامًا .

قال السخاوي : وصفر سمي بذلك لخلو بيوتهم منهم حين يخرجون للقتال والأسفار ، وشهر ربيع الأول سمي لارتباعهم فيه ، والارتباع الإقامة في عمارة الربيع ، وجمادى الأولى لجمود الماء فيه ، قال : وكانت الشهور في حسابهم لا تدور ، يعني أنها شمسية . قال ابن كثير : وفي هذا نظر إذ كانت شهورهم منوطة بالأهلة فلابد من دورانها فلعلهم سموه بذلك أول ما سمي عند جمود الماء في البرد ، قال الشاعر :

وليلة من جمادى ذات أندية ... لا يبصر العبد في ظلمائها الطنبا

لا ينبح الكلب فيها غير واحدة ... حتى يلف على خرطومه الذنبا

ورجب من الترجيب وهو التعظيم ، وشعبان من تشعب القبائل وتفرقها للغارة ، ورمضان من شدة الرمضاء وهو الحر ، وشوال من شالت الإبل بأذنابها للطراق ، والقعدة - بفتح القاف وكسرها - لقعودهم فيه عن القتال والترحال ، والحجة بكسر الحاء وفتحها لإقامتهم للحج .

وذكر أسماء أيام الأسبوع بألفاظها المعروفة الآن الأحد - الاثنين - الثلاثاء - إلخ .

ثم قال . وكانت العرب تسمي الأيام -يعني قبلا - : أول ، ثم أهون ، ثم جبار ، ثم دبار ، ثم مؤنس ، ثم العروبة ، ثم شيار . قال الشاعر (من العرب العرباء العاربة المتقدمين) :

---

(١) تفسير ابن كثير ٤/ ١٤٦.

أرجى أن أعيش وإن يومي بأول أو بأوهن أو جبار
أو التالي دبار فإن أفته فمؤنس أو عروبة أو شيار

هذا وعلى ذكر التوقيت الشمسي والقمري، فإنا نزف البشرى إلى القوم الذين يحبون لمكة الخير والتقدم العصري لتجمع مع الزعامة الدينية وشرف قبلة الإسلام المساهمة مع العصر في فنونه أن هناك فكرة بإنشاء مرصد فلكي وجوي بهمة وتشجيع صاحب السمو الملكي ولي العهد المعظم بجلب كثير من أدواته الفلكية مع مشاركة مصر في إهداء كثير من الآلات الجوية؛ حبا في مكة والحجاز وبلاد العرب والحكومة السعودية، وقد أمر سمو ولي العهد ببناء المكان المعد لهذا المرصد فوق علو أبي قبيس وإنا لتنفيذ وزارة المالية لهذا الأمر السامي الكريم في قلق الانتظار، أعانها اللّٰه على خدمة مصالح البلاد وتنفيذ أوامر أولياء الأمر بهمة وسرعة يحمدها لها الحامدون.

كما أننا نزف بشرى أخرى من حسنات سمو ولي العهد المعظم، وما أكثر ما له من حسنات وأيادي بيضاء على العلم وأهله؛ هو إهداء دار الأرقم بن أبي الأرقم المخزومي بجذم الصفا التي كانت محل الدعوة الإسلامية الأولى أيام الاضطهاد الشركي والتألب القرشي على الرسول وأصحابه، فكانت دار الأرقم معقل الدعوة ونفق الاختباء، وفيها أسلم عمر الفاروق أمير المؤمنين وحمزة بن عبد المطلب سيد الشهداء بأحد، لها في السيرة النبوية فصل ممتع شائق.

تكرم سمو ولي العهد بإهداء هذه الدار التاريخية لدار الحديث المكية لمدارسة القرآن والسنة الصحيحة النبوية، فأحيا سموه العظيم تاريخ هذه الدار التاريخية بهذا العمل الجليل، وأضاف يدا بيضاء إلى أياديه التي تفوت العد في تشجيع العلم بجميع فروعه من ديني ودنيوي. بارك اللّٰه عليه وفي أعماله وأياديه آمين.

كسوف الشمس[1]

تلك الظاهرة الكونية التي استرعت انتباه الناس من قديم الزمان ؛ لابد من كلمة قصيرة عنها ، وقدرًا مما عرفه الناس وقالوه عنها في تعليلها وسبب حدوثها .

جاء في الصحيحين من حديث عائشة رضي اللَّه عنها قالت : إن الشمس خسفت على عهد رسول اللَّه ﷺ فبعث مناديًا بالصلاة جامعة .

وعنها بعد ما وصفت صلاة الخسوف قالت : ثم انصرف - تعني النبي ﷺ - وقد انجلت الشمس ، فحمد اللَّه وأثنى عليه ، ثم قال : « إن الشمس والقمر آيتان من آيات اللَّه لا يخسفان لموت أحد ولا لحياته ، فإذا رأيتم ذلك فادعوا اللَّه وكبروا وصلوا وتصدقوا » ثم قال : « يا أمة محمد ؛ وإن ما من أحد أغير من اللَّه أن يزني عبده أو تزني جاريته ، يا أمة محمد ؛ واللَّه لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلًا ولبكيتم كثيرًا »[2] .

وفي لفظ آخر في « الصحيح »[3] أيضًا « هذه الآيات التي يرسل اللَّه لا تكون لموت أحد ولا لحياته ، ولكن يخوف اللَّه بها عباده ، فإذا رأيتم شيئًا من ذلك فافزعوا إلى ذكره ودعائه واستغفاره » .

وفي حديث النسائي[4] : « إن أهل الجاهلية كانوا يقولون : إن الشمس والقمر لا ينخسفان إلا لموت عظيم من عظماء أهل الأرض ، وإن الشمس والقمر لا ينخسفان لموت أحد ولا لحياته ، ولكنهما خليقتان من خلقه ، ويحدث اللَّه في خلقه ما يشاء ، فأيهما انخسف فصلوا حتى ينجلي » .

---

(١) صحيفة « البلاد السعودية » العدد ١١٤٥ في ١٣٧١/٦/١هـ.

(٢) البخاري (١٠٤٤) ، ومسلم (٩٠١) .

(٣) البخاري (١٠٤٨) ، ومسلم (٩١١) .

(٤) النسائي (١٤٩٠) .

هذا موجز مما جاء في الشرع من الذكرى والعبرة لهذا الحديث ، حتى لا يمر والناس في غفلة ولهو ولعب ، فدعا الشرع إلى الاعتبار والاتعاظ به ، والفزع إلى اللَّه تعالى عنده ، والتقرب إليه بالصلاة والدعاء والصدقة والاستغفار ، ونفى أوهام الجاهلية فيه من حدوثه لموت عظيم أو حياته ؛ من حوادث الأرض العظيمة عندهم .

ومن المصادفات أن يحدث في عهده ﷺ كسوف الشمس يوم مات ابنه إبراهيم ، فقال بعض الناس : خسفت الشمس لموت إبراهيم ابن النبي ﷺ ، فبادر ﷺ إلى دفع الوهم الباطل ، وتعليم الناس حكمة اللَّه في ذلك وما يحب من عباده حينئذ . ولو كان من دعاة الضلال لاستغل وهم الناس وسذاجتهم إلى ما يعود عليه بزعم من زعم أنه كان لموت إبراهيم وحزنًا عليه .

أما أهل النظر والتجربة والباحثون في العلوم الكونية فقد استنتجوا من حدوث هذه الظاهرة عند اجتماع النيرين أو استقبالهما أن ذلك بسبب هذا الاجتماع أو الاستقبال .

وقد صوروا مدار الشمس والقمر بما دلتهم عليه الأرصاد والحساب غير متطابقين ولكنهما متقاطعان في نقطتين تسمى إحداهما : بالعقدة الصاعدة ، والثانية : بالعقدة النازلة . فإذا اجتمعا أو تقابلا على هاتين العقدين نقطتي تقاطع مدارهما كانا والأرض على خط مستقيم ، فحصلت تلك الظاهرة العجيبة . ولو كانا مدارهما متسامتين تمامًا لوقعت هذه العجيبة كل شهر .

وفي الفلك العملي أبواب مبوبة لحساب الأوقات التي يكون فيها النيران على العقدة ، أي نقطة تقاطع المدارين ؛ وبالتالي معرفة أوقات كسوف الشمس أو خسوف القمر .

وحكماء العلماء الذين يجمعون بين معرفة الشرع ولا يجافون ما أثبته البحث النظري والتجارب العلمية لا يرون تناقضًا بين ما جاء في الشرع وبين ما قاله علماء

الكون عن خبرة وتحقيق ، فالشرع من عند اللّٰه والكون خلق اللّٰه تعالى وكلاهما من نعمة اللّٰه تعالى على عباده ، وتخيل تناقضهما من ضيق الأفق وقلة الفهم .

ولعلنا نعود إلى شرح الموضوع بأوسع من هذا على ضوء ما حقق الراسخون من أهل العلم في ذلك كشيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه الإمام ابن القيم ، إن شاء اللّٰه تعالى ، ولا حول ولا قوة إلا باللّٰه العلي العظيم .

❁❁❁

الكسوف أيضًا[1]

﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَا تُغۡنِي ٱلۡأٓيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ﴾ [يُونس: الآية ١٠١] .

﴿وَكَأَيِّن مِّنۡ ءَايَةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ يَمُرُّونَ عَلَيۡهَا وَهُمۡ عَنۡهَا مُعۡرِضُونَ﴾ [يُوسُف: الآية ١٠٥] .

إن من نظر في هذا العالم نظر التأمل والاعتبار كما أمر اللَّه يظهر له من تدبير اللَّه تعالى لخلقه بسنن حكيمة ونواميس عجيبة ما يقطع معه أن هذه الصنعة العجيبة هي خلق العزيز العليم الحكيم القدير .

وقد جاء في الشرع الحنيف الإشارة إلى تدبيره الغيبي وراء ما يعرفه العقلاء من هذه السنن الظاهرة ، تقوم به ملائكته المدبرات بأمره الذين لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون ، فقد وكل بالسحاب والنبات والأرحام والجبال والحياة والموت من ملائكته ما أشارت إليه الآيات والأحاديث .

فمن قصر نظره على ما عرف بالعقل من سنن الكون معرضًا عما جاءت به الرسل والشرائع كان ممن يعلمون ظاهرًا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون ، فحرم نفسه الإيمان بالغيب ، وهو أهم أركان الإيمان ، فإن أنكر ما جاءت به الرسل كان من القوم الكافرين الذين كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله .

ومن أعرض عما أثبت العقل والنظر من هذه السنن الكونية كان مكابرًا للبديهة والعقل وحرم نفسه الانتفاع بما فطر اللَّه عليه عباده من ثمرات العقول وتقدم الحضارة والعمران ، واستطال عليه أهل هذه المباحث بما عرفوا واستفادوا

---

(١) صحيفة « البلاد السعودية » العدد ١١٤٧ في ١٣٧١/٦/٦هـ.

من معرفة هذه السنن وما أفادت في تقدم البشرية ومعايشهم .

ولقد كان اهتمام الشرع وما جاءت به الرسل في النظر إلى هذا العالم بالنظر إلى أسبابه الغيبية التي يجريها على أيدي ملائكته ، وترك البحث في السنن الظاهرة والنواميس الكونية إلى تجارب الناس وعقولهم التي تترقى من حين إلى حين وتقبل البحث والتمحيص وتضيف الآخر إلى ما عرف الأول تهذيبًا ونقدًا وتعديلًا .

والراسخون في العلم يؤمنون بما جاءت به رسل اللّه من الغيب وينتفعون بما عرفه الناس من سننه ونواميسه ، فالشرع شرع اللّه والعقل نعمة اللّه ، ولا تعارض بين شرعه ونعمه إلا عند قصار النظر .

أما المؤمن العاقل فيؤمن بدينه وينتفع من علوم الدنيا ما أثبته البحث والتجربة والتمحيص ؛ من علوم الطب والزراعة والهندسة والصناعات التي تنفع الناس في دنياهم ولا تضر بدينهم .

فإذا جاء في الحديث[1] «أن الملك يقول يا رب نطفة . علقة . مضغة ، فما الرزق ؟ فما الأجل ؟ شقي أم سعيد ..» آمن بذلك وعلم أنه حق كما أخبر بذلك الصادق المصدوق .

وإذا نظر في علم الأجنة أن الجنين يتكون في رحم أمه بتلقيح بويضة الأنثى بالحيوان المنوي من الذكر بسنن معلومة عندهم ، فنشأة هذا الجنين من تلقيح الأبوين ونموه في الرحم بدورة دم أمه .. إلخ لم يعارض ذلك عنده ما أثبته الحديث .

وهكذا تكوين السحاب وتوجيهه إلى ما يريد اللّه سوقًا إليه بأمر اللّه الذي ينفذه ملكه ، مع ما عرف الناس لها من أسباب ظاهرة من تبخر المياه بحركة الرياح وحرارة الشمس ، وسوقها بالرياح المبشرات بها .. إلخ .

---

(١) مسلم (٢٦٤٦) .

وهكذا ما جاء عن الكسوف شرعًا وعقلًا مما يجري على هذا النمط .

إذا علمت هذا التمهيد الوجيز ننتقل بك إلى موضوع الخسوف والكسوف وأسبابه ، وخير ما نسوق إليك في ذلك كلام شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه الإمام شمس الدين ابن القيم[1] رحمهما اللّٰه تعالى وهما هما علمًا ودينًا .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في الفتاوى المصرية (ص٢٢٠-ج١) ، وفي مختصرها (ص٤٨١) : الكسوف والخسوف لهما أوقات مقدرة كما أن لطلوع الهلال وقت مقدر ؛ وذلك مما أجرى اللّٰه عادته كالليل والنهار والشتاء والصيف وسائر ما يتبع جريان الشمس والقمر وذلك من آيات اللّٰه تعالى ، فكما أن العادة أن الهلال لا يستهل إلا ليلة ثلاثين أو إحدى وثلاثين ، وأن الشهر لا يكون إلا ثلاثين أو تسعًا وعشرين فكذلك أجرى أن العادة أن الشمس لا تنكسف إلا وقت الاستسرار وأن القمر لا يخسف إلا وقت الإبدار[2] ، وللشمس والقمر ليال معتادة من عرفها عرف الكسوف والخسوف كما أن من علم كم مضى من الشهر يعلم أن الهلال يطلع في الليلة الفلانية ، ولكن العلم بالهلال هو علم الناس ، وأما علم الكسوف فهو لمن يعرف حساب جريانهما ، وليس خبر الحساب بذلك من باب علم الغيب ، بل مثل العلم بأوقات الفصول .. إلخ .

ثم أطال رحمه اللّٰه في بيان الفرق بين هذا الحساب وبين الكهانة والتنجيم المذموم شرعًا ، وبين حديث « من اقتبس شعبة من النجوم فقد اقتبس شعبة من

---

(١) الفتاوى الكبرى ٤/ ٤٢٤، ومفتاح دار السعادة ٢/ ٢٠٧.

(٢) قال رحمه اللّٰه : « ووقت إبداره هى الليالي البيض التى يستحب صيام أيامها ليلة الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر فالقمر لا يخسف الا فى هذه الليالي .
والهلال يستتسر أخر الشهر اما ليلة واما ليلتين كما يستتسر ليلة تسع وعشرين وثلاثين والشمس لا تكسف الا وقت استسراره (الفتاوى ٢٤/٢٥٥).

السحر »[١] . بيانًا شافيًا وافيًا لا ينطبق على معرفة مسيرة الكواكب والشمس والقمر ، فراجعه فإنه نفيس جدًّا .

وقال الإمام شمس الدين ابن القيم في كتابه « مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة »[٢] (ص٥٥) طبعة ربيع[٣] .

وأما سبب كسوف الشمس فهو توسط القمر بين جرم الشمس وبين أبصارنا ، فإن القمر عندهم جسم كثيف مظلم ، وفلكه دون فلك الشمس ، فإذا كان على مساواة إحدى نقطتي الرأس أو الذنب - يريد ما يسمى العقدة الصاعدة والعقدة النازلة- أو قريبًا ، فهي[٤] حالة الاجتماع من تحت الشمس حال بيننا وبين نور الشمس كسحابة تمر تحتها إلى أن يتجاوزها من الجانب الآخر ... إلخ ما شرح من ذلك في بيان كونه كليًّا أو جزئيًّا . فراجعه إن شئت .

ثم قال : وأما سبب خسوف القمر فهو توسط الأرض بينه وبين الشمس حتى يصير القمر ممنوعا من اكتساب النور من الشمس ويبقى ظلام ظل الأرض في ممرِّه ؛ لأن القمر لا ضوء له أبدًا ، وإنما يكتسب الضوء من الشمس . ثم أطال الكلام في بيان الشروط التي يكون عليها الخسوف كليًّا أو جزئيًّا ، فطالعه إن شئت يشرح لك المسألة عما يغنيك عن مطولات علم الفلك .

ثم قال (ص٥٥٤) : وإنما ذكرنا هذا الفصل ولم يكن من غرضنا ؛ لأن كثيرًا من هؤلاء الأحكاميين - يعني المنجمين- يموهون على الجهال بأمر الكسوف ويوهمونهم أن قضاياهم وأحكامهم النجومية من السعد والنحس والظفر والغلبة

---

(١) أحمد (٢٨٤١) و أبوداود (٣٩٠٥) وابن ماجه (٣٧٢٦) . قال الشيخ الألباني : (صحيح) انظر حديث رقم : ٦٠٧٤ في صحيح الجامع.

(٢) (٢١٩/٣) ط . دار ابن عفان.

(٣) غير واضحة بالأصل .

(٤) في « مفتاح دار السعادة » :« منهما ».

وغيرها هي من جنس الحكم بالكسوف ، فيصدق بذلك الأغمار والرعاع ، ولا يعلمون أن الكسوف يعلم بحساب سير النيرين في منازلهما ، وذلك أمر قد أجرى اللَّه تعالى العادة المطردة به كما أجراها في الإبدار والسرار والهلال ، فمن علم وقت الكسوف ودوامه ومقداره وسببه .. إلخ ما أطال به من ضرر ، أو ما قالوه من حق وباطل والظن أن من ضرورة تصديق الرسل أو ما علمه هؤلاء بالعقل الضروري الذي علمت مقدماته بالحس ، وإبطال ذلك بمقومات لا تغني من الحق شيئًا ، والجناية على الدين بإضافة ذلك إليه وإلى الرسل ، حتى ساء ظن الملاحدة بالرسل وبالدين ...

إلى أن قال : والذي سلطهم على ذلك هو جحد هؤلاء لحقهم ومكابرتهم إياهم على ما لا يمكن المكابرة عليه مما هو معلوم لهم بالضرورة ، كمكابرتهم إياهم في كون الأفلاك كرية الشكل والأرض كذلك ، وأن نور القمر مستفاد من نور الشمس ، وأن الكسوف القمري عبارة عن إغماء ضوء القمر بتوسط الأرض بينه وبين الشمس من حيث إنه يكتسب نوره منها ، والأرض كرة والسماء محيطة بها من الجوانب ، فإذا وقع القمر في ظل الأرض انقطع عنه نور الشمس كما قدمناه ، وكقولهم : إن الكسوف الشمسي معناه : وقوع جرم القمر بين الناظر وبين الشمس عند اجتماعهما في العقدتين على دقيقة واحدة .. إلخ ما أطال به ؛ يعد مكابرة وتنفيرًا للعقلاء من الدين .

ثم أورد حديث : « إذا تجلى اللَّه لشيء من خلقه خشع له »[(١)] . وتكلم على سنده ومتنه بكلام نفيس (ص ٥٥٨، ص٥٥٩) لا يحتمله هذا المقال ، فراجعه إن شئت ...[(٢)] هذا الإمام ، ما جمع من تحقيق علمي في الدين وعلومه والدنيا

---

(١) النسائي في الكبرى (١٨٧٠) ، وابن ماجه (١٢٦٢) من حديث النعمان بن بشير رضي اللَّه عنهما ، وضعفه الألباني في ضعيف السنن.

(٢) كلمة غير واضحة.

وما ينصاع بها من مصالح العباد .

هذا ، وقد اهتم بحادث الكسوف الماضي دول الحضارة فأوفد كثير منها بعوثًا إلى حيث يقع كليًا بتصويره ، واستنتاج ما يدل عليه من تحقيق ما هم في حاجة إليه من تأثيره على المغناطيسية الأرضية والأمواج اللاسلكية ونظرية النسبية إلى غير ذلك مما يفيد في علوم البشر الكونية وينفعهم في حياتهم الدنيوية ، والحمد لله على ما قمنا به من أداء ما شرع الله لنا عنده والسلام .

❁❁❁

الطواف والتطويف[1]

حول بيت اللّه الحرام

الطواف حول الكعبة المشرفة، بيت اللّه الحرام، نسك من مناسك الحج والعمرة، يعرفه حجاج بيت اللّه الحرام وعماره من عهد إبراهيم الخليل؛ خليل الرحمن؛ أبي الأنبياء من بعده وإمام الموحدين من عصره إلى اليوم رغم أنف عمي البصائر والأبصار من ملاحدة سائر الأمصار.

هذا الطواف الذي يتسابق الطائفون بالتقرب به إلى ربهم؛ يستنزلون به رحمة اللّه، ويتوسلون به إلى مرضاته تعالى، ويتسببون إلى غفران الذنوب وستر العيوب ودفع الغضب ورفع السخط وجلب الرضوان، فتراهم آناء الليل وأطراف النهار دائبين دائرين حول بيت ربهم وبناء نبيهم إبراهيم وولده إسماعيل؛ خاشعين خاضعين باكين أو متباكين في أدب وحشمة وخشية وخوف، في رجاء وطمع، لا تلهيهم تجارة ولا بيع، لا يعوقهم حر وقيظ، ولا تقعد بهم سنة أو نوم، فللّه هذه الخطوات المأجورة وفي مرضاته هذا السعي المشكور ولغفران الذنوب هذا النصب المحبوب.

ألا يملأ قلبك إيمانًا ما تراه في الطواف من طوائف الناس، فهؤلاء الشيوخ وأولئك الفتيان، وأولاء رجال وهاته نساء متحشمات، وترى العربي والعجمي والبدوي والحضري والأبيض والأحمر، أزياء مختلفة وألوان متباينة وأشكال متعددة وألسن متفاوتة ولغات متباينة، الجميع في عمل واحد؛ لغاية واحدة، أمام بيت واحد يعبدون ربًا واحدًا؛ يرجون رحمته ويخافون عذابه.

فما هذا التوحيد في تلك الكثرة؟ ما هذا الاتفاق بين تلك المباينات؟ ما هذا

(١) مجلة أم القرى - العدد ١٠٣ - الجمعة ٢٨ جمادى الأولى سنة ١٣٤٥هـ.

الإجماع من تلك الجموع العديدة ؟ هذا هو الطواف حول بيت اللَّه الحرام .

أما التطويف فسل عنه بعض المطوفين بمكة المكرمة ، فإن لم يجيبوك حوارا فستجيبك أحوالهم اعتبارًا بأن التطويف مورد من موارد الرزق ، وصناعة بلا أدوات ولا عناء ، وحرفة بلا نصب ، وتجارة بلا رأس مال .

إني لا أحسد هؤلاء على ما رزقهم اللَّه من مال الناس ، ولا أتعرض لما ينفقونه من مال الناس ووجهة إنفاقه ، ولا أذكر رحلتهم إلى الأقطار النائية في تكميل جباياتهم ، فمالي ولهذا ؟

إنما الذي لا يسع مسلمًا السكوت عليه هو ما يعرفه بعضهم من جعلهم أحكام المناسك التي نصبوا أنفسهم لتعليمها للناس ، وهجومهم على هذه المناسك بلا أدب ولا خشوع ، بلا خشية ولا خوف ، وتلقينهم الناس أذكارًا مبتدعة ملحونة ، مشوهة الإلقاء عقيمة التأثير خالية من روح العبادة والضراعة والابتهال .

إني أذكر في مقالي هذا مجملا من حال بعض رجال هذه الطائفة .أما التفاصيل والوقائع والحوادث فقد أذكرها بعد .

وحبذا لو أرشد عالمهم جاهلهم ؛ لأنهم القدوة في هذا الباب ، وما قصدت في مقالي تحقير أحد ولا السخرية بمسلم ، وإنما أكتب ما أكتب نصيحة للَّه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم ، إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقي إلا باللَّه عليه توكلت وإليه أنيب .

❂❂❂

كيف نشأت مكة المكرمة[(١)]

والحديث عن مكة المكرمة ؛ ذلك البلد الذي يقدسه فوق أكثر من أربعمائة مليون مسلم ، ويتوجهون إليه خمس مرات كل يوم في صلواتهم الخمس ، ويحج منهم مئات الألوف سنويًا ، ويحترمه جمهور العالم المتمدن ، فالحديث عن نشأته لذيذ وطريف يسر من في قلبه مثقال ذرة من إيمان .

والحديث عن نشأة ذلك البلد الأقدس يرجع بنا إلى وراء في التاريخ بنحو أربعة آلاف سنة ؛ حتى نستطلع الطلعة البهية للخليل إبراهيم خليل الرحمن أبى إسماعيل الذبيح ، وهما اللذان وضعا الحجر الأساس لعمران مكة المكرمة بين جبال فاران على حد تسمية التوراة ، فنقف غير طويل على نبذة صالحة من تاريخ مؤسس الحنيفية السمحة ؛ مجذذ الأصنام وخائض النيران ومطفئها ببرد إيمانه ورضوان اللَّه حتى صارت بردًا وسلامًا على إبراهيم .

إبراهيم العراقي الأشوري البابلي الفلسطيني ؛ جواب البلاد في اللَّه تعالى من الفرات إلى النيل إلى جبال فاران بجوف الجزيرة عن وطن العز والسيادة ، وفرارًا من المهانة والذل والاستعباد ، وبعدًا للقوم الظالمين .

نشأ إبراهيم بن آزر في العراق من أب كان سادن الأصنام وناحت الأوثان ، فأراه اللَّه ملكوت السموات والأرض ليكون من الموقنين بأن رب السموات والأرض ورب العالمين هو الإله الحق الذي لا تجوز العبادة إلا له ولا تعنو الوجوه إلا إليه ، وأن ما عليه أبوه وقومه ضلال وباطل ، فناظر أباه وقومه في بطلان عبادة الأصنام قائلًا لهم ﴿أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ﴾ [الصَّافات: الآية ٨٦] ، ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات : ٩٥ - ٩٦] ، ﴿يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا

(١) مجلة « الحج » - جمادى الأولى والآخرة - ١٣٦٩هـ .

يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدْ جَآءَنِي مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِيٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا﴾ [مريم : ٤٢ - ٤٥] ، فأجاب شيخ الأصنام وناحت الأوثان : ﴿أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ۖ وَٱهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾ [مريم: الآية ٤٦] . قال الفتى لأبيه في حشمة ووقار : ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيًّا ۞ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُوا۟ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾ [مريم : ٤٧ - ٤٨] .

أي أن قوم إبراهيم الذين برعوا في رصد السماء وحساب الأفلاك والهواء؛ نجومها وشمسها وقمرها وكواكبها ، وبنوا لها تماثيل ومعابد تحمل أرواحها عند غيابها بزعمهم ، ونشروا في العالمين علومًا فلكية صحيحة وخرافية وأرصادا مضبوطة وقريبة من الضبط فضلًا عن براعتهم في الصنائع والزراعة وفنون الحرب ، فلم يكن يسهل عليهم ترك ما توارثوه أجيالًا عن أجيال من حب أجرام السماء وعبادتها .

ولقد ناظرهم الفتى إبراهيم في إبطال تأليهها بأفولها وغيابها : ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّي ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْـَٔافِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ ۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ ۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيْـًٔا ۗ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ

أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا فَأَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ٧٦ - ٨١].

وأما الأصنام فقد عزم الفتى المغامر أن يضحي في سبيل هدمها، واهتبل أحسن الفرص لتنفيذ خطة الهجوم، فأمهل حتى يخرج القوم إلى لهوهم في عيدهم؛ إذ يخرجون فيه إلى الصحراء ليتم لهم اللهو واللعب والسباق والرقص والزمر، ولقد دعوه إلى صحبتهم ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوْا۟ عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ فَأَقْبَلُوٓا۟ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ﴾ [الصافات: ٨٨ - ٩٤]، ﴿قَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ﴾ [الصافات: ٩٧ - ٩٨].

وقعت المغامرة، وكسر الفتى إبراهيم أصنام القوم ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾ [الأنبياء: الآية ٥٨] فأبقى كبير الأصنام معلقًا في رقبته فأس التكسير ليتندر بهذا الكبير أمام عابديه، أو ليسخر منهم أمام آلهتهم؛ إمعانًا في إقامة الحجة وإغراقًا في السخرية بمعتقد القوم وآلهتهم ودينهم.

رجعوا من عيدهم وآبوا من لهوهم إلى الهيكل والمعبد ليقوموا بفريضة الدين ليكفروا خطايا اللهو والباطل وما عسى أن يكونوا ركبوا في لعبهم من عبث ومجون وخلاعة، فإذا الأصنام مهشمة والآلهة جذاذا إلا كبيرا لهم لا يبدي حراكا ولا ينوح على زملائه ولا ينعي رفاقه ولا يبكيهم ولا تدمع له عين عليهم. يا للفجيعة؟!! أصنام تكسرت وآلهة تهشمت وكبيرهم أصم وأبكم لا يبدي ولا يعيد ولا يتكلم

﴿قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ﴾

[الأنبياء: ٥٩ - ٦١] . وانعقدت المحاكمة، وجلسوا على منصة القضاء، وكان السؤال والجواب والنطق بالحكم القاسي الذي لا هوادة ولا رحمة فيه : ﴿قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ﴾ [الأنبياء: الآية ٦٢] قال متنفرًا ساخرًا من عقولهم وعقيدتهم وآلهتهم : ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ﴾ [الأنبياء: الآية ٦٣] . فيشكو إليكم ممن كسرهم! فهل يعجزون عن النطق كما عجزوا عن الدفاع عن أنفسهم؟

﴿فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الأنبياء: الآية ٦٤] . لقد ظلمتم الفتى في جلبه مشقوقًا عليه ليعاقب على جرم ارتكبته الأصنام بعضهم مع بعض، آلهة تهاوشت وتهارشت، وطغى بعضها على بعضها، فكان صدام وكان تهشيم وتكسير وتدمير وتبتير بعضهم البعض، فما ذنب الفتى إبراهيم؟ وإن كان ذكرهم أحيانًا بسوء فذلك حرية الرأي التي لم تقترن بسوء العمل، ففي الناس من قد يقول ولا يعمل.

ثم صاح بهم شيطان الفكر وتنبه منهم نائم العقل؛ هل هي حقًّا بحيث إذا سألناها عمن جعلها حصيدًا خامدين؟ ومتى عهدتها تتكلم أو تجيب؟ هل أردت يا إبراهيم أن تجمع إلى جنايتك على الأصنام السخرية بنا وبها؟ ﴿ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ﴾ [الأنبياء: الآية ٦٥] .

فقامت لإبراهيم الحجة واستقامت المحجة، أصنام لا تتكلم، فهي صماء بكماء عاجزة تكسر وتهشم فلا تدافع عن نفسها، ولا هي تخبر عمن هشمها فكيف إذن تعبد؟ ولماذا تؤله ولها يسجد؟ وواجه قومه بالحق المرير عليهم معلنا دينه القويم. ﴿أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء: الآية ٦٧] .

هنالك صبوا الحكم العرفي والقضاء العسكري إذ قالوا : ﴿حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ

ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء: الآية ٦٨]، ﴿قَالُواْ ٱبْنُواْ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ﴾ [الصَّافات: الآية ٩٧].

وجمع القوم قواهم وكيدهم وما أوتوا من حول وطول ومال وقوة، واشترك الجميع في اشتداد الجحيم؛ انتصارا للآلهة، حتى العجوز فيهم باعت غزلها لتشتري حطب الجحيم لنار إبراهيم؛ مجذذِ الآلهة ومهدم الأصنام، ولم تبخل العذارى وذوات الخدور عليهم فضلا عن سراة القوم وكبرائهم.

وأوقدوا الجحيم حتى طار لهبه إلى عنان السماء، وانتشر وهجه وسعيره أميالًا وأميالًا، فأنى لهم بالقرب من هذا الجحيم لتنفيذ الحكم القاسي الظالم في الفتى إبراهيم.

حينئذ نتق لهم شيطان الحيلة ومردة الاختراع صنعة المنجنيق، كما أوحى إلى إخوانهم من شياطين العصر اختراع مقوضات العمران من ذريات وهيدروجينات وصواريخ وعقبان جوية تسير بالرادار، إلى غير ذلك من مدمرات المدنية والحياة.

أوثقوا الفتى كتافا وأقعدوه في كفة المنجنيق، وطيروا المنجنيق رميا في الهواء إلى الجحيم. تفتحت السماء والأرض، واستأذنت السحب والبحار في إغاثة الخليل وإطفاء نار جحيمه، فقيل لهم بلسان التدبير الرباني: إن كان استغاث بكم فأغيثوه.

وروت الآثار أن جبريل عرض عليه المعونة فأباها؛ اكتفاء بعين اللّٰه وسمعه وعلمه وحماية ربه.

وجاء عن الحبر ابن عباس[1] أن إبراهيم حين ألقي في النار قال: ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ [آل عِمران: الآية ١٧٣]، فقال اللّٰه تعالى: ﴿يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الأنبياء: الآية ٦٩]. وأرادوا به كيدًا فجعلهم اللّٰه الأخسرين،

(١) البخاري (٤٥٦٣).

الأسفلين ، الفاشلين .

وإلى هنا يسدل الستار على حيلة إبراهيم في العراق ، وينتهي فصل من تاريخه مع قومه بابل وأشور ؛ إذ يقول : ﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الشُّعَرَاء: الآية ٦٢] . فهداه اللّٰه وهاجر إلى الأرض التي بارك اللّٰه فيها للعالمين ؛ بلاد فلسطين ضحية المطامع الظالمة ، وغصيبة الفئة الرذيلة الذليلة الطريدة الشريدة ، فأخذها وطنًا يقوم فيها بدينه ويؤسس قواعد الملة الحنيفية بإذن ربه .

وهاجر معه زوجه سارة ؛ هاجرة وطنها وعزة قومها وشرف حسبها ، فزار بها إبراهيم مصر هبة النيل ، وأحزمها ملك مصر سبيئة من بيت الملك والسيادة ، أعني بها هاجر التي نشأت في عز الملك زمانًا ، وإن عدا عليها الزمان بزوال ملك أبيها ، فالزمان دول ، والدهر قلب ، والأيام غير .

رجع إبراهيم مع زوجه سارة وجارية زوجه هاجر من الزيارة المصرية والنزهة النيلية .

وساح فيما بين النيل والفرات ؛ البلاد التي سيعمرها بنوه ، ويقطنها المؤمنون به ، فتوسط بينهما حيث (أورشليم) وقد نيف على الثمانين ، وأكرمته زوجه سارة بإهداء جاريتها هاجر إليه ، لعل اللّٰه يرزقه منها الولد ، وقد كان رجاؤها حقًّا ، فحملت الجارية المصرية هاجر من الخليل العراقي بأبي العرب الذبيح إسماعيل .

ومن هنا يبدأ الفصل الثالث من تاريخ إبراهيم ، ويرفع الستار عن الخليل .

يمشي في صحراء بلاد العرب مع سريته المصرية هاجر وابنه إسماعيل طفلًا رضيعًا ، إذ يذهب بهما إلى جبال فاران ؛ ليضع نواة أساس مكة المكرمة بعد ذلك ؛ حملها بأمر اللّٰه من بلاد فلسطين ؛ ليسكنها بأمر اللّٰه تعالى في واد غير ذي زرع عند بيت اللّٰه المحرم الذي يبنيه بعد ذلك إبراهيم وإسماعيل .

وشب الرضيع إسماعيل في حجر أمه هاجر ، وبين أفراد قبيلة جرهم التي ساقها الظمأ لتشرب من زمزم التي أنبعها اللّٰه لهاجر وإسماعيل ، وسكنوا حولها

بإذن هاجر، وشب الغلام الفتى إسماعيل بينهم وترعرع وتزوج منهم امرأة بعد أخرى، وماتت أمه هاجر المصرية بعد هذه الحياة الحافلة بعظائم الأمور، فمن نشأة ملكية في فجر حياتها إلى عدوان الدهر بزوال ملك أبيها إلى سبي إلى رق لدى خير الناس سارة زوج إبراهيم إلى تسري خليل الرحمن بها إلى أم لأبي العرب إسماعيل وقيام بتنشئته نشأة صالحة في صحراء الجبال بين قوم لا تمت لهم بقرابة، وإنما ينزلون ضيوفًا على مائها بئر زمزم حتى تموت، ويكبر الغلام، ويجيء الخليل الشيخ الوقور فيقوم إليه إسماعيل ويتعانقان عناق الوالد للولد، ويقول له: يا إسماعيل، إن اللَّه أمرني أن أبني له بيتا هنا. فيقول الغلام: أطع ربك. فيقول الخليل: وتعينني؟ فيقول الغلام: وأعينك. وحينئذ يبدأ الخليل بمعونة ولده إسماعيل بوضع أساس عمران مكة برفع بيت اللَّه الحرام كما قال اللَّه تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [البقرة: الآية ١٢٧].

وهنا تبدأ عمارة مكة المكرمة بإسماعيل وذريته وأصهاره من جرهم، ثم قريش، ثم من شاء اللَّه تعالى من خلقه.

وللكلام على ما تطور عليه هذا البلد الحرام إلى الآن حديث آخر، والسلام عليكم ورحمة اللَّه وبركاته.

(١) ... وقفنا في الحديث السابق في نشأة مكة المكرمة على وصول الخليل إبراهيم بابنه إسماعيل وسريته هاجر إلى جبال فاران، بين الأخشبين: أبي قبيس وقعيقعان، ذلك الوادي الخالي من كل حياة مادية؛ من ماء وزرع، فضلًا عن حيوان أو إنسان، سوى ما أودعه اللَّه فيه من سر إلهي وحياة روحية، ستكون في الأجيال المقبلة مطلع شمس الهداية لبني الإنسان، ومشرق نور العالم والرشد

---

(١) تتمة مقال «كيف نشأت مكة المكرمة» - مجلة «الحج» - رجب - ١٣٦٩هـ.

والعرفان لبني آدم جميعًا ، وتتربى فيه خير أمة أخرجت للناس .

أودع الخليل تركته إسماعيل وهاجر بأمر اللَّه في هذا الوادي القفر من كل حياة إلا من روحانية السماء ، فلا خيام ولا بنيان ولا اجتماع ولا عمران ولا عيون ولا أنهار ، ولقد كان عندما يمر في طريقه من الشام على واحة حية بعيونها ورياضها وغياضها يسأل جبريل : أهنا محطة الرحل ؟ فيجاب : لا ، سر[1] ، ليس هنا المنزل . حتى ألقى عصا التسيار بإذن اللَّه في سفح جبل أبي قبيس الجدب القاحل ، الخراب من زخرف الحياة الدنيا ، العامر بالمعاني السامية والمبادئ الفاضلة وأصول الخير والدين ، وكنز علوم العمران والاجتماع ، ومهبط وحي اللَّه على خير خلقه فيما بعد .

أودعهما الخليل بلا زاد ولا متاع سوى شنة بالية فيها وشل من ماء ؛ إن كفى صباح يوم لم تبق منه باقية لمسائه .

وولى الشيخ راجعًا تاركًا فلذة كبده الرضيع ووحيده على الكبر بين الجبال والصخور ، فنادته أم إسماعيل : إلى من تتركنا يا إبراهيم ؟ أتترك امرأة مرضعًا أجهدها السفر الطويل مع طفل رضيع في واد قفر ؟

فقال في سره : إلى اللَّه تعالى .

فقالت : آللَّه أمرك بهذا ؟

فأجابها جهارًا : نعم .

فقالت أم إسماعيل : إذن لا يضيعنا اللَّه .

وصدَقت وصدَّق رجاءها ؛ فكانت جدة العرب وراسمة تصميم مكة .

ما هذا الإيمان العظيم عند امرأة تترك بين الجبال ؛ حيث لا ناس ولا أنيس ولا ماء ولا طعام ؛ حيث الوحوش والذئاب ومن لا يؤمن شره من أهل البادية ، عندما

---

(١) في الأصل « سرا ».

تخبر أن هذا الأمر لله فتؤمن بالله وتطمئن إلى حمايته ورعايته بلا درع ولا سيف ولا رمح ولا جنود ولا حامية إلا الثقة بالله ورعايته .

فعندما يعد الأبطال المغامرون فأم إسماعيل في رأس القائمة منهم ، وإذا ذكر المؤمنون بالله الواثقون برعايته ولطفه ؛ الموقنون بقيوم السموات والأرض فهاجر أم إسماعيل جوهرة وعقد نظامهم ، ولؤلؤة درية في صدر تاريخهم .

وإن تعجب فعجب أمر ذلك الشيخ الوقور إبراهيم الخليل ؛ إذ يدع فلذة كبده الرضيع بين الجبال والقفار مع أمه في واد ضواء تحيط به جبال موحشة ، فلم يزعجه عليهما خوف ذئب أو ضبع أو وحش ، ولا توقع عدوان أو بغي أو سلب أو نهب ، فأين الحامي والمدافع والجار والمجير لهما سوى الإيمان بالله الذي يأتي بالخراق والعجائب ، ويقع منه ما لا يتصوره الخيال فمرحى للإيمان بالله .

شربت هاجر ما تبقى من وشل ماء القربة حتى نفد ، وجابت جوانب الوادي تبحث عن الماء ؛ أول شروط الحياة ، حتى صعدت على الصفا تنظر من بعيد ومن قريب لعل الرحمة الإلهية تسوق إليها حامل ماء فلم تر شيئًا ، ثم نزلت إلى الوادي سعيًا على قدميها إلى المروة لعلها تجد عندها ما لم تجده عند الصفا ، وجرت بين الصفا والمروة سبعة أشواط ؛ كانت هي مبدأ الطواف بين الصفا والمروة في الحج بعد ذلك كما في الأثر للساعين : « هذا ما أورثتكم أمكم هاجر » .

فليتنا إذ نسعى نتذكر جهود تلك الساعية الجاهدة بحثًا عن الماء (أم إسماعيل) .

ثم تسمعت صوت الرجاء يصيح من قلبها فأصغت إليه وقالت : أغث إن كان عندك غواث . ثم قالت : أرجع للغلام فأراه كيف يموت من العطش والجوع ، فإن لفظ نفسه الأخير بين يدي جوعًا وعطشًا واريته التراب ، واحتسبت فيه الأجر

والثواب من واهبه والمحسن به أرحم الراحمين .

رجعت إلى حيث كان الغلام إذ خلفته يتلوى عطشًا وجوعًا بين الحصا والجنادل ومرتع الوحوش والهوام ، فإذا جبريل الروح الأمين روح القدس الذي أرسله اللَّه إلى مريم بعد ذلك ليبشرها بعيسى ابن مريم أرسله اللَّه قبل ذلك إلى أم إسماعيل ليطمئنها على نفسها وعلى ابنها إسماعيل قائلًا لها لا تخافي الضيعة عليك ولا على ابنك إسماعيل فإن للَّه بيتًا سيبنيه هذا الغلام مع أبيه ، وفحص الأرض بعقبه فخرجت زمزم ؛ هزمة جبريل ، وسقيا إسماعيل ، وطعام الطعم ، وشفاء السقم ، فشربت وأرضعت رضيعها ، وجعلت تحوط زمزم وتحصره ، فرحم اللَّه أم إسماعيل لو لم تحجز زمزم لكانت عينًا معينًا فائضة على وجه الأض كما جاء بذلك الحديث الصحيح[1] .

علمت أم إسماعيل من بشارة أمين السماء- روح القدس- لها ما كانت آمنت به أن اللَّه لا يضيعها ، كما علمت حكمة اللَّه في ترك وضع إبراهيم لها ولولدها بواد غير ذي زرع ، أنه سيعمر بعد ذلك وأنه بالإيمان والتقوى وعبادة اللَّه تعالى ، فألفت الوادي وشربت من زمزم طاعمة مرتوية ، فعرفت فيه طعام طعم وشفاء سقم ، كما أيد التاريخ والواقع ذلك على طويل الأيام ، فقد عاش على زمزم أبو ذر الغفاري في فجر إسلامه ثلاثين بين يوم وليلة لا يطعم فيها غير زمزم حتى سمنت عليه طيات بطنه ، والتجربة أم العلم الصحيح في كل زمان ومكان .

مرت قبيلة جرهم بأسفل الوادي فرأوا طيرًا عائفًا[2] على الوادي فقالوا : سبحان اللَّه عهدنا بذلك الوادي لا ماء فيه فكيف بهذا الطير العائف ولا طير إذ لا ماء ؟

---

(١) البخاري (٣٣٦٤) .

(٢) العائف الذي يتردد على الماء ويَحُوم ولا يمضي . «غريب الحديث» لابن سلام (٤/٢١٨) .

هكذا تحاورت جرهم فيما بينهم سؤالًا وجوابًا ، وكان أن قر رأيهم على الوقوف على ما جد بهذا الوادي فقالوا لرائدهم : اذهب أيها الرائد وانظر طوية الوادي . فسبحان من يعمر الخراب ويحيي الأرض بعد موتها . ذهب الرائد ؛ فإذا بعين زمزم وإذا الأنثى الفريدة الوحيدة ولا أنيس لها إلا اللَّه ثم رضيعها وإيمانها باللَّه ، فرجع الرائد إلى قومه جرهم يخبرهم خبر ما رأى ؛ ويانعم ما رأى ، رأى الخير جاثمًا مجسمًا على صدر أم إسماعيل وولدها إسماعيل ، فمالوا إلى الوادي واستأذنوا أم إسماعيل ، وكانت تحب الأنس أن ينزلوا على الماء ، فأذنت لهم على شريطة أنه لا حق لهم في الماء بتملك واحتكار فضلًا عن البيع والإيجار ، وإنما لهم الانفاق والانتفاع ؛ لتبقى زمزم وقفًا للَّه على من سكن هذا الوادي بأمر اللَّه تعالى ليعبد اللَّه ويقيم الصلاة على مر الأجيال الآتية .

ترعرع الغلام إسماعيل وشب بين جرهم وتعلم منهم الفروسية ورمي النبال وصيد الغزال ؛ شجاعة العرب وصراحة القول وفصيح العربية ، علاوة على ما ورث من أبيه إبراهيم من قوة الجسد الأشورية وصفاء القلب الفراتي ، ومن أمه هاجر رقة الطبع المصرية وعذوبة الكلام كعذوبة النيل ، ونضج ذلك بحرٍّ الصحراء ، فإسماعيل وارث صفات الفرات والنيل المصفى بحرارة الصحراء والد العرب المستعربة .

وماتت أم إسماعيل ؛ أم الأمة العربية بعد حياة عجب عجاب من رفاهة الحياة المصرية حيث النيل والجنات والرياض وعزة الملك ؛ إلى خدمة الأكابر سارة وإبراهيم ؛ إلى أم رؤوم تعيش مع ابنها في صحراء جرداء حارة يابسة خشنة لا يلينها إلا الإيمان والرجاء وبرد اليقين ؛ إلى عطش وجهد في طلب الماء سعيًا على الأقدام عطشانة كديدة مجهودة وحيدة فريدة ، حيث يسعى الناس اليوم بين الدكاكين والظلال في قرقعة أكواب الشراب الحلو والماء المثلج وغناء الباعة

وشخشة ورنين الدنانير والدراهم! فكأنما قدت أعصاب هاجر وأعضاؤها من حديد فولاذ، حتى يستثقل كثير منهم السعي على الأقدام في ظلال وأمان واطمئنان، بينما صور الناس اليوم من شمع وعجين.

وكانت خاتمة مطاف حياتها رؤية روح القدس أمين السماء والمكين عند ذي العرش جبريل ساقيًا ومبشرًا.

فهذه حياة عظيمة من امرأة عظيمة أهمل الكتاب والمثالون روايتها، ولم نر كاتبًا بليغًا أخرج قصتها الطريفة على صفحات تقرأ أو على شاشة بيضاء تشاهد بدلا من خيالات قصتهم.

عدنا إلى الغلام إسماعيل وارث كمالات آشور من أبيه، ودماثة أخلاق مصر من أمه، المنشأ بين العرب الخلص من جرهم، المتغذي بآدابهم وأحوالهم الاجتماعية المنشأ بينهم، فقد ترعرع في جرهم حتى بلغ أشده، وتزوج منهم لينجب ذرية تحمل صفات الفرات والنيل والصحراء.

وجاء الخليل ليزور ابنه فإذا هو في الصيد وتقابله كنته[(١)] الجرهمية بلا عناية ولا ترحيب، وسألها عن زوجها إسماعيل؟ فتقول: ذهب يمتار لنا من صيد الصحراء. وسألها عن حالهم. فتقول: شر حال- والأنبياء لا يحبون تسخط الأقدار ولا التذمر من جشب العيش وخشونته- فيقول حموها الخليل. إذا جاء زوجك فأقرئي عليه السلام، وقولي له: غير عتبة دارك[(٢)].

رجع إسماعيل من صيده إلى داره وتوسم أثر زائر فقال: هل زارنا اليوم أحد. فقالت زوجه الجرهمية: نعم شيخ وقور قال لي كذا وقلت له كذا، وسألني عن عيشنا، فقلت: شر عيش، ويسلم عليك ويقول: غير عتبة دارك.

---

(١) الكَنَّة: امرأَة الابن. «لسان العرب» (كنن).

(٢) البخاري (٣٣٦٤)، وقد تقدم قريبًا جدًّا.

فقال إسماعيل : أنت عتبة الدار وحجر العثار ، إلحقي بأهلك .

وما أحسن الفراق عند تخالف الطباع ، فالفراق علاج داء الشقاق ، وهو خير من عشرة النفاق المتزملة بالرياء المتدثرة بالشحناء والبغضاء ، فهذه هي سنة الفطرة ﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ﴾ [النِّساء: الآية ١٣٠] .

وتزوج إسماعيل بأخرى من جرهم بعد فراق الأولى ، وغاب الخليل ما شاء اللَّه أن يغيب ، وعاد لزيارة الابن الوحيد ، فكان حظه من لقائه ثانيًا كحظه في المرة الأولى ؛ غياب لامتراء العيش من صيد القفار ، غير أن الجرهمية الثانية قابلت حماها الشيخ الوقور بوجه غير وجه سابقتها ، ولعلها اعتبرت بما جرى على سالفتها ، والتاريخ عبر والعاقل من اعتبر ، فأهلت وسهلت ورحبت ورجت الشيخ أن ينزل عن دابته لينال راحة وكرامة فأبى ، فغسلت له رأسه وسألها عن عيشهم ؟ فأثنت خيرًا . وسألها عن طعامهم ؟ فقالت : اللحم والماء . فدعا لهما بالبركة فيهما- فلحم مكة مبارك بدعوة الخليل خلافًا لما يشيعه عنه من لم يعرف سوى كلمات ناقصة عن تجارب ناقصة من أنظار طب ناقص عن قوم قاصري الأنظار-

سر الخليل من كنته وزوج ولده ولقائها الباش وترحيبها الكريم ورضاها عن اللَّه وأقداره ورضاها عن حال عيشها مع زوجها فقال لها أقرئي زوجك السلام وقولي له : ثبت عتبة دارك ، وكانت هي العتبة ، فاحتفظ بها إسماعيل للخلق الكريم منها والوصية الحنون من أبيه .

ثم كان بعد ذلك قصة الذبيح وقصة بناء البيت مما ينبغي أن يفرد ذلك بحديث ممتع بعد ذلك إن شاء اللَّه تعالى ، فإلى اللقاء .

والسلام عليكم ورحمة اللَّه وبركاته .

❁❁❁

طرائف من حياة الإمام عبد العزيز بن سعود[1]
رحمه الله تعالى رحمة واسعة

إن حياة باعث الأمة العربية في القرن العشرين من رقدتها الذي اهتزت أمواج الأثير بخبر وفاته يوم الاثنين ٢ ربيع الأول سنة ١٣٧٣ - ٩ نوفمبر سنة ١٩٥٣ وتسارعت الإذاعات العالمية بنشر الخبر، وتأبين الفقيد بالتآبين المؤثرة، وعد مآثره وباهر أعماله التي قالت فيها: إنها تشبه الأساطير لغرابتها وعبقريتها، لولا أنها الواقع الذي سجله التاريخ وسار بذكره الركبان، تلك الحياة الحافلة بأنواع لا تحصى لجهات كثيرة من العظمة والسمو يكاد يؤود تصورها بالوهم والخيال، بله العقل والوجدان عند العقلاء، فما بالك بالدهماء.

فمن إصلاح لحال البادية والحاضرة في الأمة العربية إصلاحًا يعم الدين والدنيا؛ من التعليم وإنشاء المدارس وجلب وفود العلم والمعلمين، وتشجيع النهضة العلمية والأدبية والدينية، وطبع الكتب النافعة دينًا ودنيا إلى إصلاح الزراعة والصناعة والمواصلات ومعدات النقل وتسهيل الأسفار، والانتقال من شرق الجزيرة إلى غربها وسائر أنحائها إلى الأقطار الخارجية على شتى وسائل النقل؛ من سيارات وطائرات وسكك حديد وسفن وبواخر وإنشاء مراسي للسفن والبواخر في ثغور المملكة ومرافئها على أحدث ما عرفه الإنشاء والتعمير، وتأمين الطرق والسبل حتى صار الأمان في عموم بقاع الجزيرة من أدناها إلى أقصاها مضرب الأمثال وحديث القاصي والداني، وحسبك أداء الحجاج حجهم وعمرتهم، من سائر أجناس المسلمين، وسائر ألوانهم، على اختلاف لغاتهم وتباين أممهم، مع الراحة والأمان على الأنفس والأرواح والأموال، ومع الرفاهية

(١) مجلة اليمامة - العدد ٤ - في ١٣٧٣/٣هـ.

والعناية الصحية والإسعاف الطبي وإكثار موارد الماء في المدن وطرق الحاج، حتى يعودوا إلى بلادهم بألسنة الشكر للّٰه تعالى على ما يسر لهم الحج في هذا العهد الذهبي الميمون المبارك المنقطع النظير.

ولا تنس سقاية الحاج والأهالي عذب الماء الفرات في مكة وجدة والمدينة وعرفات ومنى وعلى مسافات متقاربة في الطرق، بعد قحط الماء قبل ذلك.

حتى يرى العمران يركض في تلك المدن في عماراتها الشاهقة وأسواق تجاراتها وضجيج سياراتها، حتى ليخيل إليك وأنت في شارع من شوارعها أنك في عاصمة من العواصم الكبرى بأوربا أو أمريكا بما يدهشك من ازدحامها بالناس والسيارات واكتظاظ دكاكينها بشتى أنواع البضائع من العالمين؛ الجديد في أمريكا والقديم في أوربا وآسيا وأفريقيا وأندونيسيا.

إن القلم ليكل والجهد يتلاشى والذهن يتبلد إذا حاول الإنسان إحصاء مآثر هذا الإمام الراحل على البلاد العربية عامة وحجاج بيت اللّٰه الحرام وزوار مسجد نبيه عليه الصلاة والسلام خاصة.

ولقد كتبت في ذلك الكتب الكبار عربية وأعجمية، وخطبت الخطب ونظمت القصائد مما يستوعب العمر الإحاطة به والإتيان عليه والوقوف على جمهرته أو بعضه مما حفظه وسيحفظه التاريخ في سجلاته.

وإن يكن لابد لي من الإدلاء بدلو للاغتراف من نمير تلك الحياة الشاذة الفاذة الفريدة فليكن بعض الطرائف التي رأتها العين ووعاها القلب وسجلتها المشاهدة، بدون حاجة إلى رواية راو ولا سند محدث ولا نقل ناقل، وأسوقها مرقمة بالحروف الأبجدية على طريقة العلماء القدماء أصحاب الفهارس والمعاجم السابقين:

(أ) أول ما قدمنا جدة أنا والشيخ أبو السمح رحمه اللّٰه تعالى بأسرتينا في أول

هذا العصر الذهبي ؛ ربيع الثاني سنة ١٣٤٥ خريف سنة ١٩٢٦ تشرفنا بلقاء هذا الإمام الذي نسأل الله تعالى له الغفران وواسع الرحمة في دار الوجيه الشيخ محمد نصيف التي كان ينزلها إذا نزل جدة أول الأمر ، وكنا بلباس الإحرام ، فرحب بنا وسهل وهش وبش لنا ، وحضرت صلاة المغرب فقدم أبا السمح رحمه الله وقتئذ إمامًا وصففت أنا بجانبه حتى صلينا المغرب بلباس الإحرام ، وسمرنا معه وقتًا لطيفًا ذكر لنا فيه أنه ذاهب إلى المدينة النبوية للصلاة في مسجد الرسول الأعظم ﷺ وروضة مسجده والسلام على النبي ﷺ ، وقال : إن الجيش - يعني الإبل براكبيها هم حرسه حينئذ - سبقنا إلى رابغ ، ونريد أن لا يجهد الجيش في السفر لأنه عزيز علينا ، فلذا تخلفنا عنه ليأخذ راحته في السفر ، وكان من يمن ذلك أن تشرفنا بالسلام عليه حينئذ .

وسألنا عن رفيق ثالث طُلب معنا هو الشيخ أبو حجر المغربي الجزائري رحمه الله تعالى الذي هاجر إلى السودان ثم مصر ثم الحجاز ، فأخبرناه أنه قادم على أثرنا قريبًا ، وسألنا الإمام عنه وعن علمه ، فأثنينا عليه خيرًا .

ثم قال : إن إخواننا ؛ أهل .. كذا فيهم شدة وحرارة لا نريدها للحجاز ، ونريد منهم أخذ الأمور بالهوادة وباللين والحكمة ؛ حكمة فسرتها أيامه المباركة وتصرفاته وأناته وصبره الذي لا ينفد ، وإن كنا قد غلطنا أحيانًا في بعض تأويلات لهذه المكارم .

وذكرت له وقتئذ استشفاع رجل من أهل شقراء[1] في لسانه ذرب وبذاء وحدة ؛ يريد المعاونة على السفر إلى المدينة ، ويسب من يقف في وجهه بالمنع منها من أنواع النظام ورجال الإدارة . فقال الإمام - رحمه الله - عن ذلك الرجل : الشقراوي : ذلك السباب البذيء الذي في لسانه فحش وقحة ؟! ومع

---

(١) في الأصل « شقره ».

هذا لم ينس تلك الشفاعة فأرسل له ما يعاونه على السفر إلى المدينة ؛ كسوة ونقدًا .

(ب) حدثني الأديب حسين نصيف رحمه اللّٰه تعالى عن طريفة ظريفة عن فقيد العرب الإمام رحمه اللّٰه تعالى : أنه نزل عندهم على جاري عادته سابقًا ، وكان يخلي له الطابق الثاني من دارهم وتختصر أسرة آل نصيف بأعلى الدار . فطلع طفل صغير من عيال الشيوخ إلى حيث الحريم فرأى عجوزًا -سماها لي حسين رحمه الله- تشرب الجراك أو التمباك في شيشة ، فقال الطفل : تشربين الخاسي ؟ ! لأشكونك إلى أبي .

قال محدثي المرحوم الأديب : فكان إذا لقينا الملك بعد ذلك عنى بالسؤال عن حال العجوز الجدة مع التبسم والرضى وسهولة الخلق وحسنه .

ولا يفتك أيها القارئ ما سردت عليك من سفره إلى المدينة النبوية في أول عهده المبارك بالحجاز ؛ لتلقم المرجفين بجحد زيارته النبوية أحجار الحق في أفواههم ، كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبًا .

واسمع ثانية المرات لزيارته رحمه اللّٰه للمدينة النبوية فيما سأقص من اللطائف بعد لترمي المكابر بشهب الحق وصواعق البرهان .

(جـ) جاء رحمه اللّٰه تعالى إلى المدينة النبوية بعد انتصاره في وقائع السبلة المعروفة قبل حج سنة ١٣٤٧هـ وكنت حينئذ بالمدينة إمامًا وخطيبًا في المسجد النبوي ، فصلى ورائي صلاة المغرب في المسجد النبوي وسلم على النبي ﷺ وزار قبره الزيارة الشرعية التي ليس فيها شرك ولا بدع ولا رفع صوت ، بل كلها أدب شرعي ممتاز وسمرنا معه بدار وكيل الإمارة حينئذ عبد العزيز بن إبراهيم رحمه اللّٰه تعالى ، وجاء ذكر الشيخ صالح التونسي الذي انتقل من الشام ولا رغبة منه في الهجرة إلى المدينة ، فسألني عنه ، فقلت : لا أعرفه . فدخل المهاجر

المذكور وشربنا جميعًا القهوة ، فأفاض رحمه اللَّه تعالى في مدح الإخلاص للَّه تعالى وصفاء النية والنصيحة للَّه ورسوله وأئمة المسلمين وعامتهم سرًّا وعلنًا ، وذم النفاق والتلون[١] ومراءاة الناس ، ومما قال : إن شر الأدواء والأمراض ما كان باطنيًا .

ثم حضرنا معه أدبة الضيافة بعد الظهر ؛ ظهر يوم وصوله ، وكان ذلك في بهو محطة السكة الحديد الذي أنشأه العالم الإسلامي أيام العهد العثماني . فأفاض رحمه اللَّه تعالى في شرح توحيد العبادة ووجوبه على الناس ، وكان يستشهد حمزة غوث من حين لآخر ؛ كأنه ينبهه والحاضرين إلى سماع ما يقول والإصغاء إليه ، في حفل حافل من وجهاء المدينة وأعيانها وساداتها .

ومما قاله يومئذ : واللَّه وباللَّه وتاللَّه أن عبدة - يعني أمة - فدعة ، بلشة ، عمشه ، عمية ، راعية توحيد ، أحب إلي من أعظم ملوك الدنيا بغير توحيد ....

وسألنا من يعرف معنى (فدعة ، بلشه ، عمشه ، عمية) من أهل نجد . فأفادونا أنها الملتوية أصابعها من الخدمة والشقاء الممطة أشفار عينيها حتى عميت للعجز والهرم .

لقد كان لخطابه البليغ المؤثر يومئذ من الأثر ما حرمنا لذيذ الطعام الشهي في تلك المأدبة الملكية الفخمة ، فقمنا جياعًا من ذلك اللحم الوفير في تلك الشياه والخراف التي توضع بكاملها نضيجة فوق أطباق الأرز المحلى بالزبيب والسمن ، ودع عنك صحون المرق واللحم والخضار والفاكهة . قمنا جياعًا من الطعام شباعًا بما تأثرنا به من موعظة وذكرى تنفع المؤمنين ، نفعنا اللَّه بها .. آمين ، هذه ثانية الزيارات الملكية للمسجد النبوي لقطع لسان الجاحدين .

فإن عوى عاو بأن الملك رحمه اللَّه لم يسرف إسراف الغلاة في تكرار

(١) في الاصل « التلوث ».

المرات الكثار في الزيارة .

فحسب الجواب أن اللّٰه تعالى فرض الحج مرة في العمر ، وأن النبي ﷺ نهى عن اتخاذ قبره عيدًا ، وحسب الإمام رحمه اللّٰه تعالى حفظ اللّٰه تعالى من الغلو في سنة الزيارة التي رفعتها الغلاة فوق أوجب الواجبات ، واعتقد جهالهم وقالوا : إنهم لم يتكلفوا المشاق من الأقطار الساحقة إلا لها ، فللّٰه در الإنصاف والاعتدال والبعد عن الغلو الذي أهلك من هلك به .

(د) ذهبت إلى الرياض لإيصال بنتيَّ إلى زوجيهما بها سنة ١٣٦٠ بصحبة الشيخ أبي السمح الذي استأذن الإمام في السلام عليه بالرياض ، فرحب به وسهل ، ونزلنا دارًا من دور الرياض ، كره الشيخ طول المقام بها لعدم تعوده مكان القضاء بها وأسلوبه ، فعلم بذلك الشيخ محمد بن عبد اللطيف رحمه اللّٰه ؛ كبير آل الشيخ محمد بن عبد الوهاب ورأسهم في ذلك الوقت ، فذهب إلى الإمام وحكى له ضيق الشيخ أبي السمح بمنزله ، فأمر بانتقالنا إلى دار الضيافة الكبرى حيث ينزل الأمراء والوزراء يومئذ ، فبقينا بها عشرة أيام في كرم وضيافة .

وكنا ليلًا بعد العشاء نحضر مجلس الإمام رحمه اللّٰه الذي كان يُبتدأ دائمًا بدرس ديني في كتاب من كتب التفسير أو الحديث أو الأخلاق الإسلامية والآداب الشرعية ، ثم يؤتى بصورة البرقيات والإذاعات ، فتقرأ الإذاعات علنًا ، ويعلق عليها تعليق الفهيم الذكي الفطن ، ثم بأطباق الفاكهة ، وكانت حينئذ بطيخًا ، يؤتى به من الخرج ؛ من النوع الأمريكي ؛ حمرة الورد وحلاء العسل وكثرة ، كالكرم العربي ، لا سيما في دار ملك العرب وسيدهم كرمًا وحلمًا .

من لطيف ذلك أن الناس جلسوا على الأرض حول مائدة البطيخ قبلي ولم يبق لي مجلس إلا أمام كرسي الإمام الذي يجلس عليه ، فاحتشمت أن أجلس أمام كرسيه ويكون ظهري إليه . فقال رحمه اللّٰه حينئذ : اجلس يا محمد ولا عليك

مني ، أعطني ظهرك . أو ما هذا معناه ، فجلست وكان فرحي بانتهاء الجلسة يعادل لذتي بالبطيخ الأمريكي ليلتئذ .

ولا أنسى قول يوسف ياسين للشيخ أبي السمح : لا تنس يا شيخ قوله ﷺ : « سيروا بسير ضعفائكم - أو اقتدوا بأضعفكم »[1] . ولكن يوسف ياسين ليلتئذ كان أسرع القوم بلفٍ ؛ وازدراد لقطع البطيخ ؛ يسابق أشعب الطماع في ذلك ، فيسبقه يوسف ياسين ! والإمام يبتسم ويحدث ضيوفه جالسًا على كرسيه ، وفي الضيوف الأمراء وكبار الحاشية وغيرهم .

(هـ) عندما التقينا بالإمام رحمه اللَّه تعالى للسلام عليه في تلك السفرة ، وكانت العالمية الثانية في أشدها وقدها ؛ جمت ألمانيا الهتلرية روسيا الشيوعية ، واستبشرنا كسائر الناس للانتقام للأديان من روسيا ، فقلت : أبشر ياجلالة الملك بانهزام شر دولة على وجه الأرض ؛ أريد روسيا الاستالينية .

فقال رحمه اللَّه وغفر له : اعلم يا محمد أن شر الدول من تريد استعبادنا وإذلالنا ؛ هؤلاء هم أعداء الإسلام وأعداؤنا - يريد دولتي المحور ألمانيا وإيطاليا - فعرفت غلطي وبعد نظره وسلمت لعارك السياسة وخابزها .

(و) عندما أزاحت دولتا المحور ألمانيا وإيطاليا الإنكليز وحلفاءهم إلى وراء العلمين إلى جهة الإسكندرية ، ظن عالم البرقيات الذي كان أول سامع لهذا النبأ أن ذلك مما يسر جلالة الملك رحمه اللَّه فاتصل به تلفونيا مبشرًا جلالته بهذا الخبر .

فانفلت عليه الملك سبًا وشتمًا وقال : أتبشرني بضياع بلاد العرب ؟ إذا ضاعت مصر فماذا يبقى بعدها ؟

والمعتاد في نوع هذا السباب : خمة ، هيس ، أربد .. إلخ .

---

(١) لم نجده بهذا اللفظ .

(ز) سألنا جلالته هل أنتم مواعدون اليوم أحدا على العشاء ؟ إذ قد كان يدعونا في تلك السفرة كبار آل الشيخ ابن عبد الوهاب ؛ مثل الشيخ محمد بن عبد اللطيف وأبناء أخوته الشيخ محمد بن إبراهيم ومحمد بن عبد اللّٰه ونحوهم وبعض الأمراء كمساعد بن عبد الرحمن .

فقلنا : لا . ليس عندنا وعد اليوم .

فقال : دعاني سعود بن عبد العزيز الكبير ، وهو ابن عم له وزوج أخته نورة التي كان أحيانًا ينتخي بها على عادة العرب : أنا أخو نورة ، حتى نبه أن ذلك من عوائد الجاهلية ، فاستبدل بها : أنا أخو من أطاع اللّٰه .

ذهبنا إلى تلك الدعوة التي كانت ذبائح الشياه بينها فصيل الإبل ، يقصد وسطها ، فكف جلالته عن لحم الفصيل ، وهو يشتهيه ؛ لأنه كان غاسلا - متوضئًا- والعصر قريب فلم يشأ أن تؤخر شهوته الصلاة عن أول وقتها .

واستذكر جلالته رحمه اللّٰه آية من كتاب اللّٰه تعالى ، فذكرتها له ، فحرك ذلك أضغان حقود لا يريد أن يعرف الملك غيره ، وأراد أن يغير قلب الشيخ أبي السمح بوشاية رخيصة ، فاللّٰه حسيبه ، وأحمد اللّٰه تعالى الذي عافاني من مرض العبودية لكرسي الوظيفة التي لو طرد عابدوها منها شر طردة توسلوا إلى مراجعتها بشتى الوسائل ، ولو كانت غير مشرفة ، والحمد للّٰه على الإيمان بالآخرة التي هي خير وأبقى .

(ح) ذهبنا مرة للمعايدة على الإمام رحمه اللّٰه في منى ، وكان وقت طعامه مع الحاشية والأمراء ، فجلسنا على المائدة وأكلنا ما قسم لنا ، وخرجنا لغسل الأيدي ، وبعدها أشار لي رحمه اللّٰه تعالى مادًا يده ، فظننت ذلك مصافحة ، فمسح عطر يده وكان عودًا في يده رحمه اللّٰه ، فما أجمل تواضع الملوك وإسلامهم ومكارم أخلاقهم .

(ط) ذهبت مرة للسلام عليه بمخيمه بحوية ، التي هي بضواحي الطائف في

صيف من الصيوف ، فبعد شرب القهوة قال لي : أين أنت نازل ؟ قلت له رحمه اللَّه تعالى : لي أهل بالطائف . وكان سؤاله ليأمر لي بالضيافة أن يهمل مأمور الضيافة أو يسهو .

لو ذهبت أعدد أمثال هذه الوقائع التي ينتظم منها عقد من جواهر أخلاقه لملأت صفحات وصفحات وصفحات ، وطغى القلم على حظوظ من هم أولى بهذه الصفحات مني ، فأكبح جماح القلم لفرصة أخرى والسلام على الفقيد رحمه اللَّه حيًّا وميتًا ، وسبحان الحي الذي لا يموت ، وعباده جميعًا يموتون وإليه المرجع والمنتهى .

❁❁❁



الشيخ

عبد الرحمن بن قاسم رحمه الله



مقالات الشيخ عبد الرحمن بن قاسم[(١)]

---

(١) هو الشيخ العلامة المحقق عبد الرحمن بن محمد بن قاسم العاصمي ، نسبة إلى عاصم وهو جد القبيلة المشهورة بنجد من قبائل قحطان .
ولد رحمه اللَّه سنة ١٣١٢ هـ في بلدة البير القرية المعروفة شمال الرياض . وابتدأ في صغره بحفظ القرآن الكريم حتى أتقنه عن ظهر قلب ، ثم قرأ في مبادئ العلوم على مشايخ بلده ، ثم انتقل إلى الرياض وكانت إذ ذاك حافلة بالعلماء الكبار فواصل دراسته وجد واجتهد في التعلم بعد أن ذاق حلاوة العلم وأدرك من نفسه إقبالًا كليًا على القراءة والحفظ والاستفادة حتى فاق أقرانه .
ومن أشهر مشايخه الشيخ عبد اللَّه بن عبد اللطيف ، والشيخ حمد بن فارس ، والشيخ عبد اللَّه العنقري . وغيرهم .
ولم يزل مكبا على الدراسة والحفظ والاستفادة حتى حصل على جانب كبير في أكثر العلوم وتضلع في علم التوحيد والفقه والحديث ونحوها من العلوم الدينية .
وكان رحمه اللَّه حسن الخط سريع الكتابة فنسخ بيده شيئًا كثيرًا ورزقه اللَّه الصبر والقوة بحيث لا يعتريه ملل ولا سآمة ، فأكب على المطالعة والبحث والاستفادة والتنقيب عن أفراد المسائل وأماكن الأدلة حتى نال ما تمناه ، ثم حرص على العمل والتطبيق فانطبعت في أخلاقه آثار تلك الفوائد فلا يخلو حديثه من فائدة دينية أو مسألة فقهية أو استشهاد بآية أو حديث .
وكان رحمه اللَّه غيورًا على حرمات اللَّه آمرًا بالمعروف ناهيًا عن المنكر يصدع بالحق ولا يخاف في اللَّه لومة لائم ، ثم هو مع ذلك حسن السمت دمث الأخلاق دائم البشر ، كريم النفس متعززًا عن رذائل الأمور وسفاسف الأخلاق وكان متواضعًا لربه لا يستنكف ولا يرفع نفسه عن إجابة الصغير والكبير ومحادثة الغني والفقير مع ما رزقه اللَّه من الهيبة والاحترام في قلوب الخاص والعام .
وقد نفع اللَّه بعلومه وبارك في أوقاته فصنف عدة كتب في مختلف الفنون.
فمنها « أصول الأحكام » ، « الأحكام شرح أصول الأحكام » ، « حاشية على كتاب الروض المربع شرح زاد المستقنع » ، « حاشية على نظم الرحبية في علم الفرائض » ، « مقدمة في أصول التفسير » ، « السيف المسلول في الرد على عابد الرسول » ، « حاشية على كتاب التوحيد » « الدرر السنية في الأجوبة النجدية » ، « ترتيب مجموعة رسائل وفتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ».
وأما أعماله الإدارية فقد تنقل مدة تزيد على اثنين وثلاثين عاما بين التدريس في المساجد =

التوسل والوسيلة[1]

(١)

الوسيلة هي في الأصل : ما يتوسل به إلى شيء ويتقرب به إليه[2] ، وجمعها : وسائل . يقال : وسل إليه وسيلة ، وتوسل بوسيلة ، إذا تقرب إليه بعمل .

والوسيلة التي أمر اللّٰه بها هي ما يتقرب به إلى اللّٰه تعالى من الواجبات والمستحبات .

والمستحب : هو ما شرعه الله[3] على لسان رسوله ﷺ ، فأمر به أمر إيجاب أو استحباب ، وأصل ذلك الإيمان به وبما جاء به .

فجماع الوسيلة التي أمر اللّٰه الخلق بابتغائها منه هو التوسل إليه باتباع ما جاء به الرسول ﷺ ، لا وسيلة لأحد إلى اللّٰه إلا ذلك : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓا۟ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ﴾ [المائدة: الآية ٣٥] .أي : التقرب إليه بطاعته وطاعة رسوله ﷺ ، قال ابن عباس وغيره : ﴿وَٱبْتَغُوٓا۟ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ﴾ [المائدة: الآية ٣٥] أي : القربة ، وقال قتادة : تقربوا إليه بطاعته والعمل بما يرضيه . قال العماد

= وإدارة المكاتب والإشراف على طبع الكتب ونحو ذلك وقد أدى جهدا كبيرا وأنتج ثمرة يانعة لا يزال أثرها باقيا بين المسلمين .

وقبل وفاته بثمان سنين طلب الإحالة للتقاعد فهناك تفرغ للكتابة وإتمام ما ابتدأ فيه من المؤلفات ، وقد أصيب بألم في الرأس بسبب حادث سيارة لازمه عدة سنوات حتى وافاه الأجل المحتوم وذلك لثمان خلت من شعبان عام ١٣٩٢ هـ فرحمه اللّٰه وأكرم مثواه .انظر ترجمته في « علماء نجد خلال ثمانية قرون » (٣/٢٠٢) ، مقدمة الشيخ ابن جبرين على « حاشية الروض المربع » ، « علماء الحنابلة » (ص ٤٨٣) ، « الشيخ عبد الرحمن بن محمد بن قاسم ، حياته وسيرته ومؤلفاته » لحفيده عبد الملك بن محمد بن قاسم.

(١) صوت الحجاز (١٥) جمادى الأول ١٣٥٧هـ.

(٢) في الأصل « ويتقرب به إلى اللّٰه ».

(٣) في الأصل « ما شرعه اللّٰه به ».

ابن كثير: وهذا الذي قاله هؤلاء الأئمة لا خلاف بين المفسرين فيه[١].

والمقصود بيان غلط ما زعمه كثيرون من أن دعاء الأموات والغائبين من الأنبياء والصالحين والاستغاثة بهم وطلبهم تفريج الكربات وإغاثة اللهفات جائز، وأنه هو الوسيلة المأمور بها المطلوبة شرعًا، ولم يعلم هؤلاء أن هذا هو أصل شرك العالم.

وقد أرسل الله الرسل وأنزل الكتب أن يعبد وحده لا يعبد معه إله آخر، لا ملك مقرب، ولا نبي مرسل، بل سؤال الميت والغائب -نبيًا كان أو غيره- تفريج الكربات وإغاثة اللهفات من أكبر المحرمات المنكرة باتفاق أئمة المسلمين، فإن الميت قد انقطع عمله وهو لا يملك لنفسه ضرًا ولا نفعًا فضلًا عمن استغاث به أو سأله كشف كربة أو الشفاعة له إلى الله، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: الآية ٢٥]، ﴿أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [المؤمنون: الآية ٣٢]، ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: الآية ٢٣].

والقرآن من أوله إلى آخره يأمر بعبادة الله وحده، بل أكثرهم يحبون آلهتهم أعظم من محبة الله، فتراه قد اتخذ ذكر إلهه ومعبوده على لسانه إن قام أو قعد وإن عثر وإن استوحش ولا يحلف إلا به، وهكذا كان عباد الأصنام سواء.

وهذه نفثة مصدور هيجها ما قاله الكاتب في جريدة «الإسلام» (ص٧-٤١) ٤/٤ سنة ١٣٥٧ مفسرًا لقول الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: الآية ٢٥٧]، مستدلًا على جواز دعاء غير الله؛ عادة أمثاله !!.

---

(١) تفسير ابن كثير ٣/ ١٠٣.

قال : «نسب اللّٰه إخراج الكافرين من النور إلى الظلمات ؛ يعني إلى الطاغوت ، ونسب للرسول ﷺ لتخرج الناس من الظلمات إلى النور .. قال : والجواب : أن الفعل كما يصح إسناده للفاعل الحقيقي يصح إسناده للسبب لغة وشرعًا ، فيصح أن تقول : أنبت الماء الزرع من غير نكير ، كما تقول : أنبت اللّٰه الزرع .

وعلى هذا فالآيات التي وقع فيها التصريح بإسناده الفعل للرسل في الخير وللشياطين في الشر ، فهي محمولة على التأويل والمجاز ..

واستدل بقوله تعالى : ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ﴾ [الشورى: الآية ٥٢] ، وقوله : «من فرج عن مؤمن كربة ..» الحديث[١] . وقوله : ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمٗا زَكِيّٗا﴾ [مريم: الآية ١٩] .

ثم قال : فظهر أن إسناد الفعل لغير اللّٰه على سبيل المجاز سائغ بنص الكتاب والسنة ، فلا شرك ، بل ولا إثم ولا عدوان في قول المتوسل برسول اللّٰه ﷺ : فرج كربتي يا رسول اللّٰه -مثلًا- ما دام يعتقد أن اللّٰه هو الفاعل المختار ، فليتق اللّٰه في أمة محمد معشرٌ يتفقهوا في الكتاب والسنة وإن زعموا أنهم أعرف الناس بهما» انتهى المراد منه .

فقوله : «فالآيات التي وقع فيها إسناد الفعل للرسل في الخير وللشياطين في الشر فهي محمولة على التأويل والمجاز» طريقة القائلين في نصوص الكتاب والسنة : أريد بها خلاف ما يفهم منها أو خلاف ما دلت عليه ؛ المكذبين للّٰه ورسوله ؛ الطاعنين في رسول اللّٰه ﷺ ، فإنه يجب أن يبين الحق الذي يجب التصديق به باطنًا وظاهرًا ، بل ويبين لنا ما يدلنا على أن هذا الكلام لم يرد به مفهومه ومقتضاه ، فإن غاية ما يقدرونه أنه تكلم بالمجاز المخالف للحقيقة

---

(١) البخاري (٢٤٤٢) ، ومسلم (٢٥٨٠) من حديث ابن عمر رضي اللّٰه عنهما .

والباطن المخالف للظاهر، ومعلوم باتفاق العقلاء أن المخاطب المبين إذا تكلم بمجاز فلا بد أن يقرن بخطابه ما يدل على إرادة المعنى المجازي، فإذا كان الرسول ﷺ المبلغ المبين الذي يبين للناس ما نزل إليهم من ربهم يعلم أن المراد بالكلام خلاف مفهومه ومقتضاه كان عليه أن يقرن بخطابه ما يصرف القلوب عن فهم المعنى الذي لم يرد، سيما إذا كان باطلًا ولو فعله غيره لعد من المعتدين!

فلو كان كما يقول هذا الكاتب لكان كتاب اللَّه تعالى وسنة نبيه ﷺ اللذان هما الهداية والرحمة ضلالة ونقمة. ولو أن أمير بلد - وللَّه المثل الأعلى - بعث بخطاب إلى قومه مملوء بالمجازات وطلب منهم أن يعرفوا ما يريده ولم ينصب عليه مبينًا شاهدًا لكان من الجاهلين الظالمين.

بل ما أسنده اللَّه إلى الرسول ﷺ في قوله (لتخرج الناس من الظلمات إلى النور) إسناد حقيقي.

قال البغوي: (لتخرج الناس): لتدعوهم من ظلمات الضلالة إلى نور الإيمان. وقال في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ [البقرة: الآية ٢٥٧] يدعونهم من النور إلى الظلمات.

وقال ابن كثير: وأن الكافرين إنما وليهم الشيطان يزين لهم ما هم فيه من الجهالات والضلالات ويخرجهم ويحيد بهم عن طريق الحق إلى الكفر. انتهى.

ولولا أن إسناد الفعل إلى الطاغوت حقيقي ما صح توعدهم عليه وذمهم بقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: الآية ٣٩] وليس هذا من قبيل «أنبت الماء الزرع» فإن الإنبات أسند للماء مجازًا لما كان سببًا، والطواغيت لها عمل وسعي محسوس ويصح صدور الفعل عنها لا كالماء فلا عمل له اختيارًا.

وقوله : ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: الآية ٥٢] اتفق المسلمون على أساس تلك الهداية المنفية في قوله : ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص: الآية ٥٦] ليست الهداية المثبتة له في هذه الآية لا نزاع في ذلك بين أهل السنة والجماعة ، فالمثبتة له هي هداية الدعوة والبيان ؛ هداية الدلالة والإرشاد بكلامه وبعلمه وأمره .

●●●

التوسل والوسيلة[(١)]

(٢)

وأما حصول الهدى في القلب فهذا لا يقدر عليه أحد باتفاق المسلمين ، فإنه لا يستطيع أحد أن يهدي القلوب ويجبلها على الهدى غير اللّٰه تعالى ، كما أنه لا يقدر أحد من الأموات والغائبين أن ينصر أحدًا أو يفرج كربه لا حقيقة ولا مجازًا ، ولا خلقًا ولا تسببًا ، بل اللّٰه سبحانه وتعالى هو القادر على كل شيء ، بيده الخلق والأمر ، وما أثبته اللّٰه لغيره غير الذي نفاه عن غيره ، ولا منازع في إثبات ما أثبته اللّٰه من الأسباب والحكم ، ولكن من هو الذي جعل الاستغاثة بالأنبياء والصالحين ودعاءهم وطلبهم تفريج الكربات سببًا فيما تفرد اللّٰه به ؟ ! ومن الذي قال : إذا استعنت بميت أو غائب من البشر وغيره ؛ نبيا كان أو غيره كان ذلك سببًا في كشف الكرب والهدى ، وغير ذلك مما لا يقدر عليه إلا اللّٰه عز وجل ؟ ! ومن الذي شرع ذلك وأمر به ؟ ! ومن الذي فعل ذلك من الأنبياء والصحابة والتابعين ؟ ! وإنما أرسل الرسل وأنزل الكتب بالنهي عنه وبيان أنه الشرك الذي لايغفر إلا بالتوبة ، ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَـٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ [المؤمنون: الآية ١١٧] .

وقوله تعالى : ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَـٰمًا زَكِيًّا﴾ [مريم: الآية ١٩] .

قال البغوي : إنما أسند الفعل إلى الرسول وإن كانت الهبة من اللّٰه لأنه أرسل به[(٢)] .

---

(١) تتمة المقال في صوت الحجاز ٢٢/جمادى الأولى/١٣٥٧.

(٢) تفسير البغوي ٥/ ٢٢٣.

وقال ابن كثير[1] : وفي القراءة الأخرى : « ليهب لك » ، وكل قراءة تستلزم الأخرى .

وكذلك قوله : « من فرج عن مؤمن كربة ..»[2] . الحديث . ونحوه ، إسناد حقيقي ؛ ولهذا يمدح عليه إن كان خيرًا ، ويذم عليه إن كان شرًا ، ولو كان مجازًا لكان المدح والذم على هذه الأعمال عبثا ، تعالى اللَّه عن ذلك علوًا كبيرًا .

وإنما يريد الكاتب - كأمثاله- ضرب كتاب اللَّه بعضه ببعض وتحريف الكلم عن موضعه ليتوصلوا بذلك إلى مقصدهم الباطل ؛ جواز عبادة غير اللَّه ، فلا يدعون في الإسلام عقيدة ولا نصا إلا تناولوها بالتشكيكات والاعتراضات الواهية والتأويلات السخيفة وادعاء المجاز ؛ يحاولون إبطال الشريعة وتصويرها لغوًا لا فائدة فيها إلا الشبهات ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [التوبة : آية : ٣٢] .

ثم قال : « فظهر أن إسناد الفعل لغير اللَّه على سبيل المجاز سائغ بنص الكتاب والسنة ، فلا شرك ، بل ولا إثم ولا عدوان في قول المتوسل برسول اللَّه ﷺ : فرج كربتي يا رسول اللَّه -مثلًا- ما دام يعتقد أن اللَّه هو الفاعل المختار ، فليتق اللَّه في أمة محمد معشرٌ يتفقهوا في الكتاب والسنة وإن زعموا أنهم أعرف الناس بهما ».

ويقال : إن زعمه دعاء الأنبياء والصالحين وعبادتهم مع رب العالمين مجاز هو قول المشركين : ﴿هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ﴾ [يونس: الآية ١٨] ، ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزُّمَر: الآية ٣] ، فهم يسألون الوسائط زاعمين أنهم يشفعون لهم عند اللَّه في قضاء حوائجهم ، ومع ذلك فهم يعتقدون أن اللَّه هو

---

(١) تفسير ابن كثير ٥/ ٢٢٠.

(٢) البخاري (٢٤٤٢) ، ومسلم (٢٥٨٠) من حديث ابن عمر رضي اللَّه عنهما .

الفاعل المختار بلا ريب كما حكى الله ذلك عنهم في غير موضع من كتابه

فيا سبحان الله ! أيُّ شرك أعظم ؟ بل وأيُّ إثم وأيُّ عدوان أشد ممن جعل مع الله إلها آخر يدعوه كما يدعو الله ويرجوه كما يرجو الله ويسأله كما يسأل الله ويستغيث به كما يستغيث بالله ؟! ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ إِلَـٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَإِيَّـٰىَ فَٱرْهَبُونِ﴾ [النحل : آية ٥١] .

وإذا لم تكن عبادتهم آلهتهم مع الله شركا ما داموا يعتقدون أن الله هو الفاعل المختار ، فما هو شرك المشركين ؟ !

سبحان الله رب العزة عما يصفون ، وسبحان الله ولا إله إلا الله ، والله أكبر !!

بل ومن سجد لصنم أو شمس أوقمر أو دعاه مع الله لم يكن مشركًا ما دام يعتقد أن الله هو الفاعل المختار !!

إذًا لا يحتاج هذا وأضرابه إلى إيراد الأدلة والبراهين من الكتاب والسنة وإبطال قوله ، ولا إيراد(١) إجماع المسلمين على أن من دعا غير الله أو سجد له كان مشركًا مخلدًا في النار ، يا عجب العجب !! أليس شرك المشركين أنهم يدعون الأنبياء والصالحين وينذرون لهم ويتوكلون عليهم يريدون منهم أن يقربوهم إلى الله كما حكى الله ذلك عنهم ؟ ! هذا وقد قال في أول تفسيره للآية : ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾ [الكهف: الآية ١٧] . أراد سعادة قوم فحبب إليهم الإيمان وزينه في قلوبهم ، وكره إليهم الكفر والفسوق والعصيان ، وأراد شقاوة آخرين فمنعهم ألطافه الإلهية ، وسلبهم نور الهداية والتوفيق ، وأخلى بينهم وبين شياطين الإنس والجن يلقنونهم الكفر ويحسنون لهم الإلحاد والزيغ ويعلمونهم الجراءة على انتهاك الحرمات واجتراح السيئات حتى

---

(١) في الأصل : ولا يراد.

أظلمت قلوبهم وأصبحت ضيقة حرجة لا تقبل الخير ولا تميل إليه ، ولا تحبب إلى أهله ، ثم قال (يخرجهم من الظلمات) أي : ظلمات الكفر والعقائد الفاسدة . (إلى النور) ؛ أي نور الإيمان بالله والاعتقاد الصحيح ، ثم قال : ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ﴾ [البقرة: الآية ٢٥٧] أي : الشياطين وزعماء الشر ﴿يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ﴾ [البقرة: الآية ٢٥٧] أي : ظلمات الكفر والفسوق والعصيان . اهـ .

فاعتبروا يا أولي الأبصار ، يا ربنا نسألك العافية .

وزعمه أن الاستغاثة بالرسول ﷺ ودعاءه لتفريج الكرب ونحوه توسل غلط ، فإن لفظ التوسل يراد به إحدى ثلاث معان ؛

إحداها : التوسل بطاعته ﷺ ، فهذا فرض لازم لا يتم الإيمان إلا به .

والثاني : التوسل بدعائه وشفاعته ، وهذا إنما كان في حياته ، ويكون يوم القيامة ؛ يتوسلون بشفاعته .

والثالث : التوسل به بمعنى الإقسام به على الله بذاته والسؤال بذاته ، وهذا لم يكن الصحابة يفعلونه لا في حياته ولا بعد مماته ؛ لاعند قبره ولا غير قبره ، ولا يعرف هذا في شيء من الأدعية المشهورة بينهم ، وقال القدوري : المسألة بخلقه لا تجوز ؛ لأنه لا حق للخلق على الخالق وفاقًا .

❁❁❁

التوسل والوسيلة(١)

(٣)

فظهر أن قوله « فرج كربي يا رسول اللّه » استغاثة به ﷺ وعبادة له مع اللّه يرجوه كما يرجو اللّه وليس من التوسل في شيء بل جعل له إلها مع اللّه، واستدلاله بما ذكر على مطلوبه- جواز عبادة غير الله- من أعجب العجائب؛ دقق وعمق وأصل وفصل ليتوصل إلى مطلوبه فهجم على ما يخالف دين الإسلام المعلوم بالضرورة من النبي ﷺ؛ فإنا نعلم أنه لم يشرع لأمته أن تدعوا أحدا من الأموات؛ لا الأنبياء ولا الصالحين ولا غيرهم؛ لا بلفظ الاستغاثة ولا غيرها، بل نعلم أنه نهى عن هذه الأمور وأن ذلك هو الشرك الذي حرمه اللّه.

وجوز أن يسأل رسول اللّه ﷺ تفريج الكربة على معنى أنه وسيلة من وسائل اللّه في طلب الغوث، وهذا باطل شرعا وعقلا وكذب على اللّه وعلى رسوله ومعارضة لكتاب اللّه وسنة رسوله ﷺ ومخالفة لإجماع المسلمين؛ يدل على أنه ليس من أهل العلم العالمين بمدارك الأحكام الذين يؤخذ بقولهم في شرائع الإسلام ومعرفة الحلال والحرام، وليس معه دليل شرعي ولا نقل عن عالم مرعي، بل عادة جرى عليها كما جرت عادة كثير ممن يستغيث بشيخه في الشدائد ويدعوه وقد كان رميما، وكما يفعل كثير ممن يأتي إلى قبر الشيخ يدعوه ويدعو به ويدعو عنده؛ وذلك من ضعف الإيمان واختلاط الشرك بالقلوب. والعلم شيئان؛ إما نقل مصدق وإما بحث محقق، وما سوى ذلك فهذيان ممزق.

والنبي ﷺ إنما يجوز أن يستغاث به في حياته؛ فيطلب منه أن ينصر المظلوم ويطعم الجائع ويجيب السائل ونحو ذلك، وهو ﷺ لا شك أفضل الناس

---

(١) تتمة المقال في صوت الحجاز ١٣٥٧/٥/٢٩هـ.

وأعونهم على البر والتقوى ، بل له مثل أجر كل عامل خير من أمته فإنه هو الذي دعا إلى ذلك ومن دعى إلى هدى كان له مثل أجور من تبعه من غير أن ينقص من أجورهم شيئا ، وكما يفعلونه في الآخرة في حياته أيضا .

وأما الاستغاثة به بعد موته ﷺ فلم يفعله أحد من الصحابة بعد موته بل عدلوا عن التوسل بدعائه وشفاعته إلى التوسل بدعاء غيره من الأخيار كالعباس ويزيد بن الأسود الجرشي ، فإن عمر رضي اللّٰه عنه قال : اللهم إنا كنا إذا أجدبنا نتوسل إليك بنبينا فتسقينا وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا . فيسقون[(١)] ، ومعاوية رضي اللّٰه عنه لما استسقى بيزيد بن الأسود قال : اللهم إنا نستسقي ونتوسل إليك بخيارنا . يا يزيد ارفع يديك . فرفع يديه ودعا ودعا الناس حتى سقوا[(٢)] .

وأما الاستغاثة به ﷺ بعد موته وطلبه تفريج الكربات وإغاثة اللهفات ونحو ذلك كما يفعل ذلك في حياته ؛ فيا سبحان اللّٰه ! هل يقول هذا عاقل أو يحتاج رد هذا إلى برهان ؟ ! ولا يستطيع أحد أن ينقل عن أحد من الصحابة ولا التابعين أنهم بعد موته ﷺ طلبوا منه تفريج كربة ولا إغاثة لهفة كما كانوا يفعلون في حياته ، ولا فعل ذلك أحد من أهل العلم والإيمان بل هذا عدول عن عبادة اللّٰه وحده التي خلق اللّٰه الخلق لأجلها ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: الآية ٥٦] ومن عدل عما أمر الرسول ﷺ من عبادة اللّٰه وحده والتوكل عليه والرغبة إليه إلى أن يتخذ مخلوقا إلها مع اللّٰه يسأله كما يسأل اللّٰه ويستغيث به كما يستغيث باللّٰه لمغيبه أو بعد مماته فهو -لعمري- نقص في العقل سببه الغلو في المخلوق إلى أن يكون في نفسه أعظم من الخالق وخيال باطل وكذب ومعصية وإشراك برب العالمين وليس في ذلك ما ينفعه أو يدفع عنه وإنما النافع

---

(١) البخاري (١٠١٠) من حديث أنس رضي اللّٰه عنه .

(٢) ابن عساكر في تاريخ دمشق ٦٥/ ١١٢، وصححه الألباني في التوسل ص ٤١.

الضار هو الله تعالى : ﴿قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ إِلَّا بَلَاغًا مِّنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ ۚ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ [الجن : ٢١ - ٢٣] ، ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ﴿٧﴾ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب﴾ [الشرح : ٧ - ٨] ، وقال ﷺ لابن عباس : « وإذا استعنت فاستعن بالله عز وجل »(١) .

وقال تعالى : ﴿وَلَا تَعْتَدُوا ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة: الآية ١٩٠] ، وأعظم الاعتداء والعدوان والذل والهوان منازعة رب الأرض والسماوات ما أوجبه له وحده سبحانه من العبادات وصرف ذلك لأحد من المخلوقات ؛ نبي أو ملك أو جني أو جمادات ، ﴿فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن : ١٨] ، ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ ۚ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ [المؤمنون: الآية ١١٧] ، ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: الآية ١١٠] ، ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾ [الإسراء : ٥٦ - ٥٧] ، ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ [الأحقاف : ٥ - ٦] .

وقال أبو يزيد البسطامي : استغاثة المخلوق بالمخلوق كاستغاثة الغريق بالغريق . وقال أبو عبد الله القرشي : استغاثة المخلوق بالمخلوق كاستغاثة المسجون بالمسجون .

وأي وعيد أشد من قوله : ﴿قُلْ أَنَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ

(١) أحمد ١/ ٢٩٣، والترمذي (٢٥١٦) . وصححه الألباني . « المشكاة » (٥٣٠٢) .

أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: الآية ٧١] ، ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [العَنكبوت: الآية ٤١] ، والآيات في هذا كثيرة ، بل الكتاب والسنة مملوءان من النهي عن دعاء غير الله والوعيد على ذلك بالخلود في النار .

❁❁❁

التوسل والوسيلة[1]

(٤)

وباللّه عليك إذا أمكن أن يؤول كل هذا ويعد كله من المتشابه أو المجاز الذي لم يرد به حقيقته فالشرع إذًا كله مؤول متشابه مجاز لا حقيقة له ودعاء اللّه ليس عبادة له ومن دعاه فعلى سبيل المجاز فلا أثر لقوله تعالى : ﴿ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ﴾ [غافر: الآية ٦٠] وغيرها !!

هذا - واللّه - غاية البلاء والفساد على الأمة !! وياليته ...[2] وترك هذا التفسير لهذه الآية الكريمة وخلى بين المسلمين وبين ما يفهمونه من كتاب اللّه وسنة نبيه وأعفاهم من سماع هذه البدع والخرافات والخزعبلات والتمويهات !! ﴿يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجٗا﴾ [الأعراف: الآية ٤٥] ، ودين الإسلام بني على أصلين من خرج عن واحد منهما فلا دين له : أن نعبده وحده لا نشرك به شيئا ، وان نعبده بما شرع ، لا بالمحدثات والبدع ، وهذا هو حقيقة كلمة التوحيد ؛ شهادة أن لا إله إلا اللّه وحقيقة شهادة أن محمدا رسول اللّه ؛ فإن الإله هو الذي تألهه القلوب ؛ عبادة له واستعانة به ومحبة له وتعظيما له وخوفا ورجاء وإجلالا وإكراما ، وهو سبحانه له حق لا يشركه فيه ملك مقرب ولا نبي مرسل ، فلا يعبد إلا اللّه ولايخاف إلا اللّه ولا يرجى إلا اللّه ، والرسول ﷺ هو المبلغ عن اللّه طاعته وأمره ونهيه وتحليله وتحريمه ، فهو واسطة بين اللّه وبين خلقه في تبليغ أمره ونهيه .

---

(١) تتمة المقال في صوت الحجاز ١٣٥٧/٦/٦هـ.

(٢) كلمة غير واضحة.

وأما كشف الكرب فاللَّه سبحانه هو المتفرد بذلك ، فهو القادر على إزالة الغم وإزالة الضر من غير احتياج منه إلى أحد أن يعرفه أحوال عباده أو يعينه على قضاء حوائجهم .

واتفق المسلمون على أنه ليس لأحد أن يعبد اللَّه بما أحبه ورآه ، بل بالعبادة الشرعية .

قال الفضيل بن عياض رحمه اللَّه تعالى في قوله تعالى : ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود: الآية ٧] قال : أخلصه وأصوبه .

فإن العمل إذا كان خالصا ولم يكن صوابا لم يقبل ، وإذا كان صوابا ولم يكن خالصا لم يقبل ، حتى يكون خالصا صوابا ، والخالص أن يكون للَّه والصواب أن يكون على السنة ، وتسويغ تقرير التوحيد وإبطال الشرك والتنديد نور على نور .

ونطالبه بالأدلة الشرعية على أن اللَّه عز وجل شرع لخلقه أن يسألوا النبي ﷺ أو غيره بعد موته تفريج الكربة واللَّه تعالى حي عالم قدير لا يغيب وكفى به عليما ، فله حق لا يشركه فيه أحد من خلقه والأنبياء وغيرهم لا يستحقون ما يستحقه اللَّه من توحيده وعبادته فلا يشركون معه في عبادته ولا يستغاث بهم ولا يقسم على اللَّه بهم ولا يتوسل بذواتهم ، وإنما يتوسل بالإيمان بهم وبمحبتهم وطاعتهم وموالاتهم وتعزيرهم وتوقيرهم ومعاداة من عاداهم وطاعتهم فيما أمروا وتصديقهم فيما أخبروا وتحليل ما حللوا وتحريم ما حرموا . وإنما حقيقة دين الإسلام إخلاص العبادة للَّه وحده لا شريك له ، فلا تحب مخلوقا كما تحب اللَّه ولا ترجوه كما ترجو اللَّه ولا تخشاه كما تخشى اللَّه ، ومن سوى بين المخلوق والخالق في شيء من ذلك فقد عدل باللَّه فهو من الذين هم بربهم يعدلون وقد جعل مع اللَّه إله آخر وإن كان مع ذلك يعتقد أن اللَّه وحده هو الفاعل المختار ﴿أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ﴾ [الرعد: الآية ١٦] ، فإن المشركين مقرون أن آلهتهم لم

تخلق كخلقه وإنما يجعلونهم شفعاء ووسائط ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [يونس: الآية ١٨].

وأجمع العلماء على أن من جعل بينه وبين اللَّه واسطة يدعوه أو يرجوه أو يخافه أو يتوكل عليه ونحو ذلك فقد كفر.

وبيان أن الاستغاثة بالأموات من الأنبياء والصالحين ودعاءهم شرك برب العالمين أشهر من الشمس في رابعة النهار، ولكن إذا خلي بين العبد وبين شيطانه أخرجه من النور إلى الظلمات فضرب كتاب اللَّه بعضه ببعض ولبَّس على الغوغاء ورمى غيره بما هم منه برآء، وفي المثل: رمتني بدائها وانسلت. فقد جوز عبادة غير اللَّه وتأول آيات اللَّه التي أنزلها اللَّه على رسوله بأبلغ عبارة وأوضحها أن يعبد وحده لا يدعى معه إله آخر وحرفها عما أراده اللَّه عما تدل عليه بدعوى التأويل والمجاز، بل حرف القرآن والسنة، فإن أهم مسألة بينها القرآن بل أرسل الرسل من أولهم إلى آخرهم هي إفراد اللَّه سبحانه بالعبادة.

ثم لم يقف على هذا التأويل والتحريف الباطل حتى ذهب يؤول أن دعاء الداعي للأموات لا يعنى به ظاهره وإنما هو توسل، قال شيخ الإسلام أبو العباس أحمد بن تيمية قدس اللَّه روحه لما ذكر بعض أحوال المتكلمين -إخوان هذا الكاتب- قال: وكل شرك في العالم إنما حدث برأي جنسهم، فهم الآمرون بالشرك والفاعلون له، ومن لم يأمر منهم بالشرك فلم ينه عنه بل يقر هؤلاء وهؤلاء، وإن رجح الموحدين ترجيحًا ما ..اهـ [1]

واللَّه تعالى جعل القول عليه بلا علم مرتبة فوق مرتبة الشرك فقال: ﴿قُلْ إِنَّمَا

---

(١) مجموع الفتاوى ١٨/٥٧.

حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: الآية ٣٣] .

وأيُّ قول أعظم وأيُّ فرية أشد من أنه جوز أن يجعل مع اللّٰه إلـهًا آخر يشرك في عبادته، يصرف له مخ العبادة ؟! وفي الحديث : « الدعاء مخ العبادة »[1] أي : خالصها . وأيُّ فرق بين قول العبد : فرج كربي يا اللّٰه . فرج كربي يا رسول اللّٰه ؟ ! وهل هذا إلا عبادة له محضة ؟ ! وإن لم يكن هذا عبادة له محضة مع اللّٰه ولم يكن شركا باللّٰه فما هو الشرك ؟ وما هي العبادة ؟ ! وأي عبادة ، وأي تذلل أبلغ من هذه العبادة وهذا التذلل وهذا الخضوع الذي لا يستحقه إلا من له غاية الإفضال رب العزة والجلال ، تعالى اللّٰه عما يقول الظالمون والجاحدون علوًا كبيرًا ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾ [الكهف : ١٧] .

وصلى اللّٰه على سيدنا محمد .

❁❁❁

---

(١) الترمذي (٣٣٧١) من حديث أنس رضي اللّٰه عنه . وقال الترمذي : هذا حديث غريب من هذا الوجه . وضعفه الألباني بهذا اللفظ ، والصحيح بلفظ : « الدعاء هو العبادة » . وانظر أحكام الجنائز ص ١٩٤.

هل عبد رسول الله ﷺ ؟!! ..[١]

نعم عبده كثيرون ، ووقع ما أخبر به ﷺ حيث قال : « لتتبعن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه » ، قالوا يا رسول الله اليهود والنصارى ؟ قال : « فمن »[٢] أي : فمن القوم إلاَّ هم .

وقال : « ليأتين على أمتي ما أتى على بني إسرائيل حذو النعل بالنعل حتى لو كان فيهم من أتى أمه علانية لكان في أمتي من يصنع ذلك ، وإن بني إسرائيل افترقت على ثنتين وسبعين ملة وستفترق أمتي على ثلاث وسبعين ملة كلهم في النار إلا ملة واحدة » ، قالوا من هي يا رسول الله ؟ قال : « من كان على مثل ما أنا عليه اليوم وأصحابي » رواه البخاري ومسلم[٣] .

فاليهود عبدوا العزير وقالوا إنه ابن الله ، والنصارى عبدوا المسيح وقالوا إنه ابن الله وقالوا هو الله .

وعبدت هذه الأمة رسول الله ﷺ ؛ يدعونه ويناجونه بما يشاءون من أمورهم ؛ مستغيثين به لائذين به متوسلين به ؛ يقول أحدهم إذا قام أو قعد أو أهمه أمر : يا رسول الله . ويقول الآخر : ما لي من ألوذ به سواك . والآخر : فرج كربي يا رسول الله . أو : اشفع لي يا رسول الله . أو : الشفاعة يا رسول الله .

ومنهم من ينذر له ، ومنهم من يذبح له ، ويوقفون لذلك الأوقاف ، ومنهم من يقول هذا المال للنبي . أي : قربة له .

وصرفوا له جلَّ أنواع العبادة التي هي حق الله عز وجل . وعلى ألسنتهم : الله

---

(١) صحيفة أم القرى ١٨/٦/١٣٥٨هـ.

(٢) البخاري (٣٤٥٦) ، ومسلم (٢٦٦٩) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه .

(٣) الحديث ليس في الصحيحين ، وأخرجه الترمذي (٢٦٤١) ، والحاكم ٢١٨/١ من حديث عبد الله بن عمرو ، رضي الله عنهما . وانظر الصحيحة (١٣٤٨، ٣٣١٢) .

والنبي ، وبالنبي ، وقد لا يحلف إلا به ، وإن كان هذا شركًا أصغر فإنه إذا كان المخلوق في نفسه بمنزلة الخالق جل وعلا لا يحلف إلا به فقد يكون أكبر وفي الحديث : « من حلف بغير اللّه فقد كفر أو أشرك »[١].

فقد غلوا فيه كما غلت النصارى في المسيح وأطروه كما أطرته . وفي الصحيح[٢] عنه ﷺ قال : « لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم ، إنما أنا عبد فقولوا عبد اللّه ورسوله » .

والإطراء : مجاوزة الحد . أي : لا تغلوا في مدحي كما غلت النصارى في عيسى فادعوا فيه الإلهية ، وإنما أنا عبد اللّه ورسوله فصفوني بذلك ما وصفني ربي .

فأبوا إلاَّ ارتكاب ما نهاهم عنه وضاهوا النصارى في غلوهم وشركهم وعبدوه كما عبدت النصارى عيسى بن مريم ، وحض على ذلك بعض من يدعي العلم وصنفوا فيه المصنفات نظمًا ونثرًا مما لا يحصى كثرة وجوزوا الاستغاثة به في كل ما يستغاث فيه اللّه عز وجل ، حتى ذكر بعضهم إن ما أرسل اللّه أو يرسل من رحمة إلاَّ وهو الواسطة فيها وأصلها وقال :

فعذ به من كل ما تشتكي ولذ به في كل ما ترتجي
فأنت باب اللّه أيُّ امرئ أتاه من غيرك لا يدخل
عجل بإذهاب الذي اشتكي فإن توقفت فمن أسأل

وقال الآخر :

فتقبل واعطف وكن لي شفيعا وأجرني وعثرني من زماني

وقال آخر :

---

(١) البخاري (٣٤٤٥) من حديث ابن عباس عن عمر رضي اللّه عنهم .
(٢) أبو داود (٣٢٥١) ، والترمذي (١٥٣٥) .

هو نور الأنوار والكل منه

وقال آخر :

فلذ به فوق السماء وتحت الأر ض والعرش والحضيض سواء

وقال آخر :

يـا مـصـطـفـى أدعـوك ....

إلى قوله :

هب لي من النفحات ما أشفى به

وغير ذلك مما تقشعر منه الجلود ، فصار عندهم أقدر وأقرب وأرحم من اللَّه .

وقال آخر :

يا نبيا جرى بمولده الكون سرورا وبهجة ونشيدا

لا تكلني إلى قصوري وكن لي يوم تعطي مقامك المحمودا

ويقول المزهد :

بلغهم المنى وأنت المنى يا حبيب الله

واتخذوا مولده ﷺ عيدًا مضاهاة للنصارى ، وحتى غلوا في الصلاة عليه ﷺ كما في دلائل الخيرات وغيرها من الغلو والإطراء والآثار المكذوبة التي لا توجد في شيء من كتب أهل الإسلام وختمها بصرف خالص الدعاء له ﷺ فقال :

نبي الهدى ضاقت بي الحال في الورى وأنت لما أملت فيك جدير

وقال :

يا رحمة اللَّه إني خائف وجل يا نعمة اللَّه إني مفلس عان

فكن أماني من شر الحياة ومن شر الممات ومن إحراق جثماني

وعن غناي الذي ما بعده فلس وكن فكاكيَ من أغلال عصياني

بل جعلوا له ﷺ الدنيا والآخرة كما فعل صاحب البردة وغيره وسلبوا الله ملكه، قال بعد قوله: يا أكرم الخلق ما لي من ألوذ به سواك ...

فإن من جودك الدنيا وضرتها ومن علومك علم اللوح والقلم

وعارضوا قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: الآية ٢١]، وقوله: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمۡلِكُونَ كَشۡفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمۡ وَلَا تَحۡوِيلًا﴾ [الإسراء: الآية ٥٦]، وقوله: ﴿قُلۡ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ لَكُمۡ ضَرّٗا وَلَا رَشَدٗا ۝٢١ قُلۡ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٞ وَلَنۡ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلۡتَحَدًا﴾، وقوله: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا﴾ [الكهف: الآية ١١٠].

بل خالفوا ما دعت إليه الرسل من أولهم إلى آخرهم وأنزلت به الكتب، ومع ذلك يأتون على قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ [الفاتحة: الآية ٥] في اليوم الواحد مرات، بل يقول أحدهم: لا إله إلا الله، ولا يعرف أن معناها نفي الإلهية عن كل ما سوى الله وإثباتها لله وحده.

وكفار قريش أعلم منه بمعناها، فإنه لما قال لهم: «قولوا لا إله إلا الله تفلحوا» قالوا: ﴿أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عُجَابٞ﴾ [ص: الآية ٥].[1]

إلاَّ أن الله عز وجل حمى قبره أن يتخذوه وثنًا كما اتخذت قبور الأنبياء والأولياء والصالحين وغيرهم أوثانًا؛ يطاف بها ويعكف عندها ويذبح لها، واستجاب دعاءه فإنه قال: «اللهم لا تجعل قبري وثنًا يعبد اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد» قالت عائشة رضي الله عنها: يحذر ما صنعوا،

---

(١) ابن خزيمة (١٥٩)، وابن حبان (٦٥٦٢) من حديث طارق المحاربي، رضي الله عنه.
وأخرجه أحمد ٤٩٢/٣ من حديث ربيعة بن عباد الديلي، رضي الله عنه، وصححه الألباني في صحيح السيرة النبوية ص١٤٣.

ولولا ذلك أبرز قبره غير أنه خشى أن يتخذ مسجدًا[١] .

قال ابن القيم :

فأجاب رب العالمين دعاءه   وأحاطه بثلاثة الجدران

اللهم لا تجعلنا ممن قلت فيهم ﴿أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ۝١٠٥ قَالُوا۟ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ﴾ ، واجعلنا من الذين ﴿ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ .

⊛⊛⊛

(١) البخاري (٤٣٥، ٤٣٦) ، ومسلم (٥٢٩ - ٥٣١) .

بحث في النية بين تلميذين[1]

قال أحدهما : يجب التلفظ بالنية عند كل عبادة من صلاة وصوم وحج وغيرها ، فيقول عند صلاة الظهر مثلًا : نويت أن أصلي الظهر أربع ركعات للَّه تعالى مستقبل القبلة مقتديًا بهذا الإمام ، يجهر بذلك .

قال الآخر : لا تفتقر العبادات إلى نطق باللسان باتفاق أئمة المسلمين ، بل النية محلها القلب دون اللسان في جميع العبادات ؛ الطهارة والصلاة والزكاة والصيام والحج والعتق والجهاد وغير ذلك باتفاق المسلمين ، فلو نوى بقلبه صحت نيته عند الأئمة الأربعة وسائر أئمة المسلمين الأولين والآخرين ، وليس في ذلك خلاف عند من يقتدى به ويفتى بقوله .

ولو تكلم بلسانه خلاف ما نوى بقلبه كان الاعتبار بما نوى لا بما لفظ ، ولو لفظ بلسانه بالنية ولم تحصل النية في قلبه لم يجز ذلك باتفاق أئمة المسلمين ، فإن لفظ النية من جنس لفظ القصد والعزم ، تقول العرب : نواك اللَّه بخير . أي : قصدك اللَّه بخير .

وقول النبي ﷺ : « إنما الأعمال بالنيات »[2] أي إنما الأعمال بحسب ما نواه العامل أي بحسب منويه « وإنما لكل امرئ ما نوى فمن كانت هجرته إلى اللَّه ورسوله فهجرته إلى اللَّه ورسوله ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه » مراده ﷺ بالنية النية التي في القلب دون اللسان باتفاق أئمة المسلمين ، وسبب الحديث يدل على ذلك ، فإن سببه أن رجلًا هاجر من مكة إلى المدينة ليتزوج امرأة يقال لها أم قيس ؛ فسمي مهاجر أم

(١) صحيفة أم القرى ١٣٥٧/٤/١٩هـ.

(٢) البخاري (١) من حديث عمر رضي اللَّه عنه .

قيس . فخطب النبي ﷺ الناس على المنبر وذكر هذا الحديث ، فهذا كان نيته في قلبه .

والجهر بالنية لا يجب ، بل ولا يستحب باتفاق المسلمين ، ولم يقل أحد من الأئمة الأربعة ولا غيرهم من السلف إن التلفظ بالنية واجب ؛ لا في طهارة ولا في صلاة ولا حج ، ولا إنه يجب على المصلي أن يقول بلسانه : أصلي الظهر أو العصر . ولا يقول : إمامًا ولا مأمومًا ولا فرضًا ولا نفلًا ولا أداء ولا قضاء ولا غير ذلك ، بل يكفي أن تكون نيته في قلبه .

والنية تتبع العلم فمن علم ما يريد أن يفعله فلابد أن ينويه ، بل النية تتبع العلم اتباعًا ضروريًّا إذا كان يعلم ما يريد أن يفعله ، فإذا كان يعلم أنه يريد أن يصلي الظهر مثلًا وقد علم أن تلك الصلاة صلاة الظهر امتنع أن يقصد غيرها ، ولو اعتقد أن الوقت باق فنوى الصلاة في وقتها فتبين أن الوقت قد خرج أجزأته صلاته باتفاق الأئمة ، ولو تكلف أن يصلي أو يتوضأ بغير نية لتعذر عليه ذلك ، وإنما يتصور عدم النية إذا لم يعلم ما يريد مثل من نسي الجنابة واغتسل للنظافة أو للتبرد أو من يريد أن يعلم غيره الوضوء ولم يرد أن يتوضأ لنفسه .

ومن عرف هذا تبين له أن النية مع العلم في غاية اليسر لا تحتاج إلى وسوسة وآصار وأغلال ، وإنما تحصل الوسوسة للشخص من جهله بالشرع أو خبل في العقل .

ولم يقل أحد من أئمة المسلمين إن صلاة اللافظ بالنية أفضل ، ولا إن صلاة الجاهل بها أفضل من صلاة المخافت ، ولم يقل أحد من المسلمين إنها تبطل صلاة من لم يجهر بها ، بل الجاهر بالنية مخالف للشرع .

قال أحدهما : مخالف للشرع ؟ ! تقول مخالف للشرع ؟ ! وهؤلاء المصلون كلهم أو أكثرهم يجهرون بها !! .

قال الآخر : لم يكن النبي ﷺ يقول قبل التكبير شيئًا ، ولم يكن يتلفظ بالنية لا في صلاة ولا حج ولا غيرهما من العبادات ولا خلفاؤه الراشدون ولا التابعون ، ولا أمر النبي ﷺ أحدًا أن يتلفظ بالنية ، بل قال لمن علمه الصلاة : « إذا قمت إلى الصلاة فكبر » .

وكان ﷺ إذا قام إلى الصلاة كبر كما ثبت عنه ﷺ أنه كان يفتتح الصلاة بالتكبير والقراءة بالحمد لله رب العالمين[1] ، ولم يتلفظ قبل التكبير بنية ولا غيرها ، ولا علم ذلك أحدًا من المسلمين ، ولو كان ذلك واجبًا أو مستحبًا لفعله ولعلمه المسلمين ، بل قد علم بالاضطرار من دين الإسلام أن النبي ﷺ والصحابة كانوا يفتتحون الصلاة بالتكبير ، ولم ينقل مسلم عن النبي ﷺ ولا عن أحد من الصحابة ولا التابعين أنهم تلفظوا بالنية قبل التكبير ؛ لا جهرًا ولا سرًا ، ولا أنه ﷺ أمر بذلك مع أنه من المعلوم أن الهمم والدواعي متوفرة لنقل ذلك لو كان ، وأنه يمتنع على أهل التواتر عادة وشرعًا كتمان نقل ذلك ، فإذا لم ينقله أحد علم قطعًا أنه لم يكن ، ولو كان مشروعًا لم يهمله النبي ﷺ وأصحابه مع أن الأمة مبتلاة به كل يوم وليلة ، ولما لم يكن فهو بدعة مخالف للشرع .

ومن جعل عملًا واجبًا لم يوجبه الله ولا رسوله أو مستحبًا لم يستحبه الله ولا رسوله فهو مبتدع مخالف للشرع ، ومن شرع دينًا لم يأذن به الله فقد ضاهى الجاهلية المخالفين للرسول ﷺ حيث شرعوا من الدين ما لم يأذن به الله ، ومن أوجب في الدين ما لم يوجبه الله ورسوله وجب تعريفه ، ولم يحل لأحد أن يتكلم في الدين بلا علم ولا يعين من تكلم في الدين بلا علم أو أدخل في الدين ما ليس منه .

(١) أبو داود (٧٨٣) من حديث عائشة رضي الله عنها ، وأخرجه ابن ماجه (٨١٤) ، وأبو يعلى (٦٢٢١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه . وانظر صحيح أبي داود (٧٥٢) .

وقولك : هؤلاء المصلون أكثرهم يجهرون بها .. له سبب ، وذلك أن بعض المتأخرين خرَّج وجها من مذهب الشافعي رحمه اللَّه تعالى لوجوب ذلك ، وغلطه جماهير أئمة أصحاب الشافعي وقالوا إنما أوجب الشافعي النطق في أول الصلاة بالتكبير لا بالنية . وكان غلطه : أن الشافعي رضي اللَّه عنه قال إن الصلاة لا بد من النطق في أولها[1] . فظن هذا الغالط أن الشافعي أراد النطق بالنية وإنما أراد النطق بالتكبير ؛ موافقًا لقول رسول اللَّه ﷺ وفعله ، ومشى على ذلك كثير من متأخري أصحاب الشافعي وغيرهم ، ودرسوه ، وتلقاه المصلون عنهم من غير نظر ولا استدلال ، وهذا خطأ صريح مخالف لإجماع المسلمين ولما علم بالاضطرار من دين الإسلام عند من يعلم سنة رسول اللَّه ﷺ وسنة خلفائه والتابعين .

قال أحدهما : قال علماؤنا يجب التلفظ بالنية ؛ ليطابق اللسان القلب .

قال الآخر : لم يرد عن الشافعي ولا أبي حنيفة ولا مالك ولا أحمد ولا أحد من التابعين رضي اللَّه عنهم أنهم تلفظوا بالنية ولا أمروا بها .

وكثيرًا ما يوجد في كتب متأخري أصحاب أبي حنيفة والشافعي ومالك وأحمد رضي اللَّه عنهم ما ليس منصوصًا عنهم ، بل قد يكون المنصوص عنهم خلاف ذلك .

وقد دل الكتاب والسنة على عدم التلفظ بالنية فهو مقتضى أصولهم وقواعدهم ، قال الشافعي رضي اللَّه عنه : إذا رأيت الحجة موضوعة على الطريق فهي قولي .

وأجمعوا على أن من استبانت له سنة رسول اللَّه ﷺ فليس له أن يدعها لقول أحد كائنًا من كان .

---

(١) انظر الأم ٧/ ٢٨٨.

ولو قدر تقديرًا جدليًا أن الشافعي رضي الله عنه أو غيره قال ذلك فقد اتفقوا كلهم على أنه ليس أحد معصومًا في كل ما يأمر به وينهى عنه إلا رسول الله ﷺ.

وقولك: «ليطابق اللسان القلب» لا دليل عليه من كتاب ولا سنة ولا إجماع ولا قياس صحيح.

وقول بعض علمائكم نقابله بقول بعض العلماء لا يجوز التلفظ بالنية لأن ذلك بدعة ولأنها تحصل مع العلم بالفعل ضرورة، فالتلفظ بها نوع هوس وعبث وهذيان، والنية تكون في قلب الإنسان ويعتقد أنها ليست في قلبه فيريد تحصيلها بلسانه وتحصيل الحاصل محال فلذلك يقع كثير من الناس في أنواع من الوسواس.

ويبقى لنا أكبر برهان الكتاب والسنة والإجماع والعقل الصحيح الموافق للنقل الصريح.

أما الكتاب والسنة فلم يرد فيها حرف واحد بوجوب التلفظ بالنية ولا استحبابه وقد قال الله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى﴾ [المَائدة: الآية ٣]، وقال ﷺ: «تركتكم على البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك»[1] بل إنما ورد إخلاص الدين لله قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البَيّنَة: الآية ٥]، وقال رسول الله ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات»[2] وهذا الحديث أصل من أصول الدين، بل هو أصل كل عمل، فإن العمل المجرد عن النية لا يثاب عليه.

فدل الكتاب والسنة على أن من عمل الأعمال الصالحة بغير إخلاص لم يقبل

---

(١) أحمد (١٢٦/٤)، وابن ماجه (٩٩٦) من حديث العرباض بن سارية رضي الله عنه.

(٢) البخاري (١) من حديث عمر رضي الله عنه.

منه ذلك ، فلابد من النية في القلب بلا نزاع ، وهل الأعمال الخالية عن عمل القلب إلا بمنزلة حركات العابثين ؟! .

وأما الإجماع : فأجمع العلماء على أن النية في القلب ، حكاه غير واحد من المحققين . والنية هي القصد والإرادة والقصد والإرادة محلها القلب باتفاق العقلاء .

وأما العقل : فإن التلفظ بالنية بمنزلة من يريد أكل الطعام فيقول : أنوي بوضع يدي في هذا الإناء أني آخذ لقمة فأضعها في فمي فأمضغها ثم أبلعها لأشبع . وأنوي بلبس هذا الثوب لأستتر ، وأمثال ذلك من النيات الموجودة في القلب التي يستقبح النطق بها قال اللَّه تعالى : ﴿قُلۡ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمۡ﴾ [الحُجرَات: الآية ١٦] وهذا حمق وجهل ؛ وذلك أن النية تتبع العلم فمتى علم العبد ما يفعل كان قد نواه ضرورة ؛ فإنَّ علم الفاعل بما يفعله وقصده له هو النية ، والعاقل المختار لا يفعل فعلًا إلا مسبوقًا بتصوره وإرادته وذلك حقيقة النية ، فليست النية أمرًا خارجًا عن تصور الفاعل وقصده لما يريد أن يفعله ؛ فبهذا يظهر عقلًا غلط من ظن أن للتلفظ بالنية مدخلًا في تحصيل النية ، فإن القائل إذا قال نويت أصلي الظهر أو نويت أصوم هذا اليوم من رمضان أو أحج هذا البيت أو أطوف به ونحو ذلك فإما أن يكون مخبرًا أو منشئًا ، فإن كان مخبرًا فإما أن يكون إخباره لنفسه أو لغيره ، وكلاهما عبث لا فائدة فيه ؛ لأن الإخبار إنما يفيد إذا تضمن تعريف المخبر ما لم يكن عارفًا به ، وهذا محال في إخباره لنفسه ، وإن كان إخباره لغيره بالنية فهو أيضًا عبث محض وغير مشروع ولا مفيد ، وهو بمثابة إخباره له بسائر أعماله من صلاة وصوم وحج وإيمان وغير ذلك ، وقد يكون في هذا الإخبار فائدة ، وأما إخبار المأمومين أو الإمام أو غيرهم بالنية فعبث محض ولا يصح أن يكون ذلك إنشاء فإن اللفظ لا ينشئ وجود النية وإنما إنشاؤها إحضار حقيقتها في القلب لا

إنشاء اللفظ الدال عليها ، فظهر بهذا أن التلفظ بالنية عبث محض عقلًا وشرعًا .

فإذا قال المصلي : نويت أن أصلي الظهر مثلًا أربع ركعات للَّه تعالى مستقبل القبلة مقتديًا بهذا الإمام ، فهو مبتدع مخالف للشرع والعقل ، أو قال : نويت أن أحج فرضي أو أعتمر للَّه تعالى ، فهو مبتدع أيضًا ، وإنما يفتتح الإحرام بالتلبية كما شرع النبي ﷺ للمسلمين أن يلبوا في أول الحج ، قال لضباعة بنت الزبير : « حجي واشترطي فقولي لبيك اللهم لبيك ومحلي حيث حبستني »[1] فأمرها أن تشترط بعد التلبية ولم يقل قولي نويت أن أحج ، ولم يشرع لأحد أن يقول قبل التلبية شيئًا ؛ لا أن يقول اللهم إني أريد الحج ، ولا أن يقول فيسره لي وتقبل مني ، ولا أن يقول أحرمت للَّه ، ولا غير ذلك من العبارات ، بل جعل التلبية في الحج كالتكبير في الصلاة وكان ﷺ أول ما يقول : « لبيك اللهم لبيك »[2].

ولم يكن يقول قبل الطواف نويت أن أطوف بالبيت الحرام سبعة أشواط طواف القدوم أو العمرة ولا يقف بين الركنين اليمانيين للتلفظ بالنية ، بل كان ﷺ إذا دخل المسجد بدأ بالطواف من الحجر الأسود يستقبله استقبالًا ويستلمه إن أمكن ويقبله وإلا استلمه وقبل يده وإلا أشار إليه ، ولا يرجع القهقرى بعد أن يستلمه ويقبله وقال : « خذوا عني مناسككم »[3] ولم يكن يستلم من الأركان إلا الركنين اليمانيين دون الشاميين فإنما استلمهما خاصة لأنهما على قواعد إبراهيم عليه السلام والآخران هما في داخل البيت ؛ فالركن الأسود يستلم ويقبل واليماني يستلم ولا يقبل والآخران لا يستلمان ولا يقبلان ، والاستلام هو مسحه باليد .

وأما سائر جوانب البيت ومقام إبراهيم وسائر ما في الأرض من المساجد

---

(١) أحمد ٦/ ١٦٤، والبخاري (٥٠٨٩) ، ومسلم (١٢٠٧) من حديث عائشة رضي اللَّه عنها .

(٢) أخرجه البخاري (١٥٤٩) ، ومسلم (١١٨٤) من حديث ابن عمر رضي اللَّه عنه ، وأخرجه مسلم (١٢١٨) من حديث جابر رضي اللَّه عنه .

(٣) مسلم (١٢٩٧) من حديث جابر رضي اللَّه عنه .

وحيطانها ومقابر الأنبياء والصالحين وغيرها وصخرة بيت المقدس فلا تستلم ولا تقبل ولا يتمسح بها باتفاق أئمة المسلمين المتبعين للسنة .

وأما الملتزم وهو ما بين الركن والباب فإن أحب أن يأتيه فيضع عليه صدره ووجهه وذراعيه وكفيه ويدعو ويسأل اللّٰه تعالى حاجته فعل ، ولو وقف عند الباب ودعا هناك من غير التزام للبيت كان حسنًا ، ولا فرق أن يكون حال الوداع أو غيره إلا أنه حال الوداع أوكد ؛ وكان الصحابة رضي اللّٰه عنهم يفعلون ذلك حين يدخلون مكة .

وكل ما يحدث في العبادات المشروعة من الزيادات التي لم يشرعها اللّٰه ولا رسوله ﷺ بل كان يداوم على تركها ففعلها والمداومة عليها بدعة وضلالة ، واعتقاد المعتقد أن ذلك مشروع مستحب فعله خير من تركه مع أن النبي ﷺ لم يكن يفعله البتة حقيقته إنما فعله أكمل وأفضل مما فعله رسول اللّٰه ﷺ فهو فتنة ، وأي فتنة من أن تظن في نفسك أنك خصصت بفضل لم يفعله رسول اللّٰه ﷺ وقد قال اللّٰه تعالى : ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: الآية ٦٣].

وفي الصحيحين : « من رغب عن سنتي فليس مني » أي من ظن أن غير سنتي أفضل من سنتي فرغب عما سننته معتقدًا أن ما رغب فيه أفضل مما رغب عنه فليس مني ، وكان ﷺ يقول في خطبه : « إياكم ومحدثات الأمور فإن كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة »[1] ، « من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد »[2] .

وأيضًا المداومة على خلاف ما داوم عليه رسول اللّٰه ﷺ في العبادات بدعة

---

(١) مسلم (٨٦٧) من حديث جابر رضي اللّٰه عنه .

(٢) البخاري (٢٦٩٧) ، ومسلم (١٧١٨) من حديث عائشة رضي اللّٰه عنها .

باتفاق الأئمة وإن ظن الظان أن فيه زيادة خير، وكما أن فعل ذلك بدعة فتركه سنة.

وما نقلوا تركه فنوعان -وكلاهما تركه سنة- :

أحدهما : تصريحهم بأنه ترك كذا كقولهم في شهداء أحد ولم يغسلهم ولم يصل عليهم.

الثاني : عدم نقلهم لما لو فعله لتوفرت هممهم على نقله كتركه التلفظ بالنية عند دخوله في الصلاة، وتركه الدعاء بعد الصلاة مستقبل المأمومين وهم يؤمنون على دعائه، وتركه رفع يديه بعد رفع رأسه من الركوع في الركعة الثانية، وقوله : اللهم اهدنا فيمن هديت يجهر بها، والمأمومون كلهم : آمين؛ الذي من الممتنع أن يفعله ولا ينقله صغير ولا كبير فتركه سنة.

قال أحدهما : أنكرت التلفظ بالنية وزعمت أنه مشوش على المصلين وأنتم تشوشون بالذكر بعد السلام.

قال الآخر : لا سواء؛ تقدم لك أن الجهر بالتلفظ والنية بدعة منهي عنه غير مشروع وأن السنة تركه باتفاق المسلمين، فالجاهر بها أيضًا مؤذ لغيره بما لم يشرع، وقد خرج النبي ﷺ على أصحابه وهم يصلون فقال : «أيها الناس كلكم يناجي ربه فلا يجهر بعضكم على بعض بالقراءة» بل ومفوت لمتابعة إمامه في الغالب وقد قال ﷺ : «إنما جعل الإمام ليؤتم به فإذا كبر فكبروا» أو مفوت لقراءة الفاتحة بتكريره التلفظ بها؛ وشارع دينًا لم يأذن به اللّٰه فيجب أن يعرف فإن لم ينته عوقب إلى أن يسعه ما وسع رسول اللّٰه ﷺ ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: الآية ٢١].

وأما نحن فبحمد اللّٰه متبعون لما سنه رسول اللّٰه ﷺ لأمته بعد السلام فقد ثبت عنه ﷺ أنه إذا سلم استغفر ثلاثًا وقال : «اللهم أنت السلام ومنك السلام

تباركت يا ذا الجلال والإكرام »[١] وكان يقول : « لا إله إلا اللّٰه وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت ولا ينفع ذا الجد منك الجد »[٢] ، ويقول لا إله إلا اللّٰه وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد[٣] .

❁❁❁

(١) مسلم (٥٩١، ٥٩٢) من حديث ثوبان وعائشة ، رضي اللّٰه عنهما .

(٢) البخاري (٨٤٤، ٦٣٣٠) ، ومسلم (٥٩٣) من حديث المغيرة بن شعبة ، رضي اللّٰه عنه .

(٣) انظر الحاشية السابقة .

العلم وعلو الهمة(١)

عالي الهمة يطلب معالي الأمور، وفي «التعريفات» الهمة: توجه القلب وقصده بجميع قواه الروحانية إلى جانب الحق لحصول الكمال له أو لغيره.

فعالي الهمة يعرف شرف زمانه وقدر وقته، فلا يضيع عليه لحظة في غير قربة ويبادر اللحظات.

عالي الهمة يطلب أشرف شيء ينفعه في الدنيا والآخرة، وقد علم بالضرورة أنه ليس في الوجود أشرف من العلم ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة: الآية ١١]، ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: الآية ٢٨]، ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزُّمَر: الآية ٩].

كيف لا والعلم هو الدليل فإذا عدم وقع الضلال، ولا صلاح للعباد في معاشهم ومعادهم إلا بالعلم بالله وما يجب له على عباده من دينه الذي رضيه لهم، وبالقيام به صلاح الدنيا والآخرة، وبالغفلة عنه زوال النعم وحلول النقم.

وطلب العلم ومعرفة ما قصد به العبد أشرف ما بذلت فيه الأنفاس والمهج؛ وأشرف الأرباح وعنوان الفلاح، وأقرب الخلق من الله العلماء، والعامل من غير علم وبصيرة ليس من عمله على طائل.

قال أبو حنيفة: من ترك الدليل ضل السبيل. اهـ

ولا سبيل إلى الله والجنة إلا الكتاب والسنة.

وقال الشافعي: طلب العلم أفضل من صلاة النافلة.

وقال ابن الجوزي: من علم أن الدنيا دار سباق وتحصيل للفضائل، وأنه

---

(١) صحيفة أم القرى ١٣٥٧/٤/٥هـ.

كلما علت مرتبته في العلم والعمل زادت مرتبته في دار الجزاء انتهب الزمان ولم يضيع لحظة ولم يترك فضيلة إلا حصلها .

والعلم ما في الصدور لا ما في القمطر ، ومن أخلص في طلبه دله على اللَّه ، ولا تنال الراحة بالراحة ، وعلى قدر التعب تكون الراحة ، فإن مصالح الدنيا والآخرة منوطة بالتعب ولا راحة لمن لا تعب له ، كما قال الشاعر :

أعدت الراحة الكبرى لمن تعبا وفاز بالحق من لم يألُه طلبا

وعلو الهمة يدل على عظم العقل ومن له عقل فهم الخطاب ومن فهم الخطاب فهم المقصود . ومن عمل على الدليل كان كالباني على أساس وثيق .

وينبغي لعالي الهمة الطالب المجد أن ينبعث من قلبه الافتقار إلى ملهم الصواب أن يدله على حكمه الذي شرعه لعباده ، ومتى قرع هذا الباب فقد قرع باب التوفيق ، ومن علامة توفيق اللَّه له صرف همته العالية إلى العلم .

وفي الحديث عن النبي ﷺ : « العلم ثلاثة : آية محكمة ، أو سنة قائمة ، أو فريضة عادلة ، وما سوى ذلك فهو فضل »[1]

وأرشد ﷺ معاذًا لما بعثه إلى اليمن إلى سياسة حكيمة نافعة في التعليم قال : « فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا اللَّه »[2] فهذا بيان كيفية التعلم ؛ البداءة بالأهم فالأهم من واجبات الإيمان وأركان الإسلام ، ثم ينتقل درجة درجة من الأعلى إلى ما دونه ، ثم يتعلم ما يجب من الحقوق في الإسلام بخلاف ما يفعله بعض المتعلمين من الاشتغال بالفروع والذيول فضلًا عن الفضول ، ومن ترك الأصول حرم الوصول .

---

(١) أبو داود (٢٨٨٥) ، وابن ماجه (٥٤) من حديث عبد اللَّه بن عمرو رضي اللَّه عنهما . والحديث ضعفه الألباني . « المشكاة » (٢٣٩) .

(٢) البخاري (١٤٥٨) ، ومسلم (١٩) من حديث ابن عباس ، رضي اللَّه عنهما .

وأصل الأصول وأشرف الكلام كلام اللَّه ؛ فيه الهدى والنور ، قال ﷺ « أما بعد أيها الناس إنما أنا بشر يوشك أن يأتيني رسول ربي فأجيب ، وإني تارك فيكم ثقلين ؛ أولهما كتاب اللَّه فيه الهدى والنور من استمسك به وأخذ به كان على الهدى ، ومن أخطأه ضل ؛ فخذوا بكتاب اللَّه واستمسكوا به »(١)

وقال : « إنها ستكون فتن » قالوا : فما المخرج منها ؟ قال : « كتاب اللَّه ؛ فيه نبأ من قبلكم وخبر من بعدكم وحكم ما بينكم ، هو الفصل ليس بالهزل ، من تركه من جبار قصمه اللَّه ، ومن ابتغى الهدى من غيره أضله اللَّه ، وهو حبل اللَّه المتين ، وهو الذكر الحكيم ، وهو الصراط المستقيم ، هو الذي لا تزيغ به الأهواء ولا تشبع منه العلماء ، ولا تلتبس به الألسن ولا يخلق عن كثرة الرد ، ولا تنقضي عجائبه ، من قال به صدق ، ومن عمل به أجر ، ومن دعا إليه هدي إلى صراط مستقيم »(٢) .

وكان يقول في خطبه : « إن أصدق الحديث كتاب اللَّه وخير الهدي هدي محمد ﷺ وشر الأمور محدثاتها وكل بدعة ضلالة »(٣)

وحض ﷺ على التمسك به وبسنته في غير ما موضع وقال ﷺ : « تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا ؛ كتاب اللَّه وسنتي »(٤) فنفى الضلال عمن تمسك بهما . وقال : « عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي ، تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ ، وإياكم ومحدثات الأمور ، فإن كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة »(٥) .

---

(١) مسلم (٢٤٠٨) من حديث زيد بن أرقم .

(٢) الترمذي (٢٩٠٦) من حديث علي رضي اللَّه عنه . وضعفه الألباني . « المشكاة » (٢١٣٨) .

(٣) مسلم (٨٦٧) من حديث جابر رضي اللَّه عنه .

(٤) الحاكم ١٧١/١ من حديث ابن عباس رضي اللَّه عنهما . وصححه الألباني في « الحديث حجة بنفسه » .

(٥) أبو داود (٤٦٠٧) ، وابن ماجه (٤٢) من حديث العرباض رضي اللَّه عنه . وصححه الألباني . « الإرواء » (٢٤٥٥) .

إن عالي الهمة لا يؤثر على كتاب اللّه شيئًا فإنه كلام اللّه أنزله بلغة رسوله ﷺ سيد العرب وأفصح العرب ، ولغته أفصح اللغات وأوسعها وأدخلها في الإعجاز .

وكان ﷺ كثيرًا ما يحافظ على ألفاظ القرآن في تعبيراته ، وكان الصحابة والتابعون يتحرون ألفاظ النصوص ، وحدث خلوف رغبوا عن ألفاظ النصوص وأقبلوا على الألفاظ الحادثة ، وألفاظ النصوص من الكتاب والسنة حجة وعصمة من الخطأ والتناقض والتعقيد والاضطراب ، ولهذا كانت علوم الصحابة والتابعين أصح من علوم من بعدهم وأفصح وأقل تكلفًا فيما يروونه من المعاني ، بل لما استحكم هجران النصوص عند أهل الأهواء والبدع كانت علومهم في غاية الفساد والتناقض ، فاتباع السنة واللّه الذي لا إله إلا هو نجاة ؛ والسنة هي التي نقلها أهل العلم كابرٌ عن كابر ، ومن رزقه اللّه العلم والنظر في سير السلف رأى أن هذا العالم في ظلمة ، وجمهور العالم على غير جادة ، ولو رفعوا كتاب اللّه تعالى وسنة رسوله ﷺ فوق كل شيء لرفعهم اللّه كما رفع سلفهم ولأعزهم كما أعزهم ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَـٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾ .

ألم يعلموا أن الأخذ بالعلم النافع من علامة كمال العقل وصرف الزمان إلى حفظ ما غيره أولى من سخافة العقل والرضى بالدون .

ومن أكبر الرزايا وأعظم البلايا أن يعطيك اللّه همة عالية ويمنعك من العمل بمقتضاها .

إن عالي الهمة لا يستبدل الأدنى بالذي هو خير ، من بدل القراءة في كتاب اللّه وسنة رسوله وكتب أهل السنة والاهتداء بها والأخذ بها غيرها فقد بدل نعمة اللّه كفرًا واستبدل الأدنى بالذي هو خير .

من ضيع ذهنه الوقاد الذي يميز به في الفضول فقد بدل نعمة اللّه كفرًا واستبدل الأدنى بالذي هو خير ، واللّه سبحانه يجزيه بجنس عمله ، فمن استبدل الأدنى بالأعلى فإن اللّه يبدله بالعز ذلًا وبالفرح غمًّا وبالسرور حزنًا وبقرة العين سخنة العين : ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ﴾ [البقرة: الآية ٦١].

وليس هذا كمن استبدل البقل بالمن لا واللّه . العلم قوت الروح ويحتاجه الإنسان كل لحظة وذاك قوت البدن « بحسب ابن آدم أكلات يقمن صلبه » .

ولا دواء لهذا إلا الكتاب والسنة ، قال اللّه تعالى : ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: الآية ٣] ، ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ﴾ [الأنعام: الآية ٣٨] ، وقال ﷺ : « تركتكم على البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك »[1]

عليك بكتاب اللّه وسنة نبيه ، وأعظم سبب في تحصيلهما التقوى ، قال الشافعي :

شكوت إلى وكيع سوء حفظي — فأرشدني إلى ترك المعاصي
وقال اعلم بأن العلم نور — ونور اللّه لا يؤتاه عاص

ويحفظ العلم بالتذاكر والفهم ، ومن عمل بما علم أورثه اللّه علم ما لم يعلم .

وإذا ظفرت برجل من أهل العلم طالب للدليل محكم له متبع للحق حيث كان وأين كان ومع من كان فاشدد يديك به .

وقف في مواقف الابتهال إلى ذي العزة والجلال وانطرح بين يديه بالأسحار وقل يا معلم إبراهيم علمني ويا مفهم سليمان فهمني ، واعلم أن اللّه تعالى يثيب العامل المخلص رزقًا عاجلًا ،إما للقلب أو البدن أو لهما ورحمة مدخرة في خزائنه .

---

(١) أحمد (١٢٦/٤) ، وابن ماجه (٩٩٦) من حديث العرباض بن سارية رضي اللّه عنه .

فلا تسأمن العلم واسهر لنيله بلا ضجر تحمد سرى السير في غد
ولا يذهبن العمر منك سبهللا ولا تغبنن في النعمتين بل اجهد

واعلم بأن جمع الهم أصل الأصول ، وليس العلم بمجرد صورته هو النافع بل معناه ، وإنما ينال معناه من تعلم للعمل به ؛ فإنه كلما دله على فضل اجتهد في نيله ، وكثيرًا ما ترى من يثب ويشيب وهو يقرأ ولم يحصل على طائل لمانع قام به من نفسه لا من ربه ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: الآية ٤٩] .

ولقد حصل من الغفلة عن الكتاب والسنة اللذين لا نجاة للعبد إلا بمعرفتهما والعمل بهما ما يشجي الصدور ويدمي القلوب وصار اشتغال بعض طلاب العلم بالعلوم المزاحمة لهذا الأصل الأصيل والمنهل العذب الجليل ، بل أصبحت حالهم تدمي العيون وتفتت الأكباد وتسقط القلوب وتقتل النفوس الحية ، ولقد كثر من يدعي العلم وقلّ العلماء حقيقة القائمين بما حملهم اللّه به ، وصار كثير ممن يطلب العلم لحظوظ الدنيا وأعرضوا عن الكتاب والسنة فلم يذوقوا لها حلاوة ، ووقع ما أخبر به ﷺ : « إنكم في زمان قليل قراؤه كثير فقهاؤه وسيأتي بعدكم زمان كثير قراؤه قليل فقهاؤه » فإنا للّه وإنا إليه راجعون « من يرد اللّه به خيرًا يفقهه في الدين ».

بل أصبحنا في جيل اتخذوا البدع والخرافات حجة وسندًا على أن الكتاب والسنة غير صالح للترقية البشرية ولا سيما في هذه القرون ؛ قرون المدنية والحضارة جهلًا منهم بالدين الحنيف ..!! ولو تأملوا قليلًا لعلموا أنهم في ضلال مبين ، وجرى الأكثر وراء المدنية ، وغلغلها في نفوسهم طائفة من المبتدعين حتى رموا الدين بالجمود والرجعية ، فأصبحت تعاليم الدين في خبر كان ، واللّه المستعان .

❁❁❁

اللهو الباطل - الغناء والمزامير

كلمة نصح وإخلاص[١]

(١)

كثر في هذا العصر الاشتغال بالملاهي والاجتماع والاستماع لها لكثرة المغنين وقلة الناهين، وتسهلت الطرق إلى تحصيلها بأسباب وصولها باللاسلكيات وأجهزة الراديو والشنط (الصناديق) ونحوها بواسطة الآلات الكهربائية وغيرها إلى أسماع أهل اللهو واللعب والبطالة والسفاهة والفسوق والعصيان، فتراهم يتهافتون عليها تهافت الفراش على النار، لا عقل ولا حياء، ولا رادع[٢] ولا وازع، ولا صاد ولا راد، سخاف عقول سفهاء أحلام؛ صدوا عن ذكر اللّه وطاعته وثقل عليهم كتابه وسنة رسوله ﷺ، واستفزهم الشيطان إلى قرآنه وذكره، فلبوه مسرعين واستمعوا له خاضعين مخبتين؛ حاضري القلوب، لا يلهون عنه ولا يغفلون ولا ينامون، وتلقوه مشتاقين له، قد سكنت حركاتهم له وأصغت أفئدتهم إليه، وزينه لهم الشيطان فلم يعلموا غائلته ولا عرفوا مغبته ولا ما في ضمنه من الضلال والفساد ما هو أعظم للروح من الخمر للجسد؛ يصدهم عن ذكر اللّه وطاعته والتفكر في عظمته والقيام بخدمته أعظم مما يصدهم الخمر، فإنه لذة الروح والخمر لذة البدن.

واقترن بهم الشيطان فأمالهم إلى اللذات العاجلة ودعاهم إلى ارتكابها من جميع الشهوات: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [الحشر: الآية ١٩].

---

(١) صحيفة أم القرى في ١٣٥٨/٥/٥هـ.

(٢) في الأصل «ولا رائد».

وأكثر شبان المسلمين لا يعرفون من الإسلام إلا اسمه ولا من القرآن إلا رسمه ، ينشأون جاهلين بحقائق الدين ، أسهل شيء تضليلهم وتشكيكهم لعدم تمسكهم من الإسلام بلبابه وحقائقه .

ولا فرق في استماعه بين من يشاهد أصحاب اللهو ومن توصل إليه بالآلات الكهربائية ، فإن ما استمعه من الغناء أو الموسيقى ونحوها من اللهو هو صوت المغنية والمغني أو الموسيقى ونحوهما ؛ لا فرق إلا أن الحضور أشد محظورًا للفتنة برؤية النساء والمردان[١] ومشاهدة المنكرات .

وليس الكلام مع القبوريين الطائفين بها المتمسحين والمتقربين إليها بالذبائح والنذر ، ولا مع عباد الأنبياء والأولياء والصالحين وغيرهم السائلين منهم جلب المنافع ودفع المضار والشفاعة والرحمة والغوث والانتصار ، الذي لم يبح في شريعة من شرائع الرسل وإنما بعثوا بإفراد العبادة للملك القهار ، فإن هؤلاء قد يكون اللهو أحسن أحوالهم وأسلم أوقاتهم ، وإنما الكلام معنا معاشر الموحدين .

وأيضًا فليس الكلام في الدف في العرس ونحوه للنساء فهو سنة ما لم يقترن بمحرم كاختلاط الرجال بالنساء أو تشبيب أو رفث .

قال في البحر : وما يحرم من الملاهي في غير النكاح يحرم فيه لعموم النهي .

وقال في الإقناع[٢] وشرحه : ويسن إعلان النكاح والضرب فيه بدف لا حلق فيه ولا صنوج للنساء ؛ لما روى محمد بن حاطب قال : قال رسول ﷺ : « فصل ما بين الحلال والحرام الصوت والدف في النكاح » رواه أحمد والنسائي والترمذي وحسنه ، ويكره للرجال .

(١) في الأصل « والمراد أن ».

(٢) الإقناع ٣/ ٢٣٨.

وقال الموفق[١] : ضرب الدف مخصوص بالنساء، ولا بأس بالغزل في العرس لقوله ﷺ للأنصار: «أتيناكم أتيناكم فحيونا نحييكم»[٢] لا على ما صنعه الناس اليوم . اهـ .

أو ما جرت عادة الناس به كأشعار الغزاة التي يحرضون بها على الغزو وإنشاد المتبارزين للقتال، وإنشاد الحجاج يصفون الكعبة وزمزم وغيرهما، أو كأشعار الأعراب ومفاخرتهم بالشجاعة والغلبة مما لا يهيج شرًّا، وإنما هو رفع صوت بالإنشاد، أو عند محاولتهم أعمالهم كحداء الأعراب بإبلهم، وغناء النساء لتسكت صغارهن ولعب الجواري بلعبهن يوم العيد وما شاكل ذلك، فهذا وأمثاله إذا سلم المغني من ذكر الفواحش والمحرمات والصد عن ذكر اللّٰه وعن الصلوات فلا شك في إباحته .

وإنما الكلام في اللهو الباطل الصاد عن ذكر اللّٰه وعن الصلاة والتعبدات المشروعة من الأغاني بالألحان المشوقة إلى المحرمات والمكاء والتصدية والأوتار والمعازف كالعود والرباب وغير ذلك من الآلات المشهورة عند أهل اللهو فهذا محرم بلا خلاف بين أساطين علماء المسلمين الذين أقامهم اللّٰه لحفظ دينه، فإن اللّٰه قد بعث في كل أمة رسولًا حجة على خلقه، وكلما مات نبي خلفه نبي، وقيض لدينه بعد خاتم رسله محمد ﷺ أئمة يحفظون دينه وتقوم بهم الحجة إلى قيام الساعة .

ولا يشك في تحريمه إلا مصاب العقل مبخوس الحظ من الدين الذي لا يفرق بين الحق والباطل ولا يميز الخبيث من الطيب، كيف وهو دين أصحاب

---

(١) المغني ٧/ ٤٢٨.

(٢) أحمد ٣/ ٣٩١ من حديث أبي سعيد الخدري رضي اللّٰه عنه . وأخرجه ابن ماجه (١٩٠٠) من حديث ابن عباس رضي اللّٰه عنهما . وانظر آداب الزفاف ص ١٠٩.

السامري لما اتخذ لهم عجلًا قاموا يرقصون حوله ويتواجدون ، ودين الزنادقة اتخذوه ليشغلوا به المسلمين عن ذكر الله كما هو الواقع ، وهو شعار أهل الفسوق والمجون ومهيج الشهوات والفساد ، وما كان كذلك لا شك في تحريمه وسقوط عدالة صاحبه .

ومن المعلوم بالضرورة أن الشريعة لا تبيح مثل هذا ، ولا يظن بالحكيم الخبير الذي حرم ملء الكف من المسكر لأنه يشوق إلى المسكر الذي يشوق إلى المحرمات أنه يبيح ما هو أعظم منه شوقًا للنفوس إلى المحرم بكثير ، وقد شاهد الناس أنه ما عانى اللهو الباطل صبي إلا وفسد ولا امرأة إلا وبغت ولا شاب ولا شيخ إلا وقع في محذور .

وأيضًا شرع الله لعباده سماع آياته فقال : ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [الأنفال: الآية ٢].

وقال : ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّواْ سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ [مريم: الآية ٥٨] .

وقال : ﴿إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا * وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ .

وقال : ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ [المائدة: الآية ٨٣] .

فكتاب الله وذكره قرة عيون المحبين ، ولذة أرواح الموحدين ، وقوت نفوس الخاشعين ، ونعيم السالكين ، والمعتصم بهذا السماع مهتد مفلح والمعرض عنه ضال شقي ، قال تعالى : ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾ [طه : ١٢٣ - ١٢٦] .

وسيمر بك إن شاء اللّٰه ما في سماع أهل اللهو بالغناء والمزامير والمعازف والمكاء والتصدية ؛ المعرضين أهل المجون السفلة المتخنثين .

وسل أهل السماع للهو هل يجدون لذة كتاب اللّٰه وذكره وعبادته ؟ ! وهل يدعهم اللهو يجدون بعضه في صلاتهم ؟ ! وسلهم هل هناك فرق بين ذوق الآيات والأبيات والآلات ؟ ! وهل هناك فرق بين ذوق القيام بين يدي رب العالمين وبين يدي المغنين والمزمرين ؟ ! هل هناك فرق بين ذوق اللذة والنعيم بالتلذذ بالذكر وبمعاني كلام رب العالمين وذوق معاني الأغاني والمزامير قرآن الشيطان ؟ !

ثم باللّٰه عليك هل يجتمعان في قلب ؟ لا واللّٰه إلا ويطرد أحدهما الآخر ، واللّٰه لا يجتمع حب سماع كلام الرحمن ، وحب سماع قرآن الشيطان في قلب رجل أبدًا .

ومن له عقل صحيح وذوق سليم وعرف مقاصد الشرع في سد الذرائع المفضية إلى الحرام قطع التحريم لهذا اللهو الباطل .

وقد صنف أئمة الإسلام سلفًا وخلفًا في تحريمه كتبًا مشهورة ، وأيضًا ضمنوا كتبهم المصنفة في الأصول والفروع ذلك وبوبوا له أبوابًا وفصولًا ، وذكر النهي عنه وتحريمه سائر أئمة المذاهب وأصحابهم سلفًا وخلفًا ، وقامت الحجة في ذلك وظهرت المحجة لمن أراد سلوك طريق أولياء الرحمن .﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾ [الكهف: الآية ١٧] .

ونتحف الطالب للهدى المجانب لطريق أهل الغواية والردى أنموذجًا من قول اللّٰه تعالى وقول رسوله ﷺ للصحابة والتابعين وتابعيهم بإحسان في النهي عن هذا اللهو الباطل وتحريمه والتحذير من سوء عاقبته قال اللّٰه تعالى : ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا

أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ۝٦ وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسۡتَكۡبِرٗا كَأَن لَّمۡ يَسۡمَعۡهَا كَأَنَّ فِيٓ أُذُنَيۡهِ وَقۡرٗاۖ فَبَشِّرۡهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [لقمان: ٦ - ٧] يشتري: يستبدل ويختار الغناء والمزامير والمعازف على القرآن.

قال الحافظ ابن كثير[(١)] رحمه الله تعالى: لما ذكر حال السعداء وهم الذين يهتدون بكتاب الله وينتفعون بسماعه كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ﴾ [الزُّمَر: الآية ٢٣]. عطف بذكر حال الأشقياء الذين أعرضوا عن الانتفاع بسماع كلام الله وأقبلوا على استعمال المزامير والغناء بالألحان وآلات الطرب، كما قال ابن مسعود رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ﴾ [لقمان: الآية ٦] قال: هو والله الغناء، ورواه ابن جرير[(٢)] بلفظ وهو يسأل عن هذه الآية فقال: الغناء والله الذي لا إله إلا هو؛ يرددها ثلاث مرات، وفي رواية قال: الغناء.. قال[(٣)]: وكذا قال ابن عباس وجابر وعكرمة وسعيد بن جبير ومجاهد ومكحول وعمرو بن شعيب وعلي بن المديني. وقال الحسن البصري: نزلت في الغناء والمزامير.

وقال الواحدي[(٤)] وغيره: أكثر المفسرين على أن المراد بلهو الحديث الغناء، قاله ابن عباس رضي الله عنهما في رواية سعيد بن جبير عنه وابن مسعود في رواية أبي الصهباء عنه وهو قول مجاهد وعكرمة. وقال ابن عباس هو الرجل يشتري الجارية تغنيه ليلًا ونهارًا.. قال: وهو قول مكحول واختيار أبي إسحاق،

---

(١) تفسير ابن كثير ٣/ ٤٤٢.
(٢) تفسير ابن جرير ٢٣/ ٦١.
(٣) القائل هو ابن كثير.
(٤) الوسيط ٣/ ٤٤١.

قال : أكثر ما جاء في التفسير أن لهو الحديث ههنا هو الغناء ؛ لأنه يلهي عن ذكر الله .. قال الواحدي : قال أهل المعاني ويدخل في هذا كل من اختار اللهو والغناء والمزامير والمعازف على القرآن وإن كان اللفظ قد ورد بالشراء ، فلفظ الشراء يذكر في الاستبدال والاختيار .. قال : وبحسب المرء من الضلالة أن يختار حديث الباطل على حديث الحق ، قال : وهذه الآية على هذا التفسير تدل على تحريم الغناء .. ثم ذكر كلام الشافعي في رد الشهادة في إعلان الغناء .. قال : وأما غناء القينات فذلك أشد ما في هذا الباب لكثرة الوعيد الوارد فيه وهو ما ورد عن النبي ﷺ قال : « من استمع إلى قينة صب في أذنيه الآنك يوم القيامة »(١) الآنك : الرصاص المذاب .

قد جاء تفسير لهو الحديث بالغناء مرفوعًا إلى النبي ﷺ في مسند أحمد والحميدي والترمذي عن أبي أمامة أن النبي ﷺ قال : « لا تبيعوا القينات ولا تشتروهن ولا تعلموهن فلا خير في تجارتهن فهن وثمنهن حرام ، في مثل هذا نزلت الآية : ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [لقمَان: الآية ٦] .

قال ابن القيم(٢) : وهذا الحديث وإن كان مداره على عبيد اللَّه بن زهر عن علي بن زيد عن القاسم ، فعبيد اللَّه بن زهر ثقة ، والقاسم ثقة ، وعلي ضعيف ، إلا أن للحديث شواهد ومتابعات مع ما اعتضد به من تفسير الصحابة فقد قال ابن مسعود : واللَّه الذي لا إله غيره هو الغناء ، يرددها ثلاثًا ، يعني لهو الحديث ، وصح عن ابن عمر أيضًا أنه الغناء ، قال الحاكم في المستدرك ليعلم طالب هذا العلم أن تفسير الصحابي الذي شهد الوحي والتنزيل عند الشيخين حديث مسند .

---

(١) ابن عساكر في تاريخ دمشق ٥١/ ٢٦٣. وقال ابن القيسراني في « كتاب السماع » : والحديث عن مالك منكر جدًّا . يعني هذا الحديث .

(٢) « إغاثة اللهفان » ١/٢٤٠ .

وقال في موضع آخر : هو عندنا في حكم المرفوع .. قال ابن القيم : هذا وإن كان فيه نظر فلا ريب أنه أولى بالقبول من تفسير من بعدهم فهم أعلم الأمة بمراد اللَّه من كتابه فعليهم نزل .

❁ ❁ ❁

اللهو الباطل - الغناء والمزامير

كلمة نصح وإخلاص[١]

(٢)

قال رحمه اللّٰه تعالى[٢] : ولا تعارض بين لهو الحديث بالغناء وتفسيره بأخبار الأعاجم وملوكها ، وملوك[٣] الروم ، ونحو ذلك مما كان النضر بن الحارث يحدث به أهل مكة ؛ يشغلهم عن القرآن ؛ لأن كليهما لهو .

ولا شك أن الغناء أشد لهوًا من أخبار الملوك وأعظم ضررًا ؛ فإنه رقية الزنا وشرك الشيطان وخمرة العقول ، ويصد عن القرآن أكثر من غيره من الكلام الباطل ؛ لشدة ميل النفوس إليه ورغبتها فيه .

وأخرج البغوي عن أبي أمامة مرفوعًا : « لا يحل تعليم المغنيات ولا بيعهن وأثمانهن حرام ، وفي مثل ذلك نزلت هذه الآية[٤] ، وما من رجل يرفع صوته بالغناء إلا بعث اللّٰه له شيطانين ؛ أحدهما على هذا المنكب والآخر على هذا المنكب ، فلا يزالان يضربانه بأرجلهما حتى يكون هو الذي يسكت ».

وعن أبي هريرة مرفوعًا « نهى عن ثمن الكلب وكسب المزمار ».

وقال النسفي[٥] : (لهو الحديث) اللهو : كل باطل ألهى عن الخير ، ولهو

---

(١) تتمة المقال في صحيفة أم القرى ١٣٥٨/٥/١٩هـ.

(٢) القائل هو الإمام ابن القيم ، والحديث له تعلق بما قبله في المقال السابق . وانظره في « إغاثة اللهفان » (٢٤٠/١).

(٣) في الأصل : « الإعجام تفسير وملوك الروم » والمثبت من « إغاثة اللهفان ».

(٤) وهي قوله تعالى : ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [لقمان: الآية ٦] ، والحديث أخرجه البغوي في تفسيره ٣/ ٤٨٩، وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة بنحوه (٢٩٢٢).

(٥) تفسير النسفي ٣/ ٢٨٠، وتفسير ابن كثير ٣/ ٤٤٣.

الحديث نحو السمر بالأساطير التي لا أصل لها والغناء. (ليضل عن سبيل الله) أي: عن دين الإسلام؛ سماع القرآن.

قال ابن كثير(١): ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا﴾ [لقمان: الآية ٧] أي: هذا المقبل على اللهو واللعب والطرب إذا تليت عليه الآيات القرآنية ولىّ عنها وأعرض وأدبر وتصامم وما به صمم، كأن لم يسمعها؛ لأنه يتأذى بسماعها إذ لا انتفاع له بها ولا أرب له فيها ﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [لقمان: آية ٧] يوم القيامة مؤلم كما تألّم بسماع كتاب الله وآياته.

وقال(٢) في قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ [المؤمنون: ١ - ٣] أي: عن الباطل، وهو يشمل الشرك كما قاله بعضهم، والمعاصي كما قاله آخرون، وما لا فائدة فيه من الأقوال والأفعال كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا﴾ [الفرقان: الآية ٧٢].

وقال النسفي: ﴿عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ قيل: هو كل باطل ولهو وما لا يجمل من القول والفعل.

وقال بعض أهل التفسير في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ [القَصَص: الآية ٥٥] اللغو: الباطل.

قال ابن القيم: ومن أسماء الغناء الباطل، والباطل ضد الحق. قال القاسم بن محمد هو باطل، وقال لعبيد الله: أرأيت الباطل أين هو؟! قال: في النار. قال: فهو ذلك.

وقال ابن عباس لرجل: أرأيت الحق والباطل إذا جاءا يوم القيامة فأين يكون

---

(١) تفسير ابن كثير ٣٣٢/٦ ط. طيبة.

(٢) المرجع السابق ٤٦٢/٥.

الغناء؟ فقال الرجل مع الباطل، فقال له ابن عباس: اذهب فقد أفتيت نفسك.

قال ابن القيم[(١)]: فهذا جواب ابن عباس عن غناء الأعراب الذي ليس فيه مدح الخمر والزنا واللواط والتشبيب بالأجنبيات وأصوات المعازف والآلات المطربة، فإن غناء القوم لم يكن فيه شيء من ذلك، ولو شاهدوا هذا الغناء لقالوا فيه أعظم قول، فإن مضرته وفتنته فوق مضرة شرب الخمر بكثير وأعظم من فتنته، فمن أبطل الباطل أن تأتي شريعة بإباحته!!..

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا﴾ [الجُمُعَة: الآية ١١] قال البغوي: قال مقاتل: بينا رسول الله ﷺ يخطب[(٢)] يوم الجمعة إذ قدم دحية.. وفيه: ثم يضرب بالطبل ليؤذن الناس بقدومه.. قال[(٣)]: وأراد باللهو الطبل.

وذكر ابن كثير عنه: وكان معها طبل فانصرفوا إليها.

وقال النسفي[(٤)]: وكانوا إذا أقبلت العير استقبلوها بالطبل، فهو المراد باللهو.

وقال تعالى: ﴿وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ﴾ [الإسراء: الآية ٦٤] قال ابن كثير[(٥)]: قيل هو الغناء، قال مجاهد: باللهو والغناء؛ أي استخفهم بذلك؛ وقال ابن عباس: كل داع دعا إلى معصية الله؛ وقاله قتادة واختاره ابن جرير.

وقال البغوي[(٦)] عن مجاهد: بالغناء والمزامير.

---

(١) إغاثة اللهفان (١/٢٤٣).

(٢) في الأصل: «قائمًا يخطب» والمثبت من تفسير البغوي.

(٣) القائل البغوي رحمه الله.

(٤) تفسير النسفي ٤/٢٤٦.

(٥) تفسير ابن كثير ٣/٥٠.

(٦) تفسير البغوي ٣/١٢٣.

قال ابن القيم : وعن مجاهد صوت الغناء والباطل . وعنه هو المزامير ، وعن الحسن صوت الدف .. قال : فكل متكلم بغير طاعة اللّٰه أو بصوت يراع أو مزمار أو طبل فذلك صوت الشيطان .

وقال تعالى : ﴿أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ۝٥٩ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ۝٦٠ وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ﴾ [النجم : ٥٩ - ٦١] . قال ابن كثير[١] : قال سفيان الثوري عن أبيه عن ابن عباس : الغناء ، وهي يمانية . أُسمد لنا : غنِّ لنا . وكذا قال عكرمة ، وقال الحسن : غافلون ، وقال البغوي : لا هون غافلون[٢] .

والسمود : الغفلة عن الشيء واللهو . يقال : دع عنا سمودك ، أي لهوك ، وقال عكرمة : هو الغناء بلغة أهل اليمن ، وكانوا إذا سمعوا القرآن عارضوه بالغناء ليشغلوا الناس عن استماعه ، وقال الخازن : السامد اللاهي ، وقال أبو عبيدة : المسمود له الذي غني له .

قال أبو زيد .

وكأن العزيف فيها غناء للندامى من شاربٍ مسمودِ .

وقال[٣] : قال ابن عباس : السمود الغناء في لغة حمير . وعنه : مستكبرون ، وقال الضحاك : أشرون بطرون . وقال غيره : لاهون غافلون معرضون ..

قال ابن القيم : فالغناء يجمع هذا كله ويوجبه .

وقال تعالى : ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً﴾ [الأنفال: الآية ٣٥] . قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله[٤] : أما سماع المكاء والتصدية ؛ فالتصدية هي التصفيق بالأيدي ، والمكاء مثل الصفير ونحوه ؛ فهذا

---

(١) تفسير ابن كثير ٤/ ٢٦٠.

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٢٥٧.

(٣) القائل ابن القيم.

(٤) مجموع الفتاوى ١١/ ٥٦٢.

سماع المشركين الذي ذكره الله في قوله : ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً﴾ [الأنفال: الآية ٣٥] فأخبر الله تعالى عن المشركين أنهم كانوا يتخذون التصفيق باليد والتصويت بالتصفير قربة ودينا .

وقال ابن كثير رحمه الله[1] بعد ذكره حالة الكفار وصدهم عن سبيل الله : ثم ذكر تعالى ما كانوا يعتمدونه عند المسجد الحرام وما كانوا يعاملونه به فقال : ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً﴾ [الأنفال: الآية ٣٥] قال عبد الله بن عمرو وابن عباس ومجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وأبو رجاء العطاردي ومحمد بن كعب القرظي وحجر بن عنبس ونبيط بن شريط وقتادة وعبد الرحمن بن زيد : هو الصفير ..

﴿وَتَصْدِيَةً﴾ [الأنفال: الآية ٣٥] روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : كانت قريش تطوف بالبيت عراة ؛ تصفر وتصفق ، والمكاء : الصفير ، والتصدية : التصفيق . وهكذا روى علي بن أبي طلحة والعوفي عن ابن عباس ، وكذا روي عن ابن عمر ومجاهد ومحمد بن كعب وأبي سلمة ابن عبد الرحمن والضحاك وقتادة وعطية العوفي وحجر بن عنبس وابن أبزى نحو هذا . وروى ابن جرير عن ابن عمر قال : المكاء الصفير ، والتصدية التصفيق .

وقال ابن القيم : وأما المكاء والتصدية ، فقال ابن عباس وابن عمر وعطية ومجاهد والضحاك والحسن وقتادة : المكاء الصفير والتصدية التصفيق .

وكذا قال أهل اللغة ، قال حسان يعيب المشركين :

إذا قام الملائكة انبعثتم ... صلاتكم التصدية والمكاء

وهكذا الأشباه !! يكون المسلمون في الصلاة الفرض والتطوع وهم في التصفير والتصفيق !! .

---

(١) تفسير ابن كثير ٢/ ٣٠٧.

ومن السنة ما أخرج البخاري في صحيحه وغيره عن أبي عامر وأبي مالك الأشعري سمع النبي ﷺ يقول: «ليكونن من أمتي قوم يستحلون الحر والحرير والخمر والمعازف».

ووجه الدلالة منه: أن المعازف هي آلات اللهو كلها؛ لا خلاف بين أهل اللغة في ذلك، ولو كانت حلالًا لما ذمهم على استحلالها وقرنها باستحلال الخمر والحرير.

قال الحافظ ابن حجر[١]: المعازف جمع معزفة بفتح الزاي، وهي آلات الملاهي. وفي حواشي الدمياطي: المعازف: الدفوف -وعرفها- مما يضرب به، ويطلق على الغناء عزف[٢]، وعلى كل لعب عزف. ووقع في رواية مالك بن أبي مريم «تغدو عليهم القيان وتروح عليهم المعازف».

وقال أبو عمرو ابن الصلاح[٣] بعد أن تكلم على تعليقات البخاري: وزعم أبو محمد ابن حزم الظاهري حيث جعل مثل ذلك انقطاعًا قادحًا في الصحة، واستروح إلى ذلك في تقرير مذهبه الفاسد في إباحة الملاهي وزعمه أنه لم يصح في تحريمها حديث مجيبًا عن حديث أبي عامر وأبي مالك الأشعري عن رسول الله ﷺ «ليكونن ....» الحديث، فزعم أنه وإن أخرجه البخاري فهو غير صحيح؛ لأن البخاري قال فيه: قال هشام بن عمار.. وساقه بإسناده، فهو منقطع فيما بين البخاري وهشام. وهذا خطأ من ابن حزم من وجوه..

وقال ابن القيم: ولم يصنع من قدح في صحة هذا الحديث شيئًا كابن حزم نصرة لمذهبه الباطل في إباحة الملاهي.

---

(١) فتح الباري ١٠/ ٥٥.

(٢) في الأصل «ويطلق على القرآن عزف» وهو تصحيف شنيع.

(٣) مقدمة ابن الصلاح ص ٣٦.

وروى الترمذي[1] عن جابر قال خرج النبي ﷺ مع عبد الرحمن بن عوف إلى النخل فإذا ابنه إبراهيم يجود بنفسه فوضعه في حجره ففاضت عيناه فقال عبد الرحمن: تبكي وأنت تنهى الناس؟! فقال: «إني لم أنه عن البكاء، وإنما نهيت عن صوتين أحمقين فاجرين؛ صوت عند نغمة لهو ولعب ومزامير شيطان، وصوت عند مصيبة خمش وجوه وشق جيوب ورنة ..» الحديث. قال الترمذي: حسن.

قال ابن القيم فإذا لم يستفد التحريم من هذا لم نستفده من نهي أبدًا!! .. قال: والصواب بلا ريب أن صيغة «نهيت» أبلغ في التحريم من صيغة «لا تفعل» فكيف يستجيز العارف إباحة ما نهى عنه الرسول ﷺ وسماه أحمق فاجرًا ومزمور الشيطان؟!. وفي الصحيحين[2] عن عائشة رضي اللَّه عنها قالت: دخل علي النبي ﷺ وعندي جاريتان يغنيان بغناء بعاث، فاضطجع على الفراش وحول وجهه، ودخل أبو بكر فانتهرني وقال: مزمار الشيطان عند النبي ﷺ، فأقبل عليه رسول اللَّه ﷺ وقال: «دعهما» فلما غفل غمزتهما فخرجتا.

ولم ينكر رسول اللَّه ﷺ على أبي بكر[3] تسمية الغناء مزمار الشيطان، وإنما أقرهما رسول اللَّه ﷺ لأنهما جاريتان غير مكلفتين يغنيان بغناء الأعراب في الذي قيل يوم حرب بعاث من الشجاعة والحرب، وكان اليوم يوم عيد، بغير شبابة ولا دف ولا رقص ولا تصفيق ..

قال ابن القيم: فتوسع حزب الشيطان إلى صوت امرأة وأمرد مع آلات اللهو؛ يحتجون به ويدعون المحكم الصريح، وهذا شأن كل مبطل.

---

(١) الترمذي (١٠٠٥). وحسنه الألباني، وانظر السلسلة الصحيحة (٢١٥٧).

(٢) البخاري (٩٤٩)، ومسلم (٨٩٢).

(٣) سقطت «بكر» من الأصل.

وروى الإمام أحمد[1] عن أبي أمامة رضي اللّٰه عنه عن النبي ﷺ قال : « إن اللّٰه بعثني رحمة وهدى للعالمين وأمرني أن أمحق المزامير والكبارات » يعني البرابط والمعازف والأوثان التي كانت تعبد في الجاهلية ..

قال ابن القيم : وإذا كان الزمر الذي هو أخف آلات اللهو حرامًا فكيف بما هو أشد منه كالعود والطنبور .. قال : ولا ينبغي لمن شم رائحة العلم أن يتوقف في تحريم ذلك ، وأقل ما فيه إنه شعار الفساق وشاربي الخمور .

وأخرج ابن ماجه[2] عن أبي مالك الأشعري قال قال رسول اللّٰه ﷺ : « ليشربن ناس من أمتي الخمر يسمونها بغير اسمها ، يعزف على رؤوسهم بالمعازف والمغنيات ، يخسف اللّٰه بهم الأرض ويجعل منهم قردة وخنازير » قال ابن القيم : إسناده صحيح .

وروى ابن أبي الدنيا[3] عن سهل بن سعد قال : قال رسول اللّٰه ﷺ : « يكون في أمتي خسف وقذف ومسخ » قيل يا رسول اللّٰه متى ؟ قال : « إذا ظهرت المعازف والقينات واستحلت الخمرة ».

وللترمذي[4] عن عمران ابن حصين : « يكون في أمتي قذف وخسف ومسخ » فقال رجل: متى ذلك يا رسول اللّٰه ؟ فقال : « إذا ظهرت القيان والمعازف وشربت الخمور » قال الترمذي حديث غريب .

ولأحمد وأبي داود[5] عنه قال : « إن اللّٰه حرم الخمر والميسر والكوبا والغبيراء ، وكل مسكر حرام ».

---

(١) أحمد ٥/ ٢٥٧.
(٢) ابن ماجه (٤٠٢٠) ، وصححه الألباني ، وانظر السلسلة الصحيحة (٩٠) .
(٣) ابن أبي الدنيا في ذم الملاهي (١) . وانظر السلسلة الصحيحة (١٧٨٧) .
(٤) الترمذي (٢٢١٢) ، وصححه الألباني . وانظر الصحيحة (١٦٠٤) .
(٥) أحمد ٢/ ١٥٨، وأبو داود (٣٦٨٥) من حديث عبد اللّٰه بن عمرو .

ولأحمد أيضًا[١] «إن اللّٰه حرم على أمتي الخمر والميسر والمزر والكوبة والقنين» وله[٢] عن ابن عباس قال: «إن اللّٰه حرام الخمر والميسر والكوبة».

قال سفيان: الكوبة الطبل، وقيل: البربط، والقنين هو الطنبور بالحبشة، والتقنين الضرب به، قاله ابن الأعرابي.

وللترمذي[٣] من حديث أبي هريرة: « .. وظهرت القيان والمعازف ..» ولابن أبي الدنيا[٤] عنه رضي اللّٰه عنه قال: قال رسول اللّٰه ﷺ: «يمسخ قوم من هذه الأمة في آخر الزمان قردة وخنازير» قالوا: يا رسول اللّٰه أليس يشهدون أن لا إله إلا اللّٰه وأن محمدًا رسول اللّٰه؟ قال: «بلى ويصومون ويحجون» قيل: فما بالهم؟ قال: «اتخذوا المعازف والدفوف والقينات، فباتوا على شربهم ولهوهم، فأصبحوا وقد مسخوا قردة وخنازير». وله أيضًا ولأحمد[٥] عنه قال: «يبيت طائفة من أمتي على أكل وشرب ولهو ولعب ثم يصبحون قردة وخنازير، ويبعث على أحياء من أحيائهم ريح فينسفهم كما نسف من كان قبلكم باستحلالهم الخمر وضربهم بالدفوف واتخاذهم القينات» وفي إسناده فرقد السبخي، وهو من كبار الصالحين وليس بالقوي في الحديث، قال الترمذي تكلم فيه يحيى بن سعيد وقد روى عنه الناس.

وأخرج ابن أبي الدنيا[٦] عن عائشة رضي اللّٰه عنها قالت: قال رسول اللّٰه

---

(١) أحمد ٢/ ١٥٨، وأبو داود (٣٦٨٥) من حديث عبد اللّٰه بن عمرو.

(٢) أحمد ١/ ٢٨٩.

(٣) الترمذي (٢٢١١). وضعفه الألباني في ضعيف الترمذي. وانظر الضعيفة (١٧٢٧).

(٤) ابن أبي الدنيا في ذم الملاهي (٨).

(٥) أحمد ٥/ ٢٥٩، وابن أبي الدنيا في ذم الملاهي (٦) من حديث أبي أمامة وعلي، رضي اللّٰه عنهما، وانظر الصحيحة (١٦٠٤).

(٦) ابن أبي الدنيا في ذم الملاهي (٤، ٥، ٦، ١٧).

ﷺ : « سيكون في أمتي خسف ومسخ وقذف » . قالت : يا رسول اللَّه ، وهم يقولون لا إله إلا اللَّه ؟ . فقال : « إذا ظهرت القيان ، وظهر الربا ، وشربت الخمور ، ولبس الحرير ، كان ذا عند ذا » .

وله[١] عن أنس أنه دخل على عائشة ورجل معه فقال لها : حدثينا عن الزلزلة . فقالت : إذا استباحوا الزنا ، وشربوا الخمور ، وضربوا بالمعازف ، غار اللَّه في سمائه فقال : تزلزلي بهم ، فإن تابوا وفزعوا وإلا هدمتها عليهم . قلت : أعذاب لهم . قالت : بل موعظة ورحمة وبركة للمؤمنين ، ونكال وعذاب وسخط على الكافرين .

وأخرج ابن أبي الدنيا[٢] عن علي مرفوعًا « إذا عملت أمتي خمس عشرة خصلة .. وفيه : واتخذت القينات ، فليرتقبوا ريحًا حمراء وخسفًا ومسخًا » وفي رواية له[٣] عنه « تمسخ طائفة من أمتي قردة وطائفة خنازير ويخسف بطائفة ويرسل على طائفة الريح العقيم ؛ بأنهم شربوا الخمور ولبسوا الحرير واتخذوا القيان وضربوا بالدفوف » وله عن أنس « ليكونن في هذه الأمة خسف وقذف ومسخ وذلك إذا شربوا الخمور واتخذوا القينات وضربوا بالمعازف » وفي رواية « ليبيتن رجال على أكل وشرب وعزف ، فيصبحون على الأرائك ممسوخين قردة وخنازير » وله[٤] عن عبد الرحمن بن سابط « يكون في أمتي خسف وقذف ومسخ » قالوا : فمتى ذلك يا رسول اللَّه ؟ قال « إذا أظهروا المعازف واستحلوا الخمور » وله عن الغازي بن ربيعة رفعه « ليمسخن قوم وهم على أريكتهم قردة وخنازير بشربهم الخمر وضربهم بالبرابط والقيان ».

---

(١) ابن أبي الدنيا في ذم الملاهي (٤، ٥، ٦، ١٧) .

(٢) انظر الحاشية السابقة .

(٣) انظر الحاشية السابقة .

(٤) ابن أبي الدنيا في ذم الملاهي (٩، ١٠).

قال ابن القيم : وقد تظاهرت الأخبار بوقوع المسخ في هذه الأمة ، وهو مقيد في أكثر الأحاديث بأصحاب الغناء وشراب الخمر .

وقال ابن أبي الدنيا في كتاب « مصائد الشيطان وحيله »(١) :حدثنا أبو بكر التميمي حدثنا ابن أبي مريم حدثنا يحيى بن أيوب حدثنا ابن زرع عن علي بن زيد عن القاسم عن أبي أمامة عن رسول الله ﷺ قال : « إن إبليس لما أنزل إلى الأرض قال يا رب أنزلتني إلى الأرض وجعلتني رجيما فاجعل لي بيتا . قال : الحمام . قال : فاجعل لي مجلسًا . قال : الأسواق ومجامع الطرق . قال : فاجعل لي طعامًا . قال : كل ما لم يذكر اسم الله عليه . قال : فاجعل لي شرابًا . قال : كل مسكر . قال : فاجعل لي مؤذنًا . قال : المزمار . قال : اجعل لي قرآنًا . قال : الشعر . قال : اجعل لي كتابًا . قال : الوشم . قال : اجعل لي حديثًا . قال : الكذب . قال : اجعل لي رسلًا . قال : الكهنة . قال : اجعل لي مصائد . قال : النساء ».

قال ابن القيم : وشواهد هذا الأثر كثيرة ، فكل جملة منها له شاهد من السنة أو من القرآن .. ثم قال : وكون المزمار مؤذنه في غاية المناسبة ؛ فإن الغناء قرآنه ، والرقص والتصفيق اللذين هما المكاء والتصدية صلاته ، فلابد لهذه الصلاة من مؤذن وإمام ومأموم ؛ فالمؤذن المزمار ، والإمام المغني ، والمأموم الحاضرون .

وقال قتادة : لما أهبط إبليس قال : رب لعنتني فما عملي ؟ قال : السحر . قال : فما قراءتي ؟ قال : الشعر . قال : فما كتابي ؟ قال : الوشم . قال : فما طعامي ؟ قال : الميتة وكل ما لم يذكر اسم الله عليه . قال : فما شرابي ؟ قال : كل مسكر . قال : فأين مسكني ؟ قال : الأسواق . قال : فما صوتي ؟ قال : المزامير . قال : فما مصائدي ؟ قال : النساء .

قال ابن القيم : المعروف وقفه ، وقد رواه الطبراني عن أبي أمامة مرفوعًا .

---

(١) مكائد الشيطان (٤٣) .

اللهو الباطل - الغناء والمزامير
كلمة نصح وإخلاص
(٣)

وأخرج ابن أبي الدنيا في كتاب « ذم الملاهي »[١] عن ابن مسعود مرفوعًا « الغناء ينبت النفاق في القلب كما ينبت الماء البقل » قال ابن القيم الموقوف أصح ؛ وقال عبد اللَّه بن الإمام أحمد سألت أبي عن الغناء فقال الغناء ينبت النفاق في القلب كما ينبت الماء الزرع وقال الشعبي لعن المغني والمغنى له ، وقال الضحاك الغناء مفسد للقلب مسخطة للرب ، ومر ابن عمر بجارية صغيرة تغني فقال : لو ترك الشيطان أحدًا ترك هذه ، وقال بعض العارفين : السماع يورث النفاق في قوم والعناد في قوم والكذب في قوم والفجور في قوم والرعونة في قوم وأكثر ما يورث عشق الصور واستحسان الفواحش وإدمانه يثقل القرآن على القلب ويكرهه إلى استماعه بالخاصة وهذا عين النفاق بالاتفاق ؛ وذلك لأن الغناء ينبت النفاق في القلب وأيضًا إحساس النفاق أن يخالف الظاهر الباطن ، وهذا المستمع للغناء لا يخلو إما أن ينتهك المحارم فيكون فاجرًا أو يظهر النسك والعبادة فيكون منافقًا فإنه متى أظهر الرغبة في اللَّه والدار الآخرة وقلبه يغلي بالشهوات ويلذ بنغمات الآلات ومحبة ما يكرهه اللَّه من أصوات المعازف وما يدعو إليه الغناء ويهيجه من قلبه كان من أعظم الناس نفاقًا بل هذا محض النفاق .

وكتب عمر بن عبد العزيز لمؤدب ولده : ليكن أول ما يعتقدون من أدبك بغض الملاهي التي بدؤها من الشيطان وعاقبتها سخط الرحمن فإنه بلغني عن الثقات من أهل العلم أن صوت المعازف واستماع الأغاني واللهج بها ينبت النفاق

---

(١) ذم الملاهي (٣٩) .

في القلب كما ينبت العشب على الماء.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية[١] في بعض أجوبته: فرق بين السماع الذي ينتفع به في الدين وبين ما يرخص فيه دفعًا للحرج وبين سماع المتقربين وسماع المتلعبين فأما السماع الذي شرعه الله لعباده وكان سلف الأمة من الصحابة والتابعين وتابعيهم يجتمعون عليه لصلاح قلوبهم وزكاة نفوسهم فهو سماع آيات الله وهو سماع النبيين وأهل العلم والمعرفة وهذا هو السماع الذي كان النبي ﷺ يشهده مع أصحابه ويستدعيه منهم وذكر الأدلة ثم قال وبالجملة فهذا السماع هو أصل الإيمان فإن الله بعث نبيه ﷺ إلى الخلق أجمعين ليبلغهم رسالات ربهم فمن سمع ما بلغه وآمن به واتبعه اهتدى وأفلح ومن أعرض عن ذلك ضل وشقى.

وذكر سماع المكاء والتصدية ثم قال ولم يكن النبي ﷺ وأصحابه يجتمعون على مثل هذا السماع ولا حضروه قط، ومن قال أن النبي ﷺ حضر ذلك فقد كذب عليه باتفاق أهل المعرفة بحديثه وسنته والحديث الذي ذكره محمد بن طاهر في مسألة السماع في صفة التصوف ورواه من طريقه عمر السهروردي صاحب عوارف المعارف أن النبي أنشده أعرابي:

قد لسعت حية الهوى كبدي إلخ

فتواجد حتى سقطت البردة من منكبه فكذب موضوع باتفاق أهل العلم بهذا الشأن، وأظهر منه كذبا ما يذكرون فيه إنه لما بشر الفقراء بسبقهم للأغنياء إلى الجنة تواجدوا؛ ونحو هذه الأحاديث التي يرويها طوائف منتسبون إلى الدين مع فرط جهلهم بدين الإسلام ويبنون عليها من النفاق والبدع ما يناسبها، ثم قال: وبالجملة قد علم بالاضطرار من دين الإسلام أن النبي ﷺ لم يشرع لصالحي

(١) مجموع الفتاوى ١١/ ٥٥٧.

أمته وعبادهم وزهادهم أن يجتمعوا على استماع الأبيات الملحنة مع ضرب بالأكف أو ضرب بالقضيب أو الدف كما لم يبح لأحد أن يخرج عن متابعته واتباع ما جاء به من الكتاب والحكمة في باطن الأمر ولا في ظاهره لا لعام ولا لخاص.

ولكن رخص في أنواع من اللهو في العرس ونحوه كما رخص للنساء أن يضربن بالدف في الأعراس والأفراح، وأما الرجال على عهده فلم يكن أحد منهم يضرب بدف ولا يصفق بكف بل قد ثبت عنه في الصحيح أنه قال: «إنما التصفيق للنساء والتسبيح للرجال»[(١)]، «ولعن المتشبهات من النساء بالرجال والمشتبهين من الرجال بالنساء»[(٢)] ولما كان الغناء والضرب بالدف والكف من عمل النساء كان السلف يسمون من يفعل ذلك مخنثًا ويسمون الرجال المغنين مخانيث وهذا مشهور في كلامهم.

ومن هذا الباب حديث عائشة لما دخل عليها أبو بكر في أيام العيد وعندها جاريتان من الأنصار يغنيان بما تقاولت به الأنصار يوم بعاث فقال أبو بكر أبمزمور الشيطان في بيت رسول الله ﷺ وكان النبي ﷺ معرضًا عنه مقبلًا بوجهه إلى الحائط فقال: «دعهما يا أبا بكر فإن لكل قوم عيدا وهذا عيدنا أهل الإسلام»[(٣)].

ففي هذا الحديث بيان أن هذا لم يكن من عادة النبي ﷺ وأصحابه الاجتماع عليه ولهذا سماه الصديق مزمور الشيطان والنبي ﷺ أقر الجواري عليه معللًا ذلك بأنه يوم عيد والصغار يرخص لهم في اللعب في الأعياد كما جاء في

---

(١) البخاري (٦٥٢)، ومسلم (٤٢١) من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه.

(٢) البخاري من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) البخاري، ومسلم (٨٩٢).

الحديث : « ليعلم المشركون أن في ديننا فسحة » ، وكان لعائشة لعب تلعب بهن وتجيء صواحباتها من صغار النسوة يلعبن معها .

وليس في حديث الجاريتين أن النبي استمع إلى ذلك والأمر والنهي إنما يتعلق بالاستماع لا بمجرد السماع - إلى أن قال - ولهذا يوجد من اعتاده واغتذي به لا يحن إلى القرآن ولا يفرح به ولا يجد في سماع الآيات كما يجد في سماع الأبيات بل إذا سمعوا القرآن سمعوه بقلوب لاهية وألسن لاغية وإذا سمعوا سماع أهل المكاء والتصدية خشعت الأصوات وسكنت الحركات وأصغت القلوب وتعاطت المشروب فمن تكلم في هذا هل هو مكروه أو مباح وشبهه بما كان للنساء يغنين به في الأعياد والأفراح لم يكن قد اهتدى إلى الفرق بين طريق أهل الخسارة والفلاح ومن تكلم في هذا هل هو من الدين ومن سماع المتقين ومن أحوال المقربين والمقتصدين ومن أعمال أهل اليقين ومن طريق المحبين المحبوبين ومن أفعال السالكين إلى رب العالمين كل كلامه فيه من وراء وراء .

ثم قال اعلم أنه لم يكن في القرون الثلاثة المفضلة لا بالحجاز ولا بالشام ولا باليمن ولا بمصر والمغرب والعراق وخراسان من أهل الدين والصلاح والزهد والعبادة من يجتمع على مثل سماع المكاء والتصدية لا بدف ولا بكف ولا بقضيب وإنما حدث هذا بعد ذلك في أواخر المائة الثانية فلما رآه الأئمة أنكروه ، فقال الشافعي خلفت ببغداد شيئًا أحدثته الزنادقة يسمونه التغبير يصدون به الناس عن القرآن ، وقال يزيد بن هارون ما يغبر إلا فاسق وما كان التغبير وسئل عنه أحمد فقال أكرهه هو محدث ، وما ذكره الشافعي أنه من إحداث الزنادقة من كلام إمام خبير بأصول الإسلام فإن هذا السماع لم يرغب فيه إلا من هو متهم بالزندقة ؛ وأما الحنفاء أهل ملة إبراهيم الخليل الذي جعله اللّه للناس إمامًا وأهل دين الإسلام الذي لا يقبل اللّه من أحد دينًا سواء المتبعون لشريعة دين خاتم الرسل محمد ﷺ

فهؤلاء ليس منهم من يرغب في ذلك .

وقال رحمه اللّه تعالى والمقصود أن المذكور عن سلف الأمة وأئمتها من المنقولات ينبغي للإنسان أن يميز بين صحيحه وسقيمه كما ينبغي مثل ذلك في المعقولات والنظريات وكذلك في الأذواق والمواجيد والمكاشفات والمخاطبات فإن كل صنف من هذه الأصناف الثلاثة فيها حق وباطل فلا بد من التمييز بين هذا وهذا وجماع ذلك وافق كتاب اللّه وسنة رسوله الثابتة عنه وما كان عليه أصحابه فهو حق وما خالف ذلك فهو باطل .

وسئل أبو بكر الطرطوشي عن مذهب الصوفية إنه يجتمع جماعة فيكثرون من ذكر اللّه ويوقعون القضيب على شيء من الأديم ويقوم بعضهم ويتواجد إلخ ، فأجاب مذاهب الصوفية بطالة وجهالة وضلالة وما الإسلام إلا كتاب اللّه وسنة رسوله ﷺ وأما الرقص والتواجد فأول من أحدثه أصحاب السامري لما اتخذ لهم عجلا جسدًا له خوار فقاموا يرقصون حواليه ويتواجدون ، فهو دين الكفار وعباد العجل وأما القضيب فأول من اتخذه الزنادقة ليشغلوا به المسلمين من كتاب اللّه وإنما كان مجلس النبي ﷺ مع أصحابه كأنما على رؤوسهم الطير من الوقار ، فينبغي للسلطان ونوابه أن يمنعهم من الحضور في المساجد وغيرها ولا يحل لأحد يؤمن باللّه واليوم الآخر أن يحضر معهم ولا يعينهم على باطلهم هذا مذهب مالك وأبي حنيفة والشافعي وأحمد وغيرهم(١) .

وقال ابن القيم : قد تواتر عن الشافعي أنه قال خلفت ببغداد شيئًا أحدثته الزنادقة يسمونه التغبير يصدون به الناس عن القرآن ، فإذا كان هذا قول الشافعي في التغبير وتعليله له أنه يصد عن القرآن وهو شعر يزهد في الدنيا يغني به مغني ويضرب بعض الحاضرين بقضيب على نطع أو مخد على توقيع غناء فليت شعري

(١) انظر تحريم آلات الطرب للألباني .

ما يقول في سماع - التغبير عنده كتفلة في بحر قد اشتمل على كل مفسدة وجمع كل محرم هذا قول شمس الدين ابن القيم في عصره فكيف بعصرنا .

ولقد تقدم لك من كلام اللَّه وكلام رسوله وكلام الصحابة وبعض أهل العلم ما فيه كفاية ونريدك حكاية الإجماع على تحريمه عن بعض أكابر علماء المذاهب ورد قول من خالفهم فروى القاضي أبو الطيب طاهرين عبد اللَّه بن طاهر بن عمر الطبري المسمى شيخ المذهب المتوفى سنة ٤٥٠ وقد جاوز المائة في كتابه تحريم السماع عن الشافعي ومالك وأبي حنيفة والثوري وجماعة من العلماء الأعلام ما يدل على تحريمه ؛ قال الشافعي : إن الغناء لهو مكروه يشبه الباطل ومن استكثر منه فهو سفيه ترد شهادته ، وحكي عنه أنه يكره الطقطقة بالقضيب ويقول وضعته الزنادقة ليشسغلوا به عن القرآن ؛ وقال أكره كل ما لعب به الناس لأن اللعب ليس من صنعة أهل الدين ولا المروءة قال أبو الطيب واستماعه من المرأة التي ليست بمحرم له لا يجوز عند أصحاب الشافعي بحال سواء كانت مكشوفة أو من وراء حجاب وسواء كانت حرة أو مملوكة ، وأما مالك فقد نهى عن الغناء وقال إذا اشترى جارية فوجدها مغنية كان له ردها ، وأما أبو حنيفة فإنه كان يكره ذلك ويجعل سماع الغناء من الذنوب وكذلك سائر أهل الكوفة سفيان الثوري وحماد وإبراهيم والشعبي وغيرهم .

وقال أبو بكر الطرطوشي رحمه اللَّه في كتاب تحريم السماع وقد كان الناس فيما مضى يستتر أحدهم بالمعصية إذا واقعها ثم يستغفر اللَّه ويتوب إليه منها ثم كثر الجهل وقل العلم وتناقص الأمر حتى صار أحدهم يأتي المعصية جهارًا ثم ازداد الأمر إدبارًا حتى بلغنا أن طائفة من إخواننا وفقنا اللَّه وإياهم استزلهم الشيطان واستغوى عقولهم في حب الأغاني واللهو وسماع الطقطقة فاعتقدته من الدين وجاهرت به جماعة المسلمين وشاقت به سبيل المؤمنين وخالفت الفقهاء

والعلماء وحملة الدين ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا﴾ [النساء: الآية ١١٥] ثم قال فرأيت أن أوضح الحق وأكشف عن شبه أهل الباطل بالحجج التي تضمنها كتاب اللَّه وسنة رسوله قال وأبدأ بذكر أقاويل العلماء الذين تدور الفتيا عليهم في قاصي الأرض ودانيها حتى تعلم هذه الطائفة أنها قد خالفت علماء المسلمين في بدعتها ، ثم قال : أما مالك فإنه نهى عن الغناء وعن استماعه ، وقال : إذا اشترى جارية فوجدها مغنية كان له أن يردها بالعيب ، وسئل مالك عما يترخص فيه أهل المدينة من الغناء فقال إنما يفعله عندنا الفساق ، وأما أبو حنيفة فإنه يكره الغناء ويجعله من الذنوب وكذلك مذهب أهل الكوفة سفيان وحماد وإبراهيم والشعبي وغيرهم لا اختلاف بينهم في ذلك ولا نعلم خلافًا بين أهل البصرة في المنع منه .

❁ ❁ ❁

اللهو الباطل- الغناء والمزامير[١]

كلمة نصح وإخلاص

(٤)

وقال الإمام النووي[٢] : القسم الثاني أن يغني ببعض آلات الغناء بما هو من شعار شاربي الخمور وهو مطرب كالطنبور والعود والصنج وسائر المعازف والأوتار يحرم استماعه واستعماله ..

قال : وفي اليراع وجهان ؛ صحح البغوي التحريم ، وقال : والصحيح تحريم اليراع وهو الشبابة .

وقد صنف أبو القاسم الدولعي كتابا في تحريم اليراع .

وحكى أبو عمرو بن الصلاح الإجماع على تحريم السماع الذي جمع الدف والشبابة ، فقال في فتاويه[٣] : وأما إباحة هذا السماع وتحليله فليعلم أن الدف والشبابة والغناء إذا اجتمعت فاجتماع ذلك حرام عند أئمة المذاهب وغيرهم من علماء المسلمين ، ولم يثبت عن أحد ممن يعتد بقوله في الإجماع والخلاف أنه أباح هذا السماع .

قال أبو بكر الطرطوشي- رحمه اللّٰه تعالى- : فإن قيل : أليس قد روي عن جماعة من الصحابة أنهم سمعوه ؟ قلنا : ما بلغنا أن أحدا من السلف الصالح فعله ، وهذه مصنفات أئمة السلف وأعلام المسلمين مثل مصنف مالك والبخاري ومسلم وسنن أبي داود والنسائي إلى غيرها خالية من دعواهم ، وهذه تصانيف

(١) صحيفة أم القرى ٤ جمادى الثانية ١٣٥٨هـ.

(٢) « روضة الطالبين » ٨/٢٠٥ .

(٣) « فتاوى ابن الصلاح » ٢/٥٠٠ .

فقهاء المسلمين الذين تدور عليهم الفتوى قديما وحديثا في شرق البلاد وغربها ، فقد صنف المسلمون على مذهب مالك تصانيف لا تحصى ، وكذلك مصنفات علماء المسلمين على مذهب أبي حنيفة والشافعي وأحمد وغيرهم من فقهاء المسلمين ؛ كلها مشحونة بالذب عن الغناء وتفسيق أهله ، فإن فعله أحد من المتأخرين فقد أخطأ ، ولا يلزم الاقتداء بقوله ، وترك الاقتداء بالأئمة الراشدين ، ومن هنا زل من لا بصيرة له .

نحتج عليهم بالصحابة والتابعين ، ويحتجون علينا بالمتأخرين ! سيما وكل من يرى هذا الرأي الفاسد خاو من الفقه عاطل من العلم لا يعرف مأخذ الأحكام ، ولا يفصل الحلال من الحرام ، ولا يدرس العلم ولا يصحب أهله ، ولا يقرأ مصنفاته ولا دواوينه ، وقد قال النبي ﷺ « ما استرذل اللّٰه عبدا إلا حظر عليه العلم »[1] ، فمن هجر أهل العلم والحكمة ، وانقضى عمره في مخالطة أهل اللهو والبطالة كيف يؤمن على هذه المسألة وغيرها ؟ !

وقال القرطبي : وأما المزامير والأوتار والكوبة فلا يختلف في تحريم سماعها ولم أسمع عن أحد ممن يعتبر قوله من السلف وأئمة الخلف أنه يبيح ذلك ، وكيف لا يحرم شعار أهل الخمور والفسوق ومهيج الشهوات والفساد والمجون ؟ وما كان كذلك لم يشك أحد في تحريمه ولا تفسيق فاعله وتأثيمه

وقال : القول بإباحته لا يعرف إلا لإبراهيم بن سعد والعنبري وهما شاذان ولا يلتفت إليهما لأن العنبري مبتدع في اعتقاده وهو غير مرضي في علمه وإبراهيم بن سعد ليس من أهل الفتيا .

وقال أبو الفتح ابن أيوب الرازي بعد أن أورد حديثا في تحريم الكوبة :وفيه حديث « إن اللّٰه يغفر كل ذنب إلا لصاحب عرطبة أو كوبة » والعرطبة العود ومع

(١) ابن عدي (٩٣/١) ، وقال الألباني : موضوع . « الضعيفة » (٤٤٢٠) .

هذا فإنه إجماع .. ثم قال : وأما ماحكاه ابن طاهر من إجماع أهل المدينة ، فهو من كذبه وخرافاته فإنه -كما مر- رجل كذاب يروي الأحاديث الموضوعة ويتكلم عليها بما يوهم العامة صحتها كما مر في مبحث الغناء والرقص وأيضا فهو مبتدع إباحي لا يحرم قليلا ولا كثيرا ، ومن ثم قال بعضهم فيه إنه رجس العقيدة نجسها ومن هذه حاله لا يلتفت إليه ولا يعول عليه ، ومن ثم قال الأذرعي عقب حكايته الباطلة الكاذبةعن إجماع أهل المدينة وعن الشيخ أبي إسحاق : وهذا من ابن طاهر مجازفة ، وإنما يفعل ذلك بالمدينة أهل المجانة والبطالة ومن المجازفة قول ابن طاهر إن ذلك مشهور عنه .

ودعوى ابن طاهر أن ذلك إجماع من أهل المدينة من حيث دعواه إجماع الصحابة والتابعين على إباحة الغناء والهوى يعمي ويصم .

وقال أبو الطيب : وأما العود والطنبور وسائر الملاهي فحرام ومستعمله فاسق ، واتباع الجماعة أولى من اتباع رجلين مطعون عليهما .

قال ابن القيم أراد بهما : إبراهيم بن سعيد وعبيد اللَّه بن الحسن .

وقال ابن الحاج في المدخل : ثم إنهم لم يكتفوا بما ارتكبوه حتى وقعوا في حق السلف الماضين رضي اللَّه عنهم ، ونسبوا إليهم اللعب واللهو في كونهما يعتقدان أن السماع الذي يفعلونه اليوم هو الذي كان السلف يفعلونه ، ومعاذ اللَّه أن يظن هذا بهم ، ومن وقع له ذلك تعين عليه أن يتوب إلى اللَّه تعالى ، وإلا فهو هالك .

ونزيدك إيضاحًا أيضًا حكاية مذاهب الأئمة فمذهب أبي حنيفة في ذلك أشد المذاهب ، وقوله فيه أغلظ الأقوال ، وقد صرح أصحابه بتحريم سماع الملاهي كلها كالمزمار والدف حتى الضرب بالقضيب ، وصرحوا أنه معصية توجب الفسق وترد به الشهادة ، وأبلغ من ذلك قالوا : إن السماع فسق والتلذذ به كفر ،

هذا لفظهم ، وورد في ذلك حديث لا يصح رفعه قالوا ويجب عليه أن يجتهد في أن لا يسمعه إذا مر به أو كان في جواره .

وقال أبو يوسف في دار يسمع منها صوت المعازف والملاهي : ادخل عليهم بغير إذنهم ، لأن النهي عن المنكر فرض ، فلو لم يجز الدخول بغير إذن لامتنع الناس من إقامة الفروض .

وفي الفتاوى البزازية : استماع صوت الملاهي كضرب قضيب ونحوه حرام لقوله عليه السلام : « استماع الملاهي معصية والجلوس عليها فسق والتلذذ بها كفر » فصرف الجوارح إلى غير ما خلقت لأجله كفر بالنعمة لا شك !

وأما مذهب الإمام الشافعي فقال في كتاب أدب القضاء : لهو مكروه يشبه الباطل والمحال ، من استكثر منه فهو سفيه ترد شهادته .

وصرح أصحابه العارفون بمذهبه بتحريمه ، وأنكروا على من نسب إليه حله كالقاضي أبي الطيب الطبري والشيخ أبي إسحاق وابن الصباغ .

قال الشيخ أبو إسحاق في « التنبيه » : ولا تصح يعني الإجارة على منفعة محرمة كالغناء والزمر وحمل الخمر ، ولم يذكر فيه خلافا .

وأما مذهب الإمام أحمد فالمنصوص عنه صريح بتحريم المزمار والشبابة ونحوهما

قال في « الفروع » : وتحرم كل ملهاة سوى الدف كمزمار وطنبور ورباب . قال في « المستوعب » و« الترغيب » : سواء استعمل لحزن أو سرور .

وسأله ابن الحكم عن النفخ في القصبة كالزمارة ؟ قال : أكرهه . ونص على كسر آلات اللهو كالطنبور وغيره إذا رآها مكشوفة وأمكنه كسرها .

والمذهب تحريم آلات اللهو إسماعا واستماعا وصنعة ونحو ذلك .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية : وآلات اللهو لا يجوز اتخاذها ولا الاستئجار

عليها عند الأئمة الأربعة .

وجزم ابن القيم وغيره بتحريمها . وجزم أيضا علماء الحنابلة وقطع في الإقناع والمنتهى والغاية بحرمة كل ملهاة سوى الدف ، كمزمار وطنبور ورباب وجنك وناي ومعزفة وجفانة وعود وزمارة الراعي ونحوها ، سواء استعملت لحزن أو سرور .

وقال في تصحيح الفروع : والوجه الثاني ؛ يحرم اللعب بالقضيب ، وهو الصواب ، وقطع به ابن عبدوس في تذكرته .

وقد نص الإمام أحمد في أيتام ورثوا جارية مغنية فأرادوا بيعها ، فقال : لا تباع إلا على أنها ساذجة . فقالوا : إذا بيعت مغنية ساوت عشرين ألفا أو نحوها ، وإذا بيعت ساذجة لا تساوي ألفين . فقال : لا تباع إلا على أنها ساذجة .

فلو كانت منفعة الغناء مباحة لما فوت هذا المال على الأيتام .

الثاني : محل الخلاف إن لم يكن السماع من أجنبية أو أمرد ، فأما سماعه من الأجنبية فمن أعظم المحرمات وأشدها إفسادا للدين .

قال الشافعي : وصاحب الجارية إذا جمع الناس لسماعها فهو سفيه ترد شهادته ، وغلظ القول فيه ، وقال : هو دياثة ، فمن فعل ذلك كان ديوثا .

قال أبو الطيب : وإنما جعل صاحبها سفيها لأنه دعا الناس إلى الباطل ، ومن دعا الناس إلى الباطل كان سفيها فاسقا .

وأما مذهب مالك فتقدم أنه يقول : إنما يفعله عندنا الفساق .

قال شيخ الإسلام : وهذا النص معروف في كتب أصحاب مالك مشهور وهم أعرف بمذهبه وأضبط ممن ينقل عنه الغلط وعن أهل المدينة من طائفة بالمشرق لا علم لهم بمذاهب الفقهاء ، ومن ذكر عن مالك أنه ضرب بعود فقد افترى عليه ، وإنما نبهت على هذا لأن فيما جمعه أبو عبدالرحمن السلمي

ومحمد بن طاهر المقدسي في ذلك حكايات وآثارًا يظن من لاخبرة له بالعلم وأحوال السلف أنها صدق ..

وقال: وأما أبو حنيفة ومالك والثوري ونحوهم فهم أعظم كراهة وإنكارا لذلك من الشافعي وأحمد وليس عن أبي حنيفة ومالك في تحريمه نزاع .اهـ

وقال ابن العربي المالكي: السماع في هذا الزمان حرام لا يحل مطلقا ولا يقول بإباحته مسلم.

وفي هذا الأنموذج كفاية لمن هداه الله، ومن أضله فلو تناطحت الجبال بين يديه لم يرعو

وقال ابن القيم رحمه الله: ومن مكائد الشيطان ومصائده التي كاد بها من قل نصيبه من العلم والعقل والدين وصد بها قلوب المبطلين سماع المكاء والتصدية والغناء بالآلات المحرمة الذي يصد القلوب عن القرآن ويجعلها عاكفة على الفسوق والعصيان فهو قرآن الشيطان والحجاب الكثيف عن الرحمن وهو رقية اللواط والزنا كاد به الشيطان النفوس المبطلة وحسنه لها وأوحى اليها الشبه الباطلة على حسنه فقبلت وحيه واتخذت لأجله القرآن مهجورا، فلو رأيتهم عند ذياك السماع وقد خشعت منهم الأصوات وهدأت منهم الحركات وعكفت قلوبهم بكليتها عليه فتمايلوا ولا كتمايل النشوان وتكسروا في حركاتهم ورقصهم أرأيت تكسر المخانيث والنسوان؟! قضوا حياتهم لذة وطربا واتخذوا دينهم لهوا ولعبا ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّـٰلِمِينَ بَدَلًا﴾ [الكهف: الآية ٥٠].

قال: وهذا السماع الشيطاني المضاد للسماع الرحماني له في الشرع بضعة عشر اسما: اللهو، واللغو، والوزر، والمكاء، والتصدية ورقية الزنا، وقرآن الشيطان، ومنبت النفاق في القلب، والصوت الأحمق، والصوت الفاجر،

وصوت الشيطان ، ومزمور الشيطان ، والسمود .

أسماؤه دلت على أوصافه تبا لذي الأسماء والأوصاف

قال : وأما تسميته برقية الزنى فهو اسم موافق لمسماه قال الفضيل بن عياض : الغناء رقية الزنى . وقاله ابن أبي مليكة فلعمر اللّه كم من حرة صارت بالغناء من البغايا وكم حر أصبح به عبدا للصبيان والصبايا وكم من غيور تبدل به اسما قبيحا من البرايا ..

وقال رحمه اللّه :

فدع صاحب المزمار والدف والغنا وما اختاره عن طاعة اللّه مذهبا
ودعه يعش في غيه وضلاله على ما نشا يحيى[1] ويبعث أشيبا
وفي بيننا يوم المعاد نجاته إلى الجنة الحمراء يدعى مقربا
سيعلم يوم العرض أي بضاعة أضاع وعند الوزن ما خف أو ربا
ويعلم ما قد كان فيه حياته إذا حصلت أعماله كلها هبا
دعاه الهدى والغي من ذا يجيبه فقال لداعي الغي أهلا ومرحبا
وأعرض عن داعي الهدى قائلا له هواي إلى صوت المعازف قد صبا
يراع ودف بالصنوج وشادن وصوت مغن صوته يقنص الظبا

وقد أحسن القائل :

تلي الكتاب فأطرقوا لا خيفة لكنه إطراق ساه لاهي
وأتى الغناء فكالحمير تناهقوا واللّه ما رقصوا لأجل الله
دف ومزمار ونغمة شادن فمتى رأيت عبادة بملاهي
ثقل الكتاب عليهمو لما رأوا تقييده بأوامر ونواهي

---

(١) سقطت « يحيى » من الأصل .

فهرس الجزء الثالث

الموضوع الصفحة

❁❁❁